المركز القومى للترجمة

المشروع القومى للترجمة

محمد على ونابليون

(1807 - 1814)

مراسلات قناصل فرنسا فى مصر

جمعها ونشرها: إدوارد دريو

ترجمة: ناصر أحمد إبراهيم

مراجعة وتقديم: رءوف عباس حامد

1258

محمد على ونابليون

المركز القومى للترجمة
إشراف : جابر عصفور

- العدد : ١٢٥٨
- محمد على ونابليون (١٨٠٧-١٨١٤)
- إدوارد دريو
- ناصر أحمد إبراهيم
- رءوف عباس حامد
- الطبعة الأولى ٢٠٠٨ م

هذه ترجمة الكتاب :

Mohamed Aly et Napoléon
(1807 - 1814)
Correspondance des consuls de
France en Égypte
Recueillie et Publiée par
Édouard Driault
Directeur de la Revue "Napoléon"
Imprimé par IFAO Pour la Société
Royale de Géographie d'Égypte
1925 .

شارع الجبلاية بالأوبرا – الجزيرة – القاهرة . ت : ٢٧٣٥٤٥٢٦ – ٢٧٣٥٤٥٢٤
El Gabalaya St.. Opera House, El Gezira, Cairo. Tel : 27354526 - 27354524.

محمد على ونابليون (١٨٠٧ - ١٨١٤)

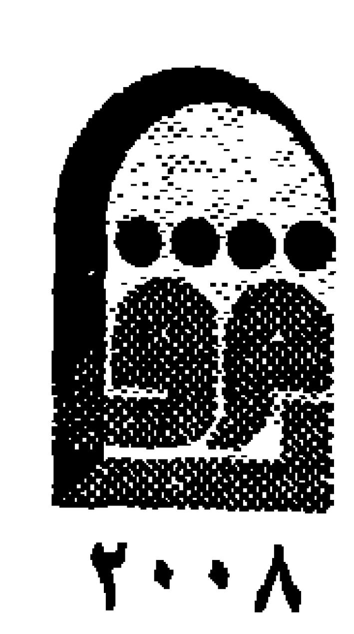
مراسلات قناصل فرنسا فى مصر

جمعها ونشرها : إدوارد دريو

مدير المجلة النابليونية

ترجـــمـــة : ناصر أحمد إبراهيم

مراجعة وتقديم : رءوف عباس حامد



٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

محمد علي ونابليون (١٨٠٧ – ١٨١٤) مراسلات قناصل فرنسا في مصر
جمعها ونشرها: إدوارد دريو ، ترجمة : ناصر أحمد إبراهيم،
مراجعة وتقديم : رءوف عباس حامد
– ط ١ – القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨
٤٧٢ ص، ٢٤ سم
١ – مصر – تاريخ – العصر الحديث – عصر محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩)
(أ) دريو، إدوارد (جمعها ونشرها)
(ب) إبراهيم، ناصر أحمد (مترجم)
(جـ) حامد ، رءوف عباس (مراجع ومقدم)
(د) العنوان ٩٦٢,٠٣١

رقم الإيداع ١٣٣٨٦ /٢٠٠٨
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977-437-777-X
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومي للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافاتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأي المركز .

فهرس تحليلى للمراسلات

١٨١١

١٨١٣

مقدمة المراجع

يعد هذا الكتاب من بين المصادر المهمة لتاريخ مصر الحديث فى السنوات العشر الأولى من حكم محمد على باشا (١٨٠٥-١٨٤٨) ، وقد طال غيابه عن المكتبة العربية، رغم أنه طبع بالقاهر عام ١٩٢٥م، وصدر عن الجمعية المصرية الجغرافية فى إطار جهود الملك فؤاد لإلقاء المزيد من الضوء على تاريخ الأسرة العلوية، وتقديمها إلى الرأى العام الغربى والأوساط العلمية الغربية فى ثوب قشيب. ولذلك لم يعن القائمون على هذا المشروع بإصدار طبعات عربية من تلك الأعمال التى صدر معظمها بالفرنسية بأقلام مؤرخين فرنسيين وإيطاليين، وصدر بعضها بالإنجليزية بأقلام مؤرخين من الإنجليز، إضافة إلى ما نشر بالإيطالية التى كان للملك فؤاد ولع خاص بها، بحكم نشأته فى تلك البلاد عندما صحبه والده الخديو إسماعيل فى منفاه هناك.

ولم تقتصر جهود الملك فؤاد على استكتاب مجموعة مختارة من المؤرخين الأوروبيين لكتابة تلك الدراسات فحسب، بل صاحب ذلك تأسيسه لدار الوثائق الملكية فى موقع ملاصق لقصر عابدين، ونقله لوثائق محمد على وخلفائه إلى تلك الدار من مهجعها بدار المحفوظات العمومية بالقلعة، واستخدام المتخصصين فى الوثائق والأرشيف فى تصنيفها وترتيبها وإعدادها لاطلاع الباحثين من الأجانب والمصريين على السواء ولم يكتف بذلك، بل أوفد من بحثوا فى أرشيفات أوروبا عن الوثائق المتعلقة بمصر فى باريس ولندن وفيينا، وروما، فقاموا بنسخ كم هائل من الوثائق باللغات الفرنسية والإنجليزية والإيطالية والألمانية، كونت مجموعة ما سمى بالقسم الأوروبى بدار الوثائق الملكية. فكان له فضل الحفاظ على تلك الوثائق من الضياع، وإن كانت لم تسلم من عاديات الزمان عند قيام ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢م وإخلاء دار الوثائق

من محتوياتها لتحتلها قيادة البوليس الحربى، وألقيت الوثائق كيفما اتفق فى مجموعة من الغرف ودورات المياه كانت مخصصة لإقامة خدم القصر، حتى صدر القرار الخاص بإقامة " دار الوثائق القومية" بعد بضع سنوات، وعاد العمل من جديد فى إصلاح ما أفسدته صروف الدهر.

على كل، كان هذا الكتاب الذى طال غيابه عن المكتبة العربية واحداً من مجموعة الأعمال التى جاءت فى إطار مشروع الملك فؤاد للترويج للأسرة العلوية بأسلوب علمى، يبرز تاريخها، ويلقى الضوء على جهود مؤسسها (محمد على) لبناء مصر الحديثة، ويحيى أمجاد إبراهيم باشا، ويعيد كتابة تاريخ الخديو إسماعيل ليبرز فيه ما هو إيجابى ويدحض ما كان على النقيض من ذلك.

وهذا الكتاب يضم مجموعة منتقاة من تقارير قناصل فرنسا فى القاهرة والإسكندرية فى الفترة (١٨٠٧-١٨١٤)، وهو عصر صعود نابليون، وتربعه على عرش الإمبراطورية، الذى كان حافلاً بالحروب والصراعات على الساحة الأوروبية، والمنافسات الفرنسية البريطانية فى حوض البحر المتوسط. من هنا جاء العنوان الذى اختاره صاحب الكتاب موحيًا بالربط بين صعود نابليون وصعود محمد على، بل اعتبر فى الدراسة التى صدر بها الكتاب أن محمد على إنما استهدى بمشروع نابليون بونابرت فى مصر، واتخذه دليلاً له للعمل. فإذا تصفح القارئ مجموعة التقارير المنشورة فى الكتاب، لا يستعصى عليه إدراك أن البون كان شاسعًا بين الرجلين من حيث المصالح والسياسات وأن صاحب الكتاب بمحاولة جمعه بين محمد على ونابليون بالعنوان، إنما أراد إضفاء قدر من الجلال إلى دور محمد على إرضاء لصاحب مشروع تسجيل تاريخه، أى إرضاء (وربما تملقًا) للملك فؤاد الذى كان يغدق على أولئك المؤرخين الأجانب الكبار الذين حشدهم لخدمة مشروع التأريخ للأسرة ، وتولى رعاية المشروع كله.

وإدوارد دريو Edouard Driault مؤرخ فرنسى بارز، تخصص فى التأريخ لعصر نابليون، نشرت له العديد من الدراسات عن سياسات نابليون وعلاقاته بالقوى

الأوروبية، كما أن له دراسة مهمة عن المسألة الشرقية، وتولى رئاسة تحرير مجلة علمية متخصصة فى الدراسات النابليونية La Revue Napoléon . وله فى إطار مشروع التأريخ للأسرة العلوية كتاب مهم عن " محمد على وإبراهيم". ولا أدل على أهمية أعماله وقيمتها العلمية من حرص إحدى دور النشر الفرنسية الكبرى على إعادة طباعتها عام ٢٠٠٠ بمناسبة مرور مائة عام على صدور أول كتاب له عام ١٩٠٠.

وتبدو الكفاءة العلمية لهذا المؤرخ المرموق جلية فى المراسلات والتقارير القنصلية التى اختارها للنشر فى هذا ؛ فهى تكشف لنا حرص فرنسا على استعادة مكانتها المفقودة فى مصر (بعد خروج الحملة الفرنسية). والعمل - بقدر الإمكان - على عدم ترك الساحة خالية أمام بريطانيا للتأثير على محمد على باشا واستخدامه أداة لتحقيق أهدافها الإستراتيجية فى مصر وشرقى البحر المتوسط. ومن هنا جاء القلق الشديد الذى نلمسه فى تلك المراسلات والتقارير من تنامى العلاقات التجارية بين الباشا وبريطانيا، والضيق بتلك المكانة المميزة التى يريد الإنجليز أن يخلعوها على ممثلهم بمصر الذى كان يحمل لقب " المقيم"، وهو نفس اللقب الذى حازه ممثل بريطانيا فى الخليج العربى بعد ذلك ببضع سنوات، وهو لقب يوحى بأن لهذا الممثل فى مصر صلاحيات سياسية تتجاوز حدود ما لغيره من القناصل. ومن ذلك حرص القنصل الفرنسى على متابعة اتصالات الإنجليز بمحمد على متابعة الصياد للطريدة، ومحاولة "توعية " محمد على بأن ليس من مصلحته التورط فى علاقة مع بريطانيا، لأنها لا تبغى سوى خدمة مصالحها، وأنها لن تفيده شيئًا !

ومن الممتع حقًا أن نتبين من قراءة ما بين سطور هذه المراسلات والتقارير كيف تعامل محمد على باشا بدهاء مع الطرفين: فهو يبيع الغلال للإنجليز بأسعار فلكية مستفيداً من شدة حاجتهم إليها، ويحصل فى مقابل ذلك على الأموال وبعض المعدات المهمة وقذائف المدفعية. بل يسعى محمد على للاستفادة من تلك العلاقة بإقناع بريطانيا بالسماح لطراد جديد امتلكه بالطواف حول إفريقيا ليصل إلى البحر الأحمر. وكأنه بذلك كان يختبر مدى استعداد بريطانيا القبول بامتلاكه قوة بحرية فى البحر

الأحمر. وقد ردت بريطانيا باحتجاز الطراد عندها لتجديده وتزويده بالمدافع والسلاح ثم إعادته إلى الإسكندرية. ولعل لذلك صلة بمشروع محمد على لتجميع السفن فى ميناء السويس واتخاذها نواة لأسطول مصر بالبحر الأحمر، طالما أن بريطانيا أنكرت عليه الحق فى الإبحار فى الطرق المؤدية إلى مستعمراتها.

ورغم العلاقة المتنامية مع بريطانيا نجد محمد على يحرص من حين لآخر على إعطاء إشارات للإنجليز مفادها أن عليهم احترام سلطته، وأنه ليس أداة لأحد، وذلك من خلال حوادث صغيرة فى حجمها، ولكنها عميقة فى دلالتها.

وتسجل التقارير والمراسلات جهود محمد على لتدعيم سلطته، وإحكام قبضته على البلاد، والتخلص من المماليك، ومن العناصر التى تشتبه فى ولائها من قادة عسكره. كما تسجل الجهود العسكرية الأولى فى حربه ضد الوهابيين فى الجزيرة العربية استجابة لطلب السلطان بعد تلكؤ طال أمده. وهى المعلومات التى حققها المترجم بالرجوع إلى مصادر الفترة، وخاصة تاريخ الجبرتى.

وإلى جانب ذلك تقدم المراسلات والتقارير تفاصيل الحركة التجارية بين الإسكندرية وحوض البحر المتوسط، مع اهتمام ملحوظ برصد الصادرات والواردات من مختلف أنواع السلع، وحرص محمد على على تنمية تلك الحركة والاستفادة منها لتوفير التمويل اللازم لمشروعاته الداخلية، ثم إحكام سيطرته على الحركة التجارية. كما أتاحت له فرصة اختيار شركائه الأوروبيين فى تلك التجارة بدقة.

ومن هنا تأتى أهمية ترجمة الكتاب التى تأخرت لما يزيد على الثمانية عقود، فهو يضيف إلى المكتبة العربية مصدراً مهماً ويقدم للباحثين فى عصر محمد على – وما أكثرهم – مادة تلقى المزيد من الضوء على تلك الفترة الباكرة فى صعود محمد على ودعم أركان نظامه، وتزكى براعة الرجل فى توظيف علاقاته بالدول الكبرى بما يخدم مصالحه ومصالح مصر، واستقصائه كل محاولات الاحتواء، حرصاً على استقلال قراره.

وقد بذل الصديق د. ناصر أحمد إبراهيم جهداً متميزاً فى ترجمة الكتاب، فهو من الخبراء المعدودين فى الفترة التى يعالجها الكتاب، وله معرفة واسعة بأحوال مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر، والأوضاع الدولية المتصلة بها، كما أنه حجة فى مصادر تلك الفترة، وقد انعكس ذلك على ما أضافه من حواشٍ إلى النص، أضفت على الترجمة قيمة علمية تميزت بها على الأصل الفرنسى.

وإذا كان الفضل لابد أن ينسب لأهله، فإن ترجمة هذا العمل تدين بالفضل للأستاذ الدكتور جابر عصفور رئيس المركز القومى للترجمة لحرصه على إدراج هذا العمل ضمن أعمال المركز، فله خالص الشكر .

والله والوطن العزيز من وراء القصد

القاهرة فى ٢٨ فبراير ٢٠٠٨

رءوف عباس

المراجع

مقدمة بقلم إدوارد دريو

النقاط المحورية :

١ - وداع نابليون لمصر فى العام ١٧٩٩ - طموحاته الدائمة نحو مصر - سباستيانى فى مصر، دوكان فى الهند، ١٨٠٠/١٨٠٣.

٢- الإنجليز فى إستانبول وفى مصر ، ١٨٠٧ - تيلسيت - تصور نابليون لمستقبل مصر.

٣ - وصف مصر ، ١٨٠٩ - حل رموز حجر رشيد - سلفستر دو ساسى واكربلا - الأعمال الأولى لشامبليون ١٨٠٧/١٨١١.

٤ - الإنجليز فى مالطة - إمداد مالطة من خلال مصر - دروفيتى وسان مارسيل - قضايا الحصار : قضية علم القدس ؛ قضية سفينة روا - دو روم ؛ قضية سفينة شاه علم - قوائم الواردات والتصدير بالإسكندرية.

٥ - سر نابليون - الاستعدادات الجارية بطولون لإرسال حملة جديدة على مصر ١٨٠٨/١٨١١ - قرار مجلس الشيوخ بتاريخ ١٧ فبراير ١٨١٠ - مهمة نيرشيا فى سوريا ومصر ؛ - مهمة الكولونيل بوتان فى مصر وسوريا.

٦ - هزيمة المماليك : "تلاشى استبدادهم" - الحرب ضد الوهابيين - إعادة فتح المدن المقدسة - نفوذ وموارد محمد على - برنامج حكم محمد على.

وُلِدَ كل من محمد على ونابليون فى نفس العام (١٧٦٩) ، الأول فى قوله بمقدونيا ، والآخر فى أجاكسيو، وهما المدينتان الواقعتان على سواحل البحر المتوسط الذى أصبح مركزًا للتاريخ العالمى.

وكاد القدر أن يجمع بين الرجلين ؛ فقد خطر ببال الضابط الشاب بونابرت أن يدخل فى خدمة الباب العالى؛ إذ كان من الشائع أنه فى الشرق وحده تؤسس الإمبراطوريات الكبيرة. وكان محمد على يعمل فى خدمة الباب العالى ؛ حيث كان يقود فرقة ألبانية إبان معركة أبى قير. وبينما لحق بالجيش (العثمانى) الهزيمة ، كان بونابرت قد قرر العودة إلى أوروبا تاركًا لمحمد على هذا المسرح التاريخى الكبير.

وبينما نابليون فى العام ١٨٠٥ يتقلد فى ميلان تاج ملكية إيطاليا كان محمد على يتولى باشوية القاهرة و حكم مصر. وطوت هذه اللحظة صفحة نابليون ؛ إذ لن يمكنه بعد ذلك العودة إلى الشرق الساحرالذى طالما سيطر على مخيلته. على أنه يُحسب لبونابرت – على الأقل – أنه أيقظ مصر من غفوتها ، ليواصل محمد على ذلك المشروع الكبير الذى جعل مصر مع أول مخطط لها فى التاريخ فى عداد القوى الكبرى فى البحر المتوسط .

ومن هنا بدا من الصعب الفصل بين اسمى الرجلين على ضفاف النيل ؛ وبينما كان نابليون سجينًا عند الإنجليز حتى وفاته فى سانت هيلانة ، أنجز محمد على المشروع النابليونى ، وبطريقة ما أخذ محمد على بثأر نابليون.

* * *

(أ)

عشية رحيل بونابرت عن مصر أصدر أمراً إلى الديوان " بأن يختاروا من بينهم من هم أكثر استنارة وأكثر رزانة وحكمة " وأنه : " لما كان أسطولى على أهبة الاستعداد وجيشى العظيم قد اعتلى سفن الأسطول ، فإننى مقتنع ، كما قلت لكم مراراً ، أنه ما دمت لن أوجه لأحد ضربتى القاصمة التى أدمر بها جميع أعدائى مرة واحدة، وما دمت كذلك لن استمتع بالهدوء والسكينة بامتلاك مصر التى هى أجمل مكان فى العالم – فإننى قد قررت أن أرحل على رأس أسطولى ، تاركاً القيادة ، خلال فترة غيابى ، للجنرال كليبر ، الرجل الجدير بالتميز والذى أوصيته بأن يحفظ للعلماء والشيوخ نفس المحبة التى خصتكم بها من جانبى . فلتعملوا بقدر ما يمكنكم على أن يولى شعب مصر لكليبر نفس الثقة التى كان يكنها لى ، وعند عودتى بعد شهرين أو ثلاثة سأكون ممتناً من هذا الشعب ، ولن أقدم للشيوخ آنذاك سوى الثناء والجزاء الأوفى " (٢٢ أغسطس ١٧٩٩).

وربما لم يكن بونابرت – كما نظن - جاداً فى عزمه على العودة إلى مصر ، وأنه لم يرم من وراء هذه الرسالة سوى إطالة الشعور بالخوف من اسمه . ومن يورى ما دار بخلده ؟ فما لدينا يتعلق بتصميمه على أن يقيم فى ذلك البلد الذى عده "أجمل بلاد العالم" نوعًا من الوطن ، والوثائق التى ننشرها فى هذا المجلد تؤكد بوضوح هذه الفرضية .

حقًا كان يتعين عليه أن يعود بعد شهرين أو ثلاثة ، لكنه لم يستطع العودة على الإطلاق : فللرجل أن يأمل ويطمح وللمشيئة الإلهية أن تقدر ما سيُقضى به. وعلى أية حال كان هذا هو الجانب الأكثر كآبة فى مسيرته الكبيرة .

وكانت معاهدة صلح أميان التى عُقدت بعد استسلام مينو قد أعادت مصرإلى السلطان العثمانى. وعلى أثر معاهدة باريس التى أبرمت فى ٢٦ يونيو ١٨٠٢ عادت العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والباب العالى.

ولكن الإنجليز استحوذوا على مالطة ، ولم يكن ثمة سبيل لتخليهم عنها . ومنذ هذه اللحظة بدا هذا الحادث علامة على سيطرتهم على البحر المتوسط ، واعتبر الإنجليز هذا الأمر شرطًا ضروريًا لتأمين امتلاكهم للهند التى كانت قاعدة إمبراطوريتهم . وكان بونابرت قد كلف فى ٢٢ أغسطس ١٨٠٢ الكولونيل سباستيانى بمهمة تجارية فى كل من مصر وسوريا . ووصل الكولونيل الإسكندرية فى ١٤ أكتوبر ؛ والتقى بأعيان شيوخ المدينة الذين أكد لهم " أن القلاع والحصون تعانى من التدمير والخراب الكبير". ثم توجه إلى القاهرة التى وصلها فى ٢٤ أكتوبر، يرافقه ٣٠٠ من الخيالة الذين جعلهم يمشون أمامه فى استعراض بالغ الجمال . وقام سباستيانى بتوزيع عدد كبير من صور القنصل الأول (بونابرت) وكان استياء الأهالى الشديد من الوجود الإنجليزى قد تسبب فى حسن استقبالهم لتلك الصور فى كل مكان .

وخلص بونابرت عن قناعة إلى أن سوء حظ مصر قد جعلها ممزقة بين نزاعات الأتراك والمماليك ، وإذا كانت قد عجلت من جلاء الإنجليز عنها إلا أنها وقعت بعد ذلك فى فوضى سيئة للغاية ، حتى لقد تمنى كل فرد التدخل الفرنسى وعودة بونابرت : إذ كان يوجد بالإسكندرية ٤٤٣٠ إنجليزى ؛ و١٦٠٠٠ جندى يمثلون الجيش التركى ، ولكن الكثير منهم يفرون ويهربون ؛ وإلى جانب ذلك كان هناك ٣٠٠٠ أو ٤٠٠٠ مملوك واقعين تحت قيادة ثلاثة من كبار الأمراء المماليك ، وهم إبراهيم بك والألفى بك وعثمان بك ، وكان الأخير شديد الارتباط بالجانب الفرنسى : وفى ذلك الوقت كان يكفى توجيه ٦٠٠٠ فرنسى لغزو مصر. وثمة تقرير أُدرِجَ فى صحيفة المونيتير فى عددها الصادر فى ٣٠ يناير ١٨٠٣؛ يبين وجود إحساس كبير بأن وجود الإنجليز بمالطة يعنى أنهم لن يكفوا عن مراقبة مصر .

وتم إرسال الجنرال دوكان إلى الهند فى ١٥ يناير ١٨٠٣؛ ووفقًا للتعليمات الرسمية المكلف بها تعين عليه أن يتصل بالأهالى أو بالأمراء الذين لا يطيقون حكم الإنجليز ؛ وأن يقدر حجم الجيش الأوربى المطلوب لمساعدة أمراء الهند على رفض هذا

الحكم؛ وكان القنصل الأول قد وعده بأنه بقيامه بهذه المهمة سوف يُعطيه ذات يوم الفرصة لنيل " هذا الشرف والمجد الذى سيظل عالقًا بذاكرة الناس على مدار قرون عديدة " وفى الوقت الذى وصل فيه دوكان إلى الهند كانت قد اندلعت حرب جديدة بين فرنسا وإنجلترا ؛ وكان لابد من احتجازه فى بوندشيرى إلا أنه تمكن فى وقت ما من الهرب منسحبًا إلى جزيرة فرنسا[1]. ومكث هناك حتى العام ١٨١١، وخلال هذه الفترة كان يقود عمليات جسورة ضد التجارة الإنجليزية فى المحيط الهندى ، مجدداً بذلك ما كان شائعًا فى الماضى عن مآثر القراصنة المشهورين. وسنراه على منافذ البحر الأحمر.

وفى هذه الأثناء وبالتحديد فى ٩ يوليو من العام ١٨٠٥ تولى محمد على باشاوية القاهرة. ولم يكد عمره يناهز ٣٦ عامًا، وأخذ مجده ونفوذه يتزايدان على ضفاف نهر النيل . وبعد عدة قرون من الضعف بدأت شمس النهضة فى مصر تبزغ من جديد.

* * *

(١) وهى المسماه حاليًا جزيرة مورشيوس الواقعة فى المحيط الهندى. (المترجم)

(II)

وجاء انتصار نابليون فى أوستيرليتز بعد بضعة شهور ، وتحديداً فى ٢ ديسمبر من العام ١٨٠٥ ؛ ليطيح بالإمبراطورية الجرمانية المقدسة ، وليؤسس إمبراطورية الغرب. ولما كانت إمبراطورية الغرب لم تكتمل دائرة توسعها بعد ، فقد قرر القيصر الجديد فى الحال التحول مرة أخرى إلى الشرق : فبدأ الحرب ضد بروسيا فى العام ١٨٠٦ ، ثم دخل فى صراع مع روسيا بنفس حدة الصراع التى كان عليها من قبل مع إنجلترا، ومن هنا بدأت المسألة الشرقية تطرح نفسها .

وكان سباستيانى بعد أن تمت ترقيته إلى رتبة جنرال قد أُرسل إلى إستانبول كسفير لفرنسا وذلك فى العام ١٨٠٦، وتركزت مهمته الأساسية فى جر تركيا إلى الحرب ضد روسيا ، وهو ما نجح فيه بالفعل ؛ حيث وضعت قوات السلطان على الدانوب .

ولكن الأسطول الإنجليزى هاجم إستانبول ، وقد روينا قصة هذا الحادث فى موضع آخر ، على أن سباستيانى إزاء حالة الاضطراب التى أصابت المدينة فى أعقاب هذا التهديد غير المتوقع جعل المدينة فى حالة دفاع ، فى حين ماطل وزراء السلطان العثمانى طويلاً فى الدخول فى مفاوضات مع السفير الإنجليزى . وأحضر سباستيانى ضباطًا من جيش دالماشيا ، وكان من بينهم الكابتن بوتان Boutin ليقوم بتحصين أسوار المدينة ، وإصلاح بطاريات المدفعية ، وتزويدها بالذخيرة . وبعد بضعة أيام عادت السفن الإنجليزية أدراجها متقهقرة ، تنهال عليها مدافع قلاع الدردنيل؛ ليفقد الإنجليز خلال انسحابهم عدداً من الضحايا : ففى الواقع لم يكن من السهل أن يتحقق الاستيلاء على مدينة مثل إستانبول عبر هجوم عسكرى مفاجئ على نحو ما تصوره الإنجليز.

وحاول الإنجليز القيام بعملية إنزال فى مصر بقصد تعويض فشلهم فى إستانبول الذى جرح كبريائهم ونال من هيبتهم . ولكنهم كانوا فى ذلك أقل حظا من بونابرت ؛

إذ لم يكن محمد على على استعداد لأن يتنازل لهم عن هذا البلد . وقام القنصل الفرنسي دروفيتي بتقديم كل العون لمحمد على وذلك على النحو الذى قدمه سباستيانى لوزراء الباب العالى. وهكذا هُزِمَ الإنجليز ، وتكبدوا خسائر فادحة ، وقفلوا إلى سفنهم (سبتمبر ١٨٠٧) وهم فى حالة يُرثى لها . ومنذ ذلك الحين حظى باشا القاهرة بتقدير كبير من قبل الإنجليز .

وأصبح واضحًا أن أعداء محمد على هم نفس أعداء نابليون : وفى ظل النظام السياسى القائم آنذاك كان توافق المصالح بينهما يمكن أن يسمح بخلق نوع من التعاطف والتلاقى ، وهو ما كان يمكن أن يؤدى إلى نتائج ذات بال إذا ما توافرت له ظروف ملائمة .

ومع ذلك التقى نابليون بقيصر روسيا فى تليست ، وذلك بعد موقعة فريدلاند. ولكم أثارت هذه المقابلة خيال المعاصرين أنفسهم. وخلال الاستعراض العسكرى للإمبراطورين كان جنود المدفعية يصيحون بحماس : " يحيا إمبراطور الغرب ! يحيا إمبراطور الشرق ! " وكان الجميع مندهشًا من هذا المشهد الكبير : فأوروبا مقسمة بين إمبراطوريتين قويتين . ورغم أن جنود المدفعية كانوا يمثلون الحرس الإمبراطورى إلا أنهم لم يكونوا ، سواء فى أحد الجانبين أم كليهما، على دراية كبيرة بعالم السياسة الخارجية ، ولعل صيحتهم السابقة جاءت معبرة عما كانوا يتمنونه بالفعل . لكن المؤرخين الأقل قبولا لهذا الرأى عدوا هذا المشهد قرينة مميزة للاعتماد عليها فى تأكيد الاعتقاد بأنه فى " تليست " كان الإمبراطوران يقتسمان أوروبا .

إن هذا التفسير ليس صحيحًا ؛ ويكفى لتجنب الانسياق وراء هذا الخطأ أن نتابع الوقائع وأن نقرأ النصوص . فلم تكن تلك هى اللحظة التى تم اقتسام أوروبا فيها ؛ إذ كان من المستبعد أن يتم تقسيمها بين إمبراطورين متحالفين ، كما أن معاهدة تليست تبين بجلاء اندفاع إمبراطور الغرب صوب الشرق . وما نود قوله فى هذا الصدد إنما يتمثل فى حقيقتين أساسيتين وهما : أن إعادة بولونيا تحت اسم " دوقية فارسوفيا الكبرى " مثلت سدا منيعًا أمام روسيا ، والحقيقة الأخرى أن روسيا

طُرِدَت من جميع المناطق التى كانت تحتلها على البحر المتوسط (بوشيه دو كاتارو – كورفو) : إذ نقرأ فى مراسلات نابليون ، بُعَيْدَ توقيعه معاهدة تليست ، عن استعجاله الشديد لتفريق السفن الروسية فى البحر المتوسط باتجاه البحر الأسود أو نحو بحر البلطيق .

ومنذ ذلك الحين لم يكن هناك قوى فى البحر المتوسط سوى فرنسا... وإنجلترا. وكان الانشغال الأساسى لنابليون فى ذلك الوقت منحصراً فى كيفية تنظيم الشرق ؛ لأجل أن ينجز بناء الإمبراطورية ، وكان يبحث هناك عن طريق يوصله إلى الهند ، شأنه فى ذلك شأن الفاتحين فى الزمن الماضى؛ ولذلك أرسل حينئذٍ الجنرال "جاردان" إلى فارس.

بيد أن الطريق العظيم إلى بناء الإمبراطورية وللوصول للهند كان دائماً عن طريق مصر؛ ولهذا السبب لم تغب مصر عن ذهن نابوليون. فى سانت هيلانه – فيما بعد – كان نابليون يحب أن يُحيى فى ذاكرته " حملة مصر ". وكان يقول فى إعجابه بالأزهر المدرسة أو سربون جامعة الأزهر " إنه الأكثر شهرة فى الشرق ، وإنه قد أُسس على يد صلاح الدين". وكان يطيب له أن يردد فى حديثه كلمة " السلطان الكبير" مثلما كان العلماء والأهالى يحبون أن ينادوه بها ، ليؤكد بأن حماية [أتباع] محمد كانت مسؤليته : " لو عاد محمد فوق الأرض ، كان سيقول له (أى لنابليون) : فلتنزل بالجامع الأزهر، إنه المفتاح الأول للكعبة المقدسة " . وأيضاً كان يقول : " إنه سيعيد ميلاد الزمن المجيد للفاطميين " . وذكر أن العلماء طلبوا منه أن يتحول عن عقيدته ؛ لكى يساعدوه فى الحصول على فتوى تعفيه فى هذه الحال من أمر الختان وتسمح له فى الوقت نفسه بالاستمرار فى تناول الخمر، شريطة أن يجزل الصدقات والكفارات تباعًا وبالقدر الذى يتناسب مع ذلك. غير أنه لم يكن ثمة وقت لإنجاز هذا العمل.

وكان يطيب له أن يتذكر يوم الاحتفال بوفاء النيل ، وهو الاحتفال الكبير عند المسلمين ، كما تذكر وصايته لفرنسيى الحملة بأن يشاركوا المسلمين احتفالهم بكل الاحترام المناسب ، ومطالبته بالمثل لأهالى القاهرة بأن يخالطوا ويشاركوا الفرنسيين

فى احتفالهم بعيد الجمهورية ؛ وأيضًا كان يتذكر فى هذه المناسبة بالون المنطاد الذى اختفى فى اتجاه الصحراء ، والذى فسر اختفاؤه على أنه من أجل الاتصال بالنبى محمد ، وأنه إذا كان محمد نبيا من عند الله فإن بونابرت ظهر كرسول من عند محمد . وفى الحقيقة كان نابليون حقا له سمت نبى ؛ حيث كان قد أعلن عن ميلاد مصر الحديثة .

وكان يدهشه فى مصر مواردها الاستثنائية ؛ ولكم أذهلته خصوبتها . ومن وجهة نظر خاصة كان يقدر بأنه من السهولة بمكان أن تطعم فى هذا البلد جيشًا من خمسين ألف جندى . لكن لنقرأ ما كتبه بشأن هذا البرنامج الرائع الذى خططه لهذا البلد : " ماذا سيكون وضع هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء وفى ظل حكومة صالحة ؟ إن التخيل ليتجسد فى رسم لوحة رائعة تأخذ بلب المرء ! فبناء ألف هويس كفيلة بأن تسيطر على توزيع مياه الفيضان على كل جزء من الأراضى ؛ وثمانية أو عشرة مليارات تواز[1] مكعبة من المياه التى تفقد فى كل عام فى البحر [المتوسط] يمكن إعادة توزيعها على جميع الأراضى المنخفضة بالصحراء فى بحيرة موريس ، وبحيرة مريوط ، والبحر الخالى من المياه ، وصولاً إلى الواحات وأبعد منها إلى الساحل الغربى والساحل الشرقى ، وداخل البحيرات المرة ، وكل المناطق المنخفضة من برزخ السويس والصحراوات الواقعة بين البحر الأحمر والنيل . ومع إحضار عدد كبير من مضخات رفع المياه وطواحين الهواء لرفع المياه لتجرى فى القنوات، انطلاقًا من الموارد التى تسحب منها فتُروَى عندئذٍ الأراضى . ومع مجيء العديد من الهجرات من عمق إفريقيا وبلاد الجزيرة العربية وسوريا وكذا من فرنسا ومن إيطاليا ومن بولونيا ومن ألمانيا ، سوف يتضاعف عدد سكان مصر أربع مرات ؛ وسوف تستعيد تجارة الهند طريقها القديم بفعل قوة الطبيعة (سيل المياه واستواء التضاريس) ؛ وتصير لفرنسا عندئذٍ السيادة على مصر ، وهو ما يخول لها السيادة على بلاد الهندوستان.

---

(١) التواز: مقياس طول يعادل ستة أقدام . (المترجم)

" لكننى أعرف ما يُقال بأن إنشاء مستعمرة قوية أيضًا لن يؤخر من طلبها الاستقلال . ومن غير شكٍ ، فإن أمة عظيمة مثلما كان حالها فى عصر سيزوستريس وفى زمن البطالمة ، سوف يمكنها أن تغطى هذه الأراضى المقفرة فى هذه الأيام بالزراعة ؛ ومن ثم يمكن لمصر أن تدعم بيدها اليمنى بلاد الهند ، وبيدها اليسرى أوربا . وإذًا فالظروف المحلية لهذا البلد هى وحدها التى يتعين أن تقرر حالة الرخاء، وهى التى تحقق عظمة المدن ، فالإسكندرية سوف يكون لها الرفعة على كل من روما وإستانبول وباريس ولندن وأمستردام ؛ حيث سينادى بها لأن تكون على رأس كل [مدن] العالم ".

"والقاهرة بعيدة أيضًا عن الهند بُعد بايون عن موسكو . على أن ستين ألفًا من الجنود يحملون فوق خمسين ألفًا من الجمال وعشرة آلاف حصان ، حاملين معهم مؤن تكفى خمسين يومًا ، ومن المياه ما يكفى ستة أيام ، يمكنها أن تصل فى أربعين يومًا إلى الفرات ، وفى أربعة أشهر إلى الهند ، وإلى وسط قبائل السيخ والمهرات ، وإلى سكان الهندوستان ، المتطلعين بغير صبر إلى زعزعة الحكم الذى يضطهدهم " . " وإنه بعد خمسين عامًا من امتلاك مصر ستنتشر الحضارة إلى داخل إفريقيا ؛ وذلك عبر سنار والحبشة ودارفور وفزان ؛ ولسوف تستأنف العديد من الأمم العظيمة تمتعها بخيرات الفنون والعلوم ، وخيرات دين الإله الحق ؛ وإذًا يتعين على سكان وسط إفريقيا أن يتلقوا النور والسعادة عبر بلاد مصر".

ولم تكن حملة مصر بالنسبة لنابليون مغامرة فى مرحلة الشباب جرى نسيانها فى غمرة محنه وتجاربه وأعماله التى مرَّ بها خلال مرحلة النضوج ؛ إذ ظلت بلاد النيل أحد البلاد الأساسية فى فكره السياسى ؛ حيث لم تغب عنه قط حتى لتعد واحدة من الألغاز الأكثر إثارة فى مشروعه المذهل الكبير . وهنا يتعين علينا أن نتساءل عن حقيقة هذا اللغز .

* * *

(III)

البداية أولاً مع لغز الهيروغليفية ؛ فهى التى ستمدنا بالإجابة سريعًا على تساؤلنا . فقد ظهر فى العام ١٨٠٩ أول مجلد من كتاب " وصف مصر " والذى حمل عنوان " مجموع الملاحظات والأبحاث التى أُنجِزَت فى مصر خلال حملة الجيش الفرنسى " المنشور بأمر الإمبراطور نابليون الكبير . وتوالى نشر المجلدات بين عامى ١٨٠٩ و ١٨٢٢ والتى بلغت عشرة مجلدات ، خلافًا لمجموعة الأطالس. ولم يعش نابليون ليرى إتمام إنجاز طبع الكتاب.

واشتمل المجلد الأول على ما يلى : وصف جزيرة فيله التى أنجزها " ميشيل أنج لانكريه " ؛- وصف أسوان والشلالات لـ " م . جومار" ؛ - وصف جزيرة إلفنتين للمؤلف نفسه ؛ - وصف أومبوس وضواحيها لـ" م . م . شابرول" و " م . جومار" وروزيير" ؛ - وصف الآثار القديمة لادفو لـ " م . جومار" ؛ - وصف خرائب الكاب أو التيه لكبير مهندسى الكبارى والجسور المدعو " م . سانت - جينيس ؛ - وصف عام لطيبة ، وبصفة خاصة وصف ما هو تحت أرض مدينة طيبة لـ " م . جومار " ؛ - ووصف مقابر الملوك لـ " م . كوتاز " . وأحدث هذا الإنجاز العجيب منذ نشره حركة إحياء لمصر القديمة .

وأعرب نابليون عن تقديره ورضائه بما أملاه : " إن جلالته قرر بأنه ليس ثمة نية فى تحويل عائدات هذا المؤلف إلى الخزانة العامة ، وإنما يتم توظيفها سواء فى تشجيع الفنون أو فى إفادة المجمع العلمى ، والمكتبة الإمبراطورية وحديقة النباتات . وأن " وزير الداخلية سيقترح توزيع عائداته فى التشجيع وفى توظيف حصة من المبالغ بقدر ٥٪ لصالح أولئك المتعاونين فى إنجاز هذا المؤلف ممن ساحوا وجابوا مصر: فسوف يستقطع ٥ ٪ التى ستخصص لذلك عند إتمام عمل الكتاب ".

ويجرنا هذا مباشرة إلى دراسة " حجر رشيد ". ففى العام ١٨٠٢ أبدى وزير الداخلية المواطن شابتال - بناء على أمر صادر من القنصل الأول دون شك -

اندهاشه من أن هذه الدراسة لم تنجز بعد ، ولذلك أرسل إلى سلفستر دو ساسى نسخًا عديدة بأخبار هذا النقش المسجل على الحجر. وكان سلفستر دو ساسى قد رد عليه بخطاب مشهور، وضح له فيه أبحاثه والعوائق التى تواجهه قائلاً له : " إنه ربما مع وجود شخص محنك فى اللغة القبطية يمكن أن تثمر نتائج تتجاوز أبحاثه " . وبعد قليل أعرب عن اعتقاده بأنه استطاع فك شفرة كلمتى " بطليموس " و" الإسكندر" .

وتم نشر هذا الخطاب المرسل إلى المواطن شابتال . وسرعان ما جاء الرد إلى سلفستر دو ساسى من قبل ج . د . اكربلا ، السكرتير القديم لأوصياء ملك السويد، ومثل سلفستر دو ساسى كان اكربلا يعمل أستاذًا للغة العربية بمدرسة اللغات الشرقية الحية . فقد أخطر اكربلا زميله بأبحاثه الدقيقة ، رافضًا قراءة سلفستر دو ساسى لكلمة "الإسكندر" ، ومرجحًا قراءته لكلمة " بطليموس " ، واقترح عليه حروفًا أبجدية شبه كاملة تقريبًا. وكان دو ساسى مقتنعًا تقريبًا بقراءة اكربلا ، فشجعه على مواصلة تقديم مزاعمه فى هذا الصدد .

وكان شامبليون آنذاك فى سن العاشرة ؛ إذ وُلد فى العام ١٧٩٠ ومنذ التحاقه بمدرسة الليسيه فى " جرونوبل "[1] كان شغوفًا بدراسة اللغات الشرقية . وفى العام ١٨٠٧ قدم إلى جمعية الفنون والعلوم بجرونوبل دراسة حول الجغرافيا القبطية لمصر. وبعد ذلك بعامين توجه إلى باريس ليتابع دروس مدرسة اللغات الشرقية ، ثم عاد إلى جرونوبل فى العام ١٨٠٩، كأستاذ مساعد فى التاريخ بكلية الآداب. وكان قد ظهر فى تلك السنة المجلد الأول من كتاب وصف مصر ؛ واستخدم شامبليون لوحات الكتاب ونشرها ، وفى الأول من شهر مارس ١٨١١ ظهر المجلد الأول من الكتاب تحت عنوان: " مصر تحت حكم الفراعنة ، أبحاث حول الجغرافيا والدين واللغة والكتابات وتاريخ مصر قبل غزو قمبيز ".

---

(١) جرونوبل : اسم مدينة فى فرنسا فى جبال الألب ، تقع فى الجنوب الشرقى لفرنسا . (المترجم)

وفى مقدمة هذا المجلد التمس شامبليون دليله فى نقش حجر رشيد . " فهذا الأثر المهم كما يُقال هو مرسوم لكهنة مصر يمنح التشريفات الجليلة إلى الملك الشاب "بطلميوس العظيم ". وهذا المرسوم مكتوب بالهيروغليفية ، وبلغة وكتابة الحروف الأبجدية المصرية ، وباللغة الإغريقية .

واستمراراً لدوره قام سلفستر دو ساسى بنشر أول رسالة حول النص المصرى المسجل على هذا النقش ، وهذه الرسالة سوف تكون مفيدة جدا لكل أولئك الذين رغبوا في دراسة هذا النقش. وكان اكربلا مهتما باللغة القبطية التى أحرز فيها كثيراً من النجاح وقد حاول تقديم قراءة وترجمة للنصوص المصرية المسجلة على ذلك النقش . وبيَّن بوضوح " أن الاصطلاح اللغوى للنص الأخير بالنقش هو لغة قديمة عند المصريين . وإذا كان من المتعين ألا تؤدى بنا هذه اللغة سوى إلى معرفة طقوس العبادة وكتب مؤلفة عن الشهداء والتى تمثل فى الواقع الأعمال الوحيدة تقريباً المكتوبة باللغة القبطية ، فإن دراسة هذه اللغة بالنسبة لنا لن تقدم سوى فائدة محدودة جدا ؛ ولكن إذا نظرنا إليها كلغة فى حد ذاتها ، فسوف تجعلنا على دراية بقراءة المخطوطات المصرية التى تملكها مكتبات مختلفة فى أوروبا ، ومن ثم فإن هذه اللغة ربما تؤدى بنا إلى ترجمة الهيروغليفيات التى من المفترض أن يكون لها علاقة ما باللغة القبطية . وليس فى كلامنا هذا أى تناقض. ونشير فى النهاية إلى أن معرفة الدين والعلامات والرموز وطقوس المصريين تتوقف على دراسة هذه اللغة التى ستقدم ، منذ هذه اللحظة ، مع كل هذه الفوائد ، فتحًا جديداً – إذا جاز لنا القول – لميدان دراسى جديد سيكون على رأس اللغات التى يهتم بدراستها العلماء ".

ولم تكن هذه سوى البداية ، ومع العمل على آثار الكرنك مثلما على النقوش نفسها ، جرت مقاربات [نقوش] كليوباترا وبطلميوس التى توصلوا من خلالها إلى الأبجدية الكاملة للغة الهيروغليفية وحل كل لغز الهيروغليفيات . ولكن ذلك لم يتم إلا بعد أكثر من عشر سنوات ؛ حيث جاء خطاب شامبليون إلى " داسيه " فى العام ١٨٢٢؛ ومن ثم لم يعش بونابرت هذه اللحظة التى انبثق فيها النور بقوة على كل

ماضى مصر منذ أربعين قرنًا خلت. على حين عاشها محمد على الذى بفضل هذا الاكتشاف تعاظم وعيه بطموحاته ووعيه بمجد بلاده الذى لا يقارن سواء فى الماضى أو فى المستقبل.

* * *

(IV)

وكان نابليون حتى ذلك الوقت منشغلاً ، مباشرة إلى حد كبير ، بالحرب والسياسة ، تمامًا مثلما كان الحال مع محمد على ، وكان هذان المجالان (الحرب والسياسة) أكثر ما أثار اهتمام المؤرخين . وعلى حين كانت دراسة مصر القديمة قد بدأت تستحوذ تقريبًا على كل مجال العلم الفرنسى ، كان الشغل الشاغل للإنجليز كيفية تحقيق السيطرة على البحر المتوسط .

وإذا استخدمنا أسلوب القدماء يمكن القول بأن إنجلترا غرست آنذاك شوكة إله البحر (نبتون) فى صخرة مالطة . وهنا تحديداً كانت بداية صفحة جديدة فى تاريخ هذه الجزيرة : فمنذ القرن السادس عشر كانت الجزيرة قد وقعت بين يدى فرسان الإسبتالية اتباع القديس يوحنا بالقدس ، حيث كانت آخر معقل فى العالم المسيحى تصدى للغزو التركى ولإرهاب قراصنة البربر بشمال إفريقيا . وصارت الجزيرة ، منذ ذلك الحين، إلى جانب جبل طارق ، تمثل حلقة أساسية فى سلسلة الحلقات التى من خلالها شقت بريطانيا طريقها إلى الهند .

ومع ذلك كانت تلك السلسلة هشة ؛ إذ لم يقبل نابليون ، السيد على كل من إسبانيا وإيطاليا ، والحليف للدولة العثمانية ، بوجود بريطانيا على هذا الطريق ، وكانت أساطيله بطولون مستعدة على الدوام للإقلاع صوب صقلية أو كورفو ... أو مصر. أيضًا كانت عملية تزويد مالطة بالمؤن يمثل مشكلة أساسية ومعقدة بالنسبة لبريطانيا : إذ كانت سواحل بحر المانش بالبحر المتوسط ، والطريق الطويل والشاق ، وكل سواحل إسبانيا ، جميعها كانت تحت نيران مدفعية القراصنة الفرنسيين .

ومن جانب آخر ، كانت روسيا منذ معاهدة تيليست منضمة إلى قرارات الحصار القارى . وكانت مضايق الدردنيل مغلقة فى وجه التجارة الإنجليزية ، وذلك على الأقل حتى بدء السلام الأنجلو- عثمانى فى العام ١٨٠٩ . وحتى ذلك الحين لم تكن التجارة الإنجليزية بمالطة تعتمد ، سوى بدرجة ضعيفة ، على ما كانت تتيحه الظروف الطارئة

والمفاجئة فى تغطية احتياجاتها من المؤن. فمن أين تجد على كل سواحل البحر المتوسط مَنْ يضمن لها التزود بالمؤن ؟ وهنا كانت مصر هى البلد الوحيد الذى كان يمكنه فعل ذلك .

وبالفعل ظهر آنذاك التضامن الاقتصادى والسياسى بين الإسكندرية ومالطة، ويمكن القول دون مبالغة أنه كان أحد العوامل الأساسية للتفوق الإنجليزى فى تلك اللحظة العصيبة : فقد مثلت مصر صومعة غلال لمالطة ؛ ولم يرفض محمد على بيع محاصيله لإنجلترا ؛ فأى بلد آخر كان يمكنه أن يبيع له محاصيله ؟ وأعطى الأفضلية فى تصديرها لمالطة عن إستانبول ؛ ولطالما اشتكى السلطان مراراً من ذلك . ولكن إنجلترا كانت تدفع بطريقة جيدة وبسعر أعلى من إستانبول . وأفاد الباشا من حاجة بريطانيا للغلال بزيادة الرسوم إلى أقصى حد والتى يحصل عليها من حركة التصدير . وقد أوضح لـ " دروفيتى " هذا الأمر بصراحة شديدة : بأنه لا يمكنه أن يرفض بيع حبوبه لإنجلترا ؛ لأنهم سيحاولون أخذها بالقوة الغاصبة ، وأنه على استعداد لإقامة علاقات واسعة مع فرنسا ، وأن يخص فرنسا بتعريفة جمركية أقل ارتفاعاً ، ولكن عدد السفن الفرنسية التى نراها داخل الموانئ المصرية قليلة . وأنه من الحماقة ألا ينتهز هذه الفرصة لملء خزينته المالية . وإذاً فقد كان الباشا نبيهاً فطناً ، والذهب الإنجليزى الذى تحول بكثرة فى مقايضته بالحبوب المصرية كان هو العنصر الأول فى نظامه المالى الذى سيكون بدوره العنصر الأول فى قوته.

وصارت الحركة الكبرى لسفن التجار تنطلق من الإسكندرية ، حاملة الحبوب والمؤن ؛ ليس لإعاشة مالطة وحدها فحسب ؛ وإنما أيضاً لصقلية والجيوش الإنجليزية فى البرتغال ، ثم لإسبانيا . وعلى هذا النحو شاركت مصر بشكل مباشر فى المباراة والمنافسة الكبرى بين فرنسا وإنجلترا . بيد أن ذلك لم يكن فى مصلحة فرنسا التى كانت مصلحتها الحيوية فى كسب تلك الحركة التجارية الكبيرة التى كانت تدعم وتعزز من يوم إلى يوم قوة منافستها إنجلترا . على أنه عبر وكلاء قناصل نابليون ، فى هذا الموقع الذى يحتل أهمية كبرى ، سوف يتمكنان (أى دروفتى وسان مارسيل) من وضع

المخطط الأول لتلك المعركة : فـ " دروفيتى " فى القاهرة و " سان - مارسيل " بالإسكندرية كانا قد تبوآ بجدارة موقعًا استثنائيا فى مصر . ويمكن القول بأن المراسلات التى ننشرها هنا فى هذا الكتاب سوف تحقق لهما الشرف والمجد الكبير.

لقد كانا هناك بمفردهما يراقبان مدة تحرك البحرية الإنجليزية ، وذلك برغم أنهما لم يكلفا فى الغالب بأية تعليمات فى هذا الصدد ، وبدون أن يتوافر لديهما أى أخبار أخرى حول السفن البحرية المنطلقة من مالطة . ولم تصدر إليهما التعليمات الخاصة بالحصار من قبل حكومتهم إلا متأخراً ؛ وكانا لديهما شعوراً دائمًا بالقلق من إفشاء مقاصد الإمبراطور (نابوليون) ؛ فالاقتراحات التى كان يلح محمد على على طرحها عليهما كانا لا يعرفان بماذا يُجيبان بالرد عليها ؛ ومن هنا فمراسلاتهما كانت مشوبة فى مجملها بالثغرات .

بيد أن مراسلاتهما تقدم ، مع ذلك ، على نحو ما سنرى ، فائدة كبيرة . فقد عرفا أن يفهما وأن يقدرا أهمية الموارد الزراعية لمصر ومستقبلها التجارى . وذات يوم أرسلا بذرة القطن وبذرة أخرى لشجرة النيلة ، وقاما بملاحظة فيضانات النيل ، وعرفا أن يعرضا تفصيلا لكل النتائج المترتبة عليها.

وبشأن التعليمات الواردة من باريس كان سان مارسيل يرسل على نحوٍ منتظم قوائم الملاحة والتجارة ، وأرسل فى نهاية العامين ١٨١٠ و ١٨١٢ قوائم الواردات والصادرات ، والتى كانت دون شك مدهشة تمامًا : فقد كانت هذه القوائم تشكل مساهمة أساسية فى التعريف بالتاريخ الاقتصادى لمصر فى بدايات نهضتها . وقناصلنا اليوم سيجدون فى ذلك نماذج مهمة وسيجد شباب طلابنا فيها وثائق ثمينة.

ولكن جهودهما ضاعت سدى وخاصة بسبب شئون الحصار . وكانا يوزعان على التجار أصول التصاريح التى لم تصلهما نمانجها إلا بصورة متأخرة : وهذا ما سبب الضيق لحامليها فى مارسليا . ففى الحقيقة لم يفهما بصورة سريعة نظام

التصريحات ؛ ومن ثم لم يستطيعا سوى تدوين عيوب هذا النظام . على أنهما ظلا يتابعان تدوين الحوادث من كل نوع .

ووصلت سفينة البولاكر لاروز La polacre la Rose [١] إلى مرسى ميناء الإسكندرية في يوم ١٨ يونيو من العام ١٨٠٨ ، وذلك تحت علم القدس[٢] . وكانت السفينة قادمة من مالطة ، حاملة على متنها بضائع إنجليزية . وعلى الفور قام سان مارسيل ، بوصفه نائب القنصل الفرنسي ، بوضع شحنة السفينة تحت الحراسة ؛ فوفقًا للامتيازات كانت فرنسا قائمة بحماية كل ما هو تحت علم القدس . ولم تكن هذه العملية بسيطة ؛ فقد استغرقت وقتًا طويلاً ؛ حيث كانت بالغة التعقد . وكان من الغريب ، دون شك ، أن يتم تحت علم القدس ، المحمي من جانب فرنسا ؛ حماية بضائع إنجلترا الواقعة في حالة حرب معها . ولكن هل ما كان يحمل علم القدس لا يتعين اعتباره جهة محايدة ؟ وهل كانت حماية فرنسا قاصرة عليها وحدها ؟ وهل صلاحيات السلطة القنصلية تصل إلى حد المصادرة ؟ وهل كان الحصار القاري قابلاً لأن يمتد تطبيقه على أرض مصر ؟ لأن هذا الأمر بالفعل يتعلق بما هو اقتصادي ، ومحمد علي يحكم البلاد حكمًا مطلقًا ، ومن ثم فهو ليس ملزمًا بأي اتفاقية في هذا الصدد تتعلق بفرنسا .

ونقل الأمر إلى إستانبول ؛ حيث تدخَّل في هذه المسألة بصرامة وحزم القائم بالأعمال الفرنسي م . دو لاتور موبور[٣] ؛ مطالبًا الباب العالي بأن يؤكد على امتيازات فرنسا السارية على موانئ الشرق ، وذلك بتطبيقها على هذه المسألة الخاصة. على أنه لم يحصل على تسوية مرضية للأمر ؛ إذ إن الباب العالي تخلص من

(١) سفينة تجارية أشرعتها من قطعة واحدة بشكل مربع . (المترجم)

(٢) القدس : تعني هنا مالطة حيث كانت الجزيرة تحت حكم فرسان القديس يوحنا بالقدس. (المترجم)

(٣) نفهم من مراسلات سان مارسيل أن "لاتور موبور" كان سفيراً لفرنسا لدى الباب العالي بإستانبول، انظر على سبيل المثال عنوان التقرير رقم ١٣. (المترجم)

الموقف بإصداره أمراً يقضى بمصادرة البضائع المحتجزة ، وذلك بحجة أن الدولة العثمانية فى حالة حرب ضد إنجلترا ، كما منعت الإعلان عن موقفها فى هذا الموضوع .

ومن جهة أخرى كان السائد آنذاك فى مناطق النفوذ الفرنسى عدم الانقياد لرجال الدين . وبرغم المعاهدة البابوية فإنهم لم يغفروا للإمبراطور إطلاقه للحريات، التى كانت فى واقع الأمر كبيرة ، ولم يغفروا له كذلك إطاحته بالكرسى البابوى . ومن هنا أثار الأب إيرمينجيلد Ermenengilde صخبًا بالإسكندرية بنشره قرار الحرمان الصادر ضد نابليون ، وذلك عندما احتل الأخير روما ورفع البابا بيو السابع عن كرسى البابوية.

وكانت أعمال القرصنة تحت كل الأعلام تداهم ضواحى الإسكندرية بشكل معتاد ومتكرر . وكثيراً ما كانت الفرص تتاح بها لمثل تلك الممارسات . وكانت الغنائم تباع داخل الميناء.

واقتاد قرصان من نابولى فى العام ١٨١١ غنيمته التى جاء بها على متن سفينة لو روى دو روم إلى الإسكندرية . غير أن القنصل الإنجليزى اعترض عملية بيع الغنيمة . وكان لـ " سان مارسيل " حق جباية رسوم على إيرادات البيع . وهنا تدخل الباشا لحل المشكلة ؛ ولكن مراعاة لإنجلترا ودون أن يثير فى الوقت نفسه غضب فرنسا ، قرر أن يرفع الأمر إلى إستانبول . واستغرق النظر فى المشكلة كذلك مدة طويلة . وكان الباب العالى قد عقد فى ذلك الوقت سلاماً مع إنجلترا . ولذلك صُدِرَ فرمان موقع من السلطان بمنع بيع غنائم القراصنة فى جميع موانئ الإمبراطورية العثمانية . وكان هذا الفرمان فى صالح إنجلترا ، وحمل قراصنتهم غنائمهم إلى مالطة التى كانت تحت حكم بلدهم ، فصاروا يبيعون بها أسلابهم من القرصنة . على حين واجه نظراؤهم القراصنة الفرنسيين صعوبات فى تصريف أسلابهم . وكانت السفينة لو روى دو روم نفسها قد تم أسرها داخل مياه قبرص.

وتجاوزت تلك المشكلات بالفعل المحيط الواسع للبحر المتوسط : فقد امتدت لتشمل البحر الأحمر والمحيط الهندى . وكانت تجارة بن مُخا معرضة فى الوقت نفسه للخطر ؛ من جراء غارات البدو وأيضًا بسبب استعدادات محمد على للحرب ضد الوهابيين . وكان " بن المستعمرات " ، أو كما يقولون "البن الأمريكى" وخاصة "البن البرازيلى" ، يصل بكميات كبيرة ومهمة إلى البحر المتوسط تحت أعلام إنجليزية . ويمكننا أن نطلق على ذلك " أزمة مُخا " ؛ والتى دامت لبعض الوقت . على أن محمد على من خلال سيطرته على المدن المقدسة (الحجاز) استطاع أن ينهى هذه الأزمة وأن يعيد النشاط التجارى إلى البحر الأحمر.

ويبدو أن التجار العرب ، وخاصة تجار اليمن ، كان لهم أيضًا ، فى ذلك الحين، التفوق فى مجال تجارة المحيط الهندى : نهاية فترة طويلة من الرخاء ، وقبل إقامة الاحتكار التجارى القاصر تقريبًا على إنجلترا . لقد عانى التجار العرب أيضًا من حالة الحرب التى أخذت طابعًا عالميًا .

وسوف نقرأ فيما بعد حول مسألة سفينة شاه علم ، سفينة مُخا التى تم الاستيلاء عليها ومصادرتها على يد قراصنة فرنسيين من جزيرة فرنسا[1] التى كان المنتفعون بها قد أطلقوا عليها ، بالمعنى الحرفى ، عرش " جلالة المعظم السلطان بونابرت " . وكانت هذه المناداة تسمع فى الوقت نفسه هناك ؛ حيث تلقى الجنرال "ديكان" أمرًا بمراعاة جانب التجار العرب بشكل خاص.

فما نوع تلك المعركة واسعة النطاق التى استطاع نابليون من خلالها بلوغ مصر مرة أخرى، برًا وبحرًا ؟ والمؤكد أن نابليون كان مهمومًا ومشغولاً بهذا البلد.

* * *

---

(١) موريشيوس الآن. (المترجم)

(٧)

وعلى ذلك فليس ثمة ما يثير الدهشة إذا ما حاولنا التعرف على " سر نابليون " وهو الموضوع الأول من بين الموضوعات المطلوب معالجتها هنا . وسر نابليون له جاذبية خاصة ، ذلك السر الذى ظل فى نطاق الحلم . كان مؤثراً للغاية مثل كل شيء مغرٍ جذاب لم يكتب له أن يكتمل . إن التعرف على هذا السر سوف يساعدنا كثيراً على اقتحام هالة الأسرار المقدسة التى كان نابليون يحب أن يحيط نفسه بها ؛ كيما يُخضع له الكثيرين على نحو ما يُقال . لأنه فى هذا أيضًا كان لغزًا مثل أبى الهول العظيم[١] .

ومنذ صبيحة اليوم التالى لمعاهدة " تليست " وألكسندر الأول يريد أن يتحدث مع نابليون عن القسمة التى أغراه بها من قبل . بيد أن نابليون لم يرد أن يخوض فى هذا الأمر ؛ ومن هنا كان تذمر ألكسندر ، على أن نابليون سارع بتهدئته واحتوائه عبر خطاب بليغ مؤثر : فرسالته الشهيرة التى أرسلها إليه فى اليوم الثانى من شهر فبراير من العام ١٨٠٨ أجهد فيها نفسه كى يجذب خيال القيصر نحو الطرق الموصلة للهند ؛ وذلك بغية إرغام إنجلترا على الخضوع والاستسلام.

وعندما خاب أمله ، عاد القيصر إلى فتح موضوع القسمة ، وتعين على سفير فرنسا فى سان - بطرسبرج المدعو " كولانكور " أن يكون مستعدا خلال بضعة أسابيع للدخول فى المحادثات . ولم تفض هذه المحادثات ، وما كان ممكنًا أن تفضى إلى شيء، برغم أنهما علقا عليها كثيراً من الأهمية . ولنقل فقط أنهما اتفقا على احتفاظ فرنسا بمصر وسوريا ؛ ولكن كان يجب أولاً موافقة بريطانيا على ذلك... وكذلك محمد على.

---

(١) كان أبو الهول فى الأساطير اليونانية القديمة يطرح ألغاز ويطلب حلها للمارة وفى حال عدم حلها يفترسهم ؛ ومن هنا أصبح رمزًا للغز مستعص على الحل. (المترجم)

ومع ذلك كان يوجد فى العام ١٨٠٨ استعدادات نشطة فى كل موانئ الإمبراطورية (النابليونية) ، وبصفة خاصة ميناءى لوريان وطولون . وفى١٣ من شهر مايو يوجه الإمبراطور نابليون رسالة إلى " دكريه " وزير بحريته ، تحمل تعليمات مطولة ، جاء بها : " لتتدبر حالك بحيث يمكن أن يتوفر لدى بطولون ، فى الأول من سبتمبر، ثلاث بارجات ذات ثلاثة أسطح ، حاملة ٢٤٠٠ رجل ، وبارجتين ذات ثمانين مدفعًا وحاملة كذلك ١٤٠٠ رجل ... وإجمالى الجيش ١٩٠٠٠ رجل و ٩٠٠ من الفرسان يحملون على ٨٦ سفينة مزودة بالمياه التى تكفى الجميع لمدة شهرين ونصف الشهر والأمر نفسه للمسافرين ، وفيما يتعلق بالميرة فيتم تزويدهم بما يكفى أربعة أشهر". وكان قصده أن تتحرك حملة من ميناء لوريان إلى جزيرة فرنسا (موريشيوس) ، بهدف تضليل العدو بأن المقصود التوجه للهند : فقد كتب الإمبراطور " أنه عازم على إرسال هذه الحملة ... وفى الوقت نفسه سأرسل أسطولى من طولون بعشرين ألف رجل يبحرون عبر خليج ترنتو للتوجه إلى مصر".

وعاد فى ٢٦ مايو يفكر فى شن حملة على الجزائر وصقلية ومصر؛ ويبين أنه من المفترض تركيزها على مصر ولنقرأ فقط هذا النص : " إننى أفترض بأن تغذية البحرية المطلوبة التى ستدبرونها للأسطول تصل لنحو ستة شهور بالنسبة للمؤن والجرايات الكاملة ، ولسبعة شهور بالنسبة للبقسماط . ولأجل التوجه إلى أبى قير ، سيكون أسطولنا فى حاجة إلى ما يكفى تغذية طاقم رجال الأسطول والمسافرين لمدة ٤٥ يومًا ، وأفترض أن الرقم سيتضاعف من المؤن لرجال الأسطول ؛ لما يغطى ثلاثة أشهر ؛ وسوف يفرغ الأسطول مع المسافرين على شاطئ أبى قير ما يكفى لاستهلاك شهر واحد من البقسماط والمياه . ومن ثم سيبقى لرجال الأسطول ما يكفى من المؤن لمدة ثلاثة أشهر ، وهذه المؤن تكفى لعودتهم إلى ترنتو أو للعودة إلى طولون . "

وكان يوجد فى ذلك الوقت حملتان ، الأولى وُجِّهَت ضد جزيرة ألبا " ويقودها عميد البحرى " الموند " ، والأخرى على كورفو ، يقودها العميد جانتوم ، والأخيرة وفرت لفرنسا موارد وفيرة وعتاداً حربيا على درجة كبيرة من الأهمية (وذلك فى

فبراير – أبريل ١٨٠٨) . وإذاً لم يكن بالأمر المستحيل توجيه حملة على مصر ؛ سواء تم إرسالها من ترنتو أو من طولون ؛ فقد كان الظرف المادى فى ذلك الوقت أسهل بكثير من ظروف عام ١٧٩٨.

وتأثرت إنجلترا جداً بتلك الأحداث ، ومنذ ٢٦ فبراير تحيط محمد على علماً بها وبما وراءها ؛ الأمر الذى دفع الأخير إلى أن يسارع إلى تحصين الإسكندرية بهمة شديدة، لكنه رفض المساعدة التى عرضها عليه الإنجليز . وفى ذلك الوقت وصل إلى مرسى الإسكندرية سفينة الشباك الفرنسية Un chébec français[1] . تدعى لو سرپن le Serpent ؛ وكان تأثيرها كبيراً جداً : فقد كانت تعد بمثابة سفينة استطلاع لأسطول طولون ، كما أنها اعتُبِرَت دليلاً على أنه فى الإمكان نزول حملة بمصر . ولكن شئون إسبانيا ، ثم نشوب حرب جديدة ضد النمسا(١٨٠٩) أدت إلى توقف تطور مجرى تلك الأحداث الكبيرة.

وبعد معركة فاجرام وتغلبه على النمسا تزوج نابليون من ابنة القيصر ، وبهذا بدا وريثاً لكل قياصرة روما السابقين . وفى الوقت نفسه أعلن لمجلس الشيوخ بلغة بليغة بصفته إمبراطوراً " أن دولة روما انضمت إلى الإمبراطورية الفرنسية ، وصارت مندمجة بها ، وأن مدينة روما أصبحت تتبوأ المرتبة الثانية بين مدن الإمبراطورية . وأن الأمير الإمبراطورى يحمل لقبه ويتلقى التشريفات والتمجيد التى كانت لملك روما . وأن الأباطرة بعد تتويجهم داخل كنيسة نوتر دام بباريس ، يجرى تتويجهم داخل كنيسة سان بيير بروما ، وذلك قبل السنة العاشرة من حكمهم " . فأى معنى لهذا التتويج الثانى والذى حدد الإمبراطور نفسه تاريخ انعقاده فى العام ١٨١٣ أو ١٨١٤ ؟

---

(١) سفينة ذات ثلاث صوارٍ (المترجم)

لقد أصبح نابليون بعد انتصاره على روسيا فى العام ١٨١٢ سيداً على الشرق، تماماً مثل يوليوس قيصر عند عودته من مصر بعد انتصاره فى معركة فارسال ، أو مثل أوغسطس عند عودته من مصر – كذلك – بعد انتصاره فى معركة أكتيوم ؛ حيث صار سيداً على الشرق مثلما هو سيد على الغرب ، ففى هذه اللحظة بالفعل تم لنابليون إنجاز بناء الإمبراطورية ؛ وحينئذٍ صار بإمكانه أن ينال تاج القياصرة الرومانيين فى مقر السلطة بروما التى أجرى بها الاستعدادات لاستقباله.

وبدت مكانة مصر كبيرة فى هذا المشروع الإمبراطورى ؛ لأنه لا يمكن تصور إمبراطورية بدون الشرق ، وليس هناك شرق بغير مصر.

وأصدر الإمبراطور أمراً فى ١٥ يوليو ١٨١٠ ببناء أسطول نقل فى البحر المتوسط . وكرر الأمر مرة أخرى فى ١٧ سبتمبر وهو فى دوكريه بقوله : " إننى أتطلع إلى أن تحيطنى علماً بما سيكون عليه الأسطول ، وقدرة حمولته ، ومتى تتوافر لدى من الوسائل ما يمكننى من أن أحمل عليه إلى مصر ، على سبيل المثال ، خمس فرق من القوات التى كل واحدة منها تشتمل على ثمانى كتائب ، بحيث يكون مجمل كل فرقة ٦٠٠٠ رجل ، ليصبح مجموع الفرق الخمس ٣٠٠٠٠ رجل من المشاة، إلى جانب ٤٠٠٠ رجل من سلاح المدفعية والمهندسين ، و٦٠٠٠ رجل من سلاح الفرسان ؛ ليصل إجمالى الحملة إلى ٤٠٠٠٠ ، فضلاً عن ٥٠٠ عربة مدفعية و ٢٠٠٠ حصان لسلاحى المدفعية والفرسان ؟ "

وعند حديثه بعد ذلك عن أسطول بولونيا نجده ينهى خطابه بقوله : " تلك هى خطتى لحملة العام ١٨١٢ . وسوف أنتظر التقرير الذى ستسلمونه لى فى المجلس القادم ، وإنه ليتعين أن نأخذ فى الاعتبار النتيجة التى يجب أن تصلوا إليها فيما يخص تلك الحملة ".

وعاد من جديد إلى نفس الموضوع فى ٨ مارس ١٨١١: " إذا كانت الظروف فى العام ١٨١٢ سوف تكون ملائمة لأن نعد حملة إلى صقلية أو إلى مصر فى البحر

المتوسط ، فإننى أتمنى أن تعدوا كل ما هو ضرورى لإعطاء أساطيلى بـ " إسكوت " و " طولون " طابع التهديد " . وبعد أن استرسل بكثيرٍ من التفاصيل الدقيقة، فى كل كبيرة أو صغيرة ، حول تسليح الأسطول وعتاده الحربى لإعداده لعملية النقل أنهى أمره بقوله : " ولا بد أن إعداد كل ما هو ضرورى لحملة مصر قد تم بالفعل بطولون . فلترفعوا إلى تقريراً حول نوعية السفن الأكثر ملائمة أولاً للصعود فى نهر النيل وثانياً لدخول البحيرات الواقعة إلى جانب أبى قير . "

ورغم جهود الإنجليز ، فإن " كورفو " التى تمت السيطرة عليها بشكلٍ جيد ، وتم تموينها وتزويدها بالعتاد باستمرار ، أصبحت ترسانة ضخمة فى مواجهة مالطة ، وتقع على مسافة تماثل بعد مالطة عن مصر . وبات كل شيء معدا لمعركة كبرى ، معركة البحر المتوسط ، معركة أخرى شبيهة بمعركة النيل : معركة فارسال أو أكتيوم .

وكتب نابليون ، فى ١٣ أكتوبر ١٨١٠ ، إلى وزير العلاقات الخارجية رسالة يقول فيها : " السيد لو دوق دو كادور فلتطلب من قناصلى بسوريا ومصر أن يكتبوا مذكرات حول الظروف الداخلية لتلك البلاد عند الأول من يناير ١٨١١ وسيتعين عليهم أن تكون معالجتهم لهذه المسألة فى شكل تقرير سياسى وعسكرى ومالى . كما يطلب منهم ، فى الأول من يوليو القادم ، تجديد تلك الاستخبارات ، وفى الأول من يناير ١٨١٢ يتجدد مطالبتهم بالأمر نفسه ؛ حتى أكون ملما بكل المعلومات التى سأحتاج إليها فى تلك المذكرات التى سوف تنتظم على هذا النحو، والتى تتصل بالعلاقات الخارجية . "

وطالب بشكلٍ ملحٍ فى رسالته المؤرخة بـ ٦ ديسمبر التالى : " السيد لو دوق دو كادور ، لتكتب رسالة سرية إلى قناصلى فى مصر أن ينقلوا إليكم الاستخبارات والخرائط المفصلة بدقة حول الاستحكامات والتحصينات بكل من القاهرة والإسكندرية ودمياط والعريش . واكتبوا أيضاً إلى قناصلى بسوريا أن يرسلوا تفاصيل تحصينات

غزة ويافا وعكا . ولتوصونهم جميعًا بأن يرسلوا تلك التقارير الاستخبارية فى حينها وبكتابة مشفرة " .

واعتمد نابليون أيضًا ، فى ١٣ أكتوبر ، مشروع استقصاء المعلومات الذى كلف به السيد نرشيا المبعوث إلى مصر وسوريا ، وتعين على هذا المبعوث أن يأخذ فى حسبانه مختلف الأماكن : بعكا ويافا ورشيد والإسكندرية وقلعة القاهرة " وعليه كذلك أن يدرس جيدًا الموقف السياسى لمختلف الأطراف بكل من سوريا ومصر " .

وكان نابليون ، فى تاريخ سابق (٣٠ يونيو) ، قد دعا وزير الحربية المدعو كلارك : " أن يرسل " بوتان " قائد الكتيبة إلى الإسكندرية ... وأن يصيغ له الحجة التى يسوقها بشأن رحلته ، وأن المطلوب منه أن يتمكن من الإخبار عن حقيقة الوضع فى الإسكندرية والقاهرة ودمياط والصالحية والعريش وغزة ويافا وسان - جان بعكا ... وأن يستقصى المعلومات الخاصة بكل تلك الأماكن .... وأن يقدم ملاحظته عن القوى العسكرية التى تحمى تلك البلاد ، وفى النهاية عليه أن يجمع كل الاستخبارات العسكرية والمدنية " .

ونجده يثور غاضبًا ، فى ١٤ أكتوبر التالى ، وذلك عندما كتب يقول " السيد لو دوق فيلتر : إننى أعتقد أن الضابط بسلاح المهندسين بوتان قد توجه إلى مصر وسوريا . ومع ذلك لم تحطنى علمًا بتفاصيل مهمته . وسواء توجه بوتان إلى هناك من أوترانت أو من أنكون ؛ فإن عليه أن يُخفى أصل مهمته كما فهمته ، وأن ينجز المهمة . وليمض كل موسم الشتاء وجزء من فصل الصيف فى مصر وسوريا على نحو يمكنه بعد ذلك من إعداد تقرير عن الحالة العسكرية والسياسية لتلك البلدان . ولتوصه بأن يرى قلعة القاهرة وقلاع الإسكندرية ودمياط وسان - جان بعكا . وأن يعرف بأن حلب ودمشق والإسكندرونه متضمنة فى مهمته الرسمية . ولتزل كل العقبات ولا تحدثنى أكثر من ذلك فى هذا الأمر " .

ويرحل نرشيا وبوتان معًا ، وكل منهما فى الاتجاه المحدد له . ونذكر من بين التعليمات الموجهة إلى نرشيا ما يلى :

– أنه يتعين عليه أن يعرفنا ما هى القوات التى تقوم على حراسة الأماكن المختلفة (بسوريا) ، وعلاقات الحكام فيما بينهم ، والمصالح ومواطن التحاسد والغيرة التى تجعلهم منقسمين على أنفسهم ، ومواقف البشوات والبكوات تجاه الباب العالى والنتائج التى تتمخض عن ذلك بالنسبة لحالة الدفاع وأمن البلاد .

– ويتوجب عليه أن يرصد ذات الملاحظات بالنسبة لحالة مصر ، وبصفة خاصة ما تعلق برشيد والإسكندرية وقلعة القاهرة ، باحثًا عن الانطباع الذى تركته حملة الفرنسيين فى تلك الأماكن ؛ وما هو الانطباع الذى ما زالت تحتفظ به النخبة من الكبار والأهالى تجاه فرنسا ، وما هى سلطة الباب العالى هناك ، وما هى القوات التى تتولى الحفاظ على مصر ، وإلى أى حد يمكنها الاعتماد على انقياد وخضوع الناس فى هذا البلد : " وحتى يمكنك أن تثابر وتصمد ضد كل الصعوبات والمتاعب التى ستعترض مهمتك الكبيرة عليك أن تتذكر أنك ممثل لجلالته فى تلك البلاد ، وقائم باستكمال الأعمال الباهرة للجيش والتى منها هذا النوع من الأعمال التى لا يمكننا إلا أن نوليه اهتمامًا كبيرًا .... ولتتقبل خالص الأمنيات التى نقدر بها نجاحاتك ، ولتتوجه إلى مهمتك بكل الثقة .إنما أنت تقوم بخدمة جلالته ؛ وحسن طالعه سيحميك " . القيصر وحسن طالعه ! ـ إن مثل تلك التعبيرات التى تقال من وزير إلى وكيل تضفى فى الحقيقة أهمية خاصة على هذه المهمة .

وأمكننا أن نتابع تقارير نرشيا الذى كان فى إستانبول فى شهر مايو ١٨١١ . ووفقًا لقوله اجتاز إستانبول إلى الأناضول ؛ وهناك تحقق من وجود بؤس شديد وحالة من الاستياء العام ، وبحسب قوله : " بلغ الوضع المؤسف فى هذا الإقليم حدًا تمنى معه القطاع الحرفى والريفى سيطرة إحدى القوى الأوربية التى تخلصهم من الطغيان العثمانى ومن عسكرهم الغزاة " . ويستطرد قائلاً : – أنه فى حالة هجومنا على سوريا ومصر ، سنجد فى بلاد الأناضول موارد وفيرة يمكنها أن تغذى لبضع سنوات جيشًا من ٢٠٠٠٠٠ جندى ؛ وآسيا الصغرى نفسها يمكنها أن تزود بالأغذية جيشًا قوامه مائتا ألف جندى كذلك ، وإذا البشوات سمحوا بالتموين فإنها يمكنها أن تمد مائتى ألف آخرين .

ووصل نرشيا طرابلس بسوريا في يناير ١٨١٢؛ وكانت ثمة شائعة منتشرة فى البلاد حول توقع وصول أسطول فرنسى إلى سواحل مصر . وكان يقطن عكا ٦٠٠٠ أو ٧٠٠٠ نسمة ، وليس لديهم سوى دفاعات بدائية متخلفة ؛ ولا يوجد إلا حامية قوامها ٥٠٠ جندى ، إلى جانب ٥٠٠ مملوك مبعثرين فى الغالب هنا وهناك أو غائبين عن أماكنهم . وقال أيضاً بأن يافا من السهولة بمكان السيطرة عليها .

ويمكننا أن نستنتج من تلك المعلومات التى شابها روح المجاملة أنها كانت مستفيضة فى المعانى التى كان يتطلع إليها الإمبراطور ؛ تلك المعانى التى تسللت إلى ضمير الوكلاء وحماستهم ، وهذا تحديداً ما نود أن نبرزه هنا .

ولم نعثر على كل تقارير الكولونيل بوتيان . وكان قد حصل ، فى ١٦ نوفمبر ١٨١٠، من شمبانى على بطاقتى مرور ، واحدة بصفته مُكلفًا بمهمة لدى قناصل مصر وسوريا ، والبطاقة الأخرى بصفته رحاله تاجر . ووصل بوتان الإسكندرية فى نهاية شهر مايو وفى الحال تنقل مع دروفيتى من منطقة إلى أخرى بمصر . وتحقق من أن محمد على لم يتوقف منذ ثلاث سنوات عن تحصين الإسكندرية ، ولكن التحصينات ليست قوية . ولاحظ بشكلٍ خاص بأن الباشا يخشى من عملية إنزال فرنسية وأنه ليس لديه ما يمكّنه من المقاومة هناك . وسنلاحظ هذا الأمر بصفة خاصة مع دروفيتى فى برقيته المؤرخة فى الخامس من شهر يونيو ١٨١١ : – بأن محمد على لا يمكنه المقاومة طويلاً سوى بتسعة أو عشرة آلاف من الجنود يقوم بتوزيعهم على السواحل ...

وأن ثمة اعتقاداً قويا ساد بين القوات بأنهما لا يمكنهما مقاومة الفرنسيين ؛ وأن الباشا نفسه مقتنع بذلك جيداً ، وأنه أعطى جُل عنايته لسلاح الفرسان الذى يبنى عليه آماله فى تحقيق انسحاب يمكنه فعله على الساحلين ، سواء من خلال ساحل العريش إلى سوريا ، أو عبر الجزيرة العربية من خلال السويس حيث يربض أسطوله هناك فى حالة استعدادٍ تام – وفقًا لما يقوله – لمواجهة كل الحوادث الطارئة ؛ وثمة طريق آخر

للانسحاب صوب الصحراء التى توفر له مع ذلك إمكانية أن يبذل قصارى جهده فى حماية الإسكندرية ، حتى يتمكن من تلقى المساعدات من الخارج .

وفى الحقيقة ليس ثمة ما يؤكد أن محمد على كانت تلك هى مقاصده ؛ إذ أنها لا تتفق تمامًا مع ما نعرفه عن طبيعة شخصية هذا الرجل ؛ ولا كذلك مع الآلية التى تصرف بها مع الإنجليز فى العام ١٨٠٧ ، فى وقت كانت موارده أقل كثيراً مما كان متوافراً لديه فى العام ١٨١١ . ويكفينا ما لاحظناه على وكلاء نابليون وميلهم إلى إرضائه فى تسويغ فرضية شن حملة فرنسية تالية .

ولم يكن محمد على على دراية بالتعليمات السرية المكلف بها الكولونيل بوتان تحت صفة " تاجر- رحالة " ولو علم هذا الحاكم بطبيعة هذه المهمة لاستشاط غضبًا . وكان بوتان قد غضب بشدة عندما علم بمرور حامل بريد المراسلات المدعو " قادر " المخصص فى نقل بريد جزيرة فرنسا[١] ، وبصعوبة بالغة تمكن دروفيتى من تهدئته.

ولو أن حملة روسيا دارت على نحو مغاير لأحداثها ، لكانت قد وضعت الإمبراطور فى وضع يمكنه من تنظيم شئون الشرق وفقًا للشكل الذى كان يحلم به والذى أمكننا تحديد ملامحه العامة . وعلى ذلك فقد أنجز نابليون عند هذه اللحظة بناء الإمبراطورية وصعد إلى تل الكابيتول Capitole [٢]. وهكذا لم يحالفه القدر فبقيت مصر لمحمد على .

* * *

---

(١) مورشيوس الآن. (المترجم)

(٢) الكابيتول : هو أحد تلال مدينة روما وكان القادة المنتصرون فى الحروب يصعدون إلى معبد إله جوبيتر مكافأة ليتبركوا به على انتصارهم . وكان هذا الاحتفال آخر مرحلة فى تكريم القائد على انتصاره من قبل الوطن. (المترجم)

(V I)

وفى تلك اللحظة نفسها كان محمد على قد نجح فى التخلص من المماليك . وعندما قام الإنجليز بعملية إنزال قواتهم فى العام ١٨٠٧ ، أعادوا اتصالهم بالمماليك ، ولذلك كان محمد على فى موقف شديد الصعوبة . وكان المماليك فى حاجة إلى هذه الفرصة ؛ ولكن الفرصة يمكن أن تتكرر ، وما داموا قد ظلوا مدججين بالسلاح فى كل مكان ، باتجاه الفيوم أو داخل صعيد مصر ، فإن سلطة محمد على قد ظلت مستهدفة.

ومن ثم كان لابد ألا يتوقف عن مراقبتهم : فخاض معهم حربًا استنزافية دامت لبضع سنوات . وتسمح مراسلات كل من دروفتى وسان مارسيل بمتابعة هذه الأحداث ، كما يُقال، يومًا بعد يوم .

ولم يوجه الباشا ضد المماليك سوى تجريدات صغيرة ؛ إذ إنه لم يندفع لملاقاتهم عن قرب ، وكان يخشى من قوة فروسيتهم ؛ ولذلك آثر التفاوض معهم . ولما كان لديه الكثير من الموارد المالية – وذلك بفضل مبيعات قمحه للإنجليز – فقد نجح فى أن يشق صفوفهم مستميلاً بعضهم ؛ وهم فى الحقيقة لم يواجهوه سوى بمقاومة الرمال المتحركة.

وفى لحظة واحدة أبدى المماليك استعدادهم للاستسلام له ، شريطة أن يقطعهم حصة من أراضى الصعيد ، بيد أنه آثر أن يبقيهم معه بالقاهرة ؛ وذلك لأسباب مختلفة، يأتى فى مقدمتها على وجه الخصوص عدم رغبته فى تجزئة مصر . ومن هنا بدأت المواجهات بينهما على طول نهر النيل ووفقًا للفيضان كانت هذه المواجهات أقرب للنزهات العسكرية : إذ كان يتحكم فى هذا النوع الخاص من العمليات العسكرية المناخ وطبيعة الأرض .

والحال أن المماليك كانوا يبحثون عن مساعدة خارجية ؛ ووفقًا لخطاب شاهين بك الذى نقلناه ، يستنتج بأنهم كانوا فى حالة اتفاق مع الإنجليز .

وعلى حين غفلة منهم حشد محمد على ضدهم ، فى أغسطس ١٨١٠، وحدات عسكرية كبيرة أنزلت بهم عند مداخل الفيوم هزيمة ساحقة ، كبدتهم خسائر فادحة : لقد كان قراره المفاجئ بخوض تلك المعركة قرار تاريخى ليس فى تاريخه فحسب، بل فى تاريخ مصر كلها ؛ وسارع بعدها يعلن لدروفيتى أن الطغيان المملوكى أصبح فى النهاية أثراً بعد عين . وسرعان ما طلب المنهزمون التفاوض والاستسلام؛ ليقيم غالبيتهم بالقاهرة ؛ فيما تراجع البعض منهم إلى مناطق نفوذهم بالصعيد.

واعتقد محمد على أن باستطاعته - عندئذٍ - أن ينشغل وبهدوء تام بشن حملة على الجزيرة العربية خطط لها منذ فترة طويلة ، وتوجه بنفسه إلى السويس حتى يعجل من استعدادات الحملة . بيد أنه اكتشف ، على نحو ما وضح له ، أن ثمة رسالة مشبوهه بين المماليك وأعدائه القدامى (الإنجليز) الذين توقفوا عن محاربته . وعاد على أثر ذلك سريعًا إلى القاهرة ، بحجة ترأسه لحفلة أعدها لابنه طوسون باشا الذى عهد إليه بقيادة القوات الموجهة للجزيرة العربية . ودعا المماليك لحضور الحفل ، وجاءوا إلى القلعة ، بغير حذر أو ارتياب ، وهم يرتدون أزهى ملابسهم الرسمية . وسرعان ما تمت مذبحتهم عن آخرهم (وذلك فى الأول من شهر مارس ١٨١١) .

بيد أنه كان لا يزال ثمة قلق ممن بقوا منهم بالصعيد ؛ ولذلك وجه ابنه الثانى ابراهيم باشا لمحاربتهم ، وكان الحظ حليفه ؛ حيث تمكن من إحلال السلام بربوع الصعيد . وكان إبراهيم فى الوقت نفسه مكلفًا بإدارة الخزينة العامة للبلاد ، وهو الميدان الذى أداره بكفاءة وبكثيرٍ من الحماس . ودعاه والده ليكرمه بالتشريفات، وبينما كان الباشا بالقاهرة كان آخر فلول المماليك يجرى تصفيتهم فى إسنا (وذلك فى شهر مايو ١٨١٢) .

وهكذا عمَّ السلام ليصبح محمد على ، منذ ذلك الحين ، سيداً على كل ربوع مصر . ولم يعد ثمة قلق من احتمالية التعرض لغزو أوروبى ؛ وذلك بعد أن تورط

نابليون فى وسط روسيا ؛ وإذاً بات الطريق معبداً أمام محمد على ليكرس كل قوته فى حملته ضد الوهابيين بالجزيرة العربية .

وما يمكن أن نقوله هنا بشأن الحركة الوهابية أنها حركة نشأت فى مركز الجزيرة العربية عند منتصف القرن الثامن عشر ، وتحديداً فى نجد ؛ وكان تذرعها باسم محمد والخلفاء العرب القدامى العظام بمثابة رد فعل ضد الهيمنة التركية.

وسرعان ما انتشرت دعوتهم بين قبائل الجزيرة العربية ، ليشكلوا نحو العام ١٨٠٣ جيشًا كبيراً قوامه ٨٠٠٠٠ رجل . وتمكنوا من تحقيق انتصارات كبيرة على الباشوات العثمانيين الذين أرسلتهم إستانبول للقضاء عليهم . واستطاعوا بنجاح دخول مكة فى شهر أبريل من العام ١٨٠٦، وكان لهذا الحدث دوى كبير فى العالم الإسلامى. وقد جاء على لسانهم " اقترب الوقت الذى سنرى فيه العرب جالسين على عرش الخلفاء، فمنذ وقت طويل ونحن فى وهن وضعف تحت حكم محتل غاصب ".

وكان وقع الأزمة شديداً على الأسرة العثمانية : فقد تنبأت السلطنة بكل النتائج التى سنراها هنا تحدث تباعًا . وليس غريبًا أن السلطان نفسه كان منفعلاً ومتأثراً للغاية من تطورات الموقف . وكان لدى محمد على جيش قوى ؛ وهو يتلقى من السلطنة " سيفًا وقفطانًا " كعلامة على تكليفه بالمهمة التى عُهدت إليه والتى ترمى إلى استعادة السيطرة على المدن المقدسة المتمردة . وهدد السلطان بأن يرسل جيشًا آخر تحت قيادة باشا دمشق إلى الجزيرة العربية ، وهو ما لم يكن محمد على ليسمح بحدوثه؛ فهو لا يحب أن تستعيد السلطنة نفوذها على الساحل الآخر من البحر الأحمر على يد آخرين سواه ؛ كما أنه كان لا يود أن يرى فتنة الوهابيين تنتشر أكثر من ذلك لتمتد إلى القاهرة والإسكندرية .

وأصبح بإمكان محمد على ، بعد تخلصه من المماليك ، التفرغ لهذه المسألة بكل همة ونشاط ، وبالحزم والمنهجية التى كان يتبعها فى كل مشاريعه . وهو يتخذ من السويس أساسًا لحملته التى يمكن القول بأنها نُظِّمت بشكل علمى ؛ وكان ذلك بمثابة

ميلاد جديد يُنبئ عن مستقبله القادم ؛ ففى البحر الأحمر ومن أمام السويس ستنفتح له التجارة وبعد ذلك بقليل سيقيم علاقات دولية .

وعلى ذلك ، فإن محمد على سوف يحشد عتاداً ضخماً من أجل هذه المهمة . وتصل إلى السويس قوات من كل مكان فى مصر ، ومن سوريا ومن كل بلاد الشرق؛ ولم يكن ثمة انزعاج أن يستفيد محمد على من هذه الفرصة ليؤسس جيشاً كبيراً . وكان " على تبليني " الباشا الشهير بـ" ينانيا " قد أرسل إلى محمد على جيشاً قويا من الألبانيين.

وتولى طوسون باشا ، فى سبتمبر من العام ١٨١١، قيادة الجيش ، وسار إلى ينبع عند مدخل المدينة واحتلها بسهولة ، ثم دلف إلى الجبال ؛ ولكن عند شعب بدر وجد نفسه قد وقع فى كمين ، أفقده كثيراً من الجنود حتى اضطر إلى الانسحاب إلى ينبع ، ليجد جيشه محاصراً وفى موقف حرج للغاية .

وأظهر محمد على فى هذه المحنة عزماً شديداً مذهلاً : فمن القاهرة إلى الإسكندرية ، ومن القاهرة إلى السويس ، أخذ يجمع كل موارده وعساكره ومؤنه ومدافعه . وكان الفشل ناجماً عن حدوث نوع من العصيان بين القادة الذين كانوا يعملون تحت قيادة طوسون ، وكما يقول دروفيتي : " حدث نوع من التمرد داخل الجيش " : فالجنود ارتبطوا بقادتهم فى هذا الموقف وكذا التابعين لبكواتهم الذين انضموا إليهم والذين كانوا يطعمونهم ويدفعون لهم رواتبهم ؛ وعاد بعض هؤلاء القادة من ينبع إلى السويس ، بيد أنهم لم يتجاسروا على عصيان محمد على ؛ حيث مضت قواتهم تحت إدارته المباشرة . ومثلما تجاسر " لوفوا " وبصعوبة بالغة على إدخال إصلاح راديكالى فى جيوش لويس الرابع عشر ، أظهرت هذه المشكلة عبقرية وإرادة محمد على فى معالجة الموقف.

وصارت حملة الجزيرة العربية ، منذ ذلك الحين ، على طريقته القويمة ، تساعده وسائل الفساد العديدة المنتشرة بين صفوف أعدائه . واحتل المدينة فى نوفمبر ١٨١٢

ثم مكة نفسها فى شهر يناير من العام ١٨١٣ ، وعلى أثر ذلك طُرِدَت القبائل الوهابية إلى الصحراء . وحمل إسماعيل باشا أصغر أبناء محمد على مفاتيح المدن المقدسة إلى إستانبول ؛ وهناك تم استقباله بعظيم التشريفات . ليصبح اسم محمد على ذائع الصيت فى العاصمة نفسها التى كان له فيها أعداء كثيرون .

ومع أنه كان يؤدى فريضة الحج بالكعبة ؛ إلا أنه جاب كل إقليم الحجاز ، وأعاد الاستقرار والنشاط لتجارة جده ، ليصبح سيداً على ضفتى البحر الأحمر ، ومن هنا صار نفوذه وقوته تسترعى الانتباه . وصار لديه ، بين صحراء ليبيا وصحراء الجزيرة العربية ، مصدران غنيان بقيمة غير عادية زراعية وتجارية : النيل نهر المياه العذبة ، وطميه الغزير الذى يتوالى تراكمه فى فصل الصيف فى اتجاه البحر المتوسط وأوروبا ، والبحر الأحمر المفتوح على المحيط الهندى باتجاه الهند وآسيا ، يمثل المدخل الأساسى إلى العالم القديم .

وبعد عشر سنوات من المعارك الضارية ، وخوضه صراعات مع المنافسين المحليين ومطامع وتطلعات الأجانب ، وشكوك ومتطلبات الباب العالى ، صار بالفعل إن لم يكن قانونًا هو صاحب السلطة المطلقة فى كل هذا الميدان . وأصبح النظام مؤمنًا : وتم إرسال شريف مكة المشتبه فى نواياه إلى إستانبول ؛ ولطيف باشا الذى كان مضطربًا للغاية عند عودته إلى هناك قادمًا من إستانبول وجد أنه من الاستحالة أن يلحق به أذى . كما أن المماليك فى ذلك الحين كانوا قد اختفوا من التاريخ .

وكان لدى محمد على قوات عديدة إلى حد ما ، بيد أنه منذ ثورة ١٨١٢ توافرت لديه قوات كبيرة ونظامية ؛ وإذا كانت لا تزال ينقصها التنظيم الأوربى ؛ فإنه سيعالج الأمر بشرائه الخبراء ؛ إذ كانت له آمال عريضة ويتقبل وضعه أينما كان . وعرف بالفعل أن يبنى أساطيل حربية .

وكان لديه من الموارد المالية ما يكفى للقيام بالمشروعات الجديدة . وكان نشوب الحرب بين فرنسا وإنجلترا سببًا فى تنشيط تجارة الحبوب ، الأمر الذى أمن القاعدة المالية المستندة إليها خزينته . بعد ذلك نجده يقوم بقياس الأراضى

لأجل تقنين الضريبة العقارية . وشجع الصناعة في مواطنها ، وجلب الصناع والحرفيين من أوروبا . إن متابعة هذه المبادرات المدهشة تجعل بالنا لا يتوقف عن تذكر بطرس الأكبر .

واهتم بتطوير كل الأشغال العمومية ، وأحسن استغلال مياه النيل بشكل جيد وذلك من خلال اهتمامه بشق القنوات . وكان حريصاً على الاستفادة من كل ما يجلبه الفيضان من خيرات دون أن يفقد منها شيئاً . وكان يُجل هذا النهر العظيم .

وحدث أن وقع الطاعون في البلاد ، وكان المعتقد السائد حتى ذلك الحين أن هذا المرض ينحسر بعد عدة شهور من تدميراته . وأن المسألة مرتبطة بما يحتمه القدر . لكن محمد على طبق العمل بالإجراءات الصحية القاسية على نحو ما كان سائداً بأوروبا وفي ذلك الوقت كان يوجد في أوروبا نفسها بلاد تجهل كل الإجراءات الصحية .

وأصبح لديه بالإسكندرية غرفة للعقود كتلك التي كانت في مارسليا ، والتي تقوم بدور صندوق الخصومات : إذ كان يتعين تسهيل المعاملات التجارية . وطبق بطريقة اقتصادية النظام الكامل لاحتكار الدولة ، وذلك بالشكل الذي كان يحلم به ، ولما كانت الدولة ممثلة في شخصه ، وهذه الدولة تملك كل شيء ، الأرض وما تغله من خيرات ، بل ويمكن القول بما في ذلك الرجال أنفسهم – فإن مصر كانت كلها ملك يمينه.

ولم يرد محمد على أن تكون ثروة مصر ألعوبة في يد التجار أو الماليين الأجانب . ولذلك أسس مكتبًا للصرافة في مالطة ، فيما يشبه البنك الممثل للدولة المصرية والذي يعمل على ضبط مسألة التلاعب بالأسعار عند مقايضة الحبوب المصرية بالمنتجات المصنعة في إنجلترا . ولأنه كان حريصاً على ألا تتحول مصر إلى مستعمرة تجارية لتجار لندن ؛ فقد كان يعمل على استقلاله في هذا الجانب كما كان مستقلا في كل شيء .

وذات يوم أعرب لـ" دروفيتى " عن رغبته فى الاتفاق مع فرنسا على تنظيم تجارة البحر المتوسط . ويبدو أن " دروفيتى " لم يكن على دراية بكل أبعاد هذا المخطط، ومن ناحية أخرى لم تكن لديه تعليمات ، كما أن الظروف لم تكن مواتية فى ذلك الحين .

وحرك محمد على النشاط التجارى بالبحر الأحمر ، وبدأ ينشئ فى السويس ميناءً كبيراً . وفى الواقع لم يتوقف التجار العرب عن التردد على تلك الأنحاء ، بيد أنهم كانوا يتوجهون إلى المحيط الهندى من زنجبار إلى الخليج الفارسى ، ولن يلتقى بهم التجار الأوربيون إلا بعد أن يتجاوزوا طريق رأس الرجاء الصالح . وكان يجب أن تتحول وجهة السويس نحو الإسكندرية ، وأن يفتح البحر الأحمر على أوروبا .

وأنشأ محمد على سفينة فى ترسانة الإسكندرية . وفكر فى إرسالها إلى السويس لتقوم بالدوران حول إفريقيا . ومرت السفينة بمالطة وإنجلترا . بيد أن الحكومة الإنجليزية لم تستحسن هذا الطموح المفرط . وتحفظت على السفينة ؛ غير أنها اعتنت بها وبهيئتها عناية فائقة ، كما عملت على تجهيزها بالعتاد والتسليح ، ثم أعادتها إلى محمد على وهى فى أروع شكلٍ لها. وتعين عليه توجيه الشكر لإنجلترا ، لكنه أيضًا كان ما زال يفكر فى الأمر : ففى الحقيقة كان من المستحيل أن يرضى محمد على بمرور وقت طويل على نقلها من الإسكندرية إلى السويس ؛ إذ كان من المقرر لها تنفيذ المهمة البحرية حول إفريقيا . وهكذا أدارت كل من الإسكندرية والسويس ظهريهما لبعضهما البعض ؛ وبدت مصر كأنها مجزأة .

وبات من الملح ضرورة عمل قناة تصل بين البحرين ؛ وكان يجب من أجل مصر وكل العالم القديم العودة إلى هذه النقطة الأساسية . وبالفعل بعد أقل من عشر سنوات من توليه السلطة بدأت الطموحات الواسعة تُداعب خيال محمد على .

وكانت إستانبول تعج بالأعداء الحانقين على محمد على ، وهم أولئك الذين طردهم من مصر .

ودون شك لم يكن محمد على عرضة للتقلبات المفاجئة في مزاج السلطان، كما أنه كان يعرف كيف يدافع عن نفسه . بيد أنه كان يُفضي إلى أصدقائه برغبته في الاستقلال ؛ وأنه يحلم بأن يضع مصر في مصاف الولايات المتميزة في بلاد البربر[١].

وتزوج محمد على في العام ١٨١٢ بأرملة الباشا السابق لولاية "درنا" ؛ وكان هذا الزواج بكل تأكيد زواجًا سياسيا على الطريقة السائدة بين الأمراء المسيحيين. وكان محمد على يتطلع إلى ولايتي برقة وطرابلس ، وبعد ذلك بقليل سوف يتطلع إلى الجزائر.

ولما كانت إنجلترا في شهر أبريل من العام ١٨١٠ تخشى من احتمال حدوث حملة فرنسية جديدة على مصر ، فقد عرضت عليه أن تحقق له استقلاله . ولكن محمد على كان متخوفًا ألا يكون مستقلا كلية إذا ما تحقق هذا الاستقلال على يد الإنجليز. ولذلك آثر أن يتفاهم في هذا الأمر مع فرنسا بطريقة شبه صريحة وودية تمامًا . وكان السيد " دو لاتور – موبورج " القائم بالأعمال الفرنسي في إستانبول قد كتب إليه بخصوص هذه المسألة رسالة لطيفة ، طمأنه فيها بطريقة مؤثرة . ولم يكن لدى " دروفيتي " أية تعليمات بشأن هذا الموضوع ؛ وما كان يمكنه أن يتحصل على ما يفيد في هذا الأمر طالما أن نابليون ليس معنيا في هذا الجانب سوى بالقيام بحملة عسكرية : ومن غير شك كان لذلك التحالف السياسي قيمة كبيرة ؛ غير أن نابليون كان بعيداً ؛ فلم يقدر أهمية ذلك ، ولا كان على دراية بالقوة الجديدة التي أصبح عليها باشا مصر ؛ وخاصة أن الرقابة البحرية الإنجليزية مثلت سوراً حائلاً ، جعله بعيداً عن إدراك ذلك .

---

(١) المقصود ببلاد البربر شمال إفريقيا. (المترجم)

والحال أن محمد على كان لديه أيضًا مخطط كبير بدأت تظهر بالفعل خطوطه العريضة . وحاول أن يقيم مع بدو الصحراء نظامًا لعلاقات طبيعية يمكن أن تحقق النفع للطرفين . بيد أن الوثائق الفرنسية لا تلقى أضواء كاشفة على هذه النقطة ؛ على حين ستكشف الوثائق العربية التى نبحثها عن آفاق أخرى تظهر تطلعه نحو بلاد الرمال فى اتجاه مدينة الخرطوم التى سيحدد محمد على موقعها .

ولن يُخفى مقاصده من فتح سوريا ؛ حيث كان سادة مصر دائمًا ما يرغبون فى فتح الطريق إلى آسيا ، عبر عكا ودمشق وبغداد ، وذلك على عكس طريق الفتوحات العثمانية . وقد طالب بتنصيب كل من ابنه طوسون فى باشوية عكا ، ويوسف باشا الذى كان أحد أتباعه فى باشوية دمشق : إن هذه النهضة العربية بالفعل تدفع بالأتراك إلى ما وراء طوروس .

ومن الجانب الآخر وعبر سيطرته على الحجاز واليمن وبلاد الجزيرة العربية الواقعة على الخليج الفارسى – فتح لنفسه منطقة نفوذ واسعة من البلدان المتصلة بالمحيط الهندى ؛ ولم ينقطع التجار العرب عن اقتفاء أثر نيرك ؟ عندما رجع بسفن الإسكندر الأكبر من الهند إلى الفرات وإلى بابل .

وشيد محمد على فى الإسكندرية قصراً كبيراً ؛ ومن أجل ذلك طلب من نابليون إمداده برخام المرمر الإيطالى . وكثيراً ما كان يطيب له الإقامة طويلاً بالإسكندرية " ليرى بالأحرى – على حد قوله – كل مَنْ يتوافد على البلاد من أوروبا وإستانبول " . ما أروع هذا التاريخ الذى يستدعى للذاكرة كل ما ينضوى تحت نفس هذا المسمى الذى تسمت به المدينة ! وفى كل الأحوال جمع هذا المشهد الشرق كله حيث تبرز القوة الكبيرة .

وقد قلنا أنه " تعلق بفكر بونابرت " على أننا بالأحرى سنتلمس هناك فكر الإسكندر الأكبر .

وإذا كان نابليون عندما دخل روسيا قد ذكر لماريه أنه : " من سلالة القياصرة، بل هو أفضل من كل أولئك المؤسسين " ، فإن محمد على لم يكن قيصراً ؛ ولكنه كان أكثر من فرعون ، وكان أحد أعظم الحكام المؤسسين فى التاريخ ... وعند العام ١٨١٥ [الذى ينتهى عنده هذا المجلد] لن نجد أنفسنا سوى فى بداية مسيرته .

إدوارد دريو

١٨٠٧

١ – من الوزير إلى دروف تى نائب القنصل القائم بأعمال القنصلية العامة بالقاهرة

موجز – انقطاع الاتصالات – استعلامات

فونتينبلو ، فى ١٦ أكتوبر من العام ١٨٠٧

تلقيت ، سيدى ، رسائلكم المؤرخة فى ١٠ ، ١٥ ، ٢١ يناير ، و٢ فبراير و ٢ مارس الماضى تحت أرقام ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ . وأشكركم على التفاصيل التى أرسلتموها إلىَّ والتى زودتنى بالكثير من المعلومات سواء حول الأحداث التى وقعت بين قوات باشا القاهرة والمماليك ، أو حول الحادث الذى تمخض عنه وفاة اثنين من بين كبار زعماء المماليك .

وكانت رسالتكم التى تحمل رقم ٥ هى الرسالة الأخيرة التى وصلتنى ، ولدى ما يجعلنى اعتقد أن العديد من رسائلكم وخاصة تلك التى تأتى فى شكل تقرير بما يحدث فى مصر منذ احتلال الإنجليز للإسكندرية - سيتم اعتراض سبيلها[1] ؛ ومن ثم يتعين مراعاة النظام ودقة الضبط فيما ترسله إلىَّ من مراسلات ؛ وذلك عبر إرسال نسخٍ متعددة بوسيلة آمنة ، وأوصيكم بأن تستمروا فى إخبارى ، بمزيد من الدقة والإحكام ، بكل الوقائع والأحداث التى يبدو لكم – بداهة – أنها تسترعى انتباه الحكومة .

ويشرفنى إبداء التحية لكم .

(١) تم جلاء الإنجليز عن الإسكندرية فى شهر سبتمبر من العام ١٨٠٧ ؛ بيد أنهم ظلوا سادة البحر المتوسط حتى نهاية الإمبراطورية .

١٨٠٨

٢ - من سان مارسيل إلى الوزير

موجز - وصول سفينة إنجليزية لافتداء الأسرى - جهود الحكومة الإنجليزية فى الإصلاح ما بين الباشا والمماليك - طوبوزوغلو حاكم الإسكندرية - تمرد ياسين بك - الموقف الصعب لمالطة من وجهة النظر الاقتصادية : الحاجة الماسة إلى موارد مصر - إصلاح سد مريوط - محاولة الباشا فرض ضريبة على الأوربيين - مطالبة الإنجليز لمحمد على بالتنازل عن الإسكندرية - غضب محمد على - عودة النشاط التجارى فى بلاد المشرق - الرحيل المؤسف لـ " فاص " الترجمان الأول لفرنسا .

الإسكندرية فى الأول من فبراير١٨٠٨

(تم تلقيها فى ٢٧ يونيو)

السيد المحترم،

يشرفنى أن أبلغ معاليكم بالموقف السياسى فى مصر بعد رحيل الإنجليز . إن سفينة شراعية إنجليزية حلت محل سفينة إنجليزية أخرى توجهت إلى مالطة فى ٢١ ديسمبر حاملة معها برقيات باشا القاهرة . ووصلت السفينة الشراعية الإنجليزية إلى الإسكندرية فى يوم ١٨ يناير بدت وكأنها جاءت للصلح ؛ وكانت السفينة ترفع علماً أبيض مثل العلم المرفوع فوق فنار القلعة ، وكان القنصل السويدى السيد بطروتشى القائم بأعمال الوكيل الإنجليزى رافعاً علم بلاده فوق منزله . وكان الضابط الإنجليزى قائد السفينة قد سلم السيد بطروتشى(١) البرقيات الوزارية ليتولى فى الحال تسليمها

(١) يشير إليه الجبرتى فى يومياته ويصفه بأنه " قنصل الإنجليز المقيم برشيد " راجع الجبرتى : عجائب الآثار ، ج٤ ، حوادث يومية ١ ذو القعدة ١٢٢٢ ، ص ١٢٤ - المترجم .

بنفسه إلى باشا القاهرة ، مثلما فعل عند تلقيه للبرقيات التى حملها إليه قائد السفينة الإنجليزية السابقة ، أو أن يجتمع بالحاكم ويبلغه بمضمونها مشافهة ، أو أن يرسل البرقيات إلى الهند ، كما كان يتولى بنفسه تسلم ردود الباشا على البرقيات . وإننى لأجهل إذا ما كان القنصل العام مسيو دروفيتى قد تمكن من كشف السبب الرئيس لمراسلاتهم السياسية التى هى فى الأساس – كما يُقال – كانت تهدف إلى افتداء الأسرى الذين تم الإبقاء عليهم عند بعض الخاصة[1] ؛ بيد أن كثرة هذه العلاقات والاتصالات غير العادية التى بدأت تتشكل تبين أن هناك تفاهمًا بين الوزير البريطانى وهذه الحكومة . وبداية يمكننى أن أُخمن بشكل أساسى أن أحد بنود مفاوضة الإنجليز مع الباشا تقوم على إجراء مصالحة بينه وبين المماليك ، وفى الواقع إن شاهين بك الألفى المكفول بشكل مباشر بالحماية الإنجليزية عقد صلحًا مع الباشا الذى أظهر له ودا واحترامًا كبيرين ، وأقطعه إقليم الفيوم وبعض قرى من إقليم البحيرة .

وأتم البكوات الآخرون مفاوضات الصلح مع الباشا حيث لم يعقهم ما جرى من حوادث بينهم وبين ياسين بك الألبانى المتمرد . وكان الأخير (ياسين بك) قد تلقى هزيمة ساحقة بالقرب من منفلوط ؛ فَقَدَ على أثرها جزءًا كبيرًا من قواته ، وانسحب فى مائتى رجل من أتباعه إلى المنيا التى تحصن بها . ووجه الباشا إلى محاربته

---

(١) أشار الجبرتى إلى أن محمد على أرسل الأسرى إلى القلعة وكان عددهم ٤٦٦ أسيرًا إنجليزيًا ولم يشر على الإطلاق أن محمد على وزعهم على الخاصة ، بل إن الجبرتى ليشير إلى أن القنصل الفرنسى " دروفتى " هو الذى صعد بنفسه إلى الباشا بالقلعة " ومعه الأطباء لمعاجة الجرحى من الأسرى وأنه مهد لهم أماكن وميز الكبار منهم والقسيالات فى مكان يليق بهم وفرش لهم فرشات ورتب لهم تراتيب وصرف عليهم نفقات ولوازم .. كما هى عادة الإفرنج مع بعضهم " وكل ذلك داخل القلعة التى لم يبارحها الأسرى حتى وقعت المصالحة بين الإنجليز ومحمد على – راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، يوميات ٢٠ صفر ١٢٢٢ ، ص ص ٩٠ – ٩١) . (المترجم)

خازنداره[1] فى نحو ٧٠٠ إلى ٨٠٠ رجل، والذين اتحد معهم المماليك ليتمكنوا بنجاح تام من الاستيلاء على هذا الموقع . وكان هذا المتمرد يهدد بالفعل بتشكيل قوة ثالثة مخيفة فى مصر ربما أكثر من قوة الباشا والمماليك ؛ وذلك بسبب انضواء معظم العربان تحت لوائه . إن تضاؤل قوة ياسين بك بعد تلك الهزيمة سيؤدى إلى تحقيق الاستقرار والهدوء وفتح الاتصالات التجارية التى تعرقلت لفترة طويلة بين الصعيد ومصر السفلى.

أيضًا من المحتمل أن يكون الهدف السياسى للإنجليز متجهًا بوجه خاص إلى حصولهم على نصيب فى هذه التجارة ؛ وذلك لأهميتها هنا بالنسبة لبضائعهم ، وبشكلٍ أساسى ، لتوريد القمح وحبوب أخرى، التى هم فى أمس الحاجة إليها عند عودتهم لأجل تزويد مالطة وأماكن أخرى بها .

إن هذه المدينة (الإسكندرية) ليست بالمدينة الغنية سوى فى كونها مستودعًا لتجارة التصدير والاستيراد فى مصر ؛ ومن هنا أفقدها الانقطاع الفعلى للملاحة التجارية أهم أساس لمواردها . وهى اليوم فى حالة يُرثى لها ؛ إذ ينقصها وسائل التصنيع ؛ وأيضًا بسبب جدب تربتها الذى لا يسمح لها بزراعة الأراضى .

ودائمًا ما كان طوبوز أوغلو بك كتخدا باشا القاهرة سابقًا هو الحاكم الخاص لمدينة الإسكندرية . وهذا الرجل هادئ تمامًا ومعتدل ؛ فهو فى كل ما يحركه يتبع التعليمات التى تصله من سيده . وكما أخبرت سموكم آنفًا قام هذا الرجل بالحجز على ممتلكات الأتراك واليونانيين الذين فروا هاربين عند رحيل الإنجليز عن هذه المدينة ؛ وهذه الظروف أعطته الفرصة لأن يُدرج البضائع التى تخص التجار

---

(١) حدد الجبرتى فى يومياته اسم هذا الأمير المملوكى بقوله : " وعينت عساكر إلى جهة قبلى وأميرها بونابرته الخازندار " وعلى ما يبدو تحاشى نائب القنصل سان مارسيل هنا الإشارة إلى اسم هذا الأمير الذى اتخذ من اسم بونابرت لقبًا له فى وقت كان فيه الأخير قد أصبح أهم إمبراطور فى أوروبا . راجع الجبرتى ، ج٤ ، يومية ١ ذى القعدة ١٢٢٢ ، ص ١٢٤). (المترجم)

الأوروبيين ضمن ما يقوم بالحجز عليه ، وإلى اليوم نُكابد الصعوبات نفسها فى محاولة رفع اليد عن تلك البضائع . وهو يقول إنه لا يمكنه أن يعمل أى تمييز بين الأمم ، فالإنجليز والفرنسيون أمامه متساوون ؛ وإنه سيعطى الأفضلية – دون شك – للأمة التى تمده من خلال تجارتها بالأرباح الجمركية .

وثمة سد يشق معدية بحيرة مريوط ، وهو السد الذى سبق للإنجليز قطعه وتخريبه ، ويوشك الآن الانتهاء من ترميمه كلية . والسد بالفعل يجرى العمل به ؛ ولم يبق إلا الترميمات الخارجية . وكانت نفقات ترميمه قد وقعت على عاتق القاطنين بالمدينة . وأصدر الباشا أمراً يفرض على الأوروبيين القاطنين بالإسكندرية تقديم مساهمة قدرها خمسين كيساً[١]. وأدى احتجاجى على هذا الابتزاز الشاذ إلى تخفيض المبلغ المطلوب بدرجة كبيرة ؛ وبكرم من الأوروبيين تم دفع المبلغ المتفق عليه . وساهمت أمتى[٢] بـ ١٠٠٠ قرش تركى[٣].

فى العاشر من شهر فبراير .

وثمة تقارير توضح بشكل صحيح تماماً أن الإنجليز عرضوا على الباشا تقديم أثنتا عشرة كيسة لقاء أن يسلمهم مدينة الإسكندرية . واستمع محمد على باشا إلى تلك الاقتراحات بغضبٍ شديد ، ورد عليها بأنه سوف يدافع عن هذه المدينة ، ولن يسلمها إلا من خلال معركة يخوضها بقوة الجيش وليس عبر عروضٍ مادية . ومن غير شكٍ أن هذه القرارات المعلنة سوف تستثير حفيظة الإنجليز وتؤدى إلى توقف

---

(١) الكيس : وحدة نقدية تشتمل على ٢٥,٠٠٠ نصف فضة أو ٥٠٠ قرش. (المترجم)

(٢) يستخدم كل من سان مارسيل ودروفيتى مصطلح " الأمة " ... بمعنى دولة فرنسا وأيضًا بمعنى الجالية الفرنسية ، وسوف نحرص على ذكر المصطلح كما هو مع الإشارة فى هامش الترجمة إلى المعنى المقصود فى سياق التقارير والمراسلات (دولة / أم جالية). (المترجم)

(٣) القرش التركى يعادل فى ذاك الوقت ٤٠ نصف فضه (راجع : محكمة إسكندرية الشرعية، سجل رقم ١٢٠، ص٩٠، م١٢٧ (لسنة ١٢٢٨هـ). (المترجم)

مفاوضاتهم الحالية، وتدفع بالإنجليز إلى القيام بأعمال القرصنة أمام مرسى الإسكندرية والتى تتسبب فى قطع طريق الملاحة نفسها على المراكب من رشيد إلى الإسكندرية وكذلك العكس من الأخيرة للأولى .

وأدى رحيل السفن الإنجليزية عن الأرخبيل إلى بداية السماح بحرية أكثر للملاحة العثمانية ؛ فقد توافدت على ميناء الإسكندرية سفن من بلاد سالونيك وخانية[1] وأزمير وجزيرة رودس ، محملة بمختلف البضائع والمنتجات ، وهو ما تمخض عنه بعض الحركة فى التجارة .

ويشرفنى أن أحيط معاليكم علمًا بأن السيد " فاص M. Vasse " المترجم . . الفرنسى الأول بالقاهرة ، اضطر إلى الرحيل بسبب اعتلال صحته وذلك فى يوم ٢١ من شهر ديسمبر من العام ١٨٠٧ ، وذلك على متن سفينة نمساوية مستأجرة للتوجه إلى مالطة وليفورن . قام الطرَّاد الإنجليزى " بارلمنتير" باعتراض السفينة النمساوية واحتجزها عند خروجها من هذا المرسى ، وعلى متن هذه السفينة الحربية تم إجبار السيد " فاص " على تسليم نفسه كسجين . وكنت قد نصحته بألا ينتهز فرصة مرور السفينة النمساوية لأنها قد تعرضه للمخاطر ؛ بيد أنه قدم رغبته فى الرحيل فى أقرب وقت ممكن على كل الاعتبارات .

مع خالص الاحترام .

سان مارسيل

---

(١) الواقعة على الساحل الشمالى من جزيرة كريت . (المترجم)

٣- من سان مارسيل إلى وزير العلاقات الخارجية

موجز - مغامرة ياسين بك - الإنجليز ينبهون محمد على بقرب مجىء حملة فرنسية على مصر : ويعرضون عليه مساعداتهم - الباشا يرفض المساعدة - استعدادات الدفاع.

الإسكندرية فى ٢١ فبراير ١٨٠٨

(وتم تلقيها فى ٢٧ يونيو)

السيد المحترم ،

لقد هزم المماليك ياسين بك عند خروجه من المكان الذى كان يتحصن به بالمنيا. وتم إمدادهم بعد ذلك بفوج من القوات التى وصلت بالقرب من المنيا ، وهو الفوج الذى كان يقوده خازندار محمد على باشا ، لتتجه هذه القوات إلى داخل المنيا ، الأمر الذى أثار ياسين بك وشجعه على عمل محاولة ثانية للخروج من هذا المكان ، وهو ما نجح فيه بالفعل ؛ لتسفر المواجهة عن مقتل أربعة من الكشاف المماليك . وفقد شاهين بك الألفى جزءاً من قواته التى أرسلها فى محاربة ياسين بك . وتسببت كل هذه الظروف فى توقف مفاوضات السلام التى كانت جارية بين إبراهيم بك ومحمد على باشا . ولم تظهر السفينة الشراعية الإنجليزية منذ عشرة أيام . ونعتقد بأنها توجهت إلى مالطة ، فى الوقت الذى تلقى فيه قائدها برقيات القاهرة التى بدا فيها حالة السخط والاستياء . ونعتقد بأننا اكتشفنا الهدف الحقيقى للمهمة التى جاءت من أجلها تلك السفينة . فقد جاءت لتعلم محمد على باشا بقرب مجىء حملة فرنسية إلى مصر ، مصحوبة بقوات كبيرة ، وأنه من الضرورى أن ينشر قواته فى المواقع الرئيسة على شاطئ المدينة حتى تقاوم عملية الإنزال الفرنسى ، وأن يقبل بما عرضوه عليه من تقديم قوات مساعدة فى سبيل االدفاع عن تلك المدينة المهمة . وكانت إجابة الباشا على ذلك بأن لديه من القوات ما يكفيه للدفاع عن المدينة ، وأنه منذ تلك اللحظة سيتجه إلى الدفع بقواته إلى شاطئ الإسكندرية وتحصينه ؛ ومن ثم فهو ليس فى حاجة إلى أى مساعدة أجنبية .

وفى الواقع نحن نعرف أن أماكن مثل دمياط ورشيد وقلعتى البرلس وأبى قير محصنة بالقوات الألبانية . ويوجد بمدينة دمنهور القريبة من الإسكندرية قوات أخرى على استعداد للانتقال سريعًا إليها فى حال حدوث إنذار بذلك ؛ ووصل إلى هنا بمدينة الإسكندرية قوات قوامها ما بين مائتى إلى ثلاثمائة جندى ، يقودهم خليل دورمان ؛ وكشف على الحصون التى أصبحت فى حالة استعداد للدفاع عن المدينة . كذلك جرى تزويد المدينة بالمؤن والذخيرة . ويمكن القول فى النهاية بأن الجميع فى حالة استعداد تام وكذلك حال التحصينات كما لو أن العدو قد أصبح ماثلاً لهم . ومع ذلك فنحن لا نرى هنا سوى حامية من ألف ومائتى جندى تقريبًا .

وبالرغم من كل تلك الإجراءات التى اتخذها محمد على باشا فإن اعتقاده فى صحة المعلومات الإنجليزية أقل من شكوكه فى وجود مخططات من جانب الإنجليز لعمل غزو عسكرى لبلاده . ومن جانب آخر ، كان هدف الباشا ، منذ آخر تمرد وقع بالقاهرة للقوات العسكرية ، أن يوزع تلك القوات على مختلف المواقع بمصر بحيث يعزلهم بها ، مع تزويدهم بالمؤن وصرف مرتباتهم ؛ وهذا ما قد يؤدى إلى تناقص عددهم دون أن يُضعف ذلك من قواته ، كما قد يخفف من أعباء ماليته . أيضًا ربما ستتركز وجهات نظر الباشا ، فى ظل هذا الوضع ، على كسب ثقة الباب العالى الذى يتعين أن يراعى جانبه ، وذلك على الرغم من سيطرته ونفوذه ؛ ونؤكد بأن البرقيات الأخيرة المرسلة من جانب الباب العالى قد بينت له حدوث تحالف بين معظم القوى الأوروبية ضد تلك الأمة (الإنجليزية) التى تتحايل على وضع نهاية لنفوذه .

مع خالص الاحترام

سان مارسيل

٤- من سان مارسيل إلى الوزير

الموجز : إذعان ياسين بك بالخضوع – محمد على يرحله إلى سوريا – استئناف التجارة مع صعيد مصر – ظهور الشُباك الفرنسى المسماة لو سريان[١] – ذعر كبير بالإسكندرية .

الإسكندرية فى ٢٧ فبراير ١٨٠٨

(تم تلقيها فى ٢٨ يونيو)

السيد المحترم ،

كنت قد نقلت لكم فى رسالتى التى تحمل رقم ٥٠ أن ياسين بك أحرز بالمنيا بعض الانتصارات المحدودة على المماليك وقوات الباشا . واليوم علمنا بأنه قرر قبول عرض الباشا بالمصالحة : فقد سلم المنيا إلى خازندار محمد على ، وفى صحبة ثلاثمائة رجل من أتباعه شق طريقه إلى القاهرة التى وصلها فى يوم ١٣ من هذا الشهر . بيد أن الباشا لم يتلق ياسين بك بالاستقبال الذى كان ينتظره . وعمل على ترحيله إلى دمياط بغير حراسة ، ومن هناك سوف يجرى ترحيله إلى سوريا[٢]. وهكذا تخلصت مصر من هذا الزعيم الذى كان يهدد بتشكيل قوة عسكرية ثالثة فى السلطة . لقد تمتع محمد على بعبقرية شديدة فى إحباط دسائس وأحزاب الرجل الطموح المدعو ياسين بك ؛ وذلك من خلال المفاوضات . ولم يترك أى عقبة تحول بينه وبين التصالح مع بكوات الصعيد الذين أرسلوا بالفعل إلى القاهرة ثلاثة بكوات للمباحثة حول شروط الصلح ، وكان محمد بك المنفوخ أحد هؤلاء المبعوثين الثلاثة .

---

(١) سفينة بثلاث صوارٍ . (المترجم)

(٢) بحسب رواية الجبرتى " سافر إلى دمياط ليذهب إلى قبرص ومعه محافظون " ، راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص ١٢٥ (يومية ١٩ ذى الحجة ١٢٢٢). (المترجم)

وكان الخازندار قد أغرى المماليك بإعطائهم المنيا ، وهذا ما أزعج محمد على كثيراً ؛ إذ لم يكن يريد أن يرى عند وصوله القاهرة ضابطًا من المماليك . على أنه أوجد بعد ذلك وسيلة جيدة استعاد بها هذا المكان المهم بالنسبة لمركزه .

ومنذ ذلك الحين سوف تصبح الاتصالات بين القاهرة والصعيد حرة تمامًا ، وسوف تشهد التجارة الخارجية بعض النشاط . والصعيد غنى بالحبوب والبقول ، وهذه المواد الغذائية الضرورية ستكون مفيدة جدا لأقاليم مصر السفلى . والأخيرة فى المقابل سوف تقوم بتزويد الصعيد بالأرز والتبغ والسلع التركية والأوربية . وكانت ندرة توفر السلع الأخيرة قد تسبب فى بلوغ أسعارها أقصى مستوًى من الارتفاع ؛ وذلك لأن توقف الملاحة [النيلية] أدى إلى تعطل كل التجارة الخارجية ؛ وبالمثل فإن التجارة الداخلية سوف تتحرك وتنتعش بشكلٍ بطيء .

إن حكومتنا تعمل عمومًا وبشكل دائم على منع وصول قوة أجنبية إلى الإسكندرية . ونعتقد بأن القوات الإنجليزية قد تصل قريبًا ولو بدون مبرر لذلك. وما نراه هنا بالإسكندرية ليس سوى تحركات عسكرية واستعدادات للدفاع . ومع ذلك فالحامية المكونة من ألبان وعثمانيين يصل عددها على الأكثر إلى ألف ومائتى رجل ؛ ولكن عند الحاجة إلى مدد يمكن بصورة سريعة أن تتلقى مساعدات من البلاد المجاورة التى يتمركز بها قوات عسكرية .

فى ٦ مارس

إن سفينة الشيباك " المجهزة بالعتاد والتسليح والمحملة بالبضائع والتى تحمل اسم " لو سيريان " كان قد تغيب بها القبطان " دودرو" لمدة خمسة عشر يومًا بمدينة "جنوا"، ووصل بها إلى مرسى الإسكندرية فى اليوم الثانى من هذا الشهر . على أن وصولها أحدث بعض الذعر فى نفوس الأتراك والألبان الذين اعتقدوا – وفقًا للآراء التى سبق للإنجليز نشرها هنا – بأنها أحدى السفن الحربية فى الأسطول الفرنسى المتأهب للظهور بالإسكندرية . ورغم جهودى فى إزالة تلك الشكوك فإنه لم يكن ممكنًا

تبديدها كلية إلا بعد أن رأوا السفينة تفرغ بضائعها إلى جانب إشارات أخرى جعلت نفوسهم تهدأ . وتلك هى السفينة [الفرنسية] الأولى التى ظهرت هنا منذ حوالى خمس سنوات خلت .

مع خالص الاحترام .

سان مارسيل

٥ – ا . س . ا . س . أمير دوق دو بنفون

وزير العلاقات الخارجية للإمبراطورية الفرنسية

موجز – وجهة نظر عامة حول الوضع السياسي في مصر – المفاوضات الجارية بين البكوات المماليك ومحمد على : دروفيتي يرفض التدخل في الوساطة بين الجانبين – طموحات محمد على في الاستقلال بمصر – فوضى سياسية واضطراب اقتصادي – شكاوى شريف مكة بخصوص الحجز على سفينتين استولى عليهما قراصنة من جزيرة فرنسا .

القاهرة في ٨ أبريل ١٨٠٨

(تم تلقيها في ١٧ أبريل ١٨٠٩)

السيد المحترم ،

إنني محبوس ، منذ خمس سنوات ، في بلد بشمال إفريقيا ، بلد يعد مسرحًا لحرب أهلية وللثورات ولكل الاضطرابات ؛ بلد يجد الأوروبيون أنفسهم فيه في حال من الخوف ، ولا شيء يبشر بالأمل ، والفرنسيون كذلك يتعرضون ، بصورة دائمة تقريبًا ، لمخاطر شتى ؛ وهذا الوضع هو نتيجة حتمية في ظل مناخ يسبب الخسائر ويثير القلاقل التي لا تحصى ؛ وإنني لأستحق على كل جهودي وقدرتي على تحمل متاعب الجميع بكل شجاعة ولائي التام المسامحة الكبيرة عن كل الوسائل التي لجأت إلى استخدامها ؛ ولكن هذه القدرة بدأت أفقدها : فمنذ الفترة التي كان يعمل فيها معالي سفير البلاط الإمبراطوري والملكي لدى الباب العالي والذي يحمل لقب القنصل العام لكل بلاد الشرق، اعتقدت أنه من الواجب أن أعرفكم في إطار هذه الوظيفة الجديدة بالنقطة المحورية في المراسلات التي دارت بين القناصل وصاحب المعالي الوزير . وقد قدمت كل تقاريري عن العام ١٨٠٧ للجنرال

سبستاني[1] الذى كلفنى فى هذا العام بوظيفة خطيرة وشاقة جدا . وإننى منذ ذلك الحين وأنا أحيا وسط قلق طاغٍ انتظاراً لما سيعلنه صاحب المعالى (الوزير) بشأن النهج الذى يتعين كما أعتقد الأخذ به فى ظل تلك الظروف الصعبة التى أجد نفسى فيها .

ويشرفنى أن أقدم إلى معاليكم ، طى هذه المراسلة ، نشرة تتضمن تقريراً حول الأوضاع فى مصر خلال الشهور الثلاثة الماضية . ويتعين أن أضيف إلى مضمونها أن بكوات صعيد مصر التمسوا منى أن أقوم بدور الوساطة فى المفاوضات مع الباشا ، وهذا عين ما كان يتمناه معاليكم ، ولكن امتثالاً للتعليمات الخاصة بهذا الموضوع قدمت اعتذارى ؛ متذرعًا بحججٍ مقبولة إلى حد كبير . وكان رفضى التدخل هو ما اضطرهم إلى التوجه للسيد لو شوفالييه دو روستى ، القنصل العام النمساوى ، والذى سارع إلى انتهاز هذه الفرصة للحفاظ على تأثيره الكبير جدا فى شئون مصر . وثمة معلومات محتملة تجعلنى أفترض إمكانية أن يحدث الصلح بين الجانبين ، ولكننى ألاحظ من جانب البكوات المماليك توخيهم الكثير من الحذر الذى سيؤدى بهم إلى إطالة المفاوضات لفترة أطول مما يمكن أن يتطلبه وضعهم الحالى .

وفيما يتعلق بالباشا ، نجده يقول : إنه عبد للسيد الأعلى (أى السلطان) ، ومع ذلك فهو لا ينظر إلى نفسه بأقل من حاكم مطلق ؛ وعلى حين يصدر الأوامر إلى أتباعه بتنفيذ المعاهدات المبرمة بين الحكومات الأوروبية والباب العالى ، إلا أنه يترك لك ملاحظة أن كل تلك الترتيبات والأوامر صادرة عن سلطته وإرادته هو . والمبدأ الأساسى الذى يحكم سياسته دائمًا يقوم على مداراة كل القوى بغير تمييز إحداها على الأخرى . وإذا كان معاليكم قد تفضل بالاطلاع على التقارير التى شرفنى إرسالها للسفير خلال العام ١٨٠٧ فسوف تلاحظون أن محمد على ليس له من اتجاه

(١) كتب دريو فى الهامش : لم نعثر على هذه التقارير فى المراسلات الخاصة بتركيا .

ثابت ومؤكد فى علاقاته مع الأوربيين ؛ وأن طموحاته / آراءه / أفكاره السياسية لا تمتد لأبعد من حدود مصر التى قال عنها إنه أصبح سيداً عليها بقوة سيفه ، وإن حياته وقبره بها . ومع ذلك فإن ادعاءاته بالسيادة لم تمكنه حتى الآن من التخلص بشكل كامل من التبعية التى هو ملزم بها بجيشه الذى دائمًا ما يكون فى حالة استعداد للتمرد من أجل أن يدفع له مرتباته. وهذا الظرف هو ما دفعه أكثر من أى شىء آخر إلى أن يحسم أمره بطريقة أو بأخرى مع البكوات المماليك . وقبل أحداث الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر ١٨٠٧ توجه بنفسه على رأس قواته إلى المماليك لكى يُملى عليهم شروط الصلح والسلام فى البلاد التى قبل اليوم بأن يتركها لهم . إن هذا المشهد هو ما جعلنى أخمن بأن الوضع فى مصر سيظل دائمًا على هذا الحال من عدم استقرار السلطة ، وسيظل الجميع يعانى من المساوئ التى تنتج عن زعزعة استقرار الحكومة والأحزاب المحيطة بها . ولن يمكن للأوروبيين إلا أن يعانوا كثيراً من الصدمات المتمخضة عن اختلال هذا النظام ، والقناصل كذلك سوف يتعين عليهم التحسب للتأثير السلبى الذى أمكنهم ويمكنهم فى المستقبل أن يؤمنوا أنفسهم منه ، وكذا ما ينتج من تأثير على وضع امتيازاتهم والتقديرات الاعتبارية الواجبة التى اكتسبوها من وظيفتهم . إن الوضع فى مصر فى غاية السوء . والحال واحد فى الصعيد كما فى مصر السفلى ، ضرائب فادحة وإذلال وإهانات وكل أوجه التبديد التى أردت بالفلاحين إلى وضع الاستجداء واليأس . ويمكن القول دون مبالغة بأن ثلث ما كان مزروعًا فى أيام الجيش الفرنسى فى مصر قد صار اليوم فى عداد القائمة المحزنة للأراضى المتصحرة فى وسط وادٍ هو الأكثر خصوبة فى العالم . أيضًا ومع مجىء الإنجليز وما اقترفوه من حماقات عسكرية ازداد بها الأمر ضغثًا على إبالة بكبرياء وصلف واستبداد العثمانيين والألبان حتى أنه لم يعد بين السكان من يرى أمامه من أمل أو رجاء .

وإنى لأعتقد بأن ما سوف يزيدنى شرفًا أن أحيط علم معاليكم بأن شريف مكة كتب إلىَّ يستحثنى على أن أعمل تقريراً بشأن خطابه الذى أرسله إلى جلالة

إمبراطورنا أوغسطس[1] وهو الخطاب الذى أرسلته مع سعادة الجنرال سبستانى عبر رسالتى المؤرخة فى ٢٤ يونيو من العام ١٨٠٧، وأسمح لنفسى أن اتوسل إلى معاليكم بأن تأذنوا لى بإمكانية الرد على أىٍّ من الالتماسات المتكررة التى ترد من قبل هذا الأمير الذى منذ عام مضى أرسل بشكلٍ عاجل شخصًا إلى إستانبول بشأن هذه المسألة ، وبذل كل مساعيه وكل نوعٍ من المحاولات ؛ كى يبلغ التاج الإمبراطورى والملكى[2] بالتماساته التى يتطلع من ورائها إلى استعادة اثنين من سفنه ذات الأبهة والفخامة اللتين استولى عليهما قراصنة جزيرة فرنسا .

ويشرفنى أن أكون ...إلخ .

دروفتى

---

(١) يعنى به هنا نابليون الذى بعد احتلاله لإيطاليا بدا كأنه الإمبراطور الوريث لماضى الإمبراطورية الرومانية القديمة ، والمعروف أن الإمبراطور أوكتافيانوس أوغسطس كان أحد أهم وأبرز أباطرة روما المؤسسين الذين بلغت الإمبراطورية فى عهدهم أقصى اتساع لها ، كما أصدر العديد من التشريعات العظيمة التى عرفت باسمه ، واعتبر عصره من أهم عصور التاريخ الرومانى حتى لقد أطلقوا على القرن الذى حكم فيه بأنه " قرن أوغسطس". ويبدو أن لقب أوغسطس العظيم كان واحداً من الألقاب التى أطلقت على الإمبراطور نابليون بونابرت. (المترجم)

(٢) وذلك لأن نابليون كان إمبراطوراً على فرنسا وفى الوقت نفسه كان ملكًا على إيطاليا . (المترجم)

٦- نشرة موجزة بتقارير وكيل المفوض الموقع أدناه والتى أرسلها إلى سيده معالى سفير التاج الإمبراطورى والملكى لدى الباب العالى العثمانى خلال الشهور الثلاثة الأولى من هذه السنة .

موجز – الفرقاطة الإنجليزية ودسائس السيد بطروتشي – استسلام ياسين بك – المفاوضات مع المماليك : مسألة المقاطعات ومسألة الميرى – سفينة لو سربان فى الإسكندرية : إنذار عام – عنف وقلاقل ضد الأوروبيين .

٩ يناير – فرقاطة إنجليزية La frégate anglaise (١) قادمة من مالطة تجول فى البحر أمام ميناء الإسكندرية ؛ بحجة تسلم الأسرى الإنجليز المحتجزين بشكل فردى . تعهد الباشا بالتكفل بشرائهم وردهم لبلادهم . رسو الفرقاطة الإنجليزية أسفل قلعة " فاروس" (٢). السيد بطروتشي الذى يقول عن نفسه بأنه قنصل عام السويد يقوم بكل تأكيد منذ فترة طويلة بل وما زال بواجبات عمل الوكيل الإنجليزى ، كاتب السيد بطروتشى يتوجه إلى الفرقاطة وينزل بها .

١٨ يناير – وصول سفينة إنجليزية تحمل راية الصلح والتفاوض . نزول قبطانها الإسكندرية ، المحادثة مع حاكم الإسكندرية الذى استقبل القبطان استقبالاً ودياً، توجه القبطان مباشرة مع السيد بطروتشى إلى القاهرة .

٢٣ يناير – توجيه حملة ضد ياسين بك الذى يتزعم جماعة متمردة ،الباشا يتوجه إلى إقليمى المنيا وبنى سويف اللذين تعرضا للخراب والتدمير على يد تلك الجماعة المتمردة والتى أعاقت إلى جانب ذلك حركة الملاحة فى النيل .

---

(١) سفينة حربية قديمة كانت أقل وزناً وأكثر سرعة من البارجة الحربية. (المترجم)

(٢) وهى جزيرة قريبة من الإسكندرية أقام بها بطلميوس فيلادلفيوس برجاً بلغ طوله ١٣٥ متراً وكان يعد أحد عجائب الدنيا السبع، وفى العام ١٩٩٤ تم من خلال أعمال التنقيب تحت الماء اكتشاف بقايا آثاره. (المترجم)

٢٥ يناير – وصول السيد بطروتشى للقاهرة ؛ عقد اجتماعات ومداولات سرية مع الباشا ، انتشار شائعة فى المدينة عن حملة فرنسية بدأت تأخذ استعدادها للإبحار من موانئ فرنسا للتوجه إلى مصر(١). تعليق الإجراءات التى جرى اتخاذها من قبل بشأن إرسال عدة فرق عسكرية إلى سوريا التى تعانى اضطرابات فى الأيام الأخيرة من شهر أكتوبر . أوامر بأخذ درجة الاستعداد للدفاع عن كل من إسكندرية ورشيد ودمياط .

٢٧ يناير – وصول مانبنجى(٢) أو ما يقال له حاجب السلطان مصطفى إلى القاهرة ، حاملاً معه فرمان التثبيت لمحمد على فى باشوية مصر . وصول سفينة حربية إنجليزية ومع ذلك حركة الملاحة تظل مستمرة طوال هذا الشهر بين الإسكندرية ورشيد، والشيء نفسه مع بعض الموانئ التركية الأخرى .

شهر فبراير – بشرى سعيدة بشأن الحملة التى كانت مجردة ضد ياسين بك. إخضاع هذا المتمرد بدون أدنى عداوة . التضحية بصفته الجسورة والطموحة ، ووقوعه فى الفخ الذى نصبه له الباشا عندما عرض عليه الأخير باشوية جدة وقيادة الجيش المتوجه لحرب الوهابيين ، مجيئه للقاهرة ، محمد على يرتب أمراً بتجريده من السلاح ونفيه إلى سوريا . التنازل عن المنيا للمماليك ؛ الذكاء فى الدخول فى المفاوضات . الإعلان عن إرسال وفد من اثنين من الصناجق من بيوت الأميرين مراد بك وابراهيم بك ، وصولهما للقاهرة للمفاوضة على الصلح والسلام .

---

(١) أورد الجبرتى هذا الخبر فى يومية الأول من شهر ذى القعدة ١٢٢٤على نحو يوضح أن مصدر هذا الخبر من قبل العثمانيين ؛ فهو يقول : " وحضر ثلاثة أشخاص من الططر المعدين لتوصيل الأخبار وبيدهم مرسوم مضمونه الأمر بالتحفظ على الثغور ، فعند ذلك أمر الباشا بالاستعداد وخروج العساكر إلى الثغور " انظر الجبرتى ، ج ٤، ص. (المترجم)

(٢) يشير إليه الجبرتى تحت مسمى " بيانجى بيك " ، وهو القابجى الحامل للفرمانات والأوامر السلطانية إلى مصر ، (راجع الجبرتى : المصدر السابق، ج٤ ، ص١٢٩). (المترجم)

شـهر مـارس – وصـول كل من سليم بك مـحـرمـجى ومـرزوق بن إبراهيم بك إلى القاهرة ؛ الاجتماعات مع الباشا ، عودة الأمير إلى صعيد مصر حاملاً معه قرار نهائى من الوالى . الوالى يرغب فى تحديد أملاك البكوات المماليك فى إقليم المنيا ، وبمنطقة ملائمة على الضفة الأخرى من النيل . الاتفاق على شرط يجعل البكوات يدفعون الميرى أو الضريبة العقارية فى العام القادم .

وصول سفينة فرنسية مجهزة بالعتاد والتسليح ومحملة بالبضائع (يقودها دودرو، وجينوا) . حاكم المدينة يعلن أنذاراً بالخطر ، تحرك الحامية العسكرية بالمدينة، الأهالى يصبحون تحت التسليح . الموقف الحرج للموقع أدناه (دروفيتى) وللجاليات الأوربية الموجودة بالقاهرة خلال عدة أيام . تهديدات من قبل الباشا ، للتعرف على المهمة المزعومة الاستثنائية لهذه السفينة ؛ تحركات القوات العسكرية ضد الفرنجة[1].

خلال مجمل الشهور الثلاثة – فى القاهرة : تصرفات فظة ووقحة مجاوزة لكل حد من قبل القوات العسكرية ضد الأوروبيين ، السرقات والاغتيالات بالشوارع فى وضح النهار . فى الإسكندرية : كل أنواع الإهانات والكيد والمضايقات مع قلة اعتبار حاكم المدينة للأوروبيين . غض الطرف عن كل التجاوزات والأفعال المشينة المزعجة التى تقترفها قوات الحامية العسكرية بشكل يومى فى حق الأوروبيين .

دروفتى

(١) الملاحظ أن دروفيتى استخدم المسمى الكلاسيكى للأوروبيين القاطنين بالشرق ، وفى الأغلب لأن هذا المصطلح نفسه كان ما زال مستخدماً آنذاك فى مصر والولايات العثمانية . (المترجم)

٧- من سان مارسيل إلى الوزير

[illegible]جز – الجولات البحرية الإنجليزية :أعمال القرصنة والسطو – التهريب ال[illegible] [illegible]السلع الإنجليزية) – المفاوضات مع البكوات المماليك – حجيج طرابلس [illegible]راد الكتان : حرب تهريب البضائع .

[illegible] [illegible]ية في الأول من يونيو ١٨٠٨

[illegible] [illegible]سجيها في ٨ أكتوبر)

الشي[illegible] المحترم ،

لم تظهر منذ شهر فبراير الماضى أية سفينة حربية إنجليزية ؛ وحركة الملاحة عاودت أدراجها ، وبدأت التجارة تستعيد نشاطها . فقد وصلت سفن ومراكب إلى الإسكندرية محملة بالمنتجات الواردة من مختلف موانئ الشرق ، فضلاً عن السيولة النقدية لأجل شراء البن والأرز . وكان ظهور السفينة الإنجليزية أمام مرسى الميناء فى نهاية شهر أبريل قد أعلن عن وجود مخاطر تتعرض لها حركة الملاحة البحرية اليونانية والتركية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه هاتان الأمتان تباشران المضاربات التجارية بكل أمان وذلك على أثر الشائعات العامة الزائفة التى قيلت عن حدوث هدنة بين إنجلترا والباب العالى . والحال أن هذه السفينة الإنجليزية التى جاءت للتفاوض بشأن الأسرى الإنجليز والتى كانت مكلفة بأمر ترحيلهم علمت بأن بقية الأسرى لم يصلوا بعد من القاهرة . وبعد مداولات قصيرة مع الحكومة رست السفينة الإنجليزية بعيداً جدا عن الإسكندرية ، ولم تظهر هنا إلا نحو ١٥ من الشهر الماضى، وكان يرافقها مركب من أزمير كانت فى طريقها إلى دمياط ، وتم السطو عليها عند سواحل قرامان [1] وتقدر قيمة حمولتها التى استولوا عليها بـ٤٠ ألف

---

(١) منطقة بوسط جنوب آسيا الصغرى – المترجم .

تالرى[1]. وتفاوض القبطان فى شأن الأسرى ، وتمكن من إنزال ١٤ أسيراً إنجليزياً كان وكيل السويد (السيد بطروتشى) قد دفع فديتهم بالقاهرة ؛ وزودتهم الحكومة بكل المؤن الغذائية التى سيحتاجون إليها . وحاول بعد ذلك بيع غنيمته [2]، لكنه لم ينجح فى ذلك : وبعد ذلك بقليل كان وقوف السفينة بعرض البحر قد مكنها من أن ترصد غنائم جديدة . وثمة سفينتين إحداهما من إستانبول والأخرى من أزمير أبحرتا من مرسى الإسكندرية دونما أخذ الحيطة والحذر : ففى ذلك الحين كان الإنجليز قد سلحوا زوارقهم لتهاجم هاتين السفينتين ؛ غير أن قوارب محملة بالجنود خرجت من الميناء على الفور لإنقاذهما ، وعندئذٍ ارتد الزورق الإنجليزى وأفلتت السفينتان من الأسر .

وفى اليوم التالى أبحرت السفينة الإنجليزية ، وعلى مرمى البصر من قلعة الإسكندرية ظهر أنها أسرت ست سفن شراعية يُقدر ثمن حمولتها بـ ٥٠٠ ألف قرش؛ ولا تزال إلى اليوم تمارس أعمال القرصنة فى النواحى البحرية وتعلن فى الوقت نفسه عن رغبتها فى التفاوض ؛ لكن حكومة مصر رفضت التفاوض : وإذا كان كل الأسرى الإنجليز لن يتم تسليمهم وكذا أولئك الذين سوف يقوم بشرائهم على حسابه (أى محمد على) ففى أغلب الظن صدرت أوامر لهذا الحاكم بأن يستولى على كل سفينة (إنجليزية) تصل إلى ميناء الإسكندرية ، ومن هنا احتجاج الإنجليز الذين قالوا بأنه لا يتعين أن تمضى الأمور على هذا النحو ؛ لأن أحد بنود اتفاقيتهم مع الباشا عند

---

(١) التالرى : عملة ألمانية تسمى Reichsthaler أو Thalari شاع تداولها فى الإمبراطورية العثمانية منذ القرن السابع عشر، وكان متميزاً بصورة الإمبراطورة " ماريا تريزه " Thérèse - Marie، ولذلك عرف بالتالرى الإمبراطورى، وكان له شهرة بجودة عياره، وجلاء محيطه الدائرى، ومقاومة سبيكته القوية لأعمال القصّ ، وبلغت قيمته فى زمن الحملة الفرنسية ١٥٠ نصف فضه، وعرف بعدها أحياناً بالريال الفرانسة. (لمزيد من التفاصيل انظر أندريه ريمون: الحرفيون والتجار فى القاهرة فى القرن الثامن عشر، جزآن، ترجمة ناصر أحمد إبراهيم، باتسى جمال الدين، ومراجعة رءوف عباس، المشروع القومى للترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة، العددان ٨١٨ ، ٨١٩ ، القاهرة ٢٠٠٥، ج١ ، ص ص ١٠٤ – ١٠٧). (المترجم)

(٢) المقصود بها : سفينة أزمير. (المترجم)

رحيلهم عن الإسكندرية أن كل الأسرى - أيا كانوا - يتم تسليمهم بغير فدية . ومع ذلك ترك الإنجليز حتى صبيحة هذا اليوم ملاحة المراكب العابرة بين رشيد والإسكندرية دون أن يمسوها بسوء احتراماً منهم لهذا البند المدرج بالاتفاقية ، فيما أن البند ينص على أن التجارة والسفن التى سترد إلى مصر أو تلك التى تخرج منها تترك حرة ولا يتم التعرض لها أو تعقبها .

ووفدت سفينة نمساوية إلى ميناء الإسكندرية قادمة من مالطة ، وكانت محملة بالبضائع لتوجه إلى قنصل السويد ، والوكيل فى الوقت نفسه للإنجليز فى مصر (وهو السيد بطروتشى الذى كان يعمل فيما سبق فى خدمة الفرنسيين فى مصر فى وظيفة المحصل للضرائب والصراف بالدائرة الأولى بأسيوط)[1] ولدينا من الأسباب ما يجعلنا نتشكك فى شحنات هذه السفينة : فهى قادمة من مالطة ، كما أعلمنا مما هو منشور انقطاع كل العلاقات بين إنجلترا والباب العالى . ولم يكن يتعين على الباشا أن يسمح بدخول البضائع الإنجليزية إلى مصر ؛ وذلك وفقاً للفرمان الصادر إليه من قبل سيده . بيد أن تناقص البضائع الأوروبية الضرورية جدا فى مصر جعل هذه الحكومة تقدم للأمة البريطانية تساهلاً يسمح بإنزال تلك الواردات .غير أن ما ولَّد البغض فى الجانب المصرى وجعله أكثر استياءً هو أعمال القرصنة والسطو الإنجليزية المستمرة حتى اللحظة الراهنة فى النواحى البحرية . أما فيما يتعلق بالحال التى وصلت إليها العلاقات السياسية بين الباشا والبكوات المماليك بالصعيد فالسيد دروفيتى سوف يحيط معاليكم علماً بها ، وبشكل أكثر دقة منى ؛ حيث لم أستطع الوقوف عليها. وكانت مفاوضات الصلح قد أوشكت على الانتهاء وبدا فيها نوع من الوفاق والتفاهم. إذ كان بعض البكوات مازالوا فى العهود المطروحة وخاصة أن أغلب العهود السابقة

---

(١) حول دور الصراف المحصل فى زمن الاحتلال الفرنسى ودور بطروتشى انظر أطروحتنا للدكتوراة المنشورة تحت عنوان : الفرنسيون فى صعيد مصر ، المواجهة المالية (١٧٩٨ - ١٨٠٠)، دار الكتب والوثائق القومية، سلسلة مصر النهضة، العدد (٦٠) ،القاهرة ٢٠٠٥ ص ص ١٩٨، ٢٠٧ - ٢٠٨. (المترجم)

كانت تُنتكث سريعًا؛[1] ولهذا آثروا التسويف فى المفاوضات انتظاراً لما تسفر عنه مجريات الأحداث.

وكان سبعة من مواطنى جزيرتى راجوزه وإترووريا ، المقيمين فى هذا الميناء، قد انضووا جميعهم تحت حماية فرنسا . وقام قنصلا الجزيرتين بإيداع أوراق ديوان قنصليتهما لدىَّ . وتعين على قنصل إترووريا الذى كان قائمًا بأعمال القنصل العام لإسبانيا بأن يودع لدىَّ على سبيل الأمانة مبلغًا قدره ٤٠٠ تالرى ، والنظر فى عدد من الدائنين بالسفينة المتعلقة بأحد مواطنى إترووريا .

٨ – يونيو – علمت من خلال خطابات وصلتنى من القاهرة بتاريخ الأول من هذا الشهر أن سُليم بك[2] زعيم بيت البرديسى قد مات بمنفلوط بتاريخ ١٦ مايو الماضى. وعهد الباشا بمنصبه إلى سليم بك مارانجى[3] الذى كان أحد ممثلى الوفد المملوكى فى مفاوضات الصلح التى تم إنجازها ولا ينتظر سوى تصديق البكوات المماليك عليها والتى بمقتضاها يحتل البكوات الصعيد بدءًا من إقليم المنيا وأن يتولوا الالتزام – وفقًا للعادة القديمة – بدفع الميرى بدءًا من العام التالى .

وينتظر أن يصل للقاهرة قافلة كبيرة قادمة من طرابلس الغرب ، والقافلة كما يُقال مكونة من عدة آلاف من المغاربة يقصدون التوجه إلى مكة . وكان أمين بك تابع

---

(١) يرد عند الجبرتى مقولة للأمراء المماليك تعبر عن انزعاجهم وقلقهم من عهود محمد على وهى : " كم من مرة يراسلنا فى الصلح ثم يغدر بنا ويحاربنا " (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤ ، ص٨٠) . (المترجم)

(٢) لعله يقصد " سليمان بيك " ؛ إذ لا يذكر الجبرتى من قتلى الأمراء المماليك فى أسيوط شخصًا يدعى " سليم بيك " ، كما أن سليمان بيك كان من الأمراء المعدودين البارزين فى بيت مراد بيك ثم تأمر على بيت البرديسى بعد وفاته (راجع الجبرتى: المصدر نفسه ، ج٤ ، ص ص ٨٠، ١٢٨ – ١٢٩). (المترجم)

(٣) يرد اسمه عند الجبرتى " سليم بيك الدمرجى" ، وكان من بين ضحايا مذبحة القلعة. (راجع الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤ ، ص٢١٢). (المترجم)

محمد بك الألفى[1] القادم من مالطة فى رفقة هؤلاء الحجيج . وثمة سفينة نمساوية محملة ببعض البضائع باسم تاجر نمساوى وصلت كذلك من مالطة إلى هذا الميناء .

ولا يمكن لأى أوربى أن يرحل من هنا (الإسكندرية) ، سواء أراد التوجه إلى مصر أو إلى البوغاز[2] إلا بعد الحصول على تصريح من حاكم هذه المدينة . وقد قدمت فى شأن هذا الموضوع شكاوى للسيد دروفيتى ليتولى عرض مضمونها على الباشا ، إلا أنها لم يتم تسلمها . وزعم الباشا أنه نظراً لكون الإسكندرية قد صارت فى وضع المدينة المحاصرة ، فإن من حقه أن يتخذ إجراءات استثنائية للحفاظ على أمن الشرطة بها ولعمل الرقابة الضرورية . ولم يستطع قنصل الجزيرة[3] الذى كان يريد العودة إلى وطنه الحصول على تصريح بالمغادرة إلا بعد طلب رفعه السيد دروفيتى إلى الباشا . ونتيجة لذلك أصبح كل الأوروبيين بمختلف أجناسهم مسجونين فى هذه المدينة ، ولا يمكن المغادرة بغير أمر الحكومة .

وعند عودة السفينة النمساوية التى كانت قادمة من مالطة جرى تحميلها بخام الكتان الخشن والكتان المغزول ، ويتعين على هذه الحكومة أن تمنع مثل هذا النوع من التصدير إلى بلاد الأعداء[4]؛ إذ إن هذا الكتان سوف يدخل صناعة الكتان والحبال التى تستخدم فى بحريتهم . وقد قدم السيد دروفيتى للباشا طلبات بمنع ذلك إلا أننى لا ألحظ أى تأثير بإيقاف عمليات التصدير تلك .

---

(١) أكد الجبرتى هذا الخبر فى شهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٢ وبيّن أن أمين بك كان قد رحل مع الإنجليز عند جلائهم عن الإسكندرية فى العام ١٨٠٧ يقول الجبرتى : " فلم يزل غائبًا حتى بلغه صلح خشداشينة مع الباشا فرجع وطلع على ردته ، فأرسلوا له الملاقاة والخيول واللوازم " الجبرتى ، ج ٤ ، ص ١٢٠). (المترجم)

(٢) بوغاز رشيد . (المترجم)

(٣) لم يحدد سان مارسيل هنا أى قنصل يقصد أهو قنصل راجوزة أم قنصل إترووريا ؟. (المترجم)

(٤) المقصود ببلاد الأعداء فى النص : إنجلترا . (المترجم)

ولم تظهر منذ بضعة أيام السفينة التى عبرت من أمام ميناء الإسكندرية ، وأظن أنها توجهت إلى مالطة للتزود باحتياجاتها من المياه ، على أن ثمة شخص سلم هذه السفينة بطرق مشبوهة عدة رسائل موجهة للحكومة البريطانية .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

٨ – من سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – البولاكر[١] المسماة " لا روز " الحاملة لعلم القدس[٢] وأصلها من راجوزة – الامتيازات والحماية الفرنسية – سان مارسيل فى مواجهة بطروتشى : مسألة القضاء القنصلى – تدخل دروفيتى : احتجاز السفينة – هل يمكن من خلال حماية فرنسا لعلم القدس حماية البضائع الإنجليزية ؟ – تقرير سان مارسيل إلى لاتور موبور .

الإسكندرية فى ٢٠ يوليو ١٨٠٨

(سُجِّلَت فى ١٠ نوفمبر)

السيد المحترم ،

وصلت إلى هذا الميناء ، فى يوم ١٨ يونيو، سفينة البولاك المسماة " لا روز " القادمة من مالطة والتى كانت تحمل علم القدس ، وذلك تحت قيادة قبطانها جان بارنزى . وكان الهدف من رحلات هذا القبطان أن يصل إلى هنا (الإسكندرية) ، ويقوم بشراء المؤن الغذائية ثم ينقلها إلى مالطة . وكان على متن هذه السفينة شحنة من البضائع التى أرسلها المدعو بونسا الليفورنى المقيم بمالطة إلى أخيه المقيم بالإسكندرية تحت حماية السويد .

ودائمًا ما كان لفرنسا وحدها امتياز حماية علم القدس فى بلاد السلطان ؛ وعلى ذلك فقد كانت سفينة البولاك القادمة من مالطة والتى وصلت هنا وهى حاملة لهذا العلم واقعة تحت تبعية قنصل فرنسا بالإسكندرية . وإذًا تعين علىَّ أن أُجرى تطبيق قانوننا المنشور على تلك السفينة القادمة من مالطة وعلى ما تحمله من بضائع ، سواء

(١) البولاكر أو البولاك : سفينة تجارية أشرعتها من قطعة واحدة بشكل مربع . (المترجم)

(٢) أى علم مالطة. (المترجم)

كانت من إنجلترا أو كانت فى شكل غنائم تم الاستيلاء عليها فى أى بلد تحتله بريطانيا فى الخارج. وقد أمرت القبطان بارنزى بأن يحتجز شحنة البضائع على متن سفينته غير أنه رفض الامتثال للأمر ، وأفرغ البضائع وبعدها قدم لى وثيقتى احتجاج زعم فيهما أن علم القدس فى كل بلاد الليفانت (الشرق) محمى من أربعة دول: فرنسا وإسبانيا والنمسا وإنجلترا ، وأنه غير خاضع لقضائى القنصلى .

ولجأت عندئذٍ إلى حاكم المدينة طالبًا منه احتجاز بضائع تلك السفينة المودعة بديوان الجمرك ، ومناشداً إياه أن يقدم المساعدة القوية فى الدفع بالقبطان إلى الامتثال والطاعة . بيد أن الحاكم قام من خلال قنصل السويد ووكيل الإنجليز (السيد بطروتشى الذى كان يعمل أيام وجود الفرنسيين فى مصر بوظيفة المحصل - الصراف بالدائرة الأولى فى أسيوط والتى حقق من ورائها فى ظل خدمته للأمة الفرنسية ثروة كبيرة ، وهو الآن يكفر بتلك النعمة حيث أصبح يعمل وبحماس كبير جدا فى خدمة أعدائنا) قام برد البضائع للمودعين . ولما فشل قبطان السفينة من الحصول على حماية قنصلى إسبانيا والنمسا اللذين كان يعتمد عليهما لجأ إلى حماية قنصل السويد .

وأخبرت السيد دروفيتى بكل ظروف هذه القضية . وحصل القنصل دروفيتى من الباشا على أوامر مختلفة باحتجاز البضائع المذكورة وأن يعمل على رفع دفة السفينة بولاك . بيد أن حاكم المدينة كان دائم المراوغة والتملص من تنفيذ تلك الأوامر ، مما جعل أمر تنفيذها بشكل قطعى يستلزم إرسال "قواس" الباشا من القاهرة إلى الإسكندرية . وبوصول هذا القواس إلى هنا قام الحاكم بالحجز على البضائع التى كانت لدى المودعين وأصدر أمره برفع دفة السفينة بولاك التى جرى نقلها إلى البيت القنصلى . وهكذا تم تنفيذ الأمر ، ومن ثم أصبحت البضائع والسفينة تحت الحجز والحراسة حتى صدور أوامر جديدة وهذا كل ما استطعت الحصول عليه ، مع أننى طالبت بأن تنقل البضائع إلى مخزن آخر تماماً وهو مخزن الملاك ، وأن يقر قبطان السفينة بأنه تحت القضاء القنصلى الفرنسى وليس تحت قضاء قنصل السويد .

وأخبرت السيد " لاتور موبور" بالترتيبات التى قامت بها هذه الحكومة بالنسبة لهذه القضية وطالبته بشكل مؤقت بأوامره فيما يتعين عليّ عمله لاحقًا .

ومن غير شك أننا إذا تركنا للإنجليز استخدام كل الوسائل التى تساعدهم على التجارة مع مصر عبر السفن التى تحمل علم القدس ، فليس ثمة شيء عندئذٍ يمكن أن يعوق رخاءهم التجارى سواء فى مصر أو فى أى بلد من بلدان الشرق ؛ إذ إن تصاريح أو شهادات علم القدس يجرى اعتمادها واحترامها فى المرور بالموانئ ، ومن هنا سوف تنتشر فى كل أساكل الشرق . وقد قام اليونانيون بشراء تلك التصاريح ورفعوا فوق سفنهم علم القدس وأبحروا به إلى الخارج ، وبهذا العلم يمكن لليونانيون دخول مالطة وعمل تجارتهم معها ، وهو ما يدعم التجارة الإنجليزية . وبتنفيذ القوانين الحالية على كل السفن التى تحمل علم القدس ، سواء القادمة من أنجلترا أوالقادمة من أى بلد تحتله إنجلترا فى الخارج – فإننا نقتلع هذا الداء من جذوره . وبالأحرى ستكون نتائج هذا الإجراء كبيرة جدا ، فسوف ترتد كل الواردات المشكلة اليوم من الكتان التى تتعاظم أهمية الحاجة إليه بالنسبة للبحرية الإنجليزية . وبالفعل فإن السفن النمساوية الوافدة من مالطة ومعها بضائع لم تستطع أن تحمل عند عودتها هذا النوع من البضائع والذى تعين على الأتراك وعلينا أن نمنعه عن أعدائنا. وقد قام السيد دروفيتى بالقاهرة وكذا أنا بالإسكندرية بتقديم اقتراحات بشأن هذا الموضوع لهذه الحكومة التى لم تتلقاها .

تلك هى التطورات الأخيرة فى هذه القضية التى شرفت بتقديم تقرير عنها لمعاليكم. وإننى منتظر الأوامر من قبل معاليكم أو من قبل السيد لاتور موبور الذى نقلت إليه كل الأوراق الضرورية التى تحيطه علمًا بهذه المسألة .

وتسمى سفينة البولاك – التى تخص كما ذكرنا آنفًا قبطان راجوزا – "ميشل مارتينوفيتش" ، وهى السفينة التى اضطر الإنجليز عند جلائهم عن الإسكندرية إلى أخذها معهم إلى مالطة ، ولما ضموا اتحاد راجوزا إلى ملكية إيطاليا قرروا اعتبارها غنيمة قانونية . وبيعت سفينة البولاك فى مالطة واشتراها كل من السيد بونسا والسيد

ليفورنيه اللذين أرسلاها إلى هنا محملة بالشحنة التى كانت تخصهم . أليس من العدل أن ترد تلك السفينة إلى مالكها الأول "ميشل مارتينوفيتش" الراجوزى حيث تم السطو عليها بطريقة ظالمة ؟

مع خالص الاحترام ...إلخ .

سان مارسيل

٩- دروفتى إلى معالى وزير العلاقات الخارجية بالإمبراطورية الفرنسية

موجز - قضية علم القدس - وصول ضابط عثمانى من إستانبول إلى الإسكندرية - سفر محمد على إلى دمياط ورشيد والإسكندرية .

القاهرة فى ١٠ أغسطس ١٨٠٨

(تم تسجيلها فى ٢٨ أكتوبر وكذا يوم ١٧ إبريل ١٨٠٩)

السيد المحترم ،

لقد كان لى الشرف أن قدمت لمعاليكم فى رسالتى بتاريخ ١٢ يوليو تقريراً حول الإجراءات الأخيرة التى اتخذها محمد على باشا بشأن السفينة التى كانت تحمل علم القدس ، وهى الإجراءات التى تم التملص من تنفيذ معظمها ؛ حيث لم يستطع السيد سان مارسيل الحصول على شىء سوى حرية ممارسة سلطته القضائية على السفينة . وأعلمنى زميلى المحترم (سان مارسيل) بأنه من غير المفيد ، بل ومن التهور الاستمرار فى مناقشة الاختلاف فى هذه المسألة مع حاكم الإسكندرية ، واعتقدت أنه يتعين علىَّ أن أرفع تقريراً بهذا الأمر إلى السيد المكلف بشئون التاج الإمبراطورى والملكى بإستانبول. ولقد وصل قبطان بالبحرية العثمانية فى الشهر الماضى بالإسكندرية انتقل بعدها مباشرة للعاصمة (القاهرة) . وكان القبطان يحمل أوامر تعهد إلى محمد على باشا بتولى قيادة موانئ وسواحل مصر . وكان محمد على قد استقبل هذا القبطان بحفاوة بالغة ، ولكنه لم يرتب شيئاً قط فى تنشيط هذه الخدمة . وكان وصول هذا الضابط العثمانى قد حتم عليه القيام بجولة إلى دمياط ورشيد والإسكندرية . فجرى الانشغال بإعداد لوازم هذا السفر الذى يتعين أن يتم فى نهاية هذا الشهر . وصدر أمر إلى مائتى عامل من البنائين والنجارين بالتواجد خلال الفترة

التى سيمر بها الباشا في تلك الأماكن (دمياط ورشيد والإسكندرية) . ودعانى الباشا إلى مرافقته ؛ ولكن لما كان لا يتوافر لدى أى تعليمات بشأن ما يتعين فعله فى مثل هذه الظروف فقد طلبت من الباشا أن يعفينى من هذا الأمر. واتفاق الصلح مع البكوات لم ينجز بعد .

ويشرفنى أن أكون ... إلخ .

دروفتى

١٠- نسخة من تقرير ... دروفتى إلى المكلف بشئون التاج الإمبراطوري والملكى بإستانبول .

موجز – تقرير حول مسألة علم القدس : المطالبة بتدخل السيد لاتور موبور لدى الباب العالى – مسألة الحماية القاصرة على فرنسا على مؤسسات الأراضى المقدسة – دسائس قنصل السويد بتروتشى – ضرورة إقرار الباب العالى بحقوق فرنسا فى الليفانت.

القاهرة فى ٢٤ يوليو ١٨٠٨

لقد أخبرت سعادة الجنرال سبستانى فى تقريرى المحرر بتاريخ ٣٠ مايو بالمساعى غير الموفقة التى قمت بها لمنع دخول البضائع الإنجليزية القادمة من مالطة إلى الإسكندرية عبر سفينتين نمساويتين ؛ وقد ذكرت لسموه الأسباب التى تذرع بها الباشا[1] فى تبرير تصرفه بشأن هذه المسألة . وجاء الحدث التالى ليدعم ويثبت ما شرفنى أن كتبته إلى الجنرال السفير بشأن السياسة المحدودة للباشا .

ولن أزعجكم ، سيدى المبجل ، بتفاصيل وقائع وظروف وصول السفينة التى كانت تحمل علم القدس إلى الإسكندرية ؛ فتقارير زميلى عن هذا الميناء لن تدع شيئًا يغيب عن علمكم ؛ فسوف اقتصر على النقاط الرئيسة فى المناقشة التى اشتدت بين السيد سان مارسيل وحاكم الإسكندرية والسيد بطروتشى الذى يقول عن نفسه إنه قنصل السويد. وأسمح لنفسى بداية أن أوضح لكم تصورى حول الحجج القضائية التى استخدمها زميلى فيما يتعلق بالسفينة وقبطانها . فثمة شكوك يمكن أن تطرح حول مشروعية هذه الحجج ، فلن يعرف أى من وكلاء الحكومات التى يُذكر اهتمامها بحماية

---

(١) عادة ما يستخدم دروفيتى عند الإشارة إلى محمد على لقب باشا ولكنه أحيانًا يشير إليه بلقب ... نائب الملك ويعنى به الوالى. (المترجم)

علم القدس أن يعترض على تلك المشروعية من غير توفر التقارير السياسية التى سيجد بها أنها مكفولة للإمبراطورية الفرنسية ؛ والبعض الآخر من الوكلاء سوف يجدون الشىء نفسه بوجوب تدعيم كل الإجراءات التى يقوم بها قنصل فرنسا بخصوص هذا الموضوع من حيث وضع العراقيل أمام الاتصالات التجارية القائمة بين مصر ومالطة . ولطالما أدت دسائس ومناورات وحيل الوكلاء الإنجليز المناوئة لاحتجاجاتنا وتحذيراتنا إلى الحيلولة دون الحصول من الحكومة المحلية على إجراءٍ مرتبطٍ بالمبادىء التى اعتمدها الباب العالى بالأوامر التى أصدرها فى هذه المسألة ، وما زال يبدو لى أنه لن يوجد إلا هامش محدود يسمح بتحذير المتابعين ويدخل تحفظاً محدوداً على العلاقات مع عدو الإمبراطوريتين[١]. وتمكن السيد سان مارسيل بحكمة من الإفادة من أول فرصة سانحة ؛ وقد آزرته بكل وسائلى، ونجحنا جزئيا ، ولكن الأمر فى النهاية ، يا سيدى ، لكم وحدكم ؛ فأنتم الذين بإمكانكم أن تنهوا هذه القضية التى نتيجتها سوف تؤثر بشكلٍ ملموسٍ على الاعتبارات الواجبة فى تمثيل حكومتنا الأوغسطية[٢] فى مصر . وسيكون لى الشرف أن توضحوا لى وجهة نظركم .

إن الجميع هنا على يقين بأن كل مؤسسات الأراضى المقدسة وبالتالى كل السفن التى تحمل علم القدس تحت الحماية المباشرة لجلالة الملك إمبراطورنا أوغسطس[٣]. والبضائع المحمولة على السفينة محل النزاع تخص تاجر من توسكانيا يقيم بمصر منذ فترة طويلة ، وعندما تم ضم وطنه توسكانيا إلى الإمبراطورية[٤] اتجه إلى قنصل السويد وصار تحت حمايته .

---

(١) المقصود الإمبراطوريتان العثمانية والفرنسية . (المترجم)

(٢) الأوغسطية : نسبة إلى لقب أوغسطس الذى اتخذه نابليون ، والمقصود حكومة الإمبراطورية الفرنسية . (المترجم)

(٣) المقصود : نابليون بونابرت. (المترجم)

(٤) ضمَّ نابليون فى العام ١٨٠٧ توسكانيا لأملاك الإمبراطورية الفرنسية ، وعهد بها إلى أخته إليسا ، وفى العام ١٨١٤ صارت تحت حكم الدوق النمساوى الكبير فرديناند الثالث ، وفى العام ١٨٦٠ ألحقت بـ" بيمونت". (المترجم)

إن القنصل[1] الذى نصب نفسه مدافعًا عن حالة التمرد والمنافس لسان مارسيل الذى يدعى أن له الحق فى حماية القبطان والسفينة والبضائع وملكيتها ، إنما يشغل بكل تأكيد صلاحيات وظيفة الوكيل الإنجليزى فى مصر؛ وحل بهذه الصفة محل روستى ، وذلك منذ الإعلان عن انقطاع العلاقات بين الباب العالى وإنجلترا . وكان القائد العام للجيش البريطانى ، عند جلائه عن مصر ، قد كلفه بوظيفة القائم على الشئون الإنجليزية ، وهو يتولى الحفاظ على كل الاتصالات مع مالطة وحمايتها. وفى كلمة واحدة يعمل هذا القنصل بصفة دائمة على الإساءة إلى المكانة الاعتبارية التى يتبوأها الوكلاء الفرنسيون ، وهو ما يجعلهم يُكابدون كل أنواع المضايقات من قبل الحكومة المحلية . ووفقًا لهذه المعلومات إذا كان قرار محمد على قد جاء بناءً على التماس من إستانبول بشأن هذه القضية ، فلا يتعين أن ننتظر حل القضية بمثل هذا الأسلوب ، بمعنى: إذا كانت المستندات القضائية التى يطبقها مارسيل على السفينة التى تحمل علم القدس غير مصدق عليها ، وإذا كان القبطان لن يجازى بالعقاب الرادع على تمرده ، وإذا كان التاجر التوسكانى الذى تملص من الخضوع لسلطة الحكومة الفرنسية ، ووضع نفسه تحت حماية وكلاء الدولة المعادية لنا ؛ من أجل أن يدعم التجارة الإنجليزية بغير عقوبة، ومن ثم لا يخضع للبند رقم ١٠ من المادة الثانية من الأمر[2] الصادر فى ٣ مارس ١٧٨١ .

---

(١) المقصود قنصل السويد "بطروتشى". (المترجم)

(2) Recueil des anciennes lois françaises (Isambert) .

وهو الأمر المتعلق بالقناصل ومسألة الإقامة والتجارة والملاحة لكل مواطنى المملكة الفرنسية فى موانئ الشرق وشمال إفريقيا ، والصادر بتاريخ ٣ مارس ١٧٨١ ، والبند العاشر من المادة الثانية من هذا القانون تنص على:

" إن كل الفرنسيين الذين يحاولون التخلص من التبعية لسلطة ملك فرنسا ، وذلك عبر خضوعهم تحت حماية أجنبية يجرى إعادتهم إلى فرنسا . يصدر هذا الأمر إلى كل الضباط الفرنسيين الموظفين فى بلاد الليفانت وشمال إفريقيا بأن يعملوا على تنفيذ هذا القانون بصرامة ودقة " .

وفى النهاية إذا كانوا يتفقون على أن من حق قنصل السويد أو فلنقل بالأحرى الوكيل البريطانى أن يتولى الحماية المذكورة للقبطان وللتاجر [التوسكانى] وللسفينة وللبضائع الإنجليزية ، إذا حدث كل هذا فإن القناصل الفرنسيين سيفقدون فى مصر كل ما يتمتعون به من مكانة واعتبار ، وسيصبح وجودهم فى مصر بغير جدوى أو فائدة ، كذلك سينظر بقليل من العناية والاحترام للاقتراحات والطلبات التى يرفعونها لمعظم المسئولين فى هذه الحكومة .

وعلى ذلك أتوسل إليكم ، سيدى المبجل ، أن تأخذوا بعين الاعتبار هذا العرض وأن تبذلوا مساعيكم من أجل الحصول على فرمانات من الباب العالى تحقق لنا الرضا الكامل فى هذه القضية . وأنتم تدركون أكثر من أى شخص كم من المهم وضع حدٍ ينهى العلاقات مع مالطة . وقد وصلت سفينة نمساوية كذلك إلى الإسكندرية فى يوم ٢٠ من هذا الشهر . والسفينتان تحت علم القدس نفسه قفلتا إلى مالطة وهما محملتان بالكتان والنطرون ونترات ملح البارود ... . وهى السلع الضرورية النادرة لدى العدو ، والسلعة الأولى على وجه الخصوص مهمة جدا لقطاع الخدمة بالبحرية. وليس فى قدرة الباشا إيقاف تلك الاتصالات التجارية ؛ ونعتقد بأنه يسعى إلى صنع سلام معين بين الباب العالى وإنجلترا . وهو مقتنع بأن كل أساكل الولايات التركية تحافظ على ذات الصلات التجارية ؛ وفى جملة واحدة أن هذا الرجل مخدوع ؛ وذلك أن حاشيته وبصفة خاصة ترجمانه[٢] ، تجعله عبر كل التلميحات والإيماءات يرتاب فى كل ما يأتيه من جهة الفرنسيين : فكان علىَّ أن أُكابد ، فى القضية الأخيرة الخاصة بسفينة القدس ، ألف عقبة وعقبة والتى لم أستطع التغلب على معظم ما كان فيها يشكل تهديداً لنا . ومحمد على رجل فطن جدا فى تدبير مصالحه المحدودة الخاصة بمصر ، ولا يفهم شيئًا فى العلاقات السياسية ؛ وهو يعترف على نفسه بذلك ، وأنه

---

(١) نجد فى الجبرتى إشارة إلى ترجمان محمد على بأنه " عبد الله بكتاش الترجمان" ، ولا نعرف على وجه التحديد هل هو الذى يعنيه القنصل دروفيتى فى تقريره أم كان لمحمد على أكثر من مترجم فى ذلك الوقت ، انظر الجبرتى ، ج ٤ ، شهرية جمادى الثانية ١٢٢٤ ، ص ١٥٩. (المترجم)

لذلك يجد نفسه مضطرا إلى اتباع آراء خلصائه المؤتمنين لديه . ولما كان هؤلاء أكثر حساسية للافتتان بحجج الأعداء عن تصديق قوة براهيننا ، فليس هناك إلا الأوامر والتعليمات الإيجابية التى ترد إليه من حكومته[1] والتى سوف يمكنها أن تدفعه إلى التخلى عن تلك المعتقدات الخاطئة التى أُوحى بها إليه ، وتطلعه على الأخطاء التى ضللوه بها . وسيظل هذا الحاكم يُخدع ويُضلل طالما كان هناك شخصيات مثل بطروتشى وبطانته فى مصر .

نسخة طبق الأصل :

دروفتى

---

(١) المقصود حكومة الباب العالى. (المترجم)

١١- من سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – علم القدس – محمد على فى مصر السفلى – نفقات العطايا

الإسكندرية فى ٢١ سبتمبر ١٨٠٨

(سُجِّلَت فى ١٦ نوفمبر)

السيد المحترم ،

أدرج هنا نسخة من الخطاب الذى حظيت بشرف إرساله لسيادتكم بتاريخ ٢٠ يوليو إلى إستانبول .

إننى انتظر الأوامر من السيد لاتور مابور فيما يتعلق بالسفينة التى تحمل علم القدس والتى تم الحجز عليها هنا بالإسكندرية وفقًا لأوامرى . ومن البديهى أن هذا العلم المحمى من فرنسا لا يمكنه أن يحمى تجارة الإنجليز فى بلاد السلطان . وعلى الأقل صار من المتعين علينا أن نوقف تلك الفوضى وذلك منذ حصلنا على ما يدعم موقفنا بقوة الحق والقانون . وفيما يتعلق بالسفن النمساوية التى تصل بصورة متكررة من مالطة إلى الإسكندرية محملة بالبضائع الإنجليزية ، فإننا لم نمتلك قبل هذه الحكومة سوى القانون المتمثل فى فرمانات السلطان التى تمنع ورود البضائع الإنجليزية إلى سائر ولاياته ، وعلى ذلك فإن البضائع المجلوبة من مالطة بواسطة السفن النمساوية لابد من مصادرتها . ولم تكن الحكومة تتلقى تصوراتنا للموضوع ، واستمرت تسمح بواردات البضائع الإنجليزية المتجهة إلى مالطة.

ويقوم محمد على بجولة فى مصر السفلى . وقد ذهب إلى دمياط ، ومن هناك سينتقل إلى هذه المدينة (أى الإسكندرية) . ولا أحد يعرف بالضبط سبب سفرته هذه ؛ بيد أن لدى ما يحملنى على الاعتقاد بأن الهدف الرئيس منها أن يحصل على دعم ورضا الأهالى ؛ كيما يظل محتفظًا بحكم مدينتى الإسكندرية ودمياط اللتين يريد الباب العالى أن يعين عليهما قادة خصوصيين ، فيتم استقلالهما عن حكم باشا القاهرة.

على أن مجيء الباشا قد جرَّ عليَّ دفع نفقات استثنائية والتى لم استطع الإعفاء منها إن فى الإسكندرية وإن فى رشيد . وذلك لأن المودة والاحترام لا يُمنحان بين الأتراك إلا بالمصلحة النفعية التى تأسرهم . ويشرفنى أن أرسل إلى سيادتكم مذكرة تفصيلية بهذه النفقات راجياً أن تأذنوا بدفعها .

ولم يتوطد بعد الصلح بين المماليك والباشا ؛ ومع ذلك فإلى اليوم يعم الهدوء صعيد مصر ، ولو أن عدداً معيناً من البكوات يرفض دفع الميرى عن مقاطعاتهم ، وهى الشرط الأساسى فى اتفاق السلام .

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

١٢- من سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – أصول الشهادات – دخول قرارات النظام القارى[١] مجال التطبيق – تجارة مالطة عبر السفن النمساوية – لا جديد بالإسكندرية : ليس لدينا سوى الجرائد الإنجليزية بمالطة – بعض السفن الفرنسية بموانئ مصر .

الإسكندرية فى ٢ نوفمبر ١٨٠٨

السيد المحترم ،

وصلت إلى ميناء الإسكندرية ، منذ شهر أغسطس الماضى ، أربع سفن من مرسيليا وواحدة من جنوه[٢] محملة بقليل من قماش الجوخ وبضائع من فرنسا .

وعاد بعض الأفراد بالفعل إلى فرنسا محملين ببضائع هذه البلاد . وغادرت اثنتان من تلكم السفن الميناء بشهادة المصدر ؛ إذ إننى لم أُوافَ آنذاك بالنموذج المقرر لتصاريح العبور ؛ وذلك بسبب نقص المعلومات الرسمية وقلة تلقى المراسلات الدورية من قبل سيادتكم بشأن هذا الموضوع . وما زلت إلى الآن لم أتلق تلك النماذج، ولا أعرف من أين يصدر هذا التأخير الذى يُعَرض خدمة مرور السفن للخطر ، مع أننى أعلمت بوصولها منذ فترة إلى قناصل سوريا . وثمة سفن من أزمير ومن إستانبول بإمكانها أن تنقل إلينا نموذج التصاريح ؛ فتلك السفن تتردد كثيراً على هذا الميناء . ولتدارك عدم وجود هذا النموذج ، ولتجنب المساوئ التى تنشأ عن ذلك طلبت من السيد " بيلافوان" قنصل فرنسا فى عكا أن يوافينى بنسخة من الرسالة الدورية الخاصة

---

(١) المقصود : سياسة الحصارالقارى التى طبقها نابليون بونابرت على غريمته إنجلترا . (المترجم)

(٢) جنوه : ميناء رئيس بإيطاليا ، والمعروف أنها اشتهرت منذ العصور الوسطى بدورها التجارى الكبير فى البحر المتوسط، وأصبحت فى العام ١٧٩٧ عاصمة الجمهورية الليجورية ، وفى عهد نابليون تم إلحاقها بأملاك التاج الإمبراطورى الفرنسى، وتحديداً فى العام ١٨٠٥ ، ثم ضُمَّت لملكة سردنيا فى العام ١٨١٥ . (المترجم)

بشهادات المصدر ؛ وبالفعل نقل إليَّ نسخة منها ، ومن الآن فصاعداً سوف أستخدمها كنموذج أساسي لكل أولئك الذين سوف أسلمهم إياها في المستقبل .

ولم أتلق أيضاً أي رد من السيد لاتور موبور فيما يخص التقرير الذي وافيته به بشأن الحجز على السفينة الحاملة لعلم القدس . وكشف لي السيد دروفيتي خبراً بأنه أُعلِمَ بأن الباشا هدد القناصل أو الأمة الفرنسية المقيمة في مصر في حال لم تسفر احتجاجاتنا عن نتيجة في هذا الموضوع . ولقد شقَّ عليَّ آنذاك عدم معرفتي بنوايا هذا الحاكم التي كان الأمر يقتضي إدراجها في تقريري .

وتلقيت دون شك من إستانبول الأوراق والجرائد الرسمية التي لا تصلنا هنا بالإسكندرية إلا جزئيا ، وتقريبًا وصلتنا بعد انقضاء عام . ومع ذلك سيكون من المهم الحصول عليها والتعرف على حقيقة الحوادث السياسية التي يطيب لأعدائنا أو لشركائهم الترويج لها بصورة مشوهة عبر جرائد مالطة التي يحرصون على نشرها هنا والتي يجب النظر إليها على أنها أقل من أن تحمل صفة الجرائد الرسمية ، وأنها أقرب إلى النشرات التي تروج لكل ما هو ضد حكومة فرنسا . إن هذه المنتخبات من الأخبار التي تروى للباشا وللأتراك ولأهالي البلاد الذين يجهلونها تمامًا تخلق رأيًا واعتقاداً ضارا بالنسبة لنا.

إن شحنات السفن الفرنسية التي وصلت مؤخراً ستتجه إلى بلاد الليفانت التي تحمل منها بالبضائع عند العودة . وذلك لأنه لا يوجد لنا في مصر أي مؤسسة فرنسية. ومع ذلك فإن هذه التجارة لن يمكنها قط أن تستمر ولا أن تزدهر طالما ظل نظام التأمينات يفرض عليها بمرسيليا ٥٠٪ مما يتسبب في الارتفاع الكبير لأسعار السلع، والتي تجعل المستهلك الذي يفكر فيما يخدم مصالحه يقرر العزوف عن شراء بضائع تبدد ماله .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٣- نسخة من خطاب نائب القنصل بالإسكندرية بمصر إلى السيد لاتور موبور القائم بأعمال سفير فرنسا لدى الباب العالى العثمانى

موجز - فرمان من الباب العالى بشأن حماية علم القدس : القاضى بمصادرة البضائع استناداً إلى حالة الحرب بين الباب العالى وإنجلترا .

الإسكندرية فى ١٩ نوفمبر ١٨٠٨

السيد المحترم ،

أحيطكم علمًا بوصول فرمان وجهه الباب العالى مؤخراً إلى باشا القاهرة بخصوص موضوع السفينة الحاملة لعلم القدس التى كنت قد احتجزتها ؛ وأوضحت لكم فى مراسلتى بتاريخ ١٩ يوليو أنه لم يصلنى أى رد بشأنها ، كما بينت لكم الأسباب التى دفعتنى لحجزها ، وأنه من الضرورى إيفادى بقرار سريع فى هذه المسألة . واستند فرمان الباب العالى على معلومات خاطئة ، وبالأخص فى إشارته إلى أن السفينة إنجليزية . وأمر الباب العالى بمصادرة بضائع السفينة ووضع السفينة تحت مسئولية حاكم مدينة الإسكندرية ؛ ومن هنا فإن هذا الحاكم طالبنى بإعادة مقبض دفة السفينة ، وفى ذلك الحين تشرفت بأن كتبت إليكم بأنى استودعتها لدى . وعارضت الحاكم فى تسليمها ؛ بحجة أننى لم يصلنى من إستانبول ردا على خطاباتى الرسمية ، وبأنه لا يتعين علىَّ أن أحررها من الحجز حتى يأتينى أمرًا بذلك ؛ على أننا توصلنا مع ذلك إلى اتفاق بشأن مقاصد الباب العالى ، اتفاق يجعلنى أسلم له السفينة فى الحال شريطة أن يقدم لى طلبًا مكتوباً بذلك ؛ وأن يرجع هو فى شأن ذلك إلى أوامر باشا القاهرة ، وانتظرت النتيجة ، وبعد مرور يومين من اتفاقنا ، جاءنى حاكم المدينة وفى صحبته العسكر والعتالين كى يقوموا برفع مقبض دفة السفينة . ولم أمتلك عندئذٍ مقاومة هذا التصرف العنيف . وأخذوا السفينة غير أن البضائع لا تزال بمخازن الأملاك [التابعة للقنصلية]، وأعتقد أن سلطات هذه البلاد لن تبحث عن

المطالبة بها ؛ وذلك لأنها تأمل أن تحافظ على صلة جيدة بمالطة التى تغذى تجارتهم مع هذه الجزيرة من خلال السفن النمساوية .

ومن الضرورى أن أُحيطكم علمًا بأن الباشا الذى كان يريد قرارًا حاسمًا فى هذه القضية يتلاءم مع تطلعاته أعلن تعليق أمر مصادرة السفينة حتى صدور أوامر نهائية من الباب العالى .

وهذا هو موجز فرمان الباب العالى والتصرف الذى سلكه معى حاكم المدينة لجعل أمر تنفيذ الفرمان يتم بشكل جزئى .

صورة طبق الأصل .

سان مارسيل

١٨٠٩

١٤- من سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – وصول السفن الفرنسية وبضائعها – شهادات المصدر – نفقات رصدت لشراء هدايا للباشا – ضرورة مقاومة التأثير الإنجليزى الذى تدعمه الهدايا الثمينة .

الإسكندرية فى ٢ يناير ١٨٠٩

(سُجِّلَت فى ١ أبريل ، ومرة أخرى فى ١٧ أبريل ١٨٠٩)

السيد المحترم ،

أحيط سموكم علمًا بوصول ثلاث سفن فرنسية إلى هذا الميناء والتى أقلعت من مرسيليا خلال شهر نوفمبر ، ووصلت الإسكندرية نحو مطلع هذا الشهر . وكانت حمولتها الرئيسة مكونة نوعًا ما من قماش الجوخ ، وعند عودتها حُمِّلَت بالنطرون والصمغ العربى .. . وسوف أتنبه من الآن فصاعدًا أن لا أسلم السفن شهادات المصدر وأوافيهم بالنموذج المقرر . وكنت سأظل حائرًا مشوشًا فى أمر التصرف فى مسألة الشهادات لولا أننى تنبهت بطلب نسخة دورية منها من قبل قنصل فرنسا بعكا ؛ ولما كان قناصل مصر ما زالوا لم يتلقوا بعد أمرًا رسميا فى هذه المسألة ، فإنهم لا يستطيعوا التعرف على الأهداف والترتيبات التى اتخذتها حكومتهم بشأنها .

وكان لهذا التأخير آثار سلبية بالغة : فقد سبَّبَ صعوبات فى الجمارك ، وألحق خسائر فادحة ببضائع التجار الذين حملوا شهادة المصدر التى لم تكن مصاغة بشكل يتفق مع النموذج المقرر . وفى الواقع إن القبطان المدعو بول قائد مركب الطرطن(١)

(١) مركب وحيد الصارى. (المترجم)

التى تحمل اسم يسوع مارى جوزيف ، والتى أقلعت من هنا فى العشرين من سبتمبر ووصلت مرسيليا خلال شهر أكتوبر الماضى كانت تحمل الشهادات غير السارية الآن (ولم يكن لدى آنذاك ولا نموذج واحد من الشهادات المقررة) ، ولهذا السبب تم التحفظ على شحنة بضائعه فى مرسيليا .

ومررت إلى وكيلى المفوض قوائم المصروفات العادية والاستثنائية الخاصة برشيد والإسكندرية عن الفصلية الرابعة من السنة[1] وستجدون أنه فى الشهور الثلاثة الأخيرة كانت النفقات الاستثنائية برشيد كبيرة جدا ؛ وذلك بسبب وصول الباشا إلى هذه المدينة ، حيث لم أستطع أن أمنع نفسى من تقديم هدية له فى شكل بندقية مزدوجة الطلقات ، والمصنوعة بفرساى ، بالإضافة إلى منظار قدمته لترجمانه . وستلاحظ سموكم من واقع قوائم مصروفاتى فى الفصلية الثالثة أن الخدمة بالقنصلية تقتضى أن نقدم لهذا الوالى تلك الهدية عند وصوله لهذه المدينة . إن سموكم سيحكم بالقيمة الكبيرة للهديتين . ومع ذلك فإن الوالى لم ترضه ، وكنت مستاءً أن أوضح للسيد دروفيتى ذلك وهو نفسه يشكو من قلة كرمى . ولا ينبغى أن أعزو هذه الضرورة وهذا الاستياء من جانبه إلا إلى المحبة الخاصة التى يكنها الباشا للإنجليز الذين يقدمون له الكثير من العطايا وبشكل يفوق ما يمكننا تقديمه . ودائمًا عين أعدائنا مركزة على مصر ، ويجب التحسب للأهداف التى يرمون إليها من وراء سخائهم ، كما يجب أن نحبط دسائسهم ، وللوصول لهذه النتيجة يجب أن نُعنى بتقوية رابطة من الود مع ضباط هذه الحكومة ؛ ولن ننجح فى ذلك إلا من خلال بذل العطايا فى الوقت المناسب . وإذا كانت هذه العطايا متواضعة فى قيمتها فلن نصل إلى الهدف الذى تدفعهم إليه . وإذا العطايا توقفت كلية فلن يتلقى القناصل فى هذه البلاد سوى المضايقات التى تحط من قدر الاسم الفرنسى ، وتتعرض تجارتنا للتلاشى بفعل

---

(١) المقصود الشهور الثلاثة الأخيرة من السنة ، وبحسب ما هو واضح فى مراسلات مارسيل وكذلك مراسلات دروفيتى كانت مصروفات القناصل الإدارية تحرر بها قوائم حصرية أربع مرات فى العام ؛ أى مرة كل ثلاثة أشهر. (المترجم)

المزايا التى يتمتع بها أعداؤنا . وإذا لم نستطع موازاة أعدائنا فيما يقدمونه من عطايا فلنعطِ على الأقل بقدرٍ يُجنبنا الضغينة الكامنة والتى يُثيرها جشعهم المستعر . وبعد ذلك سوف يجعل الاسم الكبير لأمتنا وبطولاتها العظيمة الكفة تميل لصالحنا .

ولم أتلق أى ردٍ على رسائلى من السيد لاتور موبور فى موضوع احتجاز السفينة الحاملة لعلم القدس . وأنقل إلى سيادتكم نسخة من خطابى إلى السيد لاتور موبور والذى ستلاحظ به الذرائع التى استند إليها الباب العالى فى الاستيلاء على السفينة والتى تعامل معها على أنها سفينة إنجليزية ، والتصرف الأقل من المعتاد الذى اتبعه حاكم هذه المدينة كيما يضع بين يديه مقبض دفة السفينة ، وكان الباب العالى قد جعل هذا الحاكم مسئولاً عن هذه السفينة وكذا عن حمولتها .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٥- من سان مارسيل إلى الوزير

موجز – علم القدس وفرمان الباب العالى – السلام بين إنجلترا وتركيا – قنصل إسبانيا ضد الملك جوزيف – وظيفة القنصل بطروتشى : وضع منظمة الرهبان العليا للأراضى المقدسة تحت حماية بطروتشى – استغلال مياه النيل بالدلتا – اتفاق السلام بين البكوات المماليك والباشا – التجارة الفرنسية فى مصر .

الإسكندرية فى ١٥ مارس ١٨٠٩

السيد المحترم ،

كان لى الشرف أن أبلغتكم باحتجازى للسفينة الحاملة لعلم القدس ، والقادمة من مالطة والمشحونة بالبضائع الإنجليزية . وهو ما أبلغته كذلك للسيد لاتور موبور القائم بأعمال سفير فرنسا والذى لم يوافنى بأى رد بشأن ذلك . وفى النهاية أصدر الباب العالى فرمانًا يقرر رد بضائع السفينة إلى أصحابها ، وتسليم السفينة إلى قبطانها السابق الذى سيرفع عليها علمًا عثمانيا . ومنذ بدأ هذا القبطان يبحر بالسفينة فى هذا الميناء أطلقت القلعة عدة مدافع تشريفًا له . والنقود التى تم توزيعها على تلك الحكومة، لأجل هذه المناسبة ، هى التى أثارت أكثر من أى اعتبار آخر كل مظاهر الاحتفال والتقديرات النادرة .

ولدينا خبر بإتمام الصلح بين الباب العالى وإنجلترا . ورست السفينة الإنجليزية التى جاءت لتعلن هذا الخبر فى هذا الميناء . ونزل الضابط الإنجليزى إلى البر وأحسن حاكم هذه المدينة استقباله . وقام قنصلا النمسا وإسبانيا برفع علمى بلديهما تشريفًا له . ولم تقلع هذه السفينة إلا بعد أن تلقى قبطانها ردود الباشا على طلبات الحكومة الإنجليزية التى كان هذا القبطان قد جلبها معه . وخلال فترة إقامته بهذا الميناء وصل من مرسيليا مدفع فرنسى صغير وذلك فى اليوم الخامس من شهر أكتوبر الماضى .

وجاهر السيد كامبو إى سولر ، قنصل إسبانيا فى هذا الميناء ، بأنه ضد جلالة الملك الجديد لإسبانيا وأنه لن يكف عن مهاجمته لجلالة إمبراطور الفرنسيين وجلالة الملك جوزيف . وكل هذه التشنيعات إنما وصلته من مالطة .

وصار على نفس هذا المنوال قنصل السويد ووكيل الإنجليز ، وهو بالطبع بطروتشى الليفورنى الذى كان تابعًا للفرنسيين فى مصر ؛ حيث كان يعمل كمحصل وصراف بأسيوط . وعبر شغله لهذه الوظيفة كون بطرق ملتوية ثروة كبيرة لم تسمح لضميره الجبان أن يعود إلى فرنسا مع جيش الشرق مؤثراً البقاء فى هذه البلاد ، وتحديداً فى رشيد حيث اتفق معه الإنجليز على شغل وظيفة الوكيل التى مارسها بكل حماسٍ وبجحودٍ زائدٍ عن الحد ضد فرنسا واشترى بعد ذلك فى إستانبول منصب القنصل العام للسويد فى مصر ؛ وبعد جلاء الإنجليز عن الإسكندرية عاد إلى هذه المدينة ليتولى فى ظل منصب قنصلية السويد تدبير مصالح الإنجليز وبحماسه ونكرانه وجحوده ضد المحسنين عليه الذين لم يقدموا له إلا ما يزيده خيراً وحسنًا .

إن رئيس منظمة الرهبان العليا للأراضى المقدسة الذى كان منذ فترة لا تعيها الذاكرة تحت الحماية الفرنسية قد دخل تحت حماية السيد بطروتشى ؛ وهذا التحول نتيجة لعدائه القومى أكثر من خوفه من انقطاع العلاقة بين فرنسا والباب العالى . ويُعتقد فضلاً عن ذلك بأن هذا التحول قد تم بتحريضٍ من السيد بطروتشى الذى يعتقد أنه بهذه الخطوة سيظهر أمام أهالى البلاد الذين تسيطر عليهم المعتقدات الباطلة على أنه الرجل الأكثر أهمية من الفرنسيين .

وقام الباشا بقفل ممر لفرع النيل عند منوف ؛ وذلك لأجل الدفع بمزيد من مياه النهر إلى دمياط التى كان نقص المياه بها قد حال دون زراعة الأرز . ولكن فرع النيل المتجه إلى رشيد لن يتزود بالقدر الكافى من المياه لزراعة الأراضى ، وربما كذلك لن تصل إلى مصب النهر كميات كافية تسمح بمرور السفن أو المراكب الصغيرة .

ويواجه بكوات الصعيد صعوبة فى دفع الميرى الذى التزموا به قِبَل باشا القاهرة، وفى هذه الحال فإن الباشا يهدد بإرسال تجريدة من قواته ضدهم ، وهذا يعنى تجدد الحرب .

وخلال العام الماضى وصلت سبعة مراكب إلى الإسكندرية قادمة من مارسيليا ، محملة ببعض البضائع ، وعند عودتها من الإسكندرية إلى مارسيليا حُمِّلَت بالحبوب والسكر الخام وملح النطرون .

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

١٦- من دروفتى إلى سيادة وزير العلاقات الخارجية

موجز - استئناف المفاوضات بين المماليك والباشا - سريان الانشقاق بين البكوات - محمد على يتلقى سيفًا وقفطانًا يؤكدان ولايته ولحثه على محاربة الوهابيين - الباشا غير راضٍ عن هذه الحملة وخاصة مع انشغال باله بتثبيت سلطته فى مصر - قوات الباشا - جباية ضرائب استثنائية من البلاد - رسالة من السيد لاتور موبور إلى محمد على : ترضية كبيرة للباشا - وعود مطمئنة من الباشا فى حال انقطاع العلاقات بين فرنسا والباب العالى : مطالبة دروفيتى بالتعليمات الواجبة فى هذا الموضوع .

القاهرة فى ٩ أبريل ١٨٠٩

(تم تلقيها فى ١١ ديسمبر ١٨٠٩)

السيد المحترم ،

إن اتفاق الصلح المبرم بين محمد على باشا والبكوات الذى شرفت بتدوينه إلى سيادتكم فى تقريرى المحرر بتاريخ ١٠ يناير - كان نوعًا من الاتفاق الحذر الذى لا يستند إلى أساس أو نظام ، كما أنه لم يشتمل على أى ضمانات ، وفى كلمة واحدة مثل هذا الاتفاق إخفاقًا هائلاً نتج عن مفاوضات مشوشة تمامًا ؛ ومن هنا انتهك البكوات هذا الاتفاق متذرعين بحججٍ لا أعتقد أنه من المفيد تفسيرها . وعادوا من جديد إلى التفاوض، وتمخضت المحادثات التى استمرت نحو الشهر عن هدنة تستغرق المدة نفسها . ويعتقد الباشا بإمكانية التفاهم معهم ؛ إذ إن موقفه يجعله يتمنى تحقيق ذلك ، وهو يتطلع إلى أن يقبل البكوات بالشروط الأخيرة التى اقترحها عليهم والتى تقوم على جعل المماليك دائنين له بضريبة عقارية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف قرش تركى ومائة وعشرة أرادب من الحبوب عينًا . ومهما كانت هذه الشروط معتدلة فإن البكوات سيتحول وضعهم بالكاد وبتضحية بسيطة تضعهم ، ولو ظاهريا على الأقل ، فى موضع التابع للباشا ؛ وإذا توافقوا فإن الأمر سيظل دائمًا مرهونًا بتحفظٍ ضمنى

يجعلهم ينتهزون أول فرصة ملائمة للتملص من هذه التبعية . ومن سوء حظهم أن أعدادهم تتناقص على مدار الأيام ، وليس لهم من قادة قادرين على اتخاذ قرارٍ قوى . فإبراهيم بك – فى عُرف اتباعه – فقد نفوذه طالما أنه أصبح طاعناً فى السن ، وانقسم بيت مراد بك بقدر ما يوجد من صناجق إلى عددٍ من الأحزاب . وتضاعف انقسام هؤلاء الصناجق حتى أصبح من بينهم مَنْ ليس له ستة مماليك حقيقيين تابعين له . وفى معسكر شاهين بك الذى خلف الألفى نجد اثنى عشر بك . ويُقال فى ظل هذه الترتيبات الغريبة أنهم أخذوا بنصيحة أشخاصٍ مهمة بتجميد القليل من القوات التى بقيت لديهم . وتلقى محمد على مؤخراً من قبل السلطان محمود سيفاً وقفطاناً ؛ ومع هذين التشريفين اللذين أكدا له وضعه كوالٍ لمصر صُدِرَ إليه الأمر بالتعجيل بالمضى إلى محاربة الوهابيين لاسترداد مكة والمدينة . ووعد الباشا بأن ينشغل بإعداد حملة مهمة ، ولكن نيته بكل تأكيد ألا يفعل شيئاً ؛ ذلك أن ملكية الأراضى المقدسة التى يُنظر إليها ، وفقاً للمعتقدات الإسلامية المسبقة ، على أن الدفاع عنها بمثابة دفاع قوى عن الإمبراطورية العثمانية ، إنما هى – فى الحقيقة – أقل أهمية عند الباشا من امتلاكه لباشوية مصر . ومن المؤكد أنه لم يسد حكمه فى مصر إلا بالقوة المتوفرة لديه ، وهو يعمل على نحوٍ دائم على اتخاذ كل الإجراءات التى تمكنه من تأكيد سلطانه . وقد عين فى رتبة الباشوية ابنه طوسون ، وهو يحيط نفسه بمثل ما يحيط ابنه الأكبر إبراهيم بعددٍ من الجنود وذلك وفقاً لرتبهم ؛ وإذا استثنينا الألبان وبعض القوات العثمانية المجلوبين من تركيا الآسيوية [1] الذين دائماً ما يكونون أقل تكلفة وأقل تعلقاً بالباشا ، فإن جميع الآخرين الذين تحت حكمه من أهله أو من حلفائه . ويمكن أن تصل قواته الجاهزة إلى عشرة الآف رجل . وبرغم الإصلاحات التى أدخلها الباشا فإن هذا العدد يتلقى ، بمثل ما جرت به العادة عند الأتراك ، راتباً ومؤناً كما لو كان ثلاثين ألف

(١) يشير الجبرتى إلى أن طوائف العسكر المحيطين بالباشا فى ذلك الحين كانوا من ثلاثة عناصر : أرنؤود وأتراك وسجمان ، راجع الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢١٥. (المترجم)

جندى ، وهذه النفقات الضخمة يمكن أن يُضاف إليها نفقات الإدارة والهدايا التى يتعين أن يرسلها إلى ضباط الباب العالى الذين يتوافدون باستمرار على مصر ، هذا إلى جانب الهدايا التى ترسل كما لوكانت حقا معتاداً إلى إستانبول ، أيضاً يُضاف إلى كل ذلك الاختلاسات الجزئية وخاصة المبالغ التى تدخل خزانة سموه الخاصة لأجل العسكر الجدد فى المستقبل . وكل هذه المجالات من الإنفاق أعطته ولا تزال تعطيه الفرصة لأن يفرض الضرائب الاستثنائية التى أنهكت موارد هذا البلد التعس . ويتناقص بدرجة مأساوية سكان بلاده وبصفة خاصة سكان الريف الذين يحاولون مع ذلك وبقدر استطاعتهم الحفاظ على أسعار منتجاتهم . ويتوقع أن يستقر سعر القمح فى الحصاد الجديد عند ٣٦ قرشاً تركيا للأردب ، وهذا يعنى أن سعره تضاعف ست مرات عن سعره فى الفترة التى كان الجيش الفرنسى يحتل فيها مصر . أيضاً نجد أن تسعة أعشار السكان يتطلعون بعيون باكية إلى السماء وإلى البلاد التى يتعين ، كما هو شائع فى تخميناتهم ، أن ترسل إليهم عما قريب مَنْ يحررهم .

أرسل إلىَّ السيد لاتور موبور خطاباً للباشا يتعجل فيه تلقى الرد عليه ، واعتقدت أنه من الواجب علىَّ أن أنقله بنفسى إلى سعادة الباشا الذى كان عندئذٍ معسكراً فى "طرة" بالفرعونية الواقعة على مسافة يوم من القاهرة ، وكان الباشا هناك لبعض الوقت يراقب بنفسه أعمال غلق ترعة الفرعونية التى كانت تحول المياه من فرع دمياط إلى فرع رشيد والتى سببت صعوبة كبيرة فى الملاحة فى الفرع الأول (دمياط) ، ومنعت وصول كل المياه الصحية من النيل إلى الأراضى المخصصة لزراعة الأرز وكذلك منعت المياه عن سكانها . وتلقى محمد على هذا الخطاب – كذلك – ببشاشة كبيرة أكثر مما تلقى به واحدة من مراسلاته المرسلة فى ذلك الوقت إلى السفير ، لكنه لم يكتب ردا عليها . وعلمت أن السيد القائم بالشئون الخارجية غالى فى توجيه عتابٍ غير لطيفٍ للباشا بسبب العلاقات التى تحافظ عليها مصر مع مالطة، ولكنه لم يهتم بمثل تلك الدسائس وكرر علىَّ القول بأنه تأثر بطابع الاحترام الذى لمسه من قبل السفير ، وأعطانى رسالة تحمل رده بتاريخ ١١ مارس ، وأظهر لى رغبته أيضاً

فى الحفاظ على هذه الرسالة . والإخطار الأول بشأن السلام بين إنجلترا والحكومة التركية قد حملت إلى مصر الطراد الحربى الإنجليزى الملحق بأسطول الأميرال كولنجوود . وثمة منشور وصلنا من السفارة بإستانبول يؤكد أيضًا صحة هذا الحدث غير المتوقع . وبالرغم من التعبيرات المطمئنة فى هذه الرسالة فإنها لم تترك فى نفوس رعايا جلالة الإمبراطور والملك المقيمين فى مصر[١] سوى كثير من القلق . وبدا لىّ أنه من المناسب أن نستطلع نوايا الباشا من خلال محادثاتى الطويلة جدا مع سعادته وأمكننى أن أُفاتحه فى حديثٍ صريحٍ حول الإجراءات التى سيتخذهاحيال القناصل الفرنسيين وجاليتهم الفرنسية ، فقال لى : " لقد كنت شاهداً على المعاملة الجيدة التى نعامل بها الوكلاء الإنجليز ورعاياهم عندما احتل جيش حكومتهم الإسكندرية بالخيانة ، وعملوا على طردى من هذه الولاية . وإنه لا يعتقد بأن الباب العالى سيرتكب حماقة بأن يدخل فى حربٍ مع فرنسا ؛ بيد أنه إذا وصلت الأمور إلى الحرب فاللعنة على الشخص الذى لن يتعامل معكم كما فى السابق " . ومع أنه ليس من الفطنة أن نثق فى مثل تلك التصريحات ، ومع أنه يتعين أن أتمنى وقوع حدثٍ يضطرنى إلى الرحيل عن هذا البلد الذى أعيش فيه منذ خمس سنوات فى وسط كل أنواع المخاطر والقلاقل والاضطرابات والحرمان حيث صحتى ساءت وضعفت جدا، إلا أنه إذا كانت خدمة الدولة تقتضى منى أن أبقى فإننى أعتقد أنه ، فى حال انقطاع العلاقات بين الحكومتين[٢] ، يمكننى أن أدبر حالى لفترة طويلة ، بحيث أكون خلالها مفيداً أكثر من الوقت الحاضر ، لكننى أرجو من سيادتكم أن تمدونى بالتعليمات التى توضح لى ما ينبغى فعله مع البكوات المحليين .

ويُشرفنى أن أكون ...

دروفتى

---

(١) المقصود: نابليون ورعاياه الفرنسيون الوافدون إلى مصر. (المترجم)

(٢) التركية والفرنسية . (المترجم)

١٧- من سان مارسيل إلى شامبينى

موجز - صعوبات حول شهادات المصدر - النموذج الرسمى لهذه الشهادات

الإسكندرية فى ١٣ أبريل ١٨٠٩

(تم تسجيلها فى ٢٦ يوليو وتلقيها فى ١١ ديسمبر ١٨٠٩)

السيد المحترم ،

إنه بالنسبة لملاك البضائع الخاصة بالسفينة التى رست هنا بالإسكندرية فى شهر سبتمبر من العام ١٨٠٨ أبلغنى القبطان جان أنطوان بول قائد " مركب طرطان " التى كانت تحمل اسم " يسوع مارى وجوزيف " أن شهادات المصدر التى أخذوها منى لم يُحدد بها ما إذا كانت البضائع انتاجًا واردًا من مصر أم صادرًا عن التجارة الإنجليزية إن بطريقٍ مباشرٍ أو غير مباشر ، وبسبب ذلك قام جمرك مرسيليا بالتحفظ على البضائع واحتجزها حتى تصله المعلومات الصحيحة والكاملة بشأنها . وإذا كان من الضرورى إذاً تقديم المعلومات لأجل تحرير تلك البضائع من الحجز المكونة من ملح النطرون والصمغ العربى والبخور والزعفران وبعض بالات القطن فإننى لأشهد بأن البضائع المذكورة صادرة عن هذا البلد وعن الجزيرة العربية وسوريا ، وليست لها علاقة بالتجارة الإنجليزية . وفيما يتعلق بالسفن والمراكب التى جلبت تلكم البضائع فنقول : بأن القطن حُمِلَ على سفينة من سوريا واللبان والصمغ على سفينة من الجزيرة العربية ، ولا يمكننى أن أحدد أسماءها ؛ لأنه ليس من المعتاد تسمية سفن هذه البلاد بأسماء خاصة .

إن عدم تلقينا النموذج المقرر من الشهادات جعلنى أسلم القبطان بول نموذجًا آخر من شهادات المصدر هو ما تسبب فى الخسارة الفادحة لملاك البضائع التى تم الحجز عليها بديوان جمرك مرسيليا ، وعلى ذلك فلست المسئول عن هذا الخطأ ؛ لأننى لم أتلق من الوزير الخطاب الدورى الخاص بنموذج الشهادات . وبعد

ذلك قمت بطلب نسخة من ذلك النموذج من قنصل عكا . ومنذ تسلمى لتلك النسخة قمت بتسليم نموذج الشهادات الأصلية على أساسها وذلك لكل شحنات البضائع التالية التى تم شحنها من هذا الميناء على عشر سفن كانت متجهة إلى مرسيليا . ونحن نعرف بأن إحدى تلك السفن التى كان يقودها القبطان بلين قد استولى عليها الإنجليز وقادوها إلى مالطة .

وكانت السفن الإمبراطورية والسفن الأخرى الحاملة للعلم التونسى تشحن بالبضائع دون توقف إلى مالطة ، وتنقل إلينا هنا بالإسكندرية البضائع الإنجليزية وكذا غنائمهم من القرصنة . ورست سفينة حربية بالإسكندرية فى يوم ٦ من هذا الشهر . وكان الهدف من مجيئها - من غير شكٍ - أن تنقل رسائل الحكومة الإنجليزية إلى الهند. وأقامت هنا ثمانية أيام . وقام قبطانها بزيارة حاكم المدينة الذى استقبله بحفاوة كبيرة .

ويبدو أن بكوات المماليك بصعيد مصر قد بدأوا من جديد فى التفاوض مع باشا القاهرة واستمرت حالة الوفاق سائدة بين الحزب والحزب الآخر .

مع خالص الاحترام ...

سان مارسيل

ملحوظة : يتعين علىَّ فى الحقيقة أن أنقل لسيادتكم أنه عند وصول السفينة الحربية الإنجليزية لم يقم القنصل العام لإسبانيا المدعو السيد كامبو إى سولر برفع علم بلاده مثلما فعل عند وصول أول سفينة إنجليزية . وقام السيد جودار نائب قنصل النمسا - الشريك الكبير للإنجليز بانتهاز هذه الفرصة فى العودة إلى بلاده .

سان مارسيل

١٨- من الوزير إلى دروفتى

موجز - مكاتبات دروفتى مع سفير فرنسا فى إستانبول لا يتعين أن تسىء لمكاتباته المباشرة مع باريس - استحسان باريس لتصرفاته - التعليمات الجديدة بشأن إجراءات الحظر المتخذة ضد التجارة الإنجليزية - إرسال نماذج شهادات المصدر ومنشور ٣١ ديسمبر ١٨٠٧

باريس فى ١٧ أبريل ١٨٠٩

أيها السيد إنه منذ ردى المؤرخ بتاريخ ١٦ أكتوبر ١٨٠٧ على رسائلكم الواردة بتاريخ ١٠ ، ١٥ ، و٢١ فبراير و ٢ مارس من العام نفسه ، والحاملة للأرقام من ١ إلى ٥ ، لم يصلنى سوى أربع رسائل .

بتاريخ ١٨ يناير، و ٨ أبريل ، و١٢ يوليو و ١٠ أغسطس من العام ١٨٠٨

قد أدهشنى إهداركم الوقت الطويل دون الكتابة إلىَّ كثيراً ، ولا أجد سببًا لذلك إلا أنه فى رأيكم أن نشاط حركة مراسلاتكم مع سفير جلالة الإمبراطور فى إستانبول هى التى أبطأت مكاتباتكم الواجبة معى ، لكننى أعتقد أنكم أخطأتم فى هذا الصدد . والقنصلية التى عهدت إليكم خلال كل هذه الفترة كانت لها عناية واهتمام من الحكومة: واليوم لا تستحق القنصلية اهتمامًا أقل مما سبق . والتقارير التى رفعتها للسفارة بإستانبول لا يمكن بأى حالٍ من الأحوال أن تعفيك من واجب كتابة التقارير إلىَّ . وأدعوك إذًا أن تستأنف مكاتباتك معى وأن تستمر فى تحرى الدقة التى أثبتَّها فى السابق .

إن الخطابات الأربع التى أفدتكم باستلامها لم تكن مرقمة ، وهذا يُشكل استحالة تحققى فيما إذا كنتم لم تكتبوا إلىَّ خطابات أخرى يحتمل اعتراض وصولها إلينا ، ولكن يمكنكم من خلال التواريخ التالية التحقق من هذا الأمر . وإذا أدركتم أن بعض رسائلكم لم تصلنى فأود منكم أن ترسلوا إلىَّ بطريقة آمنة نسخة أخرى .

ومن ناحية أخرى لدى عدد قليل من الملاحظات حول ما قدمتموه إليَّ . فأنا أوافقكم على تجنبكم التوسط في إقرار الاتفاق الذى يتفاوض بشأنه كل من البكوات والباشا . فحالة عدم استقرار التى تسود مجالسهم و قراراتهم تجعل أى وسيط بينهم فى موضع الشبهة بالنسبة للجميع . ورفضتم أيضًا أن تصطحبوا الباشا فى جولته التى اقترح عملها فى مختلف موانئ مصر . ولا أعرف ما فائدة مثل هذه الجولة بالنسبة لمصالح الخدمة التى عُهِدَت إليكم : ويبدو لى أن هذه الجولة لم يكن لينتج عنها سوى الزيادة فى المصروفات . وفى هذا الصدد ليس لى إلا أن أوصيكم بأن تقتصدوا فى المصروفات بشكلٍ صارمٍ .

وكان وصول بضعة سفن إلى الإسكندرية محملة بالبضائع الإنجليزية التى صُرِّحَ بدخولها لهذا الميناء قد أثار من جانبكم الاعتراض وتقديم الالتماسات التى لم تلق القبول والنجاح الذى كنتم تنتظرونه .

وأحسنتم صنعًا أن رفعتم تقريراً إلى المكلف بالشئون الخارجية بإستانبول ، واستعجلتموه فى مطالبة الباب العالى بإصدار فرمانات تهدف إلى جعل الباشا مضطرا إلى التخلى عن نظام الانحياز للتجارة مع إنجلترا الذى يبدو أنه متبنيه .ومهما كانت النتيجة من محاولات السيد لاتور موبور فإننى أدعوك إلى أن تستمر بقدر ما يعتمد عليك فى عمل كل ما هو ضرورى لتأكيد تنفيذ إجراءات الحظر التى أمر بها جلالة الإمبراطور .

وأبلغنى السيد سان مارسيل أنه أيضًا لم يتلق التعليمات التى سبق لى أن أرسلتها إلى كل وكلاء القناصل والمتعلقة بالنموذج الجديد لشهادات المصدر . وبناءً على ذلك فقد أرسلت إليه نسخة من منشورى الصادر بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٨٠٧، مصحوبًا بمنشورٍ آخر يتعلق موضوعه بتثبيت الضرائب التى تحصل على تسليم شهادات المصدر . ولما كنت أظن أنكم لم تتلقوا أيضًا هذين المنشورين فإننى أنقل إليكم نسخة منهما طى هذه المراسلة .

ويشرفنى أن أحييكم .

١٩- من الوزير إلى سان مارسيل

موجز – إرسال نماذج شهادات المصدر والمنشور [الوزارى] الصادر بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٨٠٧ – استحسان تصرف سان مارسيل فى مسألة علم القدس .

باريس فى ١٧ أبريل ١٨٠٩

إن خطاباتى الأخيرة التى كتبتها إليكم ، أيها السيد ، تحمل تاريخى الثانى والثالث من شهر يناير الماضى .

أخبرتونى بوصول بعض المراكب القادمة من مرسيليا إلى الإسكندرية محملة بالبضائع الفرنسية وعودتها من هناك محملة بمنتجات من مصر . وتبينت كم كنتم فى حالة من التشويش للغاية ؛ من جراء الشهادات التى سلمتموها للسفن ؛ وذلك بسبب عدم تلقيكم للتعليمات الأخيرة التى وُجِّهَت إلى جميع القناصل والخاصة بالنموذج الجديد لشهادات المصدر . ولكن السيد بيافوان المهتم بالطلب الذى قدمتموه إليه قام بإرسال نسخة من خطابى الدورى إليكم ؛ وذلك بتاريخ ٣١ ديسمبر ١٨٠٧، وطريقة تصرفكم فى هذا الموضوع سوف يتم فى المستقبل التأكيد عليها تمامًا . ومع ذلك لما كان من الضرورى أن يتوفر لديكم بالقنصلية نسخة رسمية أصلية وموثقة ، فإننى سأوافيكم بها طى هذه المراسلة ومعها رسالة دورية أخرى تتضمن الرسوم المحددة الخاصة بإصدار الشهادات ، ومرسل نسخة مماثلة للسيد دروفتى .

وفهمت من مراسلاتك والمراسلات التى أُرسِلت من قبل بخصوص المركب التى جاءت من مالطة إلى الإسكندرية حاملة لعلم القدس وعلى متنها شحنات البضائع الإنجليزية ، أن السلطات المحلية كانت تعارض بطريقة غير لائقة تمامًا إجراءاتكم القنصلية . وأنكم عمدتم إلى طلب تدخل سفيرنا القائم بالشئون الخارجية بإستانبول ، ومهما كانت نتائج مساعيه ، فإننى أدعوكم إلى الاستمرار فى العمل فى كل مرة تتطلبها الظروف ويحسب اعتمادنا عليكم حتى يتأكد تنفيذ إجراءات الحظر المقررة بأمر جلالة الإمبراطور والملك ضد تجارة إنجلترا .

ولى الشرف أن أكون ...إلخ .

٢٠- من دروفتى إلى (الوزير)

موجز – ترتيبات مناسبة يتخذها محمد على فى حال تصدع العلاقات بين فرنسا والباب العالى شارطًا أن يتم ذلك بشكل سرى – غلق ترعة الفرعونية .

القاهرة فى ٢٩ أبريل ١٨٠٩

(تم تلقيها فى ١١ديسمبر)

السيد المحترم ،

وصلت سفينة فرنسية إلى الإسكندرية قادمة من مارسيليا وذلك بتاريخ ٢٠ من هذا الشهر ؛ ونما إلى علمى تحرك سفينة أخرى والتى من المتعين ألا يتأخر ظهورها هنا . ونحن فى انتظار وصول سفن أخرى من ليفورن . إن الحالة المحتملة لانقطاع العلاقات مع الباب العالى العثمانى أثارت مخاوفى بشأن هذه السفن التى يمكن أن تخضع للمصادرات داخل موانئ المملكة ، ولذلك رأيت أنه من الأهمية بمكان سبر غور نوايا الباشا فى هذا الموضوع.

وكانت محادثة طويلة ، خلصت منها إلى أنه سيتخذ إجراءات تجعل السفن التى ستصل إلى الإسكندرية تبحر قبل نشر الفرمانات التى ستعلن الحرب على فرنسا. وقال الباشا : بأنه سوف يعمل بأقصى ما فى وسعه للبرهنة على تقديره لإمبراطور الفرنسيين، وأنه سيغض الطرف عن طبيعة جوازات المرور التى ستزود بها السفن الفرنسية ، وأن تحمل تلك السفن عند رسوها بمصر أعلام بلاد البربر[1] بحيث تتخفى شخصيتها حتى لا يجد الباشا نفسه فى موقف حرج مع الباب العالى والدول الحليفة

---

(١) المقصود بها شمال إفريقيا : طرابلس الغرب ، تونس ، الجزائر ، والمغرب. (المترجم)

لها. وفى هذه الحال يمكن لجلالة الإمبراطور والملك أن يسمح لرعاياه الذين يتاجرون مع مصر أن يرسلوا شحناتهم التجارية ، مع أخذهم التحفظات والمحاذير المشار إليها، وأن الباشا يتمنى أن يتمخض عن مقاصده فى هذا الأمر تحقق الاتصالات مع فرنسا ، مع أخذ الاحتياطات السرية ، كما يتمنى الباشا أيضًا أن يتردد الفرنسيون على ميناء دمياط بدلاً من ميناء الإسكندرية .

ومن جانبى ، أرجو سيادتكم أن تتفضلوا بإمدادى بالتعليمات اللازمة فى هذا الموضوع ، وأن تتكرموا بإصدار الأوامر بأن يتم تحرير نسخٍ متعددة من المراسلات التى سوف تبعثونها إلىَّ ، وأن يجرى إرسالها عبر طرقٍ مختلفة ؛ حتى نتدارك المساوىء التى يمكن أن تنتج عن اعتراض المراسلات .

وقد لمسنا فى الأيام الأخيرة حدوث هدنة مع البكوات المماليك ؛ والجانبان يتطلعان للصلح دائمًا مع أنهما يستعدان للحرب . ومحمد على المحظوظ فى كل ما يشرع فى عمله بلغ هدفه بغلق الترعة التى يقال لها الفرعونية ، وذلك دون أى وسيلة من وسائل فن الرى . وستجدون فى تقريرى بتاريخ ٩ من هذا الشهر تفاصيل هذا المشروع الذى يشرف إدارة هذا الباشا.

ولى الشرف أن أكون ...إلخ .

التوقيع : **دروفتى**

٢١- من سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – تلقى مرسوم إمبراطورى بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٠٦ ونماذج من شهادات المصدر – قضية مركب طرطن التى تحمل اسم جوزيف مارى – السفن الإنجليزية القادمة من الهند إلى السويس – استئناف العلاقات التجارية بين مصر والهند .

الإسكندرية فى ٢٤ مايو ١٨٠٩

السيد المحترم ،

إن صورة المرسوم الإمبراطورى الصادر بتاريخ ١١ أغسطس ١٨٠٦ والمتضمن تحديد الرسوم الواجب على القناصل تحصيلها عند إصدار شهادات المصدر للسفن ، والذى تم إلحاقه بالخطاب المطبوع والمرسل من قبل سيادتكم بتاريخ ٣١ أغسطس لم يصلنى سوى بالأمس . ومع ذلك كان لدى معرفة بمحتواه ، وأعتقد أن ما أصدرته فى هذا الأمر يتوافق مع ذلك المحتوى الذى جاء بنموذج شهادات المصدر. إننى لم أقترف خطأً متعمداً فى هذا الموضوع ، وبشأن شحنات سفينة طرطن التى تحمل اسم جوزيف مارى ، ويقودها القبطان بول ، فإنها اتجهت من هنا إلى مارسيليا فى شهر سبتمبر ١٨٠٨، وفى هذه الفترة لم يكن لدى أى معلومات تتعلق بالنموذج النصى لشهادات المصدر .

وكانت شحنة هذه السفينة مكونة من ملح النطرون ، والصمغ ، واللبان ، والزعفران ، وبعض بالات القطن ، ومصدر تلك البضائع من مصر والجزيرة العربية وسوريا . وليس لذلك أى صلة مباشرة أو غير مباشرة بالتجارة الإنجليزية . ومن المستحيل بالنسبة للسفن والمراكب التى جلبت جزئيا تلك البضائع من سوريا والجزيرة العربية أن نحددها تحت اسم معين لم يكن متوفراً لها فى هذه البلاد . لقد علمت أن شحنة سفينة القبطان بول قد تم الحجز عليها بسبب غياب النموذج المعتمد لشهادات المصدر . وإذاً أرى من الواجب أن أحيط سيادتكم علمًا بالمعلومات الدقيقة التى

تمكنكم من دعوة الإدارة إلى تسليم البضائع التى تم شحنها على سفينة القبطان بول من هذا الميناء (الإسكندرية) .

وعلمت فى هذه اللحظة أن ثمة ثلاث سفن لتجار إنجليز محملة ببضائع من الهند قد وصلت إلى السويس . اثنتان منها قدما من البنغال والثالثة من سورات . وهذه الملاحة المباشرة بين الهند ومصر تتم بعد فترة انقطاع بلغت عشرين عامًا ، وذلك بسبب نهب قافلة إنجليزية كانت قادمة من سوريا إلى القاهرة . وتوجهت السفن الإنجليزية إلى جدة . واليوم بدا واضحًا أن أحد البنود السرية فى المعاهدة المبرمة بين إنجلترا ومحمد على عند جلائهم عن الإسكندرية أن يسمح بوجود اتصالات تجارية بين الهند والسويس على سفن إنجليزية .

مع كل الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

٢٢- خطاب شاهين بك إلى سعادة الأميرال قائد القوات البريطانية بالبحر المتوسط فى أغسطس ١٨٠٩

موجز – شاهين بك يطلب حماية إنجلترا – شاهين بك يطمع فى أن يلى حكومة مصر بوصفه وريثًا للمماليك – وهو سيتقبل شروط إنجلترا – ويطمئن إلى مساعدة العسكر الأتراك إذا استطاع أن يرضى أطماعهم – تأكيداته بالإخلاص المطلق لإنجلترا – كل موارد مصر فى خدمة إنجلترا – إعادة قوافل حجيج مكة والقوة القديمة للمماليك " لأجل عظمة الأمة البريطانية " – وإلا فإنه سيكون من السهولة على فرنسا إعادة توطيد نفسها فى مصر .

سعادة [الأميرال]،

أتذكر المزايا والتشريفات التى مُنِحَت وبسخاء من الحكومة البريطانية لسلفى المرحوم الألفى بك ، وإننى لأميل بشكل طبيعى إلى اقتفاء أثره ، راجيًا أن تمنحونى نفس التعاطف كالذى لاقيته من السيد فرانشيسكو بطروتشى ، الوكيل البريطانى الذى عرَّفته برغباتى ، وهذا ما شجعنى على أن أتقدم بهذا الالتماس متمنيًا الحصول على حماية بريطانيا القوية لتدعيم طلبى ، وخاصة أن الاقتراحات التى يتضمنها التماسى تتوافق مع مصالحنا المشتركة.

ومن الطبيعى أن يبحث كل الرجال عن استرداد ملكية ثرواتهم التى نُهِبَت . وليس خافيًا على حضرتكم أنه منذ وقت سحيق والمماليك يحكمون مصر ؛ وعلى ذلك، وبصفتى الوريث الشرعى لهؤلاء المماليك ؛ فإننى أعتقد بأن لى كل الحق أن أتطلع إلى ولاية مصر ، بيد أنه فى الوقت الحاضر لا يمكن أن ننتزع ذلك من بين يدى المالك الفعلى لهذه الحكومة ، وحتى لو أمكننى تحقيق ذلك فلن أستطيع الحفاظ على سلامة وأمن البلاد من دون حماية قوة بريطانيا التى طلبت حمايتها ومساعدتها بالشروط التى تريد أن تمليها علىَّ . والناس من جانبى مع العلماء يتطلعون إلى نعيم العودة إلى

إدارتهم القديمة[1]؛ لأنهم متأكدون أنه مع هذه الإدارة المملوكية سوف تتخفف عنهم ، في الحال ، كل الأعباء الثقيلة ، وكل أنواع المظالم التى يعانون فى ظلها . أما البكوات المماليك الآخرون فإنهم منذ وفاة الكخيا برديسى بك- نصير الفرنسيين- أصبحوا غير قادرين على أن يشكلوا عقبة أمام مشاريعى ؛ بل إنهم على العكس من ذلك ، من المؤكد سوف ينضمون إلىَّ عند أول إشارة إليهم بذلك . كذلك الحال مع كل القوات الألبانية والعثمانية، فهى مستعدة للانضمام إلىَّ بشرط واحد أن أكون قادراً على تسديد المرتبات المستحقة لهم ، وأن أشبع بالتالى جشع هؤلاء الذين عادة ما يخدعهم محمد على بمطامعه الأشد منهم ، وهو المعتمد بالفعل على حماية الفرنسيين . وهذا المشروع الذى رتبته مع السيد بطروتشى ، وكيل ملك بريطانيا، سوف يكون قابلاً للتنفيذ ، فى هذه البلاد ، حالما أكون قادراً على دفع حوالى خمس عشرة ألف كيس . وليس هذا المبلغ بكبيرٍ على بريطانيا العظمى أن تمدنى به ، وهو ما أطلبه من حضرتكم كسلفة فقط ، مع التأكيد على إمكانية تسديده، وبنفس القيمة ، فى صورة بضائع من مصر . وأؤكد على أننى أخضع تمامًا وبكامل قواتى لإرادة الحكومة البريطانية . ولو أن هذا المسعى يمكن أن يُكلفنى حياتى التى أعرف أننى ، وبحماس كبير ، سأضحى بها من أجل مساعدة هذه الحكومة [البريطانية] ضد كل عدوٍ محتملٍ ، وبالأخص ضد العدو المنافس لها [فرنسا] التى ستحاول بكل تأكيد ، إن عاجلاً أو آجلاً ، أن تظهر بقوات مهمة ؛ لأن الخوف الذى انطبع على القلوب ، والاعتقاد السائد بوعودها ، جعلها تجد فى شخص هذا الباشا والقوات التابعة له حليفًا خانعًا فى منزلة العبيد ، ولن يُثير لها أى عوائق . وعلى العكس من ذلك إذا دعمت بريطانيا العظمى وجهة نظرى بتقديمها المساعدات التى طلبتها منها، فإننى فى هذه الحال ، سوف أقاوم أعداءها بقوة كل المماليك الذين سوف يكونون - بغير شك - فى حزبى . ويمكننى فضلاً عن ذلك أن أستميل بالمال جميع القوات الأخرى ، سواء ما كان منها بمصر

---

(١) المقصود : حكم المماليك. (المترجم)

نفسها أو ما كان يخص قوات الألبان والأتراك الموجودين بالحبشة ، بمملكة دارفور وسنار ، التي بسكانها الواقعين تحت نظام عسكرى ما ، يمكن أن يقدموا لنا ، بعد انضمامهم لحزبنا ، رجالاً أكفاء على غرار القوات العسكرية الأخرى . ويتعين أن ألحق بكل تلك القوات جميع عرب هذه الولاية الذين يكرسون بالفعل جهودهم فى خدمتى مثلما يفعل جميع الناس الآخرين؛ بحيث يمكننى عند الحاجة أن أسلحهم جميعًا ؛ من أجل أن أحافظ على الحقوق الخاصة وضمان مصالح الأمة التى أحسنت إلىَّ [1].

وخلافًا لذلك فإن الباب العالى نفسه لن يمكنه إلا أن يكون راضيًا تمامًا فى أن يرى مصر وقد انتقلت بين يدى رجل سيدفع لها الضريبة كاملةً ، وهى الضريبة المعروفة بالميرى ، وسيعيد إليها ، بعد ذلك ، وبكل تأكيد ما سوف أسدده لها من هذا الدين المستحق . وتستعيد قوافل الحج دورها المعتاد إلى[2] الروضة الشريفة لنبينا بمكة، وبفضل وحماية ملك بريطانيا ، وكذا بفضل وحماية مختلف وزراء الديوان [الهمايونى] بإستانبول ، والذى يعد أحدهم من أتباع سلفى الألفى بك ، ومن حقى أن افتخر بثقة ودعم هذا التابع الطيع ، الذى يعمل بالفعل بوظيفة القزلار أغاسى بسراى الباب العالى ، ومن ثم فهو يتمتع هناك بتأثير كبير . وبفضل كل ذلك يمكن أن أتجاسر وأقول بأن تلك الوسائل سوف تجعل من السهل علىَّ الحصول على المزيد من القوات ؛ وذلك عبر شراء مماليك جدد ، نعيد بواسطتهم بناء قوتنا على نحو ما كان الحال عليه فى نظامنا المملوكى القديم . بيد أن تكريس هذا النظام وكل تلك القوات ، بصفة دائمة ، يظل فى خدمة بريطانيا العظمى ، حتى إذا عادت ، بعد ذلك ، تلك القوة بأسطولها وقواتها[3] للظهور من جديد فى نواحينا البحرية ، فعندئذ يمكننى أن أؤكد لسعادتكم ، فى إطار الاستخدام المؤقت للمبلغ المطلوب منكم كسلفة ، وعدى بأن أتجه،

---

(١) المقصود هنا بريطانيا. (المترجم)

(٢) هكذا وردت فى النص الفرنسى، وصحتها بالمدينة. (المترجم)

(٣) المقصود فرنسا. (المترجم)

منذ هذه اللحظـة ، لمساعدة كل من قوة حزبى وقوة مختلف قبائل العربان التى يمكن أن تتحد حالئذٍ تحت أوامر القائد البريطانى ، لنريق دماءنا جميعًا بطيب خاطر من أجل مجد الأمة البريطانية .

ولابد أن مصالح بريطانيا ستتجه - كما يبدو لى - إلى تبنى فكرة أو أخرى من الاقتراحات التى طرحتها هنا ، وخاصة أنها إذا أرادت أن تتصرف بطريقة تخالف ما ذكرت فإنها ستتخلى آنذاك عن أن يكون لها فى هذه الولاية[1] أى تأثير كبير ودائم . وإذا دخل مصر أهل الظلم والطغيان[2] وعملوا على تثبيت أقدامهم بها فإننا سنقتلعهم منها، وأن الأهالى المتعبين المرهقين من طول المعاناة سيقبلون فى ظل حالة اليأس والقنوط أى ظالم آخر يقدم لهم بشرط أن يكون ظلمه أخف وطأة مما يتحملونه الآن . ومع إمعان النظر فى الاقتراحات والأفكار المذكورة فى هذه المراسلة، أرجو أن تغفروا لى استطرادى فى هذه المراسلة ؛ لأن مضمونها بالغ الأهمية ، وهو ما يتطلب العذر ثم إنها أُمليت بحماسى وإخلاصى لمصالح الأمة البريطانية . وآمل أن تشرفنى بريطانيا بالرد اللطيف والملائم على رسالتى وهو ما سوف أنتظره بفارغ الصبر .

وأرجو أن تعتقدوا فى طاعة وإخلاص خادمكم الحقير ...

---

(١) جاءت فى النص المترجم Royaume. بمعنى "المملكة" والمقصود بها هنا "الولاية". (المترجم)

(٢) المقصود هنا : فرنسا ومشروعها المحتمل لغزو مصر. (المترجم)

٢٣- دروفتى إلى الوزير

موجز – نقل برقية من شريف مكة – فشل مفاوضات محمد على مع البكوات المماليك.

القاهرة فى ٢١ أغسطس ١٨٠٩

(سُجِّلَت فى ٢٦ فبراير ١٨١٠)

السيد المحترم ،

يشرفنى أن أرسل إلى معاليكم رسالة لجلالة الإمبراطور والملك[١] من قبل شريف مكة . ويعتبر هذا الأمير واحداً من كبار سادة العرب ، وهو يشكو من حالة الصمت التى لاحظها بشأن العديد من الخطابات التى كتبها إلى جلالة الإمبراطور الملك. وقد عهد إلى والى مصر بأن يطلب منى الاستفسار عن سبب ذلك، واقتصرت على أن أقنعه بأنه لم يفتنى إرسال الخطابات التى يتطلب منى إرسال الردود عليها؛ وأنه على ما يبدو أن ظروف الحرب أعاقت وصولها ، ومن جانبه أكد سعادته (أى محمد على) لشريف مكة بأن الإمبراطور الكبير لن يرفض على الإطلاق الشرف والاعتراف بالحقوق الواجبة لعرائضه.

ومثلما تنبأت لسيادتكم فى تقاريرى السابقة لم تسفر مفاوضات محمد على والبكوات عن النتائج التى كان الأخيرون يتطلعون إلى الحصول عليها : فالباشا استعد لتسيير فرقة عسكرية من جيشه تقوم بوضع يدها على ملكية المدن والبلاد الواقعة على ضفتى نهر النيل ، وسوف تكابد هذه العملية قليلاً من الصعوبات؛ انتظاراً لفيضان

---

(١) المقصود : نابليون بونابرت. (المترجم)

هذا النهر الذى لايسمح للمماليك باستخدام جيادهم ؛ كذلك يستعد البكوات للانتقال إلى القرى المجاورة للصحراء . ولن يمكن للحزبين المتصارعين أن يستعرضا قواتهما ، ولن تبدأ الأعمال الحربية بينهما إلا عند تراجع مياه الفيضان .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتى

٢٤- ترجمة مراسلة السيد عثمان أمير مُخا الموجهة إلى : جلالة الملك السلطان المعظم بونابرت حفظه الله !

موجز - التأكيد على المحبة الخالصة - الشكوى من سطو القراصنة الفرنسيين على سفينة مُخا - مطالبة الجنرال دوكان بتلقى التعليمات المترتبة على ذلك.

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جلالة الملك المشهور مثل كسرى والكريم مثل حليم[١] والعالم مثل داوود والشجاع مثل الغضنفر وذوى البصيرة النافذة مثل عيسى، الذى يحكم بالمساواة والعدالة ، رافع أعلام الحق فى بلاده وقاهر أولئك الذين يرفعون أعلام الضلال ، الملك ذو الخطط الراسخة المتوشح بمعطف الشرف والعظمة والسمو ، العظيم بونابرت المتمنين له التمتع الدائم بالمجد المشرق والقيمة التى لاتتغير بفضل كتاب الإنجيل وكتاب الزابور.

إن هدفنا الرئيس من كتابة هذه المراسلة الودية أن تتذكروا ما بيننا وبينكم من اتفاقيات وصداقة مخلصة ، وأن تعلموا بأننا لم نتسبب فى إلحاق أدنى الضرر بكم ، وبيتكم[٢] بمدينتنا عامر مزدهر ، والعلم الفرنسى يرفرف فوق هذا البيت ، وأنتم أكثر من نحب من بين الأمم المسيحية .

وسبق أن أخبرناكم بأنه فى العام الماضى انطلقت سفينة السيد[٣] أحمد بن عبد القدوس[٤] الكاك ، وأن أخاه المدعو السيد عبد الرحمن أبحر من هنا ، وهذان

(١) جاءت فى النص Halem وصحتها فى أغلب الظن " حاتم" وهو الشخصية العربية الشهيرة بالكرم والعطاء فى الجزيرة العربية . (المترجم)

(٢) المقصود هنا : القنصلية الفرنسية بمدينة مُخا . (المترجم)

(٣) وردت فى النص Seii بمعنى السيد . (المترجم)

(٤) جاءت فى النص Abd Ulkadis (عبد القديس) و صحتها "عبد القدوس". (المترجم)

السيدان قاطنان بمدينة مُخا ، ومعروفان بيننا وبين العرب الآخرين ؛ و السفينة المشار إليها تخص السيد أحمد ، واسمها شاه علم ، وكانت مزودة بتصريح مرور منا، وبعد رحيلها بسبعة أيام من مُخا اعترضتها سفينة فرنسية قادمة من جزيرة مورشيوس ؛ وأظهر قبطانها تصريحنا ، ولكن الفرنسيين لم يعيروا لتصريحنا أى اعتبار ، ولم نكن نعتقد أبداً بأن مثل هذا التصرف يمكن أن يصدر عنكم ؛ وتصرف الفرنسيون بعنف بالغ مع السفينة ، ونهبوا كل أموالها ، وكل ما وجدوه على متنها ، وذلك وفقًا لقائمة السيد أحمد التى أرسلها إليكم ، واقترفوا ضد السفينة أفعالاً مؤسفة للغاية ، ونهبوا المياه والمؤن الغذائية ، ولم يتركوا لهم من المياه سوى ما يكفيهم ثمانية أيام ، وذلك لمائة رجل كانوا على متن السفينة ، وتركوهم فى عرض البحر لا يعرفون متى هم يصلون للبر .

وقطعًا نعتقد بأنكم لن توافقوا على مثل هذا التصرف ، بيد أننا نرجو إذا كان الاتفاق القديم ما زال يتعين تنفيذه ، أن تعرفوا الجنرال دوكان أن يرد رجاله كل ما تم نهبه والسطو عليه على متن تلك السفينة ، وأن يحترم أوراق التصاريح التى نصدرها، وأن يمتنع تماماً عن ممارسة كل ألوان المضايقات ضد رعايانا . وهذا ما نأمله منكم ؛ لأنه لو كان لكم نوايا مضادة فلتعرفونا ، وحسبنا الله ونعم النصير .

حُرِّر فى ٢٥ من شهر المحرم ١٢٢٤ هـ (١٣ من شهر مارس ١٨٠٩) .

التوقيع بخاتم يحمل اسم عثمان .

٢٥- ترجمة مراسلة باللغة العربية
كتبها السيد أحمد عبد القدوس الكاك . القاطن بمُخا
موجهة إلى جلالة السلطان المعظم بونابرت . حفظه الله !

موجز – تفسيرات حول مسألة السفينة شاه علم – ظروف أسرها – طلب ضمانات لتجار مُخا .

بسم الله الرحمن الرحيم

من أحمد عبد القدوس الكاك إلى رئيس حكومة (فرنسا) ، مدبر الأحكام ومصالح الدولة ومدبر أمور البر والبحر وسيد البلاد السعيدة والنعم المباركة لكل منافع الرخاء والهناء أسد الحروب والمعارك ، ملاذ المكروبين المبتلين ، والملك العادل النزيه، ذى الحكمة الرصينة الكاملة ، السلطان بونابرت ، المحمى دائمًا من تقلبات الدهر ، والمحفوظ من المشاق والمصائب بفضل كتاب الإنجيل وكتاب الزابور، والمتحلى برداء العظمة والجلال ، والمتقدم على أغياره من السلف والخلف .

نعرض على معاليكم أننا من سادة العرب ، لا نتدخل فى أمور غيرنا ، ولانأخذ بأخطاء الآخرين ، ونرفع على سفننا علمًا أخضر معروفًا بالعرب ، ونقطن بمدينة مُخا . وأنتم تعلمون بأنه يوجد بينكم وبين أهالى مُخا اتفاق ثابت وصداقة وطيدة ، والبيت الفرنسى[1] بمدينة مُخا عامر مزدهر ، والعلم الفرنسى يرفرف فوقه ، ووفد إلينا من قبل العديد من الفرنسيين الذين رأوا كيف نعاملهم بأعظم آيات الود ، والسيد ماسترونى سالينزموريس ، وهو واحد بين كثيرين ، يشهد على ذلك ، وقد طلبنا أن يُدلى بشهادته فى هذا الأمر . ونحيطكم علمًا بأنه فى يوم ٧ من شهر جمادى الآخر ١٢٢٣ من الهجرة (الأول من شهر أغسطس ١٨٠٨) كانت سفينتنا المسماه "شاه علم"

(١) انظر هامش رقم (٦٦). (المترجم)

يقودها أخونا عبد الرحمن بن عبد القدوس الكاك ، منطلقًا من مُخا إلى البنغال ، وبعد سبعة أيام من تحركه اعترضته سفينة فرنسية . وكان مزودًا بتذكرة مرور من قبل شيخ مُخا ، ولما اعترضته تلك السفينة طالبته بأن يُظهر تذكرة مروره ، فقال له : "أنا من مُخا " ، ولكن القبطان الفرنسي لم يقبل هذا الرد ، وقال له :" أنت من قاليقوط وشحنة سفينتك تخص الإنجليز" ، فكرر القبطان العربي : " أنا عربي وأقطن في مُخا" ؛ فقام القبطان الفرنسي باعتقاله لمدة يومين دون أن يعطيه شربة ماء أو طعام ، ثم قالوا له:"نحن لن نطلق سراحك إلا إذا أرسلت معنا رجلاً إلى جزيرة مورشيوس[1] أو أنك تكتب بأنك من قاليقوط . وخاف القبطان العربي على حياته فكتب ما قاله له القبطان الفرنسي ، ولكن الأخير عامله بغلظة . وبعد ذلك أعاد القبطان الفرنسي رجالنا إلى سفينتنا التي نهبوا كل أموالها ولوازم المركب والأحمال وعواميد الصواري ، وكل المؤن والمياه الموجودة على السفينة المذكورة ، ولم يتركوا لمائة رجل من مهمات السفينة سوى ما يكفيهم لمدة ثمانية أيام . والبيان المفصل بكل ذلك طي هذه الرسالة يوضح كل ما فعله الفرنسيون وكل ما سطوا عليه.

إننا نأمل ألا توافقوا على هذا السلوك ، وأن تصدروا أمركم إلى أهالي جزيرة مورشيوس[2] بأن يردوا علينا منهوباتنا . ونطالبكم بالإضافة إلى ذلك بإصدار تصريح لسفينتنا "شاه علم" ، وبإصدار أمر في صالح رفقائنا السادة الأعيان ؛ حتى لايتعرض لهم أهالي مورشيوس مرة أخرى . إن عدد السفن والمراكب التي تخص هؤلاء السادة خمسون . وقد نقلنا لكم حقيقة كل ما حدث من قبل أهالي مورشيوس ، وأنتم تتحققون من ذلك ، وصلى الله على محمد وعلى آله وسلم .

كُتِبَ في ٢٥ من شهر محرم سنة ١٢٢٤ (الموافق لـ ١٣ من شهر مارس ١٨٠٩)

توقيع : السيد أحمد بن عبد القدوس الكاك .

---

(١) يلاحظ هنا أن المترجم . كتب اسم الجزيرة الأصلي ، في حين اعتاد دروفتي وسان مارسيل إطلاق الكنية الفرنسية " جزيرة فرنسا". (المترجم)

(٢) المقصود "بأهالي" جزيرة مورشيوس "جند الاحتلال الفرنسي" بالجزيرة . (المترجم)

٢٦- ترجمة تقرير السيد عبد الرحمن بن عبد القدوس الكاك

موجز - شهادات أخرى حول عملية السطو على سفينة شاه علم - تفاصيل استجواب القبطان الفرنسي .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا بيان مقدم من عبد الرحمن بن عبد القدوس الكاك قبطان السفينة "شاه علم" التى وصل إليها وهى فى عرض البحر الفرنسيون .

انطلقت السفينة من ميناء مُخا يوم ٧ من شهر جمادى الآخر ١٢٢٣ هـ (١ أغسطس ١٨٠٨) ، وفى يوم ١٤ من الشهر نفسه ، وعند الفجر ظهر لنا مركبًا يرفع علمًا إنجليزيا . وأول ما لحناهم رفعنا العلم الذى كان معنا وهو علم "شياخة مخا". واقترب مركبهم منا وأطلق علينا مدفعين ، فما كان منا إلا أن توقفنا بالسفينة . ولما اقترب منا أرسلوا زورقًا صغيراً به ثمانية رجال ، صعدوا على متن سفينتنا ، وسألوا عن اسم المركب ، فأجبناهم بأن اسم المركب "شاه علم"، قالوا : وما اسم القبطان؟ قلنا:السيد عبد الرحمن . وبعد ذلك سألونا : ومن أين انطلقتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟ أجبنا: نحن قادمون من مُخا ومتجهون بالسفينة إلى البنغال ، فقالوا لى : احضر أوراقك واصعد على مركبنا لملاقاة قبطاننا . وأخذت معى تذكرة المرور التى حررها لى شيخ مُخا، والمسجل بها جميع البضائع وأكياس النقود التى كانت بالمركب، واصطحبوا معى الكاتب الأول . وأحدهم رافقنا بينما بقى الآخرون على سفينتى . ولما وصلنا على مركبهم ، أدخلونى بمفردى غرفة القبطان [الفرنسى] الذى وجه إلى نفس الأسئلة السابقة :من أين أنتم ؟ وإلى أين تذهبون ؟ وما اسم السفينة ومن مالكها ؟ فأجبت بنفس الإجابة الأولى. ثم سألنى بعد ذلك : تخص مَنْ هذه السفينة ؟ أجبته بأنها تخصنى وأخى ، فسألنى هل أنتما اللذان اشتريتما هذه السفينة أم أنتما اللذان صنعتماها ؟ أجبت : بأننا نحن اللذان شيدناها . سألنى وفى أى ميناء تم تشييدها ؟

أجبت : بساحل الملابار بميناء قاليقوط . فطالبنى بتصريح مرورى ، فأخرجته له ، فأخذه ، وطالبنى كذلك بتذكرة الشحن المسجل بها كل ما على متن السفينة . وبعد ذلك أخرجونى من غرفته ، وجاءوا بالكاتب فى غير وجودى ، واستدعونى وقال لى القبطان : أنت رجل معروف جدا فى قاليقوط ، وأنت اشتريت السفينة من هناك ، وكل بضائعك تتعلق بالإنجليز، وسيتم القبض عليكم ، فأجبته : هذه البضائع تخص العرب ، وأنا رجل عربى قاطن بمُخا ، وكل الناس هناك تعرفنى ، وأنا لم أسمع بمثل هذا الحديث . وبعد كل ذلك قادونى إلى سفينتى وسطوا على كل أكياس النقود ونهبوا البضائع والأسلحة ومؤن الطعام والمياه وعتاد السفينة . ثم رجعوا بكل ذلك إلى سفينتهم ، وبعد أن تركونى ٢٤ ساعة دون صلاة وبدون مياه أو طعام ، قال لى القبطان : أرسل شخصًا معى إلى مورشيوس، أجبته : ليس معى شخص يمكنه ذلك، فوجه إلى تهديدات قائلاً : حسنًا سأكتب بأنك لم توافق على إرسال شخص معى ، فرددت عليه بأننى سأكتب بأننى ليس معى شخص يمكنه أن يقوم بهذه الرحلة ، فهددنى بإشهار سيفه تجاهى قائلاً اكتب بأننا قلنا لك ذلك ونحن سنكتب فى تقاريرنا وأنت ستختم بخاتمك ، وعندئذٍ خفت أن يلحق بى الأذى ، فكتب كل ما أملاه على : أن القبطان طالبنى بإرسال رجل معه إلى جزيرة مورشيوس ولكننى لم أستجب لطلبه، وسجل أيضًا أننى شيدت السفينة فى قاليقوط ، وأننى كنت أسكن فى هذه المدينة . وبعد كتابة كل ذلك فى السجل ، قالوا لى بما لم أعرف له معنى: " وقع بخاتمك فى السجل"، وكنت مضطرا لأن أسايرهم فى كل ذلك. وسرقوا ١٦ ألف ريال فضة نقدية ، ونهبوا من البن واللوز ما يعادل ألفى ريال ، كما تقدر قيمة منهوبات عتاد السفينة والأسلحة ومؤن الطعام وعبدين بألفى ريال كذلك ، ليصل إجمالى كل ما أخذوه إلى ٢٠ ألف ريال . ولم يرضوا بأن يتركوا لنا تصريح السفينة وتذكرة شحنتها، وسلبوا مياه السفينة ولم يتركوا لنا سوى ما يكفى مائة رجل لمدة سبعة أيام فحسب . وبعد سوء معاملتهم واحتجازهم لنا على مدار ٢٤ ساعة أطلقوا سراحنا ، وخلال هذه المدة حرمونا من المياه . إن اسم السفينة الفرنسية لاماك Lamack (وهذا الاسم مكتوب

بطريقة سيئة وصعبة فى النص العربى ومن المحتمل قراءته بخلاف ذلك). وسألنا عن اسم القبطان ، لكنهم لم يخبرونا باسمه . ونعرف أن أحد الكتاب كان يُدعى لوبلوبوش Lebleboch وأن ريان السفينة الهندى يُسمى " ديفيد " David والقبطان العربى يدعى رشاد . وهذه الأسماء الثلاثة هى ما عرفناه . وحسبنا الله ؛ لأنه نعم الوكيل .

٢٧- دروفتى إلى شمبانى

موجز – تقهقر المماليك أمام الباشا – الباشا يريد الانتهاء من مشكلة المماليك حتى لاتستند إليهم بريطانيا – الخطر يحدق بمحمد على باشا فيما لو توافق المماليك مع عملية الإنزال الإنجليزى .

القاهرة فى ٩ من شهر سبتمبر ١٨٠٩

(جرى تسجيلها فى ٢٦ فبراير ١٨١٠ ، وتم الرد عليها فى ٣١ مارس ١٨١٠)

السيد المحترم ،

كنت قد أبلغت معاليكم فى تقريرى الأخير بالاستعدادات التى عملها محمد على لإرسال فرقة من قواته ضد المماليك ، واليوم يُشرفنى أن أُحيط علم سيادتكم بالنجاح الذى أحرزته تلك التجريدة . ولم يُبد البكوات المماليك أى مقاومة ، إذ سارعوا بمغادرة البلاد التى كانوا يحتلونها على ضفاف النيل لحظة اقتراب القوات العثمانية ، فانسحبوا صوب الجبال بين جرجا وأسيوط .

وكان هدف محمد على أن يرغمهم على المجىء إلى القاهرة حتى يُخضعهم له ، ويجعلهم جزءًا من جيشه ، ولما وجدهم آثروا الانسحاب السلمى اعتبر ذلك برهانًا على ضعفهم أو رغبة منهم فى حقن الدماء ، وطلب عقد اتفاقية صلح معهم . ومال محمد على إلى أن ينتقل بنفسه إلى صعيد مصر ؛ اعتقادًا منه أن حضوره سيمكنه من أن يضمن تنظيم عملية المصالحة معهم أو أنه على الأقل يثير بينهم الانشقاقات بالشكل الذى يتلاءم مع مشروعه . وأخبرنى قبل توجهه للصعيد بوجهات نظره فى هذه التجريدة : فهو مقتنع بأن الحرب مع النمسا على وشك النهاية[١] ، وهو يرى أيضًا أن الباب العالى سيعلن قريبًا الحرب ضد إنجلترا ، وأن هذه القوة (إنجلترا) ستكون

(١) شن نابليون حربه ضد النمسا فى العام ١٨٠٩. (المترجم)

مضطرة إلى التخلى عن كل مشروعها البرى ، ونظراً لتهديد أملاكها الهندية ستكون فى حاجة أكثر من كل وقت مضى لأن تحتل بلداً يُقربها من تلك الأملاك الهندية ؛ وبالتالى فهو خائف ولديه من الأسباب ما يُبرر حقيقة مخاوفه ، ولو سُنحت له الفرصة الحالية ، فإن البكوات المماليك كقوة لن يلتزموا نفس الحياد الذى أبدوه فى الفترة الأخيرة التى شهدت الاجتياح الإنجليزى[1] ؛ وإذاً تتجه خطته إلى استخدام كل ما يملكه من وسائل لتدميرهم ؛ وذلك إذا لم يتمكن من خلال المفاوضات المخلصة الصادقة من جعلهم متحدين مع مصلحته عند اضطراره إلى إرسال قواته على سواحل مصر .

وما دام لم يحدث شيئًا من هذا فإن رسل الإنجليز والمشايعين لهم (لأنه كما سبق أن تشرفت بالكتابة إلى معاليكم بأن الحكومة البريطانية برغم حدوث السلام لم ترسل إلى مصر قنصلاً يُمثلها) سوف يتصلون بالمماليك وبالراغبين من السكان فى إقامة نظام جديد ، لتوقعهم حدوث انقطاع فى العلاقة بين إنجلترا والباب العالى ، وهو ما لابد أن يُعطى الفرصة لتوجيه حملة جديدة تم التخطيط لها مسبقًا ؛ لأجل تأكيد غزوهم لمصر .

غير أن محمد على لديه من القوة والإمكانية لأن يدفع هذا العدوان المحتمل كما فعل فى عام ١٨٠٧ . ولكنه يتعين عليه أن يخوض المعركة بما يزيد على قواته بنحو عشرة الآف جندى ، لاسيما مع وجود قيادة كفء ، وأيضًا لأنه من المشكوك فيه أنه سيتمكن من المقاومة ، وخاصة أن كل شىء يجعلنا نتوقع بأن البكوات المماليك وقبائل العربان التى كانت معه من قبل لن ترفض هذه المرة التحالف مع الإنجليز .

ومهما يكن من أمر ، فإننى أرجو من سيادتكم أن تمدونى بالتعليمات التى يجب أن أتبعها إذا ما تشابهت الظروف الحالية مع ظروف عدوان ١٨٠٧ .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتى

---

(١) المقصود الحملة الإنجليزية فى العام ١٨٠٧ . (المترجم)

٢٨- دروفتى إلى (الوزير)

موجز – محمد على يريد التوصل إلى اتفاق المصالحة مع المماليك وأن يقودهم إلى الإقامة بالقاهرة .

القاهرة فى ٤ يونيو ١٨١٠ ،

(وأُعِيدَ تسجيلها فى ٣٠ يونيو ١٨١٠)

السيد المحترم ،

عاد محمد على باشا من مصر العليا . وبحسب ما سمح بأن يُفضيه إلى بشأن نتائج حملته تلك يبدو أن غالبية البكوات المماليك قبلوا بتحديد إقامتهم، سواء فى الجيزة أو داخل العاصمة نفسها ، وقبلوا أيضًا الخضوع لدفع الميرى وقبلوا كذلك بكل الضرائب الاستثنائية التى أراد الباشا أن يفرضها على أملاكهم بصعيد مصر . ومما يدل على أنه حقق هدفه جزئيا من وراء إرسال قواته ضد المماليك ، أنه اصطحب معه محمد بك الملقب بالمنفوخ ، وهذا الأمير هو أحد أقوى أتباع بيت مراد بك ، وهو نفسه الذى كان موضوعاً لأحد تقاريرى فى عام ١٨٠٧ :إذ ساعدنى كثيراً فى المساعى التى اعتقدت بضرورة عملها فى ذلك الحين ؛ من أجل الحيلولة دون انضمام المماليك للإنجليز بالإسكندرية . وبحسب قول هذا الصنجق بك فإن كل من إبراهيم بك وعثمان بك حسن ورصفائهم الآخرين يجب أن ينزلوا [إلى صعيد مصر] بعد ثلاثة شهور ، وهى المهلة التى منحهم إياها الباشا؛ لكى ينظموا شئونهم بالصعيد . تلك المهلة التى أثارت لغطًا بين مَنْ يعتقدون بأن بنود (اتفاق) الصلح التى تُجدد كثيراً لايمكن الوثوق فى الاعتماد عليها بين الجانبين (محمد على والبكوات). ومن المؤكد ، من ناحية أخرى ، أن محمد على باشا نجح فى كسب [محمد بيك] المنفوخ[1] من خلال الوعود التى

---

(١) تم تحديد الاسم بدقة من الجبرتى ، وكان محمد بيك المنفوخ (المرادى) فى طليعة البكوات المماليك الذين خرجوا على العصبة المملوكية بالصعيد، وانضموا إلى محمد على باشا الذى منحهم الأمان وأغراهم ببذل العطاء عليهم بما يليق بماكنتهم ومنزلتهم. وقد أعطى محمد على لمحمد بيك المنفوخ التزام ديوان جمرك بولاق ثم عوضه عنه بـ ٦٠٠ كيس .(راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤ ، ص١٧٩) . (المترجم)

مناه بها والإنعامات السخية . إن المستقبل وحده هو الذى سيمكننا من بلورة فكرة دقيقة عن هذا النظام الذى لا شكل له، فلا نستطيع أن نرى معاهدة للسلام ، بل والأقل من ذلك لا نرى العفو الشامل الذى يطيب للباشا أن يُوصف به موقفه منهم .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتى

تقارير سنة ١٨١٠

٢٩ - دروفتي إلى الوزير

موجز - استمرار دسائس بطروتشي - محاولة الاتفاق بين الإنجليز والبكوات المماليك - الإنجليز يسعون في إغراء محمد على بوعد الاستقلال - الحكومة البريطانية تبدو غير متخلية عن مشاريعها في مصر - استعدادات محمد على العسكرية.

القاهرة في ١٢ مارس ١٨١٠

(سجلت في ١٨ مارس ، وأُعيدَ تسجيلها في ٣٠ يونيو ١٨١٠)

السيد المحترم ،

منذ تقريري الأخير الذي تشرفت بإرساله إلى سيادتكم ، بتاريخ ٤ ديسمبر ١٨٠٩، عاد القنصل الإنجليزي القديم بالإسكندرية إلى استئناف مهامه . وعادت معه الدسائس من كل نوع ، تلك الدسائس المعتاد مجيؤها في ركاب الدبلوماسية البريطانية. وكان بطروتشي المشهور ، القنصل العام للسويد ، الذي دائمًا ما حل محل وكيل إنجلترا في مصر - قد حضر منذ بضعة أيام إلى هذه العاصمة (القاهرة) . ومارس تحركاته بدءًا من دسائسه مع شاهين بك الذي ينتمي إلى بيت الألفي بك ، ومروراً بمقابلاته السرية المتكررة مع الباشا ، وأخيراً بحصوله على تصريح يسمح له بتصدير الحبوب إلى مالطة (ومسألة تصدير الحبوب هي المسألة التي كنت سعيداً جدا أن تمكنت من منعها حتى هذا اليوم) ، ومن هنا تطلب الموقف أن أقرر القيام ببعض التضحيات ؛ لأجل استكشاف سر حيل ودسائس بطروتشي . وثمة شخصان من ثقاة العاملين مع الباشا وشاهين بك أكدا لي أن بطروتشي يعمل اتصالاته مع هذا الأخير (شاهين بك)؛ من أجل إحياء العلاقات القديمة بين هذا الأمير والحكومة الإنجليزية .

وفى نهاية عام ١٨٠٨ طالب هذا الأمير من الحكومة الإنجليزية إرسال قوة عسكرية أكثر أهمية من القوة التى نزلت الإسكندرية فى مارس ١٨٠٧ ، واعداً الحكومة الإنجليزية بالتوجه فوراً للحاق بقوة جيشها هناك مع جميع رفقائه وقبائل العربان وشركائهم ، وإذا لم يكن ذلك ممكناً فإنهم يطالبون الحكومة الإنجليزية بإمدادهم بإعانة مالية قدرها ٨ ملايين قرش تركى ، يحاولون بها استمالة قوات الباشا ، وتحريض السكان وأن يحتلوا كذلك السلطة التى وإن كانت ستحافظ على مظهر تبعيتها للباب العالى ، إلا أنها سوف تعتمد بشكل أساسى على إنجلترا . وتأكد الآن لشاهين بك أن الباب العالى بشأن هذه المسألة سوف يعلن الحرب على بريطانيا العظمى ، وتأكد له أيضاً أن بريطانيا أعدت حملة جاهزة للتوجه إلى مصر . وسواء أكان شاهين بك معتقداً أنه لايمكنه أن يعتمد على الوعود الخادعة للوكلاء الإنجليز أم أنه كان خائفاً أن يكون ضحية لهذه الدسيسة التى يمكن أن تصل أخبارها للباشا والذى ليس له إلا أن يشكره ، فإن شاهين بك رد على الإنجليز بأنه لا يستطيع فى هذه الآونة أن يتخذ قراراً حاسماً ، وأنه يتحفظ على أعطاء رده القاطع لحين استطلاع الظروف التى على أساسها يريد التفاوض بطريقة أكثر إيجابية . وحمل هذا الرد نوعاً من الرفض أو على الأرجح بدا أن هناك رغبة فى تضييع وقته مع الباشا الذى بدأ بالفعل ينشغل باستعدادات الدفاع ، ودخل الطرفان (شاهين بك وبطروتشى) فى المفاوضات بصيغة مختلفة كلية .

وفاتح الإنجليز محمد على فى مشروعه الأثير بالتخلص من التبعية لسلطة وسيادة الباب العالى وأن يأخذ وضعاً متميزاً بين الدول البربرية[1] ؛ وأبدوا عنايتهم بحبه لذاته ومصالحه بإعطائه وعداً بأن يتركوا له الإبحار فى البحر المتوسط تحت علم ملك مصر Le pavillon du Roi d'Egypte مع تمتعه بكل امتيازات الحياد ، ولكن بشرطين لم

(١) المقصود بها دول شمال إفريقيا. (المترجم)

يوافق على التوقيع عليهما وهما : أن يسمح بدخول سفن حربية إنجليزية إلى ميناء الإسكندرية القديم ، وأن يطرد الوكلاء الفرنسيين . ومع إخفاقهم فى هذه المساعى إلا أنهم نجحوا على الأقل فى الحصول على تصريح باستخلاص شحنات الحبوب لمالطة إلى أن تتم بقية المفاوضات . ولما كنت لم أستطع أن أعرف ملابسات المؤامرات السرية إلا من خلال تقارير إخبارية مشوشة ، فلم أستطع تكوين فكرة دقيقة تماماً تمكننى من أن أخاطر ببعض التخمينات حول نتائج تلك المفاوضات (السرية) . ومع ذلك أعتقد أنه من الواجب على أن أقدم ملاحظتى بأن الوكلاء الإنجليز ، منذ انتشار الحديث عن قرب انقطاع العلاقات بين الباب العالى وإنجلترا ، لم يعد بإمكانهم تخويف الباشا بمسألة أسطول طولون[1] الجاهز لشن هجوم على مصر. وعندما يتحدثون عن الاستعدادات الضرورية التى يجرى عملها فى موانيهم ، فإنهم يحاولون تغيير انتباه الباشا عن أهدافهم، بالإعلان عن الاستعدادات (العسكرية) المحددة فى كل من البرتغال وكورفو . وهذه المعطيات تسمح لى بأن أبرهن على أن الحكومة البريطانية لم تتخل عن مشاريعها حول مصر ، وأن الظروف التى مرت بها فى عام ١٨٠٧ يمكن أن تتكرر . ولكونى فى حالة من الشك الطاغى بشأن ما يتعين على اتخاذه فى هذه الفترة ، وبصورة تستحق التسامح معى خاصة مع عدم حصولى على أى تعليمات – فإننى سوف أعانى ارتباكًا واضطراباً فى أداء عملى حتى أتمكن من التصرف على ضوء أوامر صادرة من سيادتكم .

ولم ينزل المماليك بعد من الصعيد ، وطلبوا من الباشا مهلة جديدة بحجة أنهم يحافظون على المحصول الضخم من الغلال التى ستتلف كلية إن هم تركوها فى الوقت الحاضر على الطريق مع أتباعهم . ولا تبرهن هذه المراوغات على أن المفاوضات الأخيرة قد انطوت على نوايا صادقة مخلصة أكثر مما حدث فى السابق . وريثما يتحقق ذلك فإن الباشا يشق طريقًا يصل بين قلعة المدينة وجبل المقطم والذى يتعين أن

(١) هو الأسطول الفرنسى الذى أعده نابليون لشن حملة جديدة على مصر. (المترجم)

يصل إلى موقع مهم يقترح إنشاء حصن صغير به ، يلجأ إليه عند الحاجة إلى الحفاظ على اتصاله بالمناطق المنخفضة [من جبل المقطم] . وربما كانت هذه الأعمال فى إطار خطة معدة فى حال تقهقره إلى السويس التى يعمل على أن يكون له بها أسطول صغير ، يعمل على تشييده الآن فى ورش ترسانة بولاق ؛ وهذا الأسطول مكون من ٢٠ سفينة ، خصصت للعمليات التجارية مع جدة ومُخا . وأعرف أنه طالب من الوكلاء الإنجليز تصاريح وضمانات تأمين للسفينة التى تخصه والموجودة فى ميناء الإسكندرية والتى يريد أن يجعلها تمر بالبحر الأحمر عبر المحيط . ويتحدث الباشا دائمًا عن أنه يرفع عدد جيشه إلى ٢٠ ألف جندى ؛ ومع ذلك يبدو أنه أكثر انشغالاً بادخار الأموال وبإثراء أقربائه عن اتخاذه للإجراءات الجديدة بزيادة قواته العسكرية ، والأهالى فى حالة من الضيق الشديد والتأوه المستمر بعد إحلاله للنظام الجديد .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

توقيع : **دروفتى**

٣٠- سان مارسيل إلى دوق دو شامبانى

موجز - تجارة الحبوب بين مصر ومالطة - الاستعدادات البحرية لمحمد على فى البحر الأحمر - السفن الفرنسية بمارسليا - سلوك مشين للأب إيرينجيلد Ermenengilde ولجلال وشرف القدس Révérendissime de Jérusalem

الإسكندرية فى ٢٠ مارس ١٨١٠

(سُجِّلَتْ فى ١٥ يونيو ، وتم الرد عليها فى ١٣ أكتوبر ١٨١٠)

السيد المحترم ،

تلقيت نسخة من المراسلة التى شرفنى أن كتبتموها إلىَّ فى ٣١ من شهر ديسمبر ١٨٠٧ ، وكذلك المراسلة الأخرى التى كانت بتاريخ ١٧ أبريل ١٨٠٩ مع بعض الأوراق التى كانت ملحقة بها ، والتى تتعلق بموضوع شهادات المصدر . ولقد أُعلمتُ بالفعل بالمراسيم الإمبراطورية الصادرة فى هذا الموضوع . إن رسالتى المحررة بتاريخ ٢٤ مايو والتى تحمل رقم ٦٠ تقدم لحضرتكم وجهة نظرى فى هذه المسألة . ومنذ ذلك الحين وأنا دائمًا ما أُطابق على مضمونها إصدار الشهادات ، ولم أسلم شهادات المصدر إلا بعد فحص ملكية السفينة وطبيعة وأصل منشأ البضائع ، متتبعًا فى ذلك ما جاء فى رسالته من نماذج معتمدة ومقررة بالمرسوم الإمبراطورى الصادر فى ٢٣ نوفمبر ١٨٠٧ .

إن إتمام السلام بين فرنسا والنمسا وضع حدا للسفن النمساوية التى كانت تُشحَن بالبضائع الإنجليزية من مالطة إلى مصر . وكانت غالبية تلك السفن قد بيعت بشكل صورى أو تم مصادرتها بمالطة . والسفن التى وفدت فى الوقت الحاضر من هذه الجزيرة حمل جميعها العلم الإنجليزى . وبعض السفن التى كان يقودها جنويون ونمساويون انضموا إلى حزب إنجلترا . ومع ذلك فالتجارة الإنجليزية لا تحقق هنا مزايا؛ لأن الوارد من البضائع مثل الصادر منها والذى يتكون بشكل أساسى من

الكتان الذى لا يحقق سوى المزيد من الخسائر . كذلك فإن شحنات السفن المرسلة من مالطة إلى هذه البلاد ليست بالشىء المحسوس ، فى حين أن صادرات الحبوب التى تفيض بها مصر تشتد الحاجة الماسة إليها فى مالطة . ويرفض باشا مصر بصفة دائمة السماح للجميع باستخلاص الحبوب ؛ بيد أنه لما وصلت إلى هنا سفينتان تابعتان للأمة الإنجليزية، ومزودتان بأكياس النقود ، وتحرسهما سفينة حربية إنجليزية ، رأينا هذه الحكومة تبدو كما لو كانت سترفض هذا الإغراء .

وأتى من مالطة السيد بريجز Briggs [1] وكيل القنصل الإنجليزى القديم ليقيم هنا بالإسكندرية ، وقام بتجديد بيته التجارى القديم الذى يملك أصولاً مالية معتبرة .

وعزل الباشا منذ بضعة شهور الحاكم القديم لهذه المدينة ، وأحل محله خليل بك، الرجل الشاب الذى ليس له سابق خبرة ، ولكنه يميل إلى النظام والعدالة .

وكان الحاكم القديم للإسكندرية قد شيد فى ترسانتها مركبًا أوسفينة كبيرة ، احتجزها الباشا الذى اعتزم أن يستخدمها فى القيام برحلة طويلة حول إفريقيا حتى تصله بالبحر الأحمر ؛ حيث كان الباشا يرغب فى تزويد نفسه ببعض القوات البحرية ؛ ويعمل كذلك على بناء بعض القلاع الدفاعية .

أما البكوات المماليك فإنهم مقيمون بشكل دائم فى الصعيد ، وبرغم أنهم رفضوا المجىء إلى الجيزة بالقرب من القاهرة وفقًا لاتفاقيتهم القديمة مع الباشا ، فإنهم هادئون، وليس ثمة ما يعكر صفو السلام بينهم.

---

(١) عُيِّنَ "صمويل بريجز" وكيلاً قنصليا لبريطانيا فى الإسكندرية وقت رحيل البريطانيين سنة ١٨٠٢ ، ثم غادر الإسكندرية مع حملة فريزر الفاشلة سنة ١٨٠٧ ، وعاد إلى مصر بعد ذلك ليقضى بها عدة سنوات قليلة بصفته القنصلية لأداء مهمة رئيسية هى شراء القمح للحكومة البريطانية . ولكنه اختلف معها ، ولم يلبث بعد انتهاء الحرب أن عاد إلى الإسكندرية ليقيم مشروعًا خاصا مع روبرت تيربيرن . (راجع ، جون مارلو : تاريخ النهب الاستعمارى لمصر من الحملة الفرنسية إلى الاحتلال البريطانى ١٧٩٨ - ١٨٨٢، ترجمة عبد العظيم رمضان ، سلسلة مكتبة الأسرة ، القاهرة ٢٠٠٣ ، ص ص ٣٢- ٣٣). (المترجم)

وترى من وقت لآخر بعض السفن الفرنسية الوافدة من مارسيليا حاملة معها بعض البضائع باسم تجار يهود وإيطاليين ، أو باسم تجار أجانب ؛ وتحمل عند عودتها النطرون والصمغ والزعفران وعقاقير طبية ومنتجات أخرى من هذه البلاد .

وأُحيط سيادتكم علمًا بالسلوك المخزى للأب إيرمينجيلد Ermenegilde رئيس دار مَضْيفة الأراضى المقدسة [1] l'hospice de Terre Sainte فقد رفع منذ فترة على دار المضيفة علم القدس لحظة نزول قائد السفينة الإنجليزية إلى أرض الإسكندرية، وقام بعد ذلك بوضع نفسه تحت حماية قنصل السويد ، واستناداً إلى نشرة جاءته من مالطة، أو اعتماداً على أوامر مزعومة صادرة عن البابا ، قام هذا الأب (إيرمينجيلد) بقطع الأدعية المعتادة لجلالة الإمبراطور نابليون داخل الكنيسة ، وهو فى النهاية يُجاهر بخصومته العنيفة للفرنسيين . ونقلت شكاواى تارة إلى السيد دروفتى بالقاهرة : لكى يعمل على استدعاء هذا الراهب المتمرد ، ويحصل من الباشا على ما يساعدنا فى هذا الأمر ؛ إذ ليس فى إمكانى أن أفعل شيئا بخصوص هذا الراهب ، وذلك فى كل مكان من هذا الميناء؛ جراء الحماية التى يقدمها له وبشكل كامل السيد بطروتشى الوكيل الإنجليزى وقنصل السويد ، وتارة أخرى قدمت شكاواى إلى السيد لاتور موبور Latour - Maubour باستانبول ، بيد أن الأول (أى دروفتى) لم يتمكن من أن يدعوه للتدخل فى هذه القضية. أما الثانى فقد رد على ببساطة فى خطابه المحرر فى ١٢ مايو قائلاً لى بأن هذا الراهب يتعين مجازاته من خلال رؤسائه . وفى خطابه الصادر بتاريخ ٦ ديسمبر ١٨٠٩ أخبرنى بأن الراهب سوف يتم ترحيله عن هذه المدينة ، ومع ذلك فإنى لا أرى أن شيئًا تم فى هذا الشأن ، على أن شرف المكانة العظيمة التى حظيت بها دار المضيفة العامة للقدس (بالإسكندرية) ـ وهو ما بينته لى كل تلك الأحداث – قد مكنت السيد دروفتى من استعادة الأمر، فى شهر ديسمبر الماضى،

---

(١) مَضْيفة الأراضى المقدسة : هى عبارة عن دار كان يقيم بها بعض رجال الدين لاستقبال وخدمة الحجاج والمسافرين المسيحيين الذين كانوا يمرون بمصر متوجهين إلى القدس ، وكان يوجد بالإسكندرية والقاهرة مضيفتان من هذا النوع. (المترجم)

على أثر استدعائه لهذا الراهب واستبداله بآخر . وقرر دروفتى كذلك أن يتولى راهب دار المضيفة بالقاهرة وظائف هذا الكاهن بصفة مؤقتة وأن يحضر إلى الإسكندرية . بيد أن الراهب إيرمينجيلد زعم بأن الجهة الوحيدة التى لها الحق فى استدعائه هى روما وذلك بمرسوم كنسى[١] Décret du Révérendissime ويقى فى مكانه ، وراهب القاهرة الذى كان من المتعين أن يحل محله لم يأت على الإطلاق إلى الإسكندرية : إذ إن الأخير أعرب ، بشكل واضح تماماً ، عن تضامنه (مع راهب الإسكندرية) ، وأظهر السلوك الماكر لرهبان الأراضى المقدسة عبر إصداره إلى وكلائه هنا أوامر مناقضة، كما أنه فى الوقت نفسه فرض رسماً على ممثلينا هنا . وسوف يكون من الضرورى مع ذلك درء تلك الدسائس الحقيرة التى يقترفها هؤلاء الآباء العميان الذين بتعصبهم الآثم يتسببون ، فى أماكن أخرى ، فى إثارة الكثير من المتاعب المزعجة .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

---

(١) صفة شرفية محفوظة للآباء الأساقفة وللأساقفة وللسلطات الدينية العليا العامة، تخول لهم إصدار أوامر دينية معينة .انظر تعريف هذا المصطلح فى الإنسكلوبيدية الفرنسية :

Dictionnaire Hachette encyclopédique , Paris , édition 2001,(p 1627).

٣١- رسالة إلى دروفتى

موجز – مشكلة قراصنة جزيرة مورشيوس : أوامر صادرة للقراصنة باحترام التُّجار العرب – مصر تنتظر تطورات الأحداث .

باريس ، فى ٢١ مارس ١٨١٠

تلقيت سيد دروفتى خطاباتكم المؤرخة بتاريخ ٢١ أغسطس ، و٩ و١٧ سبتمبر الماضى . وهى المراسلات التى وصلتنى مرفقة بأوراق مختلفة ، تخبرنى من خلالها بأنك أرسلتها إلى ، وخاصة تلك المراسلة التى كتبها شريف مكة ، والتى أشرت على بأهمية عرضها على جلالة الإمبراطور والملك .إن مراسلة أمير مُخا المدعو عثمان يشكو فيها من أن سفينة تخص أحد رعاياه قد تم اعتراضها فى البحر على مدار ٢٤ ساعة ، وذلك من خلال سفينة فرنسية تابعة لجزيرة مورشيوس، وأنهم لم يطلقوا سراحها إلا بعد نهب جزء من مياهها ومؤنها وكل ما كانت تحمله من أموال ، إلى جانب أشياء أخرى .

وقد أعلمت بمضمون هذه الشكوى وزير البحرية حتى يصدر أوامره إلى الجزيرة التابعة لفرنسا (مورشيوس) [١] بحيث يتعين فى المستقبل استعمال طريقة أكثر ملاءمة قبل سفن العرب التى يقابلونها بعرض البحر . ويمكنك أن تبلغ الأمير عثمان بهذا إذا كان لديك بعض وسائل الاتصال به .

وقرأت باهتمام كل ما أخبرتنى به عن الحالة الفعلية فى مصر ووجهات النظر السياسية عند الباشا . بيد أننى ما زلت لا أستطيع أن أصدر إليك أى تعليمات بشأن الأحداث التى قدمتها إلى بقدر استطاعتك، ويبدو لى أنه من المناسب أن ننتظر

---

(١) استخدم فى المراسلة المسميين بمعنى واحد : جزيرة مورشيوس Isle Maurice، الجزيرة التابعة لفرنسا - Isle de France. (المترجم)

بلوغ الأحداث إلى نهاية حاسمة حتى يمكننا أن نقرر الحزب الذى سيتعين آنذاك التعامل معه .

ومن ناحية أخرى أعيد عليك من جديد الدعوة إلى أن تبذل أقصى نشاطك فى المحافظة على مراسلاتك معى ، وأن تقوم بترقيمها حتى يمكننى التحقق إذا ما كانت جميعها تصلنى كاملة .

ولتتفضل أيها السيد بتلقى كل تقديرى إليك .

٣٢- سان مارسيل إلى الوزير

موجز – عار الأب إيرمينجيلد – خليفته ينشر قرار فصله الصادر من الإمبراطور نابليون – سان مارسيل يهدده وهو يلجأ إلى قنصل إنجلترا .

الإسكندرية ، فى ١٩ أبريل ١٨١٠

(تم تسجيلها فى ٢٦ يونيو ، وتم الرد عليها فى ١٣ أكتوبر ١٨١٠)

السيد المحترم ،

ليس من الواجب على أن أترك سيادتكم بغير علم فيما يتعلق بالمشاهد المخزية التى جاءت نتيجة لفرط تعصب راهب مضيفة الأراضى المقدسة فى هذه المدينة (الإسكندرية) . إن هذا الرجل الذى يشغل وظيفة رئيس دار المضيفة رجل عنيد ومتعصب ومتعجرف. وثمة صحف مطبوعة فى مالطة يُنظر إليها هنا على أنها صحف رسمية ، قام وكلاء البابا بنشرها فى المدينة، وهى الصحف التى تحمل إدانات الكنيسة التى أطلقوها ضد إمبراطور الفرنسيين، هذا فضلاً عن ألف حماقة أخرى مماثلة. إن رئيسُ دار المضيفة هذا من مواليد ليكس Lucques [1] وهو يحمل فى نفسه ضغينة ضد الحكومة الفرنسية والأمة الفرنسية ، وأنتهز هذه اللحظة سريعًا بقطع الأدعية المعتادة لجلالته بالكنيسة . ولو كنت متأكداً من أن خدمة الكنيسة لن تتأثر لقمت بترحيل هذا الراهب فى الحال ، لكن معتقدات زميله بدار المضيفة كانت أكثر منه تعصباً . ومن ثم فقد حاولت منع هذه الفضيحة التى سيعرف أعداؤنا كيف يستفيدون منها؛ وذلك بأن كتبت فى الحال إلى رهبانية دير القدس لأحيطها علمًا بتلك الأحداث ، ولألتمس منها استبدال هذا الراهب المذنب براهب آخر . وفى الحقيقة قاموا بتعيين راهب آخر ، إلا أنه لم يستطع المجىء للإسكندرية إلا بعد ثلاثة شهور : فالراهب القديم لم يرد التخلى عن موقعه سوى بشق الأنفس ، وأيضاً بعد تهديداتى له، لكنه

---

(١) أحد أقاليم توسكانيا بإيطاليا. (المترجم)

فى النهاية رحل عن هذا الميناء ، بيد أن زميله بالمضيفة بدا أكثر اضطرابًا : ففى يوم قداس الآحاد تلا مكتوبًا يتضمن حرمان جلالة إمبراطور الفرنسيين ، ويتطاول بالوقاحة على الزيجة الجديدة لجلالته . وأنهى قوله بفصل جميع الأشخاص الذين حضروا الصلوات لجلالته ، وفى ذلك الحين كان الرئيس الجديد للمضيفة قد بدأ فى مباشرة وظيفته . وما إن أُخبِرَ هذا الأخير بما يجرى فى هذا الشأن حتى عمل فى الحال على تمزيق هذا المكتوب على هيكل المذبح ، وقفل فم هذا الممسوس الذى لم يتوقف سوى بشكل مؤقت : إذ قام عند رفع الذبيحة بتوجيه خطابه الواعظ للمستمعين بمزيد من الصخب والجنون حول موضوع هذه المسألة . وما إن نما ذلك إلى علمى وجهت إلى هذا الراهب قرارات ؛ ولما لم يرد الامتثال لها وضعت إنكشاريا على باب المضيفة كيما لايدعه يخرج منها . وكان هدفى القبض عليه ، وأن أعمل على ترحيله فى المساء بأوراقه الرسمية على متن سفينة جنوية كانت جاهزة عندئذ للإبحار ؛ بيد أن ما أذهلنى أننى علمت أن هذا الراهب الراغب فى أن يكون شهيداً لعقيدته ، والتضحية بحياته عن أن يغير اعتقاده ، كان قد تلقى مساعدة من قنصل إسبانيا وبعض القباطنة المالطيين ، الذين هربوه فى ضحى النهار من شبابيك غرفته ، ليقفز من فوق أسوار الدير ، دون أن يلمحه أحد من أولئك الذين ساعدوه ، وفر هاربًا إلى القنصل الإنجليزى حيث بقى عنده إلى الآن ، دون أن يتجاسر على الخروج من عنده . وتلك هى نتيجة الأحداث المخزية التى تم مجازاة هذين الراهبين عليها كنموذج غير عادى ، بل ويمكن القول بأنه نموذج لايكاد يُصدق. ومع ذلك فكل شىء داخل دار المضيفة ، بعد رحيل هذين المتمردين ، قد أصبح هادئًا ، وعادت الصلوات لجلالة إمبراطور الفرنسيين تُتلى على نحو ما كانت عليه فى الماضى.

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

٣٣- سان مارسيل إلى الوزير

موجز- تجارة الإسكندرية .

الإسكندرية ، فى ٢٥ أكتوبر ١٨١٠

(تم تسجيلها فى ٢٦ يونيو ، وأُعِيدَ تسجيلها فى ١٣ أكتوبر ١٨١٠)

السيد المحترم ،

أُحيط علم سيادتكم بأن حامل الرسائل المدعو قادر قريول **Cader Créole** مر من دمياط إلى القاهرة التى تأهب ، فى اليوم السابع عشر من هذا الشهر ، للرحيل عنها إلى السويس ، ومن هناك سيواصل طريقه .

ودخل ميناء الإسكندرية ، منذ بداية هذا العام وحتى الوقت الحاضر ، سفينتان حربيتان ، وأربع سفن فرنسية وافدة من مارسيليا ، تحمل على متنها قليلا من البضائع ، وعادت محملة فى معظمها بالنطرون .

ووصل من مارسيليا كذلك بعض المراكب اليونانية ، وذلك تحت العلم العثمانى، وكان معها عدد قليل جدا من البضائع ؛ بيد أن الهدف الرئيس لأصحاب شحنات البضائع على هذه السفن هو شحن مراكبهم بالنطرون ، وذلك لأن النقص الحاد فى الملح تسبب فى الارتفاع الكبير فى سعره بمارسيليا .

وكان باشا القاهرة منذ شهر تقريبًا قد أذن للسفن الإنجليزية بشحن الغلال والأرز من الإسكندرية إلى مالطة ، شارطًا عليهم دفع رسم كبير له لقاء حصولهم على هذا الإذن . وفرض الحاكم أيضًا رسمًا على الكتان الذى يصدر ه بكميات كبيرة إلى مالطة ، ورسماً على ملح النطرون ، كما فرض رسومًا أخرى على الأطعمة التى تجلب إلى مصر ، وكذا على الأخشاب والصابون .

وفضلاً عن ذلك تنعم مصر بالهدوء ، وبكوات المماليك مستقرون دائمًا بالصعيد، ولا شيء يعكر صفو السلام ، وأيا كان الأمر فإنه وفقًا لاتفاقيتهم الأخيرة مع الباشا يتعين عليهم أن يجددوا إقامتهم بالجيزة أو داخل ضواحيها .

مع خالص احترامى ...إلخ .

سان مارسيل

٣٤- دروفتى إلى الوزير

موجز – الدسائس الإنجليزية : الباشا يسمح بدخول سفنهم الحربية الميناء القديم بالإسكندرية – الباشا يسعى إلى منع اتفاق بين الإنجليز والمماليك – تهورات حامل الرسائل قادر Kader – دروفتى يتوجه سريعًا إلى القلعة ويطالب بتقديم تفسيرات – مقابلة جديدة لدروفتى مع الباشا : تصريحات الباشا ضد إنجلترا فى ١٩ أبريل ١٨١٠ – الباشا يفرض رسومًا ثقيلة على صادرات الحبوب إلى مالطة – البكوات يقتربون من الدلتا – إنشاءات بحرية للباشا بالسويس .

القاهرة ، فى ٢٨ أبريل ١٨١٠

(تم تلقيها فى ١٢ أكتوبر ١٨١٠)

لم يتحقق النجاح سريعًا لمفاوضات السيد بطروتشى مع الباشا كما كان متوقعًا ، وكان قنصل إنجلترا قد اصطحب معه واحداً من شركاء بيت تجارى كان مقيمًا بالإسكندرية ؛ وأحضر القنصل عدداً كبيراً من الهدايا للباشا ولضباط حاشيته . وهذه الوسيلة القوية التى يعتمد عليها الوكلاء الإنجليز فى البلاد التركية لها تأثيرها بكل تأكيد ؛ وسريعًا فهمت أنهم حصلوا على إذن بدخول مراكبهم الحربية فى ميناء الإسكندرية القديم ، وبشرط ألا توجد أكثر من سفينتين بهذا الميناء فى وقت واحد . وتمت كل هذه الدسائس بفضل المساعدة الفعالة لكل من الترجمان الأول للباشا وطبيبه ، وهذا الطبيب هو بالتأكيد ماندريسى Mandrici الجنوى الأصل والمعروف بشهرة أخباره فى حاشية باى تونس ، ويحظى بحماية الإنجليز ، ويقول عن نفسه بأنه وكيل الولايات المتحدة الأمريكية . ومن حظ أولئك الذين يمولونه أنه لم يكن يوجد هنا لدى هذا الوزير شخص ملائم يمكن أن يحل محله فى ممارسة وظيفته . ومن أجل حثِّ الباشا على إصدار القرارات التى تخدم أهدافهم استخدم الإنجليز حججًا معينة ، استندت بشكل أساسى على وسائل تجعل لهم إمكانية إرسال جيش إلى مصر دون أى عقبة ، وذلك فى حال انقطاع علاقتهم بالباب العالى العثمانى ، وأن يساعدوه فى حال حدوث غزو

فرنسى للبلاد . ووفقًا للتقارير التى عُمِلَت لى يبدو أن الافتراض الأول من الافتراضين المذكورين أعلاه هو الأكثر تأثيراً ؛ فالباشا لديه اعتقاد بأنه فى حال الاتفاق مع الإنجليز على ما يطلبونه ، فإنهم سوف يتوقفون عن الحفاظ على علاقاتهم مع المماليك ، ولن يكون ثمة ما يدعوه للخوف منهم . وفى أثناء ذلك وصل إلى هنا القائم بخدمة بريد جلالة الإمبراطور والملك (نابوليون) ، المدعو قادر Kader الهندى الذى كان متوجهاً إلى جزيرة فرنسا ، وهذا الرجل لم يأخذ أى حذر لإخفاء هدف رحلته ، وكان معروفاً حتى قبل وصوله إلى هذه المدينة ، وبسبب حماسته الطائشة التى بدت ظاهرة ، بأكثر مما ينبغى ، تصور الناس أن لمهمته قدراً كبيراً من الأهمية ، فى حين بدا لى بعد ذلك أنها لم يكن لها هذا القدر . وهذه هى المرة الأولى التى أرى فيها البريد الفرنسى يتخذ هذا الطريق فى توجهه إلى الهند ، وذلك على الأقل منذ حللت بمصر ، وهذا المرور الاستثنائى لحامل الرسائل استثار بالتأكيد الوكلاء الإنجليز الذين اعتقدوا بإمكانية استغلال مرور هذا الرجل فى حبك دسائسهم التى اعتادوها فى مثل هذه المناسبة . وتطلعوا إلى الحصول على البرقيات التى كانت واحدة منها تخص حامل بريد الباشا نفسه ، وهذا ما جعلنى أتشدد معه ؛ فلقد حاولوا إقناع الباشا بأن هذا الرسول حمل إلىَّ خطابات كى أمررها إلى البكوات المماليك . ولحسن الحظ بالنسبة لى ، كان من المتعين ، عشية تدبيرهم لهذه المكيدة ، أن أتوجه عند الوزير (محمد على) ؛ على أن سموه ألتقى بمترجمى السيئ جدا، ومن شدة غلِّه لم يدعه يتكلم وطرده لكى يقول لى إنه إذا كنت أرغب فى تهدئة الأمور ، يجب أن أتخلى عن إقامة أى علاقات تجرى ضد مصالحه فى مصر . تلقيت تلك الرسالة ، وامتطيت الحصان ، ودون أن أهدر لحظة واحدة توجهت مباشرة إلى قلعته. وكان الليل قد حلَّ بنا ، وحين التقيت به كان هو على وشك الدخول إلى حريمه. واستقبلنى بفتور ، بيد أنه جعلنى أدرك سريعاً أنه كان راضيًا على استعجالى المجيء إليه لطلبه تفسيراً للأمر ؛ تفسيراً لا يمكن معه من جانبى إلا أن يكون معبراً عن طابع الإخلاص والصدق ؛ وتركنى الباشا وهو يشكرنى على مجيئى ؛ لأننى أعفيته بذلك من قضاء ليلة سيئة ، وأعطانى موعداً لملاقاته

فى الغد . وكان اللقاء الثانى طويلاً جداً ؛ ومن بين الموضوعات التى طرحها فى النقاش ، تأكيده لى بأن الوكلاء الإنجليز أبلغوه بأنهم كانوا مستعدين لشراء نسخة فقط من الخطاب الذى وصلنى والمفترض إرساله لبكوات المماليك ، وهذا ما يعنى أنهم كانوا على الاستعداد للتضحية بهذا المبلغ لقاء سلب حامل الرسائل قادر Kader ما كان بحوزته، واعتقد أنه من غير المفيد أن أحدث سيادتكم عن كل الموضوعات التى تم مناقشتها فى تلك المقابلة ، وأقتصر على إحاطتكم علماً بنتائجها . لقد بدا لى الباشا مقتنعًا بأنه لا يستطيع أن يثق فى إمارات الود التى يُظاهر بها الإنجليز له ، فهم يعملون على الدفع به إلى اتخاذ إجراءات يرى أنها ضد مصالحه ، وضد ما يجب أن يفعله ؛ وأقسم لى على سيفه ، وبفهمه الجيد ، أنه فى سبيل حفظ كرامته ونظام حكومته كان لابد من رفض كل الشروط التى بدا له أنها ستجعله يعمل تحت حماية الإنجليز ، وأقر لى بأسفه على تركه سفينته تتوجه إلى مالطة، وهى السفينة التى اقترح أن يعمل على مرورها بالبحر الأحمر عبر المحيط ؛ وقال لى إنه أبطل إذنًا كان يسمح للسفن الحربية الإنجليزية بالدخول إلى ميناء الإسكندرية القديم ، وإنه أصدر أوامره بجعل هذا الميناء فى حالة استعداد للدفاع ، وبيِّن أنه لا يمكنه سحب تراخيص تصدير الحبوب إلى مالطة ، وإنما يمكنه رفع قيمة هذه التراخيص إلى حد يزعج معه المضاربين فى تجارة الحبوب أيما إزعاج؛ وأنهى مناقشته برجائه أن انسى ما حدث ، وأنه سوف يأتى إلىَّ بقائد حراسة قافلة السويس الذى جعله مسئولاً عن كل شىء قد يشكو منه حامل الرسائل قادر ، وأعطانى خطاباً بالتوصية الشديدة عليه لدى جميع الضباط المدنيين والعسكريين بالموانئ . وجرت هذه المقابلة فى يوم ١٩ من هذا الشهر ؛ وأجلت نيلى لشرف الاعتراف لسيادتكم بأن حامل الرسائل وصل بالسلامة إلى السويس ، وأنه رحل عنها إلى جدة ؛ وكان معه خطابات توصية عند توجهه إلى هذه المدينة الواقعة بالجزيرة العربية ؛ وكذا فيما يتعلق بمدينة مُخا . وأرسل الباشا واحداً من ضباطه إلى الإسكندرية ؛ ليعمل على متابعة الإصلاحات الضرورية المطلوبة لتحصين هذه المدينة ؛ وبعد أن فرض رسمًا على تصدير الحبوب

يُعادل ثلثي قيمتها ، متذرعًا في ذلك بأن بعض شحنات الحبوب تتطلب إرسالها إلى إستانبول ؛ قام بوضع العراقيل أمام تصدير الشحنات التي كان قنصل إنجلترا يعمل على إرسالها إلى مالطة ؛ وفي نهاية المطاف رفض التصديق على التعريفة الجمركية الجديدة التي حصل عليها قنصل الإنجليز من الباب العالي ، وهي التعريفة الخاصة بجباية الرسوم الجمركية على بضائع التجار الإنجليز المستوردة أو المصدرة إلى مصر . ويرتبط هذا الرفض بروح استقلاليته التي يقويها دائمًا ويعمل على تنميتها باستمرار ، بينما إستانبول وأزمير وحلب وجزر الأرخبيل تتضور جوعًا، وعلى حين تفيض مصر بإنتاج القمح ، فإنه أثقل تصدير الحبوب إلى تركيا برسم كبير لم يكن موجوداً من قبل على الإطلاق .

وعلمت بأن البكوات وصلوا إلى بني سويف[1]، متعمدين السير في الطريق المقابل لهذه المدينة والتي بقوا معسكرين بها حتى الآن ، وأعتقد بأنهم سوف يتوجهون إلى الجيزة نحو منتصف الشهر القادم ؛ وجاءوا جميعًا باستثناء عثمان بك حسن[2] الذي تخلف عنهم ، كما يُقال ؛ لمراقبة قوة من ٤٠٠ إلى ٥٠٠ جندي كان الباشا حين قام بجولته الأخيرة قد تركهم عند قنا لحماية هذه المدينة وميناء القُصير ؛ وكانوا متحدين في سيرهم ، وتحركاتهم تعاني الشك والريبة .

وشيد محمد على باشا أسطولاً صغيراً للبحر الأحمر ، ولا يوجد بورش

---

(١) يحدد الجبرتي تاريخ وصولهم إلى بني سويف في الأول من ربيع الأول ١٢٢٥هـ / ٦ إبريل ١٨١٠ م . (راجع الجبرتي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ١٨٠). (المترجم)

(٢) كان من بين كبار الأمراء المماليك الإبراهيمية (نسبة إلى أتباع إبراهيم بك الكبير) الذي رفض الانضمام للإنجليز إبان احتلالهم للإسكندرية ، وقال قولته الشهيرة : " أنا لا أنتصر بالكفار" وكان سببًا في اختلاف رأي المماليك حتى وافقوا على الانضمام لمحمد على ضد الإنجليز ، وبعد ذلك انضم للمماليك حال انقلاب محمد على عليهم ، وظل يناصبه العداء حتى اضطرهم الأخير إلى الفرار إلى دُنقلة ببلاد السودان ، التي استوطنوها وصاروا يتقوتون مما يزرعونه بأيديهم من الدخن ، ووافته المنية بدُنقله نحو عام ١٨١٥ (نفسه ، ج٣ ، ص ص ٨١ ، ١٨٦ ، ٣٨٤). (المترجم)

بولاق سوى هيكل لسفينة الكورفت ، والسفن الأخرى تم نقلها إلى السويس[١]. ولم تمض هذه الأعمال دون أن تثير قلق الإنجليز وغيرتهم من أقل منافسة لهم فى البحر الأحمر .

مع خالص احترامى ... إلخ .

دروفتى

(١) يشير الجبرتى فى مطلع عام ١٨١٠ إلى أن محمد على باشا أنجز تشييد أربع سفن بالبحر الأحمر ، أُطلِقَ على إحداها " الإبريق"، ويبين بأنها كانت مخصصة لحمل السُفار والبضائع ،(نفسه، ج٣ ، ص ١٦٨) - المترجم

٣٥- دروفتي إلى الوزير

موجز - المماليك يتمركزون في ساعة واحدة عند الجيزة - استئناف العداوات- لجوء الباشا إلى المفاوضات - سفينة البريك الحربية الإنجليزية بالإسكندرية - الإنجليز في البحر الأحمر .

القاهرة ، في ١٩ مايو ١٨١٠

(سُجِّلَت في ١٧ سبتمبر ، وأُعِيدَ تسجيلها في ١٣ أكتوبر ١٨١٠)

السيد المحترم ،

شرفني من قبل أن أعلنت لسيادتكم ، في خطابي المحرر بتاريخ ٢٨ أبريل ، بأن البكوات المماليك وصلوا إلى بني سويف، وفي يوم ١٢ من هذا الشهر عسكر البكوات على الضفة اليسرى من نهر النيل عند الجيزة . وكانت المفاوضات التي استغرقت بضعة أيام قد تُركت ، بشكل دائم ، لقادة المماليك من داخل حزب شاهين بك، خليفة الألفي الذي كان مختلفًا معهم ، ومنذ عامين وشاهين بك يعيش في حالة وفاق مع الباشا . ولتأكيد الوثوق فيه بدرجة كبيرة جعلوه على رأس بيت مراد بك[1] ، كما نصبوه صنجقًا في حياته ، وهو يتقاسم السلطة العليا مع إبراهيم بك . بيد أن هذا الارتداد عن الحزب المملوكي سيؤدي إلى ارتداد جمع كبير من المماليك الذين سيرجعون إلى هذه العاصمة، كي يعيشون بها في سلام تحت مظهر التبعية للباشا . واجتمع المماليك في معسكر واحد ، وهو الشيء الذي لم يتحقق لهم منذ زمن بعيد ، وبدأوا يتفاوضون مع محمد علي في كل شيء ، خلافًا لمفاوضاتهم السابقة التي أجروها معه في صعيد مصر؛ والمماليك لايريدون سوى التصديق على الشروط التي قبلوها من قبل في أسيوط ؛ وفي كلمة واحدة فإن الخصومة بينهما عادت من جديد

---

(١) يتفق تحليل دروفتي مع الجبرتي في مسألة خروج شاهين بك على محمد علي وعودته إلى المعسكر المملوكي ، وأنهم هم الذين نصبوه رئيسًا للأمراء المرادية . (انظر الجبرتي ، ج٣ ، ص ١٨٣). (المترجم)

مساء أمس ، واجتاز الباشا النهر على رأس قواته ؛ لكى يحتل الجيزة التى غادرها شاهين بك، والتى أقام بها(أى محمد على) مقر قيادته العامة . ويبدى البكوات الرغبة فى عقد لقاء حاسم ، ولكنى لا أعتقد ، فى ظل الظروف الحالية ، أن ذلك يمكن أن يكون فى النوايا، ومن صالح الباشا أن يُجرب الحظ . ومهما كان سلاح الفرسان المملوكى قليل العدد للغاية ، فإنه يظل دائمًا ، فى مثل هذا البلد المنبسط المكشوف ، سلاحًا مخيفًا . ويوشك محمد على أن يدخل معهم فى مفاوضات جديدة ، وعند الاتفاق مع البكوات ، على الأقل فى هذا الأوان ، على الشروط الأكثر ملاءمة له، فإنه سيعمل على كسب الوقت حتى مجيء الفيضان الذى سيجبر البكوات على مغادرة الأراضى المنبسطة . وإلى أن يتحقق ذلك فإن الضفة اليسرى ستظل كما كانت ، منذ خمس سنوات ، مسرحًا لكل ألوان الاضطراب التى يقترفها العصيان العسكرى .

وبينما كانت هذه التطورات تحدث هنا ، كانت الإسكندرية قد وصلتها سفينة البريك الحربية الإنجليزية القادمة من مالطة . وهذه هى السفينة الثانية التى تظهر هنا، منذ ثلاثة شهور ؛ فمن المؤكد أن الوكلاء البريطانيين ، على نحو ما يفعلون دائمًا ، هم الذين أثاروا الحرب الأهلية داخل هذه البلاد ؛ فلم يمض خمسة عشر يومًا إلا وأحد مراسليهم قد أكد لشاهين بك الألفى بأن السيد " أدير M. Adair " سيتعين عليه أن يُغادر إستانبول عما قريب ، وأن انقطاع العلاقة بين الحكومتين سيؤدى حتمًا إلى توجيه جيش إنجليزى إلى مصر . وراجت شائعة ، منذ بعض الوقت ، بأن الإنجليز احتلوا جزيرة بالأرخبيل الصغير التى تقع فى مواجهة سواحل الحبشة بالبحر الأحمر . ويقول البعض بأنها جزيرة " دلتا Daltah "، ويذهب آخرون إلى أن اللورد فالنتييه Lord Vallentier أطلق اسمه عليها لما زار السواحل المذكورة ، فى عام ١٨٠٤، ولكنهم يتفقون فى القول بأن هذه الملكية تامة ، وذلك لأجل الحفاظ على العلاقات التجارية داخل إفريقيا ، من خلال ميناء مُصَوَّع الذى يمثل المنفذ الرئيس للحبشة .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتى

٣٦ - دروفتى إلى الوزير

موجز - التحركات العسكرية المملوكية والباشا - الدسائس الإنجليزية بالإسكندرية - الموقف الحرج لمحمد على .

القاهرة ، فى ١٣ يونيو ١٨١١

(سُجِّلَت فى ٤ أكتوبر ، وتم الرد عليها فى ٤ فبراير ١٨١٠)

السيد المحترم ،

يُشرفنى أن أرسل لسيادتكم تقريرى الرابع المؤرخ فى ٢٨ إبريل و ١٩مايو. ولم يحدث منذ ذلك الحين أى تحرك مهم . وانسحب البكوات إلى حدود إقليمى بنى سويف والفيوم ، ومراكزهم الأمامية امتدت حتى أهرام سقارة ، واستمر الباشا فى مقره العسكرى بالجيزة ، وعسكرت قواته فى النواحى ؛ ويجرى الباشا استعداداته ليرسل من قواته ما يحقق له الاستحواذ على المدن الرئيسية بصعيد مصر. وكانت بنى سويف قد سقطت فى قبضته ؛ واستعمل كل وسائله فى استمالة قبائل البدو الذين يتبعون الحزب المملوكى المعادى ، ووجه رسلاً إلى سوريا لأجل تجنيد قوات عسكرية من المشاه والخيالة على حد سواء ؛ إذ إنه خائف ، ومعه حق : فشاهين بك الألفى يساير خشداشينه من المماليك ، ولم يعد يمضى على المخططات المتفق عليها مع الآخرين . وفى الواقع لم يكف الوكلاء الإنجليز ، منذ انقطاع العلاقة بين البكوات المماليك والباشا، عن الاحتفاظ باتصالات سرية مع معسكر البكوات . والسيد هوديلى Hudeliالذى أوردت موضوعه فى تقريرى الصادر بتاريخ ٢٦ أبريل رحل ، منذ بضعة أيام قليلة ، إلى الإسكندرية . وأعلمنى السيد سان مارسيل بأن سفينة البريك الحربية الإنجليزية أبحرت صباح يوم الاحتفال بعيد الملك جورج ، وذلك بعد تلقى البرقيات التى أتاحت الفرصة لهذا الرحيل العاجل والمفاجئ . وقام القنصل البريطانى ، بكل ألوان الابتهاج ، بالاحتفال بهذه المناسبة ، وخاصة بنثره للنقود على فقراء الإسكندرية ، وهو يقصد بذلك البحث من جديد عما يمكنهم من استمالة الروح

العامة ، من خلال نفس الوسائل السابقة التى مارسوها مع الأهالى قبل غزوهم للإسكندرية فى عام ١٨٠٧ .

ويبدو لى أن الموقف الحالى لمحمد على هو الأكثر حرجًا منذ بدأ حكمه لمصر. ومن جديد بدأت القوات العسكرية ترفع مطالبها المبالغ فيها ؛ بقصد سداد رواتبها ، وهذا ما جعله يضرب على أقاليم مصر السفلى ضريبة استثنائية سوف تتسبب فى هلاك المزارعين الفقراء[1]. ومع أن محمد على قد أظهر رباطة جأشه بحيل عبقريته الجسورة، وخاصة مع ضربات الحظ التى ألفناها معه حتى الآن ، فإنه يأمل فى التغلب على جميع العقبات وفى التخلص من هذا الموقف الصعب .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتى

---

(١) أطلق الجبرتى على هذه الضريبة مسمى " الفرضة" وبين آثارها السلبية على الريف والفلاحين ، (لمزيد من التفاصيل انظر الجبرتى ، ج٣ ، ص ص ١٧٨ – ١٧٩). (المترجم)

٣٧ - سان مارسيل إلى وزير العلاقات الخارجية

موجز - التجارة والملاحة فى الإسكندرية - بضائع تجارة الموانئ - تجارة الحبوب مع مالطة .

الإسكندرية ، فى ٢٠ يونيو ١٨١٠

(تم تسجيلها فى ٢٢ ديسمبر ، وتم الرد عليها فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

يُشرفنى أن أنقل إليكم برقية السيد دروفتى التى يُخبر فيها سيادتكم بكل ما له علاقة بالقاهرة والأحداث الجارية . وإذن يجدر بى أن أقتصر على إبلاغكم بما يتعلق بالتجارة والملاحة فى هذا الميناء .

إن مراسلاتى، المؤرخة فى ٢٨ مايو و٤ يونيو ١٨١٠، تتضمن المعلومات التفصيلية فى شأن ذلك ، وكذا ما يتعلق بخطابكم الذى جاء بتاريخ ٢٦ يناير . ومنذ ذلك الحين وصلت إلى هذا الميناء ثلاث سفن من أزمير ، وأربع من إستانبول ، واثنتان من سالونيك ، واثنتان من تونس (واحدة منهما أُرسِلت من مالطة)، ووصلت كذلك سفينتان إنجليزيتان من مالطة ، وواحدة إسبانية من ماهون[1] . Mahon . وبينما جاءت سفن أزمير بالجوخ والبضائع الأخرى الأوربية والتركية، حملت سفن إستانبول خشب البناء ، وجاء من سالونيك التبغ وبعض القوات للباشا ، ومن تونس جاءت الطواقى وبضائع أخرى من فرنسا . وحملت السفن الإنجليزية من مالطة البضائع التى معظمها عبارة عن غنائم سطوهم على السفن ، وكان من بين تلك المسلوبات الأقمشة الفرنسية والورق .

---

(١) ماهون : ميناء جزر الباليار Baléares التابعة لإسبانيا. (المترجم)

وتوجـهت بعض تلك السـفن أو المراكب بالفـعل إلى كل من أزمـيـر وإسـتـانبـول وسـالونيك ، حـاملة مـعـها البـضـائع المطلوبة فى تلك الموانئ . وجرى شـحن قـفص ريش الكتـابة النمسـاوية ؛ وذلك على سـفينة تركـية تقـوم بنقله إلى سـالونيك ، ومن هناك يقـوم الأتراك بإعـادة تصديره إلى مـارسـيليا أو ليفـورن ، ولهـذا قمت بتسليم شـهادة المصـدر للتاجر الإيطالى القـائم بالشحن . وفى الحـالات التى كان يُسـاورنى الشك فى أن بعض قباطنة تلك السفن يحملون تراخيص إنجليزية ، كنت أرفض تسليمهم شـهادات مـصدر البضـائع التى يرغبون فى تفريغها بموانينا .

ويتعين على السـفن الإنجليزية أن تشـحن القمح إلى مـالطة ؛ ولذلك فإن ثلاث سفن منها تستعد قريباً للإبحـار . وليس لمالطة من مصدر يزودهـا بالقمح سوى مصر. وصـار باشـا القاهرة يسـمح بهذا النـوع من التصـدير الذى كـان فى السـابق يرفضـه ؛ وذلك بسبب الرسوم التى يتحصلها على هذه الصادرات التى تمد ماليته بالموارد التى تدعمه فى ظروف الحرب الحـالية مع المماليك . ومع ذلك ينقص إستانبول الحبوب التى يطلبـها الباب العـالى من مصـر ، ولكن احتيـاجـات العـاصـمـة لا تحـتل عنده الأولوية الأولى أو أى اعتبار آخر .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ .

سان مارسيل

٣٨ - من الوزير إلى السيد دروفتى بالقاهرة

موجز – معلومات يتعين الأخذ بها فى شأن المؤامرات الإنجليزية فى مصر .

باريس فى ٢٠ يونيو ١٨١٠

كتبتم لى ، أيها السيد ، خطابين ، بتاريخ ٤ ديسمبر و١٢ مارس الماضى ، واللذين قدما لى تقريراً عن الحالة الفعلية لمجريات الأمور فى مصر . وقد لاحظت بشكل خاص أنه منذ عودة الوكيل الإنجليزى إلى الإسكندرية بدا أن الإنجليز يريدون استئناف دسائسهم . وأنكم بذلتم جهداً طيباً فى البحث عما يسبر غورها . وبقدر ما يعتمد عليكم أرجو أن تبذلوا كل ما هو ضرورى للحصول على أفضل تحرٍ ممكن بشأن تلك المؤامرات، وأن تداوموا على موافاتى تماماً بكل الآراء التى ترونها جديرة ببعض الاهتمام .

ولتتفضل أيها السيد بتلقى خالص تقديرى إليك .

٣٩ - دروفتى إلى الوزير

موجز - انتصارات ناجحة لمحمد على على المماليك - التشرذم يسود بين المماليك .

القاهرة ، فى ٤ يوليو ١٨١٠

(تم تلقيها فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

تشرفت بتلقى الخطاب الذى تفضل سموكم بكتابته إلىَّ بتاريخ ١١ ديسمبر ١٨٠٩ وعلى الرغم من أننى لم يفتنى قط أن أرسل إليه التقارير الشاملة حول كل الأحداث التى بدت لىّ جديرة باهتمامه ، فإنه يتعين علىَّ ، فى الحقيقة ، أن أعترف بأنه ، منذ عام ١٨٠٧، لم تكن كتابتى للمراسلات أكثر نشاطًا كذلكسوى فى الفترة السابقة على ذلك ؛ ولكن هل لى أن أتجاسر بأن آمل فى تجاوزكم عن عدم التزامى حيث أبلغت سيادته بأن أحد أسباب فتور حماسى ونشاطى راجعة لحالة الإحباط المثبطة للعزيمة والتى تجاوزتها تمامًا منذ نفس الفترة من عام ١٨٠٧ ؟ والتقارير التى شرفت بإرسالها إلى معاليكم ، خلال هذا العام ، كانت بتاريخ ١٢ مارس ، ٢٨ إبريل، ١٩ مايو، و١٣ يونيو ، ومن ثم فالتقرير الحالى هو التقرير رقم خمسة والذى أرفق به نسخة ثالثة من التقرير رقم أربعة . واليوم يشرفنى أن أبلغ سيادتكم بأن القوات التى أرسلها محمد على إلى مصر العليا قد التقت ، على بعد عشرة أميال من هنا ، بقوة مملوكية ، والتى بفضل تمركزها فى موقع مهيمن ، ووضعها بطارية لست قطع من المدافع ، تمكنت من إعاقة مرور قوات الباشا ، وللتغلب على هذه العقبة اضطرت قوات الباشا إلى التخلى عن موقعها . وهذا ما أعطى الفرصة لتوجيه ضربة قوية كلفت الباشا كثيرًا من قوات الأرناؤد المختارين للقيام بهذه الحملة . ومع ذلك أُجبِرَ المماليك على الانسحاب إلى داخل الأراضى ، وتمكنت قوات الباشا من مواصلة طريقها بنجاح فى احتلال المنيا ومنفلوط وأسيوط . وفى نفس الوقت حالف الحظ محمد على ، وذلك لمًّا قرر أربعة من البكوات المماليك التابعين لبيت شاهين بك الألفى مغادرة المعسكر

المملوكي ، متوجهين إلى القاهرة في صحبة مائة[1] من الفرسان المماليك ؛ إذ كانوا قد ضجروا من عجرفة وتكبر قائدهم شاهين بك الألفي[2] وذلك منذ اقتسامه السلطة العليا مع إبراهيم بك . وكان لابد أن يتلقاهم الباشا بكل حفاوة ، وأمل الباشا أن يؤدي هذا الانشقاق إلى فرار الكثير من البكوات الآخرين المنتمين لنفس البيت ؛ حيث تداخل مع البعض الآخر من بينهم في علاقة سرية ؛ وهو يضع في حسبانه قوة تأثير سلاح المؤامرات الذي يعتمد عليه أكثر من اعتماده على انتصارات قواته . وفي الواقع أن قوة الجيشين تظل في حالة مواجهة ، والمماليك يحذرون بشدة من الباشا الذي يعمل طوال الأيام على استخدام أسلوب المناورات الحقير الذي يمكنه من كسب الوقت ؛ كي يتحصل على الإمدادات العسكرية التي ينتظر قدومها من سوريا ؛ وفضلاً عن ذلك ، بدا واضحاً أنه في حال عدم الرغبة في خوض معركة ما ، فإنه إذا ما أوشك النيل على الفيضان سيتمكن في أصعب وأحرج الحالات من وضع بطارية المدافع بينه وبين أعدائه .

ولي الشرف أن أكون ... إلخ .

دروفتي

(١) يخالف كل من الجبرتي وسان مارسيل ما ذهب إليه دروفتي ، فهما يتفقان على أن عددهم كان حوالى مائتي مملوك أو أكثر من ذلك بقليل (وانظر حاشية رقم (٩٠)). (المترجم)

(٢) أورد الجبرتي حواراً مهما دار بين شاهين بك وخشداشينه من البكوات المماليك الساخطين عليه؛ جراء استئثاره لنفسه دونهم ، ويلقى هذا الحوار أضواء مهمة على أسباب نفور البكوات الأربعة من قيادة شاهين بك . انظر الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ١٩٠ – ١٩١). (المترجم)

٤٠ - سـان مارسـيل إلـى دوق دو كـادور

موجز – التجارة – الأخبار الداخلية – الانشقاقات بين المماليك – الباشا يتلقى دعمًا من سوريا .

إسكندرية مصر فى ٤ يوليو ١٨١٠

السيد المحترم ،

تشرفت بأن كتبت إليكم فى العشرين من الشهر الماضى الرسالة التى تحمل رقم ٦٦ . ومنذ هذا التاريخ أقلعت بعض السفن والمراكب المحملة بمنتجات من مصر إلى إستانبول وأزمير وسالونيك وخانيه . وثمة سفينة تحمل علمًا إنجليزيا ، كانت مشحونة بالحبوب ، وأبحرت إلى مالطة . وإلى جانب هذا تم شحن أربع سفن أخرى تابعة لهذه الأمة (الإنجليز) بالحبوب المرسلة فى نفس الاتجاه (أى مالطة) . والسفن الثلاث القادمة من إستانبول وصلت هذين الميناءين[1]، أيضًا ثمة سفينتين من سالونيك كانتا محملتين بمنتجات تلك الموانئ . وجاءت بعض مراكب أخرى من قبرص وأناطوليا حاملة للإسكندرية الخمر والخشب وهناك أربعة من البكوات وخمسة عشر كاشفًا وحوالى مائتى خيال من الأتراك والمماليك الساخطين على قيادة شاهين بك[2] قد هجروه وذهبوا إلى القاهرة وتم إصدار الأوامر بحماية بطاريات المدافع تحت قذائف الطلقات التى تعيَّن على القوات العثمانية أن تمر تحتها ، بينما أخذ معسكر (المماليك) كامل وضع الاستعداد لمهاجمة جيش محمد على قبل الجيزة ، وغادرت

---

(١) يقصد بالميناءين : الميناء القديم والميناء الجديد بالإسكندرية . (المترجم)

(٢) حدد الجبرتى ثلاثة اسماء من الأربعة وهم : نعمان بك ، وأمين بك ، ويحيى بك ، أما الرابع فلم يحدده ، وذكر الجبرتى أن الكُشَّاف التابعين لهؤلاء البكوات كان عددهم ١٦ كاشفًا وليس ١٥ كما جاء عند سان مارسيل ، بيد أن الجبرتى وسان مارسيل قد اتفقا على أن القوة المملوكية التابعة لهؤلاء الأربعة بلغت ما يزيد على المائتى مملوك . (الجبرتى :المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ١٩٠ ، ١٩١ ، ١٩٢) . (المترجم)

القوات العثمانية مواقعها عبر مرورهم من الضفة اليمنى للنهر إلى المناطق الواقعة أعلى بنى سويف . ومن هناك أرسلوا إلى الباشا يطلبون المساعدة ، ثم شقوا طريقهم فى اتجاه القاهرة التى استقبلتهم بحفاوة كبيرة .

وتمكن طوبان أوغلو Topens Oglou الذى كان على رأس فرقة موجهة إلى صعيد مصر ، من الوصول إلى المنيا . وأعتقد أنه عما قريب سنسمع أنه سيطر على أسيوط .

إن أغلب المماليك الموجودين عند قنطرة أسوان الواقعة على مسافة ٣٠ ساعة من الجيزة ظهروا جميعاً بالفيوم . وفى القاهرة يجرى دائماً عمل الاستعدادات لسفر قوات محمد على والذى استقبل بالفعل دعماً عسكريا من ٣٠٠ جندى من الدلاة القادمين من سوريا ، وهو ينتظر يومياً وصول قوات أخرى .

ويتسبب فرار المماليك فى تناقص أعدادهم بدرجة كبيرة . ويبدو أن محدودية نفوذ شاهين بك – وفقًا لتلميحات الإنجليز – جعلته غير قادر على تجميع خُشداشينه القدامى تحت قيادته . واليوم يدفع شاهين بك الثمن غالياً على تصرفاته الطائشة المتهورة بسبب المفاجآت الغريبة التى داهمته ولم يستطع احتواءها . وكأنى به يصرخ فى نفسه : " اللعنة على اليوم الذى غادرت فيه الجيزة .. اللعنة على الإنجليز " .

مع خالص احترمى ...إلخ .

سان مارسيل

٤١ - دروفتي إلى الوزير

موجز - مسألة شهادات المصدر وتطبيق الحصار - صادرات الحبوب تتوجه دوماً إلى مالطة .

القاهرة ، في ١٧ يوليو ١٨١٠

(تم تسجيلها في ٢٢ ديسمبر ، وأُعيدَ تسجيلها في ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

لقد رفق بي السيد القائم بأعمال جلالة الإمبراطور والملك لدى الباب العالي إذ قام بإمدادي بنسخة من منشور سيادتكم الصادر بتاريخ ٢٦ من شهر يناير . وإلى أن أتمكن من الحصول على المعلومات الدقيقة من زميلي بالإسكندرية فقد سمحت لنفسي بمراقبته ، وذلك في المسائل التي كلفتموني بعمل تقرير عنها ، ووظيفتي تسمح لي في عدد من المناسبات القليلة بإمكانية استعمال الرقابة ، وهي صلاحية مقررة بالمنشور الإمبراطوري الصادر بتاريخ ٣١ من شهر ديسمبر . وإنه ليشرفني أن أؤكد لسيادتكم ، فيما يتعلق بتنفيذ المراسيم الإمبراطورية الصادرة بتاريخ ٢١ و٢٣ نوفمبر و١٧ ديسمبر من نفس العام ، وكنت دوماً رافضاً تسليم شهادات المصدر لكل من يطلبها مني ، سواء بالقاهرة أو بدمياط . إن صرامتي في هذا الأمر أثارت الشكاوى التي رفعها التجار إلى مفوضية إستانبول ؛ حيث كانوا يريدون تصدير البضائع من خلال دمياط إلى أزمير ، ومن الأخيرة إلى فرنسا أو إيطاليا . وأعتقد أنه لأجل تطبيق مراسيم جلالة الإمبراطور تطبيقاً دقيقاً ، يستحسن بنا ألا نسلم شهادات المصدر في مصر سوى من خلال مكتب واحد ، ويفضل أن يكون مكتب الإسكندرية هو الجهة التي يستخرج منها كل التقارير والشهادات . وأنا على قناعة بأن زميلي المحترم "سان مارسيل" له خبرة تامة في الشئون البحرية والتجارية ، وهو حين يراسلكم في مثل تلك الموضوعات فإنه لن يترك شيئاً ترغبون في معرفته إلا وأحاطكم به علماً ؛ وذلك بسبب

حماسته ويقظته ودقته فى تنفيذ كل الواجبات التى حددتها له التعليمات الصادرة عن السلطات العلية .

ولم ينم إلى علمى أن لدى السيد سان مارسيل أى مشكلة تتطلب تدخلى ، وذلك منذ مشكلة السفينة الرافعة لعلم القدس ، والتى تم إيقافها بميناء الإسكندرية ، وهى التى كانت موضوعًا رئيسيا فى خطابى إليكم ، المؤرخ فى ١٢ يوليو ١٨٠٨ . وخلال الأيام الأولى من الشهر الماضى فحسب أخبرنى بأن سفينة نمساوية قادمة من مالطة ، ومرفوع عليها علم عثمانى ، قد تم شحنها بالبضائع لإرسالها إلى مارسيليا . واتفقنا على أنه لا يتعين تزويدها بشهادات المصدر ، ومن ثم اقتضى الأمر تفريغ شحنتها وجعلها تتخذ مسارًا آخر . .

وكانت صادرات القمح الدائمة لمالطة أكثر ما شغلنى فى كل المشروعات التجارية الإنجليزية فى مصر . وهو ما تشرفت بإحاطتكم علمًا به ، وذلك فى تقريرى المؤرخ فى ١٢ مارس من هذا العام ؛ ووفقت فى وضع العراقيل أمام هذه التجارة ، وذلك برغم حالة السلام السائدة بين إنجلترا والباب العالى ؛ وعجز الوكلاء البريطانيين عن فعل شيء حتى تلك الفترة ؛ وذلك وفقًا لوعد الباشا الذى تجاسرت على طلب الرجاء منه ألا تكون لدسائس الإنجليز أى تأثير ، بيد أن مفسدى الجزر[1]، والحالة هذه ، أمكنهم كسب الأفراد المهمين فى معية الباشا ، فضلاً عن الباشا نفسه ، وهذا الأخير ، بحجة احتياجاته إلى خلق مورد جديد يدعم حربه ضد المماليك قرر أن يوافقهم على حرية استخلاص الحبوب من مصر بواقع ضريبة متوسطة قدرها عشرة قروش تركية على الأردب الرشيدى الذى يعادل ٢٥مريجرام[2] .

ولى الشرف أن أكون ... إلخ.

دروفتى

) المقصود بهم هنا : اليونانيون – المترجم

(٢) مصطلح Myriagrammes يعنى وحدة وزن تعادل عشرة آلاف جرام. (المترجم)

٤٢ - سان مارسيل إلى دوق دو كادور

موجز - التجارة والملاحة بالإسكندرية - السياسات الجديدة - مواقع قوات الباشا والبكوات - إعلان بالإسكندرية عن انتصار الباشا - وصول فرقاطة السلطان .

إسكندرية مصر فى ٤ يوليو ١٨١٠

السيد المحترم ،

شاهدنا فى ميناء الإسكندرية ، منذ تقريرى الأخير المؤرخ فى ١٤ يوليو ، ثلاث سفن وافدة من إستانبول ، حاملة على متنها منتجات هذه العاصمة ، وثلاث سفن من أزمير ، مزودة بالفضة والجوخ وبضائع أخرى من فرنسا وإنجلترا ، وبعض السفن جاءت من سالونيك ومن إنوس Enos، وروردس واستانشيو Stanchio، ومعها التبغ والخشب والفواكه .

وثمة سفينتان أبحرتا إلى إستانبول وثلاث إلى أزمير واثنتان إلى سالونيك ، وجميعهم تم شحنهم ببضائع من مصر ، كما تم شحن سفينتين تحملان العلم الإنجليزى بالقمح ، وهما الآن يستعدان للإبحار إلى مالطة .

ورحل القنصل الإنجليزى بريجز (الذى له هنا بالإسكندرية بيت تجارى ، يديره رجل هولندى يُدعى سوتش Mr. Sutch)

وأبحرت إلى تونس ، وبشكل مباشر وبدون توقف ، سفينة البولاك Polaque [(١)]، وهى السفينة التى كان يقودها القبطان بودروميلى Bodromuli . وكانت قد شُحِنَت بمائة بالة من الكتان والزعفران ومنتجات أخرى من مصر ، وهذه المنتجات التى وصلت إلى تونس يتعين أن تتوجه بعد ذلك إلى مارسيليا وليفورن . ولكننى لم أوافق على

(١) سفينة البولاك : سفينة تجارية ، أشرعتها من قطعة واحدة بشكل مربع - راجع : قاموس المنهل ، p. 793. (المترجم)

إعطاء شهادات المصدر لتلك السلع المذكورة أعلاه إلا بعد أن فحصت أوراق الشراء والبيع والملكية ، وبعد أن أكدوا لى أن القبطان لم يزود بأى أوراق إنجليزية يمكن من خلالها أن يخالف قوانيننا فى الحظر Lois Prohibitives .

وثمة سفينة بريجنتين تونسية Brigantin [١] ، يقودها القبطان حشمت القادم من تونس . وهذه السفينة أيضاً موجهة إلى هذه المدينة ، ليتولوا توجيهها بعد ذلك إلى مارسيليا . وهى تحمل مائتى بالة من الكتان والصمغ العربى والزعفران والسكر و٤٥ بالة صوف ، منها سبع بالات قطن ، وكل هذه المنتجات من مصر . ولم يحصل هذا القبطان على أى أوراق من الإنجليز ، ومن ناحية أخرى أعتقد أن هذه الأمة (التونسية) ليس لها أى علاقة بالإنجليز لتتهرب من دفع الرسوم الواجبة لنا .

ورحل الباشا ، منذ ثلاثة أيام من منطقة الجيزة القريبة من القاهرة ، وفى صحبته ثلاثة آلاف فارس وألفان من المشاة ، وهذه القوات تتمركز الآن على بعد ستة أميال من هذه المدينة . والمسافة التى تفصله عن البكوات ليست طويلة جدا ، ثم إن هؤلاء البكوات يعسكرون أمام الفيوم .وهو يمكنه أن يشكل ما يقرب من الثمانية [آلاف] ، وقد فرغ نفسه لخوض بعض المعارك التى تضطر أحدهما (جيش محمد على أو جيش المماليك) إلى طلب السلام : والباشا قرر أن يُهاجمهم.

وجرى تعيين صالح أغا البنمباشى الألبانى على أسيوط ، فيما عُيِّنَ نصوح باشا على جرجا ، وطوبان أوغلو Topens Oglou على المنيا ، وهى الأماكن التى تمثل المدن الرئيسية بصعيد مصر ، وهؤلاء القادة جميعهم أتراك . وما تزال تجىء إلى مصر قوات من قولة ومن مقدونيا تعمل فى خدمة الباشا ، والأخير يستقبل يوميا مدداً من القوات القادمة من سوريا .

---

(١) سفينة البريجنتين : سفينة شراعية بصاريين تشبه القلعة – قاموس المنهل p. 140. (المترجم)

الأول من أغسطس ١٨١٠

أرسل الباشا بالأمس برقية إلى كتخداه خليل بك حاكم مدينة الإسكندرية ، ليخبره بأنه فاجأ المماليك فى معسكراتهم خلال الليل ؛ وقتل منهم البعض وأسر البعض الآخر ، حتى أن المماليك لم يكن أمامهم فرصة للهروب ، وأنه عين القادة الأتراك على معسكراتهم ، ووضع أيديهم على كل أمتعتهم . وبمناسبة هذا الخبر قرر خليل بك عمل احتفال تطلق فيه المدافع من القلعة ومن الحصون الأخرى بالإسكندرية.

ووصلت سفينة وزير عثمانى إلى ميناء الإسكندرية ، بصحبة ضابط كبير من قبل حكومة الباب العالى . ويقال إن هذا الوزير يحمل معه أوامر إلى باشا مصر ، تكلفه بأن يمد الدولة بعدد معين من القوات العسكرية وأن يرسل القمح إلى إستانبول .

مع خالص الاحترام ... إلخ

سان مارسيل

٤٣ - دروفتى إلى الوزير

موجز - إبراهيم بك وحسن بك يضغطان على البكوات - استمرار الانشقاقات بين المماليك - انتصار محمد على عند قنطرة اللاهون؛ ويسيطر من ثم على الفيوم فى ٢٠ يوليو ١٨١٠ - انسحاب المماليك - كيف يفسر المماليك المسألة.

القاهرة، فى ٢٨ يوليو ١٨١٠

(سُجِّلَت فى ٢٢ ديسمبر وتم الرد عليها فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

يشرفنى أن أنقل إلى سيادتكم أن السيد حسن باشا قائد القوات الألبانية الموجهة فى مهمة الاستيلاء على ضفتى النيل بصعيد مصر، قد أثبت جدارته بالثقة التى وضعها محمد على فيه فى إنجاز هذا المشروع؛ لقد بات مسيطراً على كل البلاد من بنى سويف حتى إسنا. وتلقى الباشا من جانبه جزءاً من الإمدادات التى كان ينتظر وصولها من سوريا، ويقال بأن عدد الجنود بلغ حوالى ألفى فارس وألف من المشاة، وقام الباشا بعمل مناورة للاقتراب من الفيوم على طول النهر، وتحرك بجيشه من قرية إلى أخرى فى نظام تام؛ كيما يحول بين المماليك ومهاجمته والنيل من جيشه. وهدف محمد على من وراء هذه الحركة عزل المماليك بعيداً عن نهر النيل، وهو ما أجبرهم على الانسحاب نحو بحر يوسف.

وأفاد من هذه الظروف أحد البكوات من بيت الألفى، إلى جانب العديد من الكشاف والمماليك، بالتحاقهم بالباشا. وهؤلاء البكوات هم الذين أخبروا محمد على بأن شاهين بك ، رئيس بيت الألفى، لم يعد يحظى بنفوذ بين خشداشينه؛ وذلك منذ هجرة أربعة من ضباطه (وهى المسألة التى شكلت الموضوع الرئيسى فى تقريرى الذى يحمل رقم ٥)، وأن شاهين بك يشكو بمرارة من إبراهيم بك ومن صناجق آخرين من بيت مراد بك؛ وأنه يأسف على أنه ترك نفسه ينقاد إلى إيجاد سبب ما يجعله على صلة

بهم. وأنه مستعد لأن يتخلى عنهم إذا وافق الباشا على مسامحته. وترك له إيرادات وإقليم الفيوم. وهذا التقرير جعل الباشا يقرر جمع كل قواته ويهاجم البكوات فى الموقع الذى كانوا يعسكرون فيه عند قنطرة اللاهون. ووقع الهجوم على المماليك فى ليلة ٢٠ [من هذا الشهر] .

وفُوجِئَ المماليك بحركة غير عادية، أدركوا معها أنه لابد من عدم التخلى عن استعداداتهم؛ وذلك على ضوء ما لاحظوه من قبل على سلوك الباشا معهم ، والذى تميز بالحذر والتحفظ، بيد أنهم لم يبدوا مقاومة فاعلة سوى فى محاولة تخليص مهمات معسكرهم، ورحلوا عن مواقعهم مخلفين وراءهم ثلاثة مدافع. إن هذه المعركة التى لم يسقط فيها ضحايا وقتلى كثيرون، تمخض عنها سيطرة العثمانيين على إقليم الفيوم الذى وجدوا به كميات مهمة من المؤن. وانسحب البكوات المماليك إلى البهنسا الواقعة على بعد عشرة أميال من الفيوم، وخلال عملية الانسحاب هذه والتى لم تكن متوقعة، نشر أشياع المماليك كل ألوان الفوضى؛ وادعى البعض منهم بأنهم لم يهزموا عند قنطرة اللاهون؛ لأنهم تلقوا تعليمات معينة ألزمتهم بألا يعرضوا أنفسهم لمخاطر بلا جدوى، وأن يتحيَّنوا الظروف الملائمة التى تمكنهم من تدعيم وتأكيد النصر؛ وقال البعض الآخر: إنهم يريدون سحب الباشا إلى حدود الصحراء حتى يمكنهم مقاتلته ، بما يحقق لهم كثيراً من المزايا ، وأنه فى أسوأ الأحوال، سيجعلون الباشا يواجه صعوبة كبيرة، سواء فى الانسحاب إلى ضفاف نهر النيل أو فى العودة إلى القاهرة. وأيا كان الأمر، فإن انسحاب المماليك أعطى الفرصة لقوات الباشا لأن تتنفس الصعداء، على حين ضعفت ثقة المماليك فى أنفسهم كقوة، وخاصة لدى شاهين بك الذى فَقَدَ مصادر دخوله التى كانت قرى الجيزة والفيوم تمده بها، هذا إلى جانب حالة سخطه واضطراب العلاقة الذى انتشر بالفعل بينه وبين خشداشينه.

ولى الشرف أن أكون ... إلخ.

دروفتى

٤٤ - سان مارسيل إلى دوق كادور

موجز – هزيمة البكوات – الباب العالى يُطالب محمد على بمواجهة الوهابيين – فتح صعيد مصر – الموقف فى مالطة – عيد الإمبراطور بالإسكندرية.

الإسكندرية ، فى ٢٤ أغسطس ١٨١٠

(سُجِّلت فى ٢٤ نوفمبر وتم الرد عليها فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

أُطلقَت المدافع من خلال قلعة مدينة الإسكندرية، إيذاناً باحتفال الباشا بانتصاره، نحو اليوم العاشر من هذا الشهر ، على المماليك أعلى إقليم الفيوم. وهاجم المماليك العثمانيين إلا أن الأخيرين ردوهم على أعقابهم، وصاروا سادة على مواقعهم، بعد ما أردوا منهم قتلى وجرحى فيما أسروا البعض الآخر ، واليوم انسحب البكوات المماليك بعيداً عن مياه النيل التى غمرت النواحى. ويتحدث البعض عن مصالحة يتطلع إليها المماليك بينما يستبعدها الباشا. ويأمل الباب العالى فى تحقق تلك المصالحة حتى يمتلك نائبه (أى محمد على) الوسائل التى تمكنه من الذهاب إلى محاربة الوهابيين الذين باتوا يهددون الشام. وقد نعتقد فيما بعد بأن الباشا لن يواجه فى ذلك صعوبة سوى فى امتلاكه الحجة لاحتلالها. وتدمر هذه الحرب الداخلية الزراعة والتجارة؛ فيجرى تدمير قرى ويفر الفلاحون من كل مكان: ففى القاهرة لا نجد شيئًا يُباع ولا شيئًا يُشترى، وعزت النقود، وامتنع المدينون كلية عن دفع الأموال.

وبات الباشا مستحوذاً على كميات هائلة من الغلال، جراء سيطرته على مصر العليا. وعلاوة على إفادته، من سعر بيع الغلال، فإنه يتحصل على رسوم استخلاصها التى رفعها من ١٠ إلى ١٢ قرشاً على الأردب. وتتوجه معظم تلك الغلال إلى مالطة، والبعض الآخر يتجه إلى جزر الأرخبيل، بيد أن القليل جدا يصل إلى

إستنابول التى تتحصلها على حساب الخزينة، ويتم حساب البيع بسعر مناسب نوعًا ما للمالك.(١)

ومن حين إلى آخر تجد بعض السفن العثمانية تصل إلى هنا من سالونيك وأزمير وإستنابول، وتحمل على متنها مواد تجارية من تلك البلاد وتعود محملة ببضائع ومنتجات من مصر. وتعد أزمير المدينة الوحيدة التى تتزود ببعض منتجات أوروبا.

وتوجهت إلى مالطة، فى هذه الأيام، خمس سفن مشحونة بالغلال وترفع العلم الإنجليزى. على أننا نلاحظ أن حركة الملاحة الإنجليزية القادمة من مالطة لم تعد نشطة جدا كما فى السابق: إذ تتكدس فى مالطة البضائع ولا تباع؛ وذلك بسبب قلة السيولة النقدية وكثير من حالات الإفلاس قد وقعت بها.

وعلمنا بأن الرهبة والخوف استوليا على النفوس، والتجار يصرخون من جراء تكدس البضائع فى محلاتهم، ولأنهم لا يجدون تأمينًا ، بواقع ١٠ إلى ١٥٪ ، لمدة ستة شهور، بقدر ما إن السكان يعتقدون بنزول وشيك لجيش فى صقلية.

وأبديت اهتمامًا بأن أعلن للعامة عن الاحتفال بعيد إمبراطورنا أغسطس(٢) فى ١٥ من هذا الشهر؛ وذلك من خلال الإضاءات والأسهم النارية، مع إطلاق ٦٣ طلقة مدفع، ومد مأدبة كبيرة حضرها قنصل النمسا ورعايا بلاده. والجميع شارك فى هذه الفرحة والبهجة التى أوجدها هذا الرجل العظيم، وهو يوم ستظل تحفل به الذاكرة.

ومرفق بتقريرى هذا، سيدى العزيز، برقية السيد دروفتى

مع خالص الاحترام...إلخ

سان مارسيل

---

(١) المقصود بكلمة "المالك" Le propriétaire هو السلطان باعتبار ولاية مصر تابعة لإمبراطوريته. (المترجم)

(٢) المقصود هنا: الإمبراطور نابليون. (المترجم)

٤٥ - دروفتى إلى الوزير

موجز - انتصارات حاسمة لمحمد على على البكوات - أمر من السلطان إلى محمد على بذهابه لمحاربة الوهابيين.

القاهرة فى الأول من سبتمبر ١٨١٠

(تم الرد على الرسالة فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

أراد محمد على أن يستفيد من الحماسة التى لمسها فى قواته التى حققت الانتصار عند قنطرة اللاهون، وبعد أن منحهم بضعة أيام من الراحة، عاد وألزمهم بمطاردة المماليك. بيد أن هؤلاء الأخيرين بادروا بالهجوم بصورة أسرع من العثمانيين الذين اقتربوا من حدود الصحراء: فقد تمخض عن ذلك وقوع العديد من المعارك؛ وكان البكوات هم المبادرون دومًا بالهجوم، وتصارع الفريقان ببسالة كبيرة أيام ١١، ١٨، و ٢٤ من الشهر الماضى، واستبسل كل منهما فى القتال بضراوة شديدة؛ ولكن الباشا نجح فى اختيار الساحة التى يقاتل فيها بسلاح المدفعية الأكثر وفرة لديه، والأحسن خدمة من نظيره عند الخصم (أى المماليك)؛ فقد دعم قواته بسلاح المشاه الكفء، ليحرز طوال الوقت انتصارات مهمة. وبدا واضحًا أن قوة المشاة هى التى حسمت تلك المعارك. ويشرفنى أن أرسل إلى معاليكم ترجمة خطاب كتبه محمد على إلىَّ، يخبرنى فيه عن هذا الانتصار.

وبينما كانت هذه الأحداث تجرى فى صعيد مصر، إذا بضابط من قصر السلطان (أمين خزانة السلطنة)[1] يصل إلى القاهرة، حاملاً معه فرمانات تأمر الباشا

---

(١) ترجم دروفتى وظيفة هذا الضابط بما يلى:

"Le lieutenant du Trésorier de la Couronne"

أى "أمين خزانة التاج" والمقصود هنا بالتاج هو القصر السلطانى. والواقع أن الجبرتى حدد هذا الضابط بأنه "القزلار أغا" (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ١٢٩) وهو أغا الحريم السلطانى، والموظف =

بصيغة إجبارية وملحة أن يسارع بتوجيه جيشه إلى محاربة الوهابيين. وكل تصرفات هذا الضابط حتى الآن تبدو مغايرة لأمثاله من الضباط الذين أُرسِلوا فى مهام مماثلة؛ فقد رفض كل الهدايا المعتادة، والشىء نفسه فيما يتعلق بالسكن الذى أُعِدّ له بأمر من الباشا.[1] وهو كما يُقال، يتعجل بشدة أن يرى تنفيذ أوامر سيده.[2] وبعد كل ذلك، كان عليه أن يتعجل، بقدر ما يمكنه، العودة إلى إستنابول. إن لغة هذا الضابط، وقوة سلطته، إضافة إلى مروره خلال رحلته إلى مصر على سوريا التى وصل بها إلى عكا لأداء نفس المهمة التى كُلف بتنفيذها فى مصر، كل ذلك يُطلق التخمينات بأن الأمر لن يكون فى صالح محمد على من دون تحقيقه لانتصارات مماثلة لتلك التى تغلب بها على أعدائه؛ ولكنه وبفضل عبقريته الفذة وخاصة ثروته الكبيرة، فإنه سيعرف كذلك كيف يجنب نفسه مخاطر هذا الإعصار. ويترقب الباشا أمره هنا (بالقاهرة) حتى هذا المساء أو الغد على أكثر تقدير. وهو يُحلُّ حسن باشا محله فى قيادة القوات التى تركها بالصعيد، تتولى مراقبة بقايا الجيش المملوكى.

ولى الشرف أن أكون....إلخ.

دروفتى

= الرئيسى فى القصر السلطانى كله، وكان يتولى الإشراف على الأوقاف السلطانية وأوقاف الحرمين الشريفين، كما كان له الإشراف على خزانة السلطان الخاصة التى تحوى جواهر السلطان وفراءه وصورة لكل سلطان وكل ما يجرى تقديمه للسلطان من هدايا قيمة (لمزيد من التفاصيل انظر: جب وبودن: المجتمع الإسلامى والغرب، مج ١ (طبعة دار المعارف ١٩٧٠م) ج١ ص ١١١ - ١١٢؛ ج٢، ص ٢٠٣ - ٢٠٤) ولعل ذلك ما جعل دروفتى يشير إليه بأنه "أمين خزانة التاج (السلطنة)". (المترجم)

(١) لعل ذلك يتفق مع وصف الجبرتى له بأنه : "متعاظم فى نفسه، قليل الكلام" (الجبرتى: نفس المصدر، ج٤، ص ١٩٤). (المترجم)

(٢) المقصود: فرمانات السلطان التى قرأها على محمد على باشا بديوان القلعة. (المترجم)

٤٦ - ترجمة خطاب محمد على باشا إلى صديقه المخلص جدا دروفتي قنصل فرنسا

موجز - محمد على يعلم دروفتي بانتصاره على البكوات: "طغيان المماليك يزول في النهاية".

من معسكر يقع بين بنى على ومنفلوط (فى ٢٥ من شهر رجب ١٢٢٥هـ).

لَمَّا قمنا بتسيير قواتنا على البهنسا لم نعرفكم بالمعركة التى خضناها ضد الأمراء المماليك، ولم نبلغكم بأى تفاصيل عن فرارهم السريع؛ ولكن اليوم يمكن أن نبادر بإعلامكم بالأحداث التى وقعت فى تلك المعركة الأخيرة. وحقيقة لم ندرك فرسان المماليك، لكن مع استخدام سلاح مدفعيتنا تقدمنا نحوهم على رأس قوات الفرسان التى كان يقودها ابننا العزيز إبراهيم بك دفتردار مصر، ولما سارعت قواتنا إليهم وهاجمتهم كسرناهم مع أول هجوم ودحرناهم بصورة كاملة. وتعقبنا أولئك الذين حاولوا اللجوء إلى الجبال حتى تجاوزنا "عقبة بنى على". وتجاوز عدد القتلى والأسرى الـ ٦٠٠ مملوك، وحوالى ألف مملوك آخرين كانوا يَجِدُّون فى طلب الخلاص من القتل بالفرار وباللجوء إلى منفلوط وأسيوط وأماكن أخرى. وعقب المعركة مباشرة دخل ثلاثة بكوات تابعين لعثمان بك حسن إلى جانب أمير مملوكى من بيت مملوكى آخر، دخلوا منفلوط وأسيوط. وطالب ستة بكوات الأمان، وتبعهم بالمثل عدد كبير من الكُشَّاف والمماليك. وبالنسبة للفارة المنهزمين: إبراهيم بك، سليم بك الأعمى، عثمان بك حسن، وشاهين بك المصاب بجراح بالغة، فقد شقوا طريق إبريم وبلاد السودان[1] مع البقية الباقية من جيشهم؛ وفى النهاية، وبفضل الله، تلاشى طغيان

(١) بلاد السودان: المقصود هنا "بلاد النوبة"، وهذا التوصيف فى الغالب من عنديات مترجم الخطاب المدعو أسلين Asselin؛ لأن كل من سان مارسيل ودروفتي لم يستخدما هذا التوصيف، وكانا يشيران إلى هذا المكان تحت مسمى "أسوان"، وحتى الجبرتى فى يومياته لا يستعمل سوى أسماء البلاد :"ناحية أسوان"، "بلاد دارفور والنوبة"...إلخ (انظر تقارير دروفتي وسان مارسيل، رقما ٤٧. ٤٩° (N؛ الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٨٢، ٢٢٠، ٤١٧، ٤٦٢، ٤٧٣). (المترجم)

المماليك. تلك هى التفاصيل التى يسعدنى أن أبلغكم بها راجيًا أن تذكرونا بعض الوقت فى ذاكرتكم.

هذه ترجمة وفق الأصل وقام بمطابقتها على النسخة الأصلية فى مصر موثق الأوراق القنصلية وترجمان القنصلية العامة للإمبراطورية الفرنسية والملكية إيطاليا.

أسلين Asselin

القاهرة فى الأول من سبتمبر ١٨١٠.

٤٧ - سان مارسيل إلى شامبانى

موجز – الرد على المنشور الوزارى بتاريخ ٢٣ يونيو ١٨١٠م – التجارة والملاحة – التجارة الفرنسية فى مصر – نظام التراخيص – الحزب الذى ينجذب إليه الإنجليز– تجارة الحبوب فى مصر – أسعارها – مشروب الخمر والعرق – تدنى مستوى الصناعة عند الأتراك – تجميع منتجات البلاد فى فرنسا – تجارة ألمانيا وروسيا – صادرات فرنسا فى بلاد الشرق – وارداتها من مصر – الطريق من فيينا إلى إستنابول – انتصارات محمد على – التجار الإيطاليون بالإسكندرية.

الإسكندرية ، فى ١١ أكتوبر ١٨١٠

(الرد عليها فى ٤ فبراير ١٨١١)

السيد المحترم ،

تلقيت المنشور الذى تفضل معاليكم بمنحى شرف كتابته إلىَّ بتاريخ ٢٣ يونيو ١٨١٠.

لم يظهر فى هذا الميناء، حتى الآن، أى سفينة مزودة بالتراخيص الفرنسية. ولن تمضى تجارتنا البحرية سوى على سفن فرنسية ويونانية وتونسية، وذلك من خلال شهادات منشأ البضائع التى سوف أسلمها إلى أصحابها القائمين على شحن تلك البضائع، بعد التأكد من صحة ودقة المعلومات. ولا يمكن أن يستقر أمر إرسال تلك السفن ؛ سواء بسبب عمليات السطو العديدة التى يمارسها الإنجليز ضدها عند مالطة؛ أو من جراء ارتفاع قيمة نولون الشحن وقيمة التأمينات، وتتسبب كل هذه النفقات فى ارتفاع سعر البضائع التى ليس لها سوى منفذ محدود لتصريفها.

أيضًا تناقص استهلاك أقمشتنا فى الشرق، التى كانت تمثل السلعة الرئيسة فى تجارتنا، تناقصت إلى ربع صادرتنا الداخلية؛ فأهالى البلاد، وبصفة خاصة عرب مُخا الذين كانوا يعملون بهذه التجارة المهمة، لم يعودوا يرتدون أقمشتنا من الجوخ

الفرنسى كما فى الماضى، والسبب فى ذلك، بغير شكٍ، راجع إلى غلاء أسعارها. وربما يُكابد الإنجليز أكثر منا ؛ من جراء هذا الانخفاض فى معدل استهلاكها؛ لأن أقمشتهم من الجوخ غالية الثمن كذلك، بل أكثر ارتفاعًا من أسعار أقمشتنا، لاسيما نوعى Les Flottes et vernazobres المفضلة عندهم. وبصفة عامة فإن الجوخ الفرنسى فى مصر يشتد عليه الطلب أكثر من أقمشة الجوخ المُصنع لدى كل أمة أخرى.

ومن مصلحة الإنجليز أن يفضلوا العمل بنظام التراخيص Le sistème des li-cences، إذ إن هدفهم هو نشر تجارتهم وملاحة سفنهم، حتى أن الحكومة الإنجليزية قد ألغت رسم الـ ٢٠٪ التى كانت تحصل آنفًا فى مالطة، واليوم لم يعد يوجد من رسم يُفرض على كل سفينة سوى رسم بسيط للترخيص ، يبلغ ٣٠٠ فرنك حتى لو توجهت إلى داخل موانينا (الفرنسية)، ولكن بشرط وحيد هو أن تعود من الموانئ الإنجليزية أو أن ترد من مستعمرة إنجليزية، حتى يتم منحها الترخيص (الإنجليزى). ويمكن لهذه السفن من هناك أن تتوجه بعد ذلك بشحناتها إلى البلاد الأجنبية.

وصحيح أن منتجاتنا الإقليمية من الحبوب والخمر والعرق تجد منفذًا مهما لها هنا، لكن هذه التجارة لن تظل أقل أو أكثر أهمية عند الإنجليز الذين يدفعون حبوبنا...إلخ مع منتجات بيع شحناتهم المهمة المستوردة من فرنسا، وبعد ذلك ربما يقومون بحمل تلك الحبوب والخمر والعرق إلى أمريكا؛ حيث سيبيعونها هناك بأرباح طائلة. وبصفة عامة فإن نظام التراخيص سوف يُخفف من العقبات التى تعيق التجارة الإنجليزية، وتزودها بالكثير من الوسائل التى تتجنب بها قوانينا فى الحظر.(١)

بيد أن نظام التراخيص هذا مهما لنا كذلك فى مثل تلك الظروف، فهذا النظام يشجع عندنا مجال الزراعة من خلال تصدير منتجاتها، وهو يساعدنا فى مجال الصناعة من خلال استيراد المواد الأولية التى قد تنقصنا فى مصنوعاتنا.

---

(١) قوانين الحظر Les Lois Prohibitives هى المشكلة لسياسة الحصار القارى التى أعلنها نابليون، لتضييق الخناق (الاقتصادى) على إنجلترا وتجارتها العالمية. (المترجم)

إن مصر تزود العالم الخارجي في كل الأوقات بالحبوب، ومعظم تلك الحبوب التي تفيض وتكثر بها تتجه إلى مالطة على سفن نمساوية ترفع علماً إنجليزيا. وقد وصلت من مالطة أربعة سفن، تحرسها سفينة البريك الحربية الإنجليزية، التي تحمل معها مبالغ كبيرة لشراء تلك الحبوب. وفي الوقت الذي غادرت فيه ثماني سفن الميناء كانت السفن الأربعة المشار إليها قد جاءت في إثرها. ولنفس الهدف تأتي هذه السفن إلى هنا، وبالمثل يتعين على السفن الأخرى أن تتبعها. ويمكن أن نقدر عددها بقرابة ٣٠ سفينة تم شحنها بالحبوب سواء توجهت إلى مالطة أو إلى إسبانيا أو البرتغال. ولدينا على رصيف هذا الميناء سبع سفن يونانية تشحن بالحبوب لإرسالها في الاتجاه نفسه.

ويصل سعر أردب القمح اليوم إلى ٢٦ قرشاً تركيا، يُضاف إليها رسم الترخيص Droit de Licence بواقع ١٠ قروش للأردب، ليصل مجموع كلفة الأردب الواحد إلى ٣٦ قرشًا، ويعادل وزن الأردب بمقياس الوزن في باريس ما قدره عشرين صاعًا فرنسيا وسدس ونصف الصاع[1] أو ١,٨٤٩ هيكتولتر.[2] وسيزيد دون شك سعر القمح، وبدون أن نخطئ التقدير يمكننا تحديد سعره بـ ٤٠ قرشاً للأردب. وبحساب أن كل سفينة تحمل على متنها ١٢٠٠ أردبًا، فإن الثلاثين سفينة سوف يتم شحنهم بـ

(١) الصاع الفرنسي : Boisseaux هو مكيال لوزن الحبوب، ويعادل عشرة ليترات تقريبًا (أو ما يعادل ١٢١ كيلو جرام) ويُطلق عليه في اللغة الفرنسية Biosseau وفي الإنجليزية " بوشل " Bushel (راجع مادة Boisseaux في موسوعة:

Dictionnaire Hachette, Encyclopédique (éd. 2001), p. 216; Micro Robert, p. 111 ,
وكذلك قاموس المنهل، ص١٢٤). (المترجم)

(٢) هكتولتر : Hectolitre وحدة وزن تعادل مائة لتر راجع (.Dict. Hachette, Encyclopédique, p - 882) . (المترجم)

٣٦,٠٠٠ أردب(١) التى تجمل بحساب ٤٠ قرشاً للأردب ما قدره ١,٤٤٠,٠٠٠ قرشاً تركيا ؛ وهو ما يعادل بقيمة النقد الفرنسى عند التبادل الفعلى، ١,٨٠٠,٠٠٠ فرنك. وإذا أضفنا إلى هذا المبلغ قيمة القمح الذى تم تصديره سابقًا إلى مالطة، فسوف يمكننا تقدير مبيعات القمح حتى اليوم بما يُقارب الثلاثة ملايين من الفرنكات.

إن تناول مشروب الخمر والعرق فى هذه البلاد محدود جدا، وفرض الباشا على هذه المشروبات رسمًا جمركيا زائداً، بلغ ٣ سول على اللتر الواحد، و ٦ سول على العرق. وفضلاً عن هذه التجاوزات الزائدة عن الحد، كان من اللازم أن يبيع للملتزم الذى كان له وحده حق الشراء والبيع. وعلاوة على ذلك لن يمكن لمنتجاتنا من الخمر والعرق أن تصمد أمام منافسة نظيرتها المنتجة فى جزر الأرخبيل والتى تنقل إلى مصر. ومع كل التكاليف التى يدفعونها، فإنهم يبيعون لتر الخمر هنا بـ ٩ سول ولتر العرق بـ ٣٧ سول.

والجميع يعرف بأن الترك ليسوا مهرة فى الصناعة، وأنهم يبيعون للأجانب موادهم الخام التى تخدم صناعة أقمشة الجوخ والنسيج التى نجلبها إليهم. والأقمشة التى يجرى تصنيعها هنا من الحرير أو القطن بصورة جيدة لا تبلغ مستوى نظيرتها، من كل نوع، مما تنتجه ليون أو إيطاليا من "القطيفة والساتان" اللذين دائمًا ما يُفضل شراؤهما مهما ارتفع سعرهما.

ولم أذكر هنا الأقمشة التى تشكل أهم منتج رئيس لتجارتنا فى الشرق، والتى لا نخشى من منافسة المنتجات الأجنبية لها؛ فمعدل استهلاكها حتى اليوم ليس أقل من غيرها؛ وذلك بسبب الارتفاع المفاجئ لأسعار الأقمشة الأخرى. بيد أن حالة الاستقرار السياسى سوف تؤدى إلى عودة نشاط تجارتنا واستعادة قوة عنفوانها القديم.

---

(١) إن مراقبًا مثل الجبرتى الذى رصد سفر محمد على باشا إلى الإسكندرية (فى ٢ ذى القعدة ١٢٢٥/ ٢٩ نوفمبر ١٨١٠م) من أجل بيع الحبوب للأجانب، يقدم تقديراً آخر: إذ يذكر أنه باع للإفرنج "ما يزيد عن مائتى ألف أردب"، وقيمة بيع كل أردب مائة قرش، فى حين كان سعره فى السوق المحلى ١٨ قرشاً. (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٢). (المترجم)

وفي إطار تصدير البضائع إلى بلاد المشرق يجب أن نضيف إلى صادرات فرنسا صادرات البلدان الأخرى التى تتجمع بها، كذلك صادرات إيطاليا، وجميع هذه السلع التى نجلبها إلى الأتراك والتى لا يمكن أن تنافسنا فى الصناعة، وذلك باستثناء الطواقي التونسية المفضلة هنا بسبب لونها وخامتها، ويمكن لفرنسا وإيطاليا تزويدهم بها. ويجلبُ الجنوبيون إلى الشرق قماش القطيفة كما يجلبون المنسوجات الحريرية والطواقى والورق وقليل من المَرسر؛[1] ومن فلورنسا تأتى أقمشة الساتان، ومن البندقية الزجاج والمصنوعات الزجاجية، والورق والأقمشة والحرير والطواقى وألواح الخشب؛ وتجلب تريستا أقمشة ليبسيك Leipsick، والأوانى الزجاجية والمسامير، والفولاذ، والحديد، وصفائح الحديد، والقصدير،[2] وألواح الخشب.

وهناك صادرات من روسيا وألمانيا، فالأولى يأتى منها الفراء من كل نوع، والحديد، والفولاذ وبعض المنسوجات، والحبوب، والخمر والعرق، والخشب، والحبال والقطران والزفت، ومواد أخرى تتمكن روسيا من توريدها للأتراك بأرباح كبيرة تفوق ما نتحصله نحن وما تتحصله كل البلاد الأخرى. وتجلب ألمانيا الجوخ وقماش القطن، وقطيفة من القطن، وقليل من السويرات، والحديد، والفولاذ، والقصدير، وبعض تلك المواد التجارية لا يمكن أن تدخل معنا فى منافسة.

والسلع التى تصدرها فرنسا إلى بلاد المشرق معروفة بالفعل، وبصورة لا نحتاج معها إلى ذكرها فى هذا التقرير. ولا يمكن للإنجليز أن ينافسونا قط فى تجارة الجوخ والسويرات من كل نوع، والأقمشة المذهبة، والورق؛ ولكنهم يفوقوننا فى تجارة

(١) المَرْسَرَ : Mercrie تجارة اللوازم الضرورية للخياطة والتطريز والتريكو (Dict. Hachette, Ency-clopédique, p. 1202) . (المترجم)

(٢) أشار الجبرتى إلى أن محمد على باشا كان يستورد هذا المعدن ضمن ما يستورده من "أصناف البضائع الإفرنكية". (الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص٢٠٢). (المترجم)

القصدير والرصاص والفولاذ، والمرسرات، والساعات، والشيلان، والمنسوجات الكتانية المطبوعة بالرسوم التى يشتد الطلب على استهلاكها فى هذه البلاد.

لا ريب أن أكثر ما يناسب فرنسا أن تسهل استيراد المواد الأولية التى تنقصها؛ من أجل أن تمد بها مصنوعاتها. والحال أن بلاد المشرق يمكن أن تزود فرنسا بشكل أساسى بمنتجات القطن والصوف، وصوف الماعز، والحرير، وشمع العسل، والشاش، والزعفران، والصمغ والتى تخدم جزئيا صناعتنا لأقمشة الجوخ، والمنسوجات وصناعة شارات السلطة، والصباغة، ومواد تجهيز الأقمشة. على أن ما نجلبه من مصنوعات إلى الأتراك يردونه إلينا فى تسعيرهم للمواد الخام والتى يُضيفون إليها أجر العامل الحرفى. وإذن يتعين علينا أن نشجع هذا التصدير الذى هو مفيد لنا من كل الوجوه.

وفى حالة تعذر الملاحة البحرية، فإن بضائع الشرق يمكن نقلها إلى فرنسا عبر الطريق البحرى الواصل بين إستانبول وفيينا أو طريق سالونيك – فيدان Vidin [1] أو من خلال البوسنة، والعكس بالعكس عند انتقال البضائع عبر هذه الطرق نفسها من فرنسا إلى بلاد المشرق. وتقوم فى إستانبول وسالونيك قوافل تقطع هذه المسارات بكل أمان. وعند وصول هذه البضائع إلى ألمانيا، يتم الدفع بها إلى اتجاهها المعروف. وإذا كان تجارنا الفرنسيون هنا لا يمكنهم إرسال بضائعهم بشكل مباشر إلى فرنسا عبر البحر ففى إمكانهم إرسالها إلى سالونيك ليتم نقلها من هناك بالقوافل إلى البوسنة، ومن هذه الأخيرة إلى ألمانيا، وإيطاليا أو فرنسا.

---

(١) فيدان : Vidin مدينة تقع على حدود رومانيا، وهى الآن تابعة لبلغاريا، وكانت فى الماضى البعيد مستعمرة رومانية، وبين القرنين الثانى عشر والرابع عشر الميلاديين كانت تقوم بها مملكة فيدينيه Royaume de Vidiné حتى جاء العثمانيون واستولوا عليها فى العام ١٣٩٦م. (راجع مادة Vidin فى: Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1974 . (المترجم)

وليس فى الإمكان الحصول على التسعيرة الجارية للحاصلات المجلوبة من المستعمرات إلى مصر والتى لا نستورد منها سوى نبات القرمز[(١)] La Cochenille؛ والبن، أما السكر والنيلة الأمريكى فلا يشتد عليهما الطلب هنا؛ وذلك بسبب زراعتهما فى شبه الجزيرة العربية وما يجاورها أو لتوفرهما فى هذه المنطقة الإقليمية.

ومثلما أننى لم أتلق من سيادتكم سوى هذا المنشور الذى تقليته منذ بضعة أيام قليلة، فإننى لم أستطع أن أرسل إليكم بهذه المناسبة، عن طريق تونس، قوائم الملاحة والتجارة التى تطلبونها منى؛ بيد أننى مشغول بشكل دائم برصدها وكتابتها، بمجرد تمكنى من الحصول على الوثائق الضرورية التى تتبع الشكل الذى ترغبون فى توضيحه لى .

والسيد دروفتى سوف يخبر سيادتكم بكل الأحداث التى جرت فى حرب الباشا ضد المماليك. ولسوف يتفهم سيادتكم أسباب انتصارات هذه الحكومة على المماليك الذين فروا هاربين، بعد هزيمتهم، نحو جبال الصعيد. ولقد قُتل الكثيرون من المماليك كما أُسِرَ آخرون فى أحداث المعركة الأخيرة بالبهنسا. والبعض من البكوات تخلوا عن معسكرهم وجاءوا مستسلمين للباشا. [(٢)] وجُرح شاهين بك،[(٣)] واقترح إبراهيم بك وبكوات آخرون الدخول من جديد فى مصالحة مع الباشا الذى أبدى صعوبة فى

---

(١) القرمز : La Cochenille حشرة عسلية اللون تتطفل على نوع معين من النباتات التى كانت تزرع فى شرق آسيا، وتستخدم فى صباغة اللون الأحمر الفاتح – راجع:

Dict. La rousse, éd. 1993, p. 209.

وأشار الجبرتى إليها بقوله : "والدودة التى يقال لها القرمز" (الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص٢٠٢ (يومية ٢ ذى القعدة ١٢٢٥هـ / ٢٩ نوفمبر ١٨١٠م). (المترجم)

(٢) وأطلق الجبرتى عليهم اصطلاحًا "الأجناد المصرية المستأمنين" (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص١٩٩) . (المترجم)

قبولها.[1] ويبقى هؤلاء البكوات باتجاه أسوان حيث سينزلون دون شك بها حال انخفاض منسوب فيضان النيل.

وتلقيت فى هذا التوقيت الخطاب الذى شرفنى أن كتبتموه، سيادتكم، إلىَّ بتاريخ ٢٣ يوليو.

إن التوسكانيين[2] Les Toscans المقيمين (بالإسكندرية) جميعهم من اليهود، وليسوا سوى باعة جائلين ومحصلين . وولد معظم هؤلاء وتزوج فى هذه البلاد، وليسوا من ثم من أصل توسكانى. ولا يوجد سوى بيت ليفورنى للمدعو "ننيس – فياس" Nunes - Vais الذى يقيم بالإسكندرية بوصفه أحد التجار، ولكنه لا يمتلك الوسائل التى تؤمن على تجارته. ومن جانبى سوف أبلغه بأوامر سيادتكم. ولا يوجد هنا بالإسكندرية أى "بيت جنوى" كما لا يوجد كذلك أى مؤسسة فرنسية. إن معظم البضائع المرسلة من مارسيليا تُوجه إلى التجار الأجانب أو إلى أهالى هذه البلاد أو أخيراً إلى بيت تجارى إيطالى للمدعو فوا هوريا Fua Horia وتلشى Tilche وهى المؤسسة التجارية الأكثر ثراءً فى مصر.

مع خالص الاحترام....إلخ.

سان مارسيل

---

(١) بيَّن الجبرتى أن محمد على لم يرفض عرض المصالحة من جديد وأنه ارسل "سليمان بك البواب" و"حسن باشا" لإنجازها فى أواخر شهر سبتمبر ١٨١٠م (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ١٩٩، ٢٠٠). (المترجم)

(٢) توسكانيا: إقليم يقع فى إيطاليا، وخضع للسيطرة الفرنسية بين عامى ١٧٩٩ و ١٨١٤م، أى خلال الحقبة النابوليونية، وننوه إلى أن حرص سان مارسيل هنا على رصد البيوت التجارية بالإسكندرية التى أقامها تجار من مدن إيطاليا مثل ليفورنه، وتوسكانيا، وجنوه، ونابلى وغيرها – راجع إلى أن الخارجية الفرنسية اعتبرت جميع التجار الإيطاليين رعايا فرنسيين بعد ضم إيطاليا للأملاك الفرنسية. (المترجم)

٤٨ - الوزير إلى سان مارسيل

موجز – التصديق العام على أعماله .

فونتين بلو Fontainebleau [(١)]

في ١٣ أكتوبر ١٨١٠م

السيد سان مارسيل، إليك ردى على المراسلات التى شرفنى أن كتبتموها إلىَّ، بتواريخ ٢٠ مارس، و ١٩ و ٢٥ إبريل و ٢٩ مايو الماضى، والتى تحمل أرقام: ٦١، ٦٢، ٦٣، ٦٤.

إن التجاوزات التى حدثتنى عنها والتى بدت مهيأة لإثارة بعض مظاهر التعصب الدينى داخل دار مضيفة الأراضى المقدسة بالإسكندرية، تجعلنى لا أملك سوى استحسان التصرف الذى سلكته؛ للدفع بهؤلاء المتعصبين من رجال الدين إلى مغادرة هذه المضيفة، وأهنئك على نجاحك فى تحقيق ذلك: فبرحيل هؤلاء المتعصبين عاد الهدوء المعتاد لدار المضيفة، وأرجو أن تداوم على رعاية ورقابة هذه المضيفة بحيث تحول دون حدوث شىء بها، يمكن أن يسبب اضطرابها مرة أخرى.

ومن ناحية أخرى حطنى علمًا بتقرير عن حالة التجارة بصفة عامة فى محل إقامتكم (بالإسكندرية). والتفاصيل التى نقلتها إلىَّ فى هذا الصدد إنما تجيب تمامًا عما سألتكم بشأنه فى خطابى الصادر بتاريخ ٢٦ يناير الماضى والذى أفدتمونى باستلامه. إننى أرجوكم بألاً يغرب عن بالكم التدابير اللازمة، وأن ترسل إلىَّ، بناءً على

---

(١) فونتين بلو: هى المدينة التاريخية التى وقع فيها نابليون بونابرت وثيقة استسلامه الأول والتى عرفت بـ "معاهدة فونتين بلو" (فى ١١ إبريل ١٨١٤م)، ونشأت هذه المدينة على قلعة أُقيمت فى وسط غابة عظيمة، وهذه القلعة تعد من أجمل الآثار التاريخية الفرنسية التى تعود إلى عصر النهضة (Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 741) - (المترجم).

ذلك، وبشكل دقيق كل المعلومات التى لها صلة مباشرة أو غير مباشرة، بمصالح خدمة جلالته،[1] وخاصة بما يتعلق بالتجارة وبالنظام البحرى لإنجلترا.

ولتلقوا من جانبنا كامل التقدير والاعتبار .

(١) المقصود: جلالة الإمبراطور نابليون بونابرت ومصالح الإمبراطورية الفرنسية . (المترجم)

٤٩ - دروفتى إلى الوزير

موجز - خطط محمد على لاحتلال سوريا - محمد على يسمح بتجارة بيع الحبوب للإنجليز - عتاده العسكرى والبحرى - خضوع شاهين بك.

القاهرة، فى ١١ سبتمبر ١٨١٠م

(سُجِّلَت فى ٩ يونيو)

السيد المحترم ،

شرفنى أن نقلت إلى سيادتكم، فى تقريرى بتاريخ ٩ سبتمبر، اهتمام محمد على بإعادة يوسف باشا[١] إلى ولاية دمشق؛ ويبدو أن الشخصيات التى أرسلها محمد على إلى الباب العالى فى خصوص مسألة هذا الرجل لم تنجح فى تحقيق ما كان يتطلع إليه. ولكنه مع ذلك يعتقد بإمكانية تنفيذ مخططاته للاستيلاء على سوريا. ووفقًا لخطط الغامضة التى يُحِيكُها بنفسه فإنه يبدو أنه يريد يوسف باشا فى دمشق وابنه طوسون فى عكا. وهو يدعى بإمكانية البرهنة على طموح مشروعاته وخطط استقلاله من خلال العداوة التى نشبت بينه وبين سليمان باشا، الوزير الحالى لسوريا، على إثر اعتراضه لخطابٍ كتبه هذا الأخير إلى البكوات المماليك، خلال فترة محاربة محمد على لهؤلاء البكوات؛ وهو يتذرع كذلك بأن قوى كبيرة من سلاح الفرسان السورى التى

(١١٨) يوسف باشا: أصله من الأكراد الدكرلية، تولى ولاية الشام فى (١٨٠٧)، وكانت سيرته حسنة، وشاع عنه التزامه العدل فى الأحكام، ولكن ذلك أثار عليه خصومه وخاصة "سليمان باشا" والى صيدا الذى عمل على الإطاحة به حتى طرده من دمشق، ولما كاتب محمد على باشا واستأذنه فى الحضور إلى مصر، رحب به (١٨١٠) وأنزله بدار واسعة بالأزبكية، ورتب له معاشًا كبيرًا وأنعم عليه بجوار، وأرسل محمد على للدولة طالبًا العفو عنه وإعادته لولاية الشام، فقبلت شفاعة محمد على بالعفو عنه ، ولم توافق الدولة على إعادته إلى منصبه، وظل بمصر مدة ست سنوات حتى توفى ، ودُفِنَ بها فى ١٢ أكتوبر ١٨١٦ ، (لمزيد من التفاصيل انظر الترجمة المطولة التى خصصها له الجبرتى، ج٤، ص ص ٤١٢ - ٤١٧). (المترجم)

كانت منضوية تحت لواء جيشه والتي كان يوسف باشا، فيما سبق، قائدها، قد رفضت السير إلى محاربة الوهابيين، مادام قائدهم القديم لن يعود إلى باشويته Bachalick وعلى الرغم من الأوامر المشددة من قبل الباب العالي بتحريم تصدير الحبوب إلى بلدان أوروبا، فإنه ضلل الباب العالي بحيل ومكائد الوكلاء البريطانيين وأمدهم بالعديد من شحنات الغلال.

ولما وَجَّهتُ إليه العتاب في هذا الموضوع، كان ردُّه عليَّ بأنه يخشى، في حال رفضه التام إمداد الإنجليز بالحبوب، أن يثير ذلك غضبهم، وربما عداوتهم ضده؛ وأنه مع ذلك يعمل على زيادة رسم التصدير إلى الحد الذي يزعج المضاربين في تجارة الحبوب؛ وأنه في واقع الأمر رفع هذا الرسم إلى ٢٦ قرشًا تركيا على وحدة الوزن البالغة ٢٥ ميريا جرام Miriagrames. ولكنى أعتقد أن هذه الزيادة غير العادية تعود بالأحرى إلى جشعه ورغبته في تكديس الأموال، مستغلا حالة القحط التي عمت مالطة، والتي انتشرت تقريبًا في كل جزر البحر المتوسط.

إن انتصاراته الأخيرة على المماليك جعلته، يشعر بكثير جدا من الثقة في موارده ومركزه. وقد قال لي منذ أيام قليلة إنه لا يخشى سوى الفرنسيين. وإنه مستمر في عمل التحصينات في مدينة الإسكندرية دون أن يهمل أسطوله في البحر الأحمر.

وجاء شاهين بك المشهور خاضعًا بين الرعايا المماليك؛ وقد تم استقباله استقبالاً طيبًا؛ وأُعيد إليه جزء مهم من أملاكه، ولكنه فقد كل نفوذه. وكنت قد تمكنت، منذ عودة شاهين بك إلى القاهرة، من الحصول على بعض أصول مراسلاته مع الإنجليز. ولم أملك إزاء أهميتها سوى إرسالها طي هذا التقرير؛ وذلك لمَّا بدا لي إمكانية وضعها تحت نظر سيادتكم؛[1] ورسالة شاهين بك ترصد مؤامرات السيد بطروتشي، القنصل العام للسويد، والذي تحت هذا اللقب استمر يعمل باعتباره أحد أبرز العملاء الأكثر

(١) انظر نص هذه الرسالة في المراسلة رقم (٢٢) بتاريخ ٩ أغسطس ١٨٠٩. (المترجم)

نفوذاً للحكومة البريطانية فى مصر، وهو أيضًا من أكثر من يناصبون العداء للاسم الفرنسى.

وقد انسحب إبراهيم بك وبقايا الفرق المملوكية إلى ما وراء أسوان. ونعتقد بأنه دائمًا على علاقة مع سليمان باشا دمشق.

ولى الشرف أن أكون.....إلخ.

توقيع: **دروفتى**

٥٠ - دروفتي إلى الوزير

موجز - اجتماع سرى مع محمد على: هو يريد الاتفاق مع فرنسا على تأمين استقلاله وتنظيم التجارة فى البحر المتوسط - دروفتى يظل ، على تحفظه فى ظل غيبة التعليمات - زمرة المؤامرات الإنجليزية.

القاهرة، فى ٢٨ نوفمبر ١٨١٠

(سُجِّلَتْ فى ٩ يونيو ١٨١١)

السيد المحترم ،

يستعد محمد على للتوجه إلى الإسكندرية؛[١] ليراقب بنفسه - كما يُقال - شحن الحبوب التى يتعين إرسالها إلى إستنابول. وقبيل رحيله أعرب عن رغبته فى عقد اجتماع سرى معى. وكان لقاؤنا طويلاً، وكانت القضية المحورية فى مناقشاته تدور حول مشاريعه التجارية فى البحر المتوسط والبحر الأحمر، وبصفة خاصة رغبته أن يكون له، فى المقام الأول، مراكب تجارية يمكنها، فى جميع الأحوال، أن تتمتع بحق الحياد . Droit de neutralité وأدت المناقشة فى هذا الموضوع إلى جعله يعترف لى بأن علاقته بإستنابول غير جيدة تماماً؛ وأنه يرغب فى عمل اتفاق مع فرنسا يجعل ولايته تحظى بنفس وضعية البلاد البربرية[٢] Les Puissances Barbaresques ثم استطرد فى الحديث طويلاً عن المزايا التى يمكن أن يقدمها للتجارة الفرنسية، وانتهى إلى الاستفسار عما إذا كان فى الإمكان إنجاز اتفاق مع جلالة إمبراطورنا أغسطس حول هذه المصلحة. وظل يلحُ علىَّ لإعطائه إجابة قاطعة فى هذا الموضوع، ولكنى

---

(١) يحدد الجبرتى تاريخ سفر محمد على باشا للإسكندرية لبيع الحبوب فى ٢ ذى القعدة ١٢٢٥هـ/٢٩نوفمبر ١٨١٠م (الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص٢٠٢). (المترجم)

(٢) البلاد البربرية: المقصود بها ولايات شمال إفريقيا . (المترجم)

أفصحت له بأن هذا الموضوع يتعلق بمسألة تفوق نطاق صلاحيات وظيفتى المكلف بها قبله؛ وإزاء كل ذلك تمكنت من التأكيد له على الرجوع فى هذا الأمر لسيادتكم. وبدا أن إجابتى فى الرد عليه قد أزعجته. ولم ألحظ تحفظه فى الاقتراحات التالية التى قدمها لى عندئذ. ووفقًا لكل ما أخبرنى به آنفًا، فإنه كشف عن أن الوكلاء الإنجليز أكدوا له نجاح المفاوضات التى سوف يباشرها حول هذه المسألة مع حكومتهم؛ وأعتقد كذلك بأنهم ساعدوا كثيراً فى القرار الذى اتخذه للذهاب إلى الإسكندرية؛ حيث ينتظره قنصلهم الجديد، الرئيس السابق للمفوضية البريطانية Le légation Britannique فى إستانبول وعلمت أنهم يُصانعونه حتى يبلغون مقصدهم فى تخليص الباشا من تأثير نصائحى، وحدث ذات مرة توجه فيها الباشا إلى الإسكندرية، أن تطلعوا إلى إمكانية حصولهم منه على كثير من التسهيلات؛ لاستخلاص الحبوب ولتسهيل كل عملياتهم الأخرى السياسية منها والتجارية. ولسوء الحظ فإن كل ما دار بشأن الحبوب تم بيعه للإنجليز الذين ضحوا بالذهب كيما يخدعوا هذا الباشا ويضللوه فى مساعيه التى تعرض علاقته بالباب العالى دائمًا للخطر، وهم يسلسلونه بمسألة المصلحة، ويضطرونه أن ينظر إليهم كما لو كانوا هم الأصدقاء الوحيدون الذين سيمكنه توقع بعض مساعداتهم فى أوقات الشدة والاحتياج. ومع ذلك فإننى آمل فى السيد سان مارسيل أن ينجح فى الحفاظ على درجة الشك والحذر عند الباشا، وذلك على النحو الذى منعه حتى الآن من أن يقع فى فخ مكائد وحيل طغمة الأعداء. ومتى كان الباشا بالإسكندرية، فلسوف أبلغ زميلى المحترم فى هذا الميناء بأن يتشرف بالكتابة إلى سيادتكم.

ويشرفنى أن أكون....إلخ.

توقيع: **دروفتى**

٥١ - دروفتي إلى الوزير

موجز- الرد على منشور ٢٣ يونيو حول الحالة التجارية في مصر - القوافل (التجارية) داخل إفريقيا - الوهابيون باليمن؛ أزمة في تجارة البن - تجارة أقمشة الجوخ - القمح - النبيذ - السلع المُصنَّعة - التدهور العام للتجارة - المشاريع التجارية للإنجليز - صناعة الساعات الإنجليزية ذات الجودة العالية تفوق صناعة الساعات الفرنسية - السفر عبر الطرق البرية - وضع الملاحة والتجارة.

القاهرة في ١٤ ديسمبر ١٨١٠

(سُجِّلَت في ٢٨ مايو ١٨١١)

السيد المحترم ،

تأخرت في ردى على المنشور الذى شرفتمونى بإرساله إلىَّ بتاريخ ٢٣ يونيو من هذا العام؛ وذلك لأجل الحصول على كل المعلومات التى يمكن أن تجعلنى أوافيكم بصورة جيدة بما هو مطلوب فيه. ومع ذلك فالأمر يحتاج إلى بذل الكثير لكى أكون سعيداً بثمرة تحرياتى وتحقيقاتى. ولا يوجد بلد واحد فى كل بلدان المشرق أكثر صعوبة من مصر؛ وذلك من زاوية تكوين فكرة دقيقة عن عوائدها التجارية الفعلية والتغيرات التى يمكن أن تتأثر بها: فالأمور مختلفة فى مصر أكثر من كل الولايات الأخرى بالإمبراطورية العثمانية؛ وذلك من زاوية شكل الحكومة وممثليها وعدم انتظام أو ثبات الإدارة، وكذلك من جراء أن أقل الحوادث السياسية والعسكرية تفعل فعلها فى التأثير المباشر على العلاقات التجارية. وسوف أذكر بعض الأحداث التى تثبت هذه الحقيقة.

لم يصل منذ بضع سنوات من داخل إفريقيا سوى قوافل صغيرة: وهذا الفرع المهم لتجارة مصر كان يشق طريقه من خلال المستودعات الأخرى الموجودة بموانئ البحر الأحمر، ولذلك كنا نرى فى السابق السفن الإنجليزية والأمريكية ترسو فى

سواكن مصوغ على سواحل الحبشة؛ كيما يتم شحنها بالصمغ وسن الفيل...إلخ. وأراد محمد على باشا طمأنة قادة تلك القوافل، وأن يمنع كل ما يتعرضون له من الإهانات والابتزازات التى نفرتهم من ارتياد طريقهم القديم؛ وذلك بعقد معاهدة معهم، بمقتضاها يصبحون تحت حمايته القوية ورعايته الكريمة. وعلى أساس هذا الاتفاق جاءت قافلة كبيرة من دارفور، وصلت إلى الواحة الكبرى؛[١] وتقدم رؤساؤها إلى أسيوط لاستكشاف إذا ما كان بوسعهم الاعتماد على الوعود التى طرحها لهم الباشا؛ وبمجرد ظهور تلك القافلة وقع نزاع خطير جدا بين اثنين من القادة الألبان المتولين على إقليمى جرجا وأسيوط؛ حيث أدعى كل منهما الحق فى تحصيل رسوم معينة على المنتجات التى جلبتها معها القافلة؛ وفى ظل هذا النزاع وجدت القافلة نفسها متوقفة عن متابعة سيرها، وبالتأكيد كان لابد أن يبعث ذلك على النفور والارتياب من جديد، وهو ما سيحول دون استعادة هذه الطرق لنشاطها التجارى على النحو الذى كان يتطلع إليه الباشا.

وأدت الهجمات الأخيرة للوهابيين على اليمن إلى توجيه ضربة قاضية للعلاقات التى تعهدتها مصر فى ذلك البلد؛ كذلك أدى قيام الباشا بتسليح السويس، وحاجته التى ألفى نفسه فيها متمسكًا بإرسال حملته على مكة، وإرساله لكل السفن التى وصلت إلى موانئ الجزيرة العربية – أدى كل ذلك إلى خلق ظرف صعب وغير مواتٍ لحركة التجارة فى البحر الأحمر ؛ أيضًا تأثر البن الذى هو سلعة أساسية فى هذه التجارة بالظرف نفسه، حيث بلغ سعره حدا جعل التجار لا يجدون فائدة ما من تصديره إلى تركيا، والسكان هنا يقبلون على البن الذى يجلبه لهم الأمريكان والإنجليز من جزر الأنتيل[٢] Des Antilles .

---

(١) المقصود بها هنا: واحة الخارجة. ولمزيد من التفاصيل حول ظروف تجارة بلاد السودان مع مصر فى تلك الفترة غير المستقرة انظر دراسة والتر:

Terence Walz: trade between Egypt and Bilad As-Sudan, 1700 - 1820, [IFAO], 1978, p. 232 - 233 - (المترجم).

(٢) جزر الأنتيل: هى مجموعة الجزر الواقعة على البحر الكاريبى، وتشكل فى مجموعها ما يُعرف بالأرخبيل الأمريكى. (المترجم)

وكان إقصاء القوات المملوكية قد أدى إلى تراجع أهمية أقمشة الجوخ، وبصفة خاصة النوع الذى يطلق عليه سايس[1] Saies والذى يُشكل أهم منتج فى تجارة البنادقة.

والضرورة الملحة للحبوب التى وجدت مالطة نفسها فيها، وقيام الباشا ببيعها إلى هذه الجزيرة بسعر مرتفع جدا، كانت وراء جلب كميات هائلة من البضائع الإنجليزية إلى مصر. ولسوف تحظى البضائع الإنجليزية ؛ من جراء رخص أسعارها، بالأفضلية عن نظيرتها من البضائع التى عادة ما كانت الأمم الأخرى تجلبها لمصر. وانتشرت هذه البضائع الآن فى حاشية الباشا، وبين أهم أنواعها يشتد الاستهلاك بصورة كبيرة على المنتجات الهندية،[2] سواء بالنسبة للملابس أو بالنسبة للمفروشات التى حلت محل الكثير من أنوا ع الأقمشة التى كانت ترد فى الماضى من فرنسا وإيطاليا.

ولم تدع هذه الظروف المحتملة والمتصلة بنظام إدارى لا يقوم على أسس وطيدة ، والذى ليس له من هدفٍ سوى جمع الأموال – لم تدع لنا سوى مجال محدود جدا للحسابات والتقديرات وحتى للتخمينات نفسها فيما نريد أن نفعله بشأن عائدات علاقاتنا التجارية مع هذا البلد. وبرغم هذه الصعوبات سأتولى الرد على التساؤلات التى تفضل معاليكم بطرحها علىَّ، وذلك فى ضوء ما تسمح به معرفتى بالأحوال وما تمكنت من جمعه من المعلومات.

---

(١) سايس : Saies هو نوع من الجوخ السميك، كان شائع الاستخدام فى تجارة البحر المتوسط وذلك منذ القرن الثالث عشر الميلادى، وكان يُطلق عليه أنذاك Samitأو Samiz، لمزيد من التفاصيل راجع: ج. هايد : تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى (أربعة أجزاء) ترجمة أحمد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٩٤م، ج١، ص٢١٢) . (المترجم)

(٢) اعتبرت السلع المجلوبة من الهند ضمن قائمة البضائع الإنجليزية؛ وذلك لأن الهند كانت مستعمرة إنجليزية منذ سنة ١٧٥٧، وكان يُطلق على هذه البضائع اصطلاحًا "منتجات المستعمرات" Les denrées de coloniesأو "السلع الاستعمارية" - Les Objets colonials. (المترجم)

١- أرى أنه لكى نجنب سيادتكم الشعور بالسأم من التكرار غير المفيد أن استشير زميلى القدير بالإسكندرية[1] فيما سوف أتشرف بكتابته إليه فى هذا الموضوع.

٢- يُباع القمح فى هذا البلد بسعرين، فكما يُقال ثمة سعر للسوق العمومية يبلغ من ١٢ إلى ١٥ قرشًا تركيا (لكل وحدة وزن تعادل ٢٥ ميرياجرام)، وسعر للتصدير ناتج عن تفرد محمد على بتجارته، وهو سعر متنوع يبدأ من ٢٦، ٤٠، ٦٢ ويصل حتى ٨٠ قرشاً، وهو السعر الذى حاسب الباشا الإنجليز على أساسه (عن كل وحدة وزن تعادل ٢٥ ميرياجرام). وكان محصول هذا العام [١٨١٠ م] وفيراً جدا، كما أن محصول عام ١٨١١م يبدو فى أحسن أحواله.

٣- ويندر فى مصر استهلاك ماء العرق الوارد من فرنسا، وبسبب ذلك يمكن أن يصبح النبيذ السلعة المهمة فى تجارتنا، ولكن سيتعين علينا، من أجل تحقيق ذلك، أن نقلل من سعره، لنكون جديرين بمنافسة نظيره المنتج فى جزر الأرخبيل ، والذى يمكن الحصول عليه هنا بسعر زهيد جداً.

٤ و٥ – والقائمة المرسلة طيَّه، تبدو لى مرضيه وذلك بقدر ما هو ممكن فى الفقرة الأولى من هذا التقرير. وسيلاحظ سموكم فى القائمة أن المواد الاستهلاكية التى كانت مصانعنا وعمالنا – قديماً – يزودون بها مصر قد تناقصت كثيراً: أقمشة الجوخ بصفة خاصة والمنسوجات . إن الحالة الثابتة للمشكلات والتقلبات السياسية الجارية فى هذا البلد منذ عشر سنوات والضرائب الباهظة، والإهانات والمضايقات من كل نوع التى يتأوه منها أهالى الريف – تسببت فى وقوع كثير من الملاك والمزارعين فى حالة بائسة، وهناك الكثيرون ممن توشحوا بخلع الخدم، كيما يُفلتون من عيون المالية.

إن القوات المملوكية التى كانت فى الماضى تستهلك كميات هائلة من الجوخ، قد حلت محلها قوات أخرى لا تريد سوى ادخار المال، ولا يوجد مَن يقبل على بعض

(١) المقصود هنا: سان مارسيل. (المترجم)

منتجات البضائع الأوروبية سوى بيت الباشا وبيت أبنائه وضباط حاشيته.

تلك هى الظروف التى أضعها تحت نصب أعين سيادتكم أو فلنقل بالأحرى المعوقات التى نكابدها من جراء حالة الحرب وصعوبات النقل والاتصالات التى يتعين أن نعزوها إلى تدهور تجارة هذا البلد. وحاولنا إنشاء مصنع لصناعة أقمشة الجوخ (الفرنسى) فى هذه المدينة؛ بيد أن الفكرة لم تنجح؛ وذلك سواء لجهل المقاولين أو بسبب غياب الصنّاع المهرة.

إن القوانين التى تدير وتنظم هذا البلد تميل بالأحرى إلى خنق التجارة أكثر من تشجيعها لأهل الحرف الصُنّاع؛ وليس ثمة خوف أن يتمكنوا من تطوير مهارية حرفييهم بالصورة التى تجعلهم خليقين بإثارة قلقنا.

إن إنجلترا، الخصم اللدود بين الجميع، والتى عملت على إحياء الرخاء التجارى القديم لمصر، ليس لها فى هذا البلد أى مؤسسة تجارية. فهى لم تحتفظ فى مصر سوى بقنصل واحد، أهم وظيفة يؤديها هنا منحصرة فى ضمانه تمرير البرقيات المرسلة من قبل حكومة وشركة الهند البريطانية إلى الهند؛ وذلك عبر البحر الأحمر. والحال أن السلع الإنجليزية المصنعة التى يجرى استهلاكها فى هذه البلاد، تفد إلى هنا من موانئ مارسيليا وليفورن أو من خلال بعض الموانئ الأخرى فى الشرق التى يوجد بها وكالات تجارية Des Comptoirs[1] وشيلان (الصوف والحرير) تابعة لهذه الموانئ وتتمثل البضائع الإنجليزية فى أقمشة الجوخ وحجر الشّب، والساعات، والقصدير، والحديد، وصفائح الحديد، والرصاص، وقليل من الخردوات، وهذه السلع يتولى الإنجليز أنفسهم جلبها إلى هنا وبكميات كبيرة جدا. ويُضاف إلى ذلك المجوهرات والحلى ونبات القرمزية وأخشاب الصباغة، والسلفات المعدنية و L'arqui-foux، والأسلحة، والقماش الموصلى، والمزهرات، وكل أنواع المنسوجات القطنية،

(١) المقصود بمصطلح : Comptoir مؤسسة تجارية خاصة أو عامة يتم إقامتها فى البلاد الأجنبية؛ لترعى المصالح التجارية لأربابها (Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 408) . (المترجم)

وخاصة المجلوبة بكميات كبيرة من الهند، وكذا الصنف الجديد من الشيلان المصنوعة على طريقة صناعة الشيلان الكشميرى التى من جراء سعرها الرخيص يتم بيعها بالتجزئة وبسهولة جدا؛ لتستخدم فى نفس الأغراض المعتادة.

وقد يبدو من الإنصاف الاعتقاد بأن رواج هذه البضائع يمكن أن يتحقق فى ظل سيطرة على البحر المتوسط يخفق فيها العلم الإنجليزى على متن السفن أو فى فترة يسودها السلام العام. بيد أن تجارتنا (الفرنسية) فى إمكانها أن تبز نظيرتها الإنجليزية فى جنى العوائد بالفعل من مصر، إذا ما اتجهنا إلى استيراد المواد الخام الأولية التى تتطلب ؛ لأجل تخفيض قيمتها الفعلية ، عمل تسهيلات كبيرة فى وسائل النقل، وألاّ نتسامح مع الارتفاع الكبير فى نفقات النولون وتكاليف التأمينات على سلع مثل الحديد والرصاص والقصدير والسلفات المعدنية؛ وكذلك يمكن لكل السلع الأخرى القابلة للنقل برا مثل الأسلحة وأقمشة الجوخ الرقيقة والأقمشة المطرزة، يمكن لهذه المنتجات منذ الآن أن تنمى منافسة مربحة. وثمة سلع معينة بين تلك المنتجات تتطلب بالضرورة أن نعمل على إتقان صناعتها.

ويشتد الطلب على صناعة الساعات الإنجليزية أكثر من نظيرتها الفرنسية؛ وذلك بسبب متانة صناعتها. والساعات التى كانت تجلبها فرنسا إلى مصر فى الماضى، صار يأتى الآن جزء كبير منها من مصانع جنيف، وكانت هذه المصانع مضطرة إلى أن تشيد بسمعة بعض المصنوعات الإنجليزية، مثل بريور **Prior** وماركفتش **Markwick** اللذين استعارا منها الاسم لأجل تسهيل حركة البيع؛ ولكن بواحدة من الخدع التى تفوق التصور لجأوا إلى التقليد الذى ينتج نوعيات زائفة تحاكى صناعة الساعات المنتجة فى جنيف وفرنسا؛ حيث اقتبس الإنجليز تفاصيل الصنعة، وبدرجة ما من الاهتمام بلغوا نفس مستوى الإتقان التى تعطى الثقة فى أعمال منافسيهم.

وكذلك نادراً ما رأينا فى تجارة الساعات ببلاد المشرق ساعات أخرى من جنيف وفرنسا من النوع ردئ الصنعة ومنخفض القيمة الذى يُباع بالدُستة.

ولن يمكننا التذرع بقليل من التشجيع فى السعر الذى يمكن أن نبيع به هذه الساعات؛ فالصناعة الإنجليزية البسيطة لـ "بريور" وللآخرين تباع بضعف حجم المبيعات الفرنسية من نفس النوع: وإذن ليس أمامنا سوى تحسين الصنعة.

ويشكو الناس هنا، منذ بضع سنوات، من أقمشة الجوخ الفرنسى. ولم تعد المصنوعات تحظى بنفس الاهتمام الذى كانت عليه فى الماضى،[1] فقطع القماش ليست متساوية (فعدم الانتظام الضئيل الذى لا يبدو واضحًا فى عيون تاجر التجزئة، يترك أثرًا عميقًا فى بلد تعد فيه العادات القديمة، فى مجملها، بمثابة القوانين الوحيدة التى يعرفونها) ووسط ونهاية قطع القماش لا تتماثل مع نوعية النسيج نفسه الذى بدأت به؛ وعند بلّ القماش الأزرق بالماء يفقد لونه.

ويشكو الناس كذلك من الأقمشة الحريرية التى تنتجها المصانع الفرنسية والإيطالية، فهى ليست من نفس النوع ولا بنفس درجة الخفة، وصناعة الحديد والخردوات المعدنية تنقصها الصلابة.

٦- إن إنجلترا وألمانيا هما الأمتان الوحيدتان اللتان بإمكانهما، خلال فترة الحرب، منافسة فرنسا فى استيراد ما تحتاجه صناعتها من مصر، غير أن صناعتهما وتجارتهما سوف تكفان عن إحراز السبق علينا (الناتج عن تعطل نشاطنا) حينما تستعيد طرق النقل وضعها الطبيعى الحر الآمن.[2] ولن يوجد بعد ذلك سوى بعض المنتجات التى سنخشى من منافستهم لنا فى بيعها. وهذه المنتجات هى: الخردوات المعدنية

---

(١) بيّن أندريه ريمون بالفعل أن المنسوجات الفرنسية كانت تفوق غيرها من المنسوجات الواردة من أوروبا، وأنها مثلت أكثر من ٦٠٪ من إجمالى واردات مصر من أوروبا بطول القرن الثامن عشر. لمزيد من التفاصيل انظر: أندرية ريمون: المرجع السابق ، ج١، ص ص ٢٢٤، ٢٢٦. (المترجم)

(٢) المقصود هنا الطرق البحرية تحديداً ؛ حيث كانت بريطانيا فى ظل الحصار القارى الذى فرضه نابليون ضد مصالحها التجارية ومصالح حلفائها ، قد فرضت فى المقابل حصاراً بحريا على كل السفن الفرنسية طوال سنوات الحرب وحتى سقوط نابليون فى سنة ١٤- ١٨١٥م . (المترجم)

الصلبة، وأقمشة الموسيلينى، والهندية[1] وأقمشة الجوخ المسماه ماهوت Mahouts، فهذه السلع قد شاع استهلاكها جدا من جراء دقة صناعتها وتلاؤمها مع الفصول المعتدلة والحارة؛ أما الماهوت الفرنسى الذى لم يعد هناك ما هو أقل منه رواجًا، فلن يرتفع سعره، فى الوقت الحاضر على كل حال، إلى مستوى نظيره الإنجليزى والألمانى؛ وإذن سيقتضى هذا الوضع من صنَّاعنا أن يتمسكوا بالحل الوسط الذى يضمن مع توفير الجودة والشكل الأفضل المقبول لمستوى صناعة أقمشتنا من الجوخ، يضمن الحصول على المواد الخام بأقل تكلفة ممكنة وبأقل أجرة للعمالة، مما يسمح بإمداد بلدان المشرق بنفس الجودة والمعدلات السعرية، وإذا كان ممكنًا بشروط أفضل من منافسينا.

٧- وتشير القائمة الملحقة طى هذا التقرير إلى كل المواد الأولية التى تشكل تجارة الواردات والصادارات لمصر، ومن خلالها يمكن بسهولة تمييز ما يتناسب بصورة أفضل للتجارة والصناعة ولعمالنا الفرنسيين.

٨- أما طرق نقل البضائع الأكثر أمنًا والأكثر سهولة والتى يمكن أن تجنبنا، بقدر الإمكان، مخاطر البحر، إنما تتمثل فى طريقى سالونيك وإستانبول.

٩- وتم رصد أسعار السلع الاستعمارية Des denrées Coloniales التى تحظى ببعض الرواج فى مصر وذلك استنادًا إلى القائمة الملحقة طيُّه.

وليسمح لى سيادتكم، فيما يتعلق بقوائم الملاحة والتجارة، بأن أستند على هذه القوائم التى سوف تُرسل إليه من خلال قناصل جلالته المقيمين فى موانئ هذه الجهة. ومع ذلك سيكون من الصعب جدا علىَّ أن أكوِّن من تلك القوائم قائمة واحدة دقيقة، وما يشرفنى أن أوافيكم به لا يعدو قائمة عامة Tableau general حول بلد تُطرح فيه

---

(١) الهندية : Les Indiennes هى نوع من النسيج القطنى المطبَّع والمشجر الذى كان يصنع أصلاً فى الهند ، راجع هذا التعريف فى : - Dictionnaire (Micro Robert, 1980, p. 557. (المترجم)

دواوين الجمارك للمستأجرين الخصوصين[1] des Particuliers الذين يعملون دائمًا على إخفاء دخولهم الحقيقة منها، بلد تستطيع باستخدام المال تمرير كل شيء من البضائع بالتهريب، بلد يحدث فيه التهريب بدون أى فائدة، لكن بهدف واحد هو المداراة على اتساع عملياته ؛ لئلا يتعرض للإهانات فى مثل هذا البلد. وفى الوقت الحاضر وفى المستقبل، سيكون من الصعب تمامًا الحصول على قوائم التجارة، وما يمكننا جمعه منها بشكل واقعي يتم بالتخمين. وعلاوة على ذلك، فإن كمية السلع التى يصدرها ديوان جمرك القاهرة يجرى استهلاكها فى أقاليم مصر السفلى؛ وكمية السلع التى تجاوزت ذلك لا تصل إلى هنا، ولا يوجد بيانات ممكنة سوى ما بداخل الموانئ نفسها والتى من خلالها يمكن عمل هذه القوائم استناداً إلى معلومات مؤكدة نوعًا ما. وبالرغم من كل ذلك لن أتوقف عن الانشغال باستقصاء المعلومات التى يمكن أن تشبع رغبتى فى أداء الواجبات المنوطة بوظيفتى وكذلك تجعلنى أستحق الاستحسان العام من سيادتكم.

ويشرفنى أن أكون...إلخ.

دروفتى

---

(١) أطلق عليهم الجبرتى اصطلاحًا "المتزايدون"؛ لأن محمد على ، بعد أن ضم لصلاحياته إيرادات جمارك الإسكندرية ودمياط ورشيد فى سنة (١٨٠٦)، قام بطرحها للمزايدة السنوية، والتى أبدى الجبرتى اندهاشه من نجاح محمد على فى زيادة التزام الجمرك من ٣٢٠ كيس إلى ١٥٠٠ كيس ! (فى سنة ١٢٢٧هـ/١٨١٢م). ولعل مبدأ "المزايدة" فى التزام الجمارك المطروح للأفراد هو مبعث انزعاج دروفتى من جراء التغييرات التى يصعب عليه رصدها فى دخول الأفراد الذين وقع عليهم التزام تلك الجمارك (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٣، ٢٥١ – ٢٥٢) . (المترجم)

١٨١١

٥٢ - سان مارسيل إلى دوق دوكادور

موجز - قوائم الملاحة والتجارة - السفن القادمة من تريستا - تجارة الحبوب - انشغال محمد على من الآن فصاعداً بتطوير تجارة مصر - مشروعاته الكبرى للأعمال العمومية - زيارته للإسكندرية - استمرار سوء تصرفات السيد بطروتشى - اعتزام الباشا بناء قصر بالإسكندرية - زيادة الضرائب - استعدادات ضد الوهابيين - رسوم مرتفعة على كل السلع - الوهابيون داخل اليمن.

الإسكندرية، فى ٧ يناير ١٨١١

السيد المحترم ،

أرسل إلى سيادتكم قوائم الملاحة وقوائم تجارة الوارد والصادر، وذلك منذ الأول من أكتوبر وحتى يوم ٣١ ديسمبر. لقد حصلت بصعوبة بالغة على وثائق ضرورية لعمل تلك القوائم؛ فإدارة الجمرك حذرة للغاية، والأتراك متحرزون ولا يمكن الحصول على المعلومات إلا خفية، ومع ذلك فإن إجراءاتى فى التقصى قد اتخذت منهجاً يقربنا من الحقيقة.

ولم يظهر بهذا الميناء (الإسكندرية) بعد أى سفينة مزودة بترخيص، سوى سفينة واحدة تسمى "لاسابين" La Sabine، التى بدأ قبطانها المدعو إفانوفيتش Ivanovich رحلته من تريستا Triesteفي شهر سبتمبر، وكان معه ترخيصاً من السيد لو مارشال مارمونت S. E. Mgr Le Maréchal Marmont وكان على متن هذه السفينة من تريستا وكيلا الشحن : المدعو السيد فتشتيج Vechtig والسيد باسكوتينى Pascotini. وكانت السفينة مشحونة تماماً بكل أنواع البضائع الألمانية. وتوجهت السفينة إلى مالطة ومنها

مضت إلى ميناء الإسكندرية، وبعد بضعة أيام من تفريغ شحنتها، قام القبطان ببيع سفينته لمحمد على باشا القاهرة، وذلك بملبغ ٢٠٥٠ قرشًا.

إن سفينة "البريجانتان"[١] المسماه "إنيه" Enée، والتى يقودها القبطان سلفاتور بياضه Salvator Bayada والعاملة لحساب وكيل الشحن راجوزان الإسكلافونى[٢] raguzin esclavon، هذه السفينة شُحنت بالبضائع من ألمانيا التى انطلقت منها لتتوجه إلى مالطة ، ومن الأخيرة إلى ميناء الإسكندرية، رافعة على متنها العلم الإنجليزى.

ومع أن كل سفن أوروبا أو مالطة التى ترسو فى هذه الموانئ إنجليزية، إلاَّ أن معظمها - كما ذكرنا آنفًا - ملك للنمساويين أو الإسكلافونيين.

ويتركز كل الانتباه اليوم على تجارة الغلال فى مصر والتى يتولى الباشا بيعها إلى الإنجليز؛ وتتباين أسعار القمح هنا: فقد كان يُباع فى البداية بـ ٢٢ قرشًا (لكل ٢١ صاعًا Boisseau[٣]) ثم بيع بـ ٢٦ قرشًا (بوحدة وزن ٢١ بواسو). بيد أن هذا الارتفاع فى سعر القمح لم يعق الإنجليز عن التعاقد مع الباشا مؤخرًا بالإسكندرية على شراء ما يعادل ٤٢٠,٠٠٠ صاعًا[٤]. واستأجر الباشا أيضًا بعض السفن

---

(١) البريجانتان : Brigantin هى نوع من السفن الشراعية ذات الصارين والقلوع المرجعة، والمزودة بمدافع يتراوح عددها ما بين ١٨ و ٢٤ مدفعًا والذى يسع من ٨٨ إلى ٨٩ رجلاً، وتعد من السفن الحربية الصغيرة والخفيفة التى كان يستخدمها القراصنة فى العصور الوسطى، وتعرف هذه السفينة فى اللغة الإنجليزية باسم Brig وفى الفرنسية Brick و Brigantin، ويعني بالإيطالية : سفينة القرصان Brigan-tine. لمزيد من التفاصيل انظر: درويش النخيلى: المرجع السابق، ص ١ (ب) . (المترجم)

(٢) الإسكلافونى: نسبة إلى إقليم إسكلافون Esclavon الواقع فى شبه جزيرة مقدونيا، وهو اسم تاريخى قديم لإسلافونيا، ويقع تحديدًا اليوم تحت مسمى "كرواتيا" بالبلقان راجع:

Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 657 . (المترجم)

(٣) كل ٢١ صاعًا فرنسيًا تعادل وزن أردب من القمح. (المترجم)

(٤) يشير الجبرتى فى يومية ٢ ذى القعدة١٢٢٥هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨١٠م إلى أن محمد على باع للإنجليز "أزيد من مائتى ألف أردب" وذلك بواقع ١٠٠ قرش للأردب الواحد. ويعكس هذا نوعًا من التضارب الصارخ فى التقديرات بين المصدرين: فسان مارسيل، داخل هذا التقرير نفسه، سوف يحدد إجمالى البيع بالأردب بأنها ٣٠ ألف أردب (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص ٢٠٢). (المترجم)

الإنجليزية التى شحنها بالحبوب والتى أراد بيعها فى إسبانيا، ويتلقى لدى عودتها فى الحقيقة كل ما هو مفيد له.

ولم يعد الباشا يخشى المماليك الذين تضاءلت قوتهم، وصار غير منشغل فى هذا الوقت سوى ببيع الموارد الغذائية التى تفيض بها مصر. وهذه التجارة القاصرة عليه إنما تدر مبالغ هائلة على خزينته؛ وهو نفسه يتطلع بعزم شديد إلى أن يتوسع فى استيراد البضائع الأوروبية لمصر، والتى يريد أن يعمل بنفسه على تخفيض سعرها المرتفع هنا. وهو أيضًا لديه مشاريع للمنفعة (العامة) سواء فى إطار الإنشاءات العسكرية أو لمنشآت قنوات الرى الجديدة التى يريد أن يعمقها. على أن منشآته الأكثر أهمية إنما تتمثل فى قنوات سد معين يقع بالقرب من أبى قير، ذلك السد الذى يمنع دخول مياه البحر إلى البحيرات، وتجديد ترعة الرحمانية بالإسكندرية التى تنقل من خلالها البضائع منذ حوالى ١٣٠ سنة، وأهمية هذه الترعة فى أنها تجعل الملاحة ممكنة طوال الوقت من البحر إلى النيل والعكس، وفائدتها الأكبر فى أنها تجنب مخاطر البوغاز. ويشيد الباشا منذ عام أسوارًا جديدةً سوف تشكل سور المدينة وذلك فى المكان الذى به الأسوار القديمة "سارازان" Sarrazins التى تهدمت. وقد شيدت هذه الأسوار الجديدة على غرار الأسوار التى بناها الجنرال مينو بالقرب من الميناء الواقع فى المنطقة الكبيرة. وكان ثلث هذا السور قد تم إنجازه، وهو مستمر فى بناء الباقى منه ولن يستغرق هذا العمل سوى عامين، ولو أن عدد العمال لم يتزايد.

ووصل الباشا إلى الإسكندرية فى ٣ ديسمبر الماضى. [1] وليس لمجيئه إلى هذه المدينة من هدفٍ سوى التجارة فى الحبوب التى يريد رفع أسعارها، ولإنجاز منشآته التجارية، ومشاريعه للمنفعة العامة؛ وهو دائمًا ما يبقى فى هذه المدينة. وقد رأيته

---

(١) يحدد الجبرتى تاريخ سفر محمد على من القاهرة فى ٢ ذى القعدة ١٢٢٥هـ/ ٢٩ نوفمبر ١٨١٠م؛ وأنه قفل راجعًا للعاصمة يومية ٢٢ ذى الحجة ١٢٢٥هـ/ ١٨ يناير ١٨١١م؛ وهذا يعنى أنه قضى قرابة الخمسين يومًا بالإسكندرية ، (الجبرتى:المصدر السابق ، ج٤، ص ٢٠٢) . (المترجم)

مرات عديدة، واستقبلني استقبالاً متميزاً وودوداً على غرار استقباله للقناصل الأخرى، وكنت مضطرا إلى الحضور إليه وإلى ضباطه.

ووصلت فرقاطة إنجليزية وطراد حربى إلى الإسكندرية منذ فترة وجيزة، والسفينتان أيضًا مثل سفن التجار الإنجليز الأخرى، دخلتا إلى الميناء القديم الذى كان الباشا فى السابق، يدافع عنه ضد كل السفن التى لا تحمل على متنها العلم التركى. ولا يتعين تعليل هذا التغيير سوى برواج تجارة الحبوب التى هى مربحة للغاية لباشا مصر. وكان قائد هذه الفرقاطة هو السيد فالجراف Valgrave ابن اللورد روستوك Lord Rostock؛ وقد اجتمع مراراً بالباشا، والأخير يراعى الإنجليز من جراء خوفه منهم، وهو لهذا السبب اتبع معهم سياسة الممالأة، وغادرت الفرقاطة والبريك الميناء خلال الأيام الأخيرة السابقة، وذلك تحت حراسة عشرة سفن إنجليزية محملة بالحبوب المتجهة إلى مالطة.

ومرَّ بنا هنا ثلاثة رحالة إنجليز كانوا قادمين من إستانبول. وكان من بينهم سيد يُدعى نورث North، ابن الوزير القديم الملقب بهذا الاسم؛ وتوجهوا إلى القاهرة التى ينوون قضاء فصل الشتاء بها، ومن هناك يتوجهون إلى القدس وسوريا.

ولقد فاتنى أن أعلم سيادتكم عن تحيز السيد بطروتشى للإنجليز، الذى يعمل هنا بوظيفة القنصل العام للسويد فى مصر. ومؤخراً رفع علم السويد عند وصول الفرقاطة الإنجليزية. واستمر هذا القنصل فى تجارته مع مالطة. وقد شحن سبع سفن إنجليزية بالحبوب. هذا الرجل، مع ذلك، كان يعمل إبان فترة وجود الجيش الفرنسى فى مصر بوظيفة المحصل وأمين الصرف بدائرة أسيوط، وقد جنى من وراء عمله بهذه الوظيفة ثروة طائلة.. وعند رحيل الجيش (الفرنسى)، وخوفًا من تقديم كشف حساب عن وظيفته، بقى فى مصر ليعمل فى خدمة الإنجليز كوكيل لهم فى رشيد. ومنذ ذلك الحين نراه فى جميع عملياته السياسية لا يظهر سوى البغض والكره للأمة الفرنسية ، ألمثل هذا الرجل أن يشغل اليوم وظيفة قنصل السويد فى مصر ، بالإضافة إلى وظيفته

كوكيل للإنجليز فى رشيد؛ التى يتحصل بسببها من الحكومة الإنجليزية على ١٢,٠٠٠ قرش تركى كراتب سنوى فى السنة؟

يومية ١٤ من شهر يناير

صار الباشا يوزع إقامته، منذ ذلك الحين، بين القاهرة والإسكندرية، ولذلك يعتزم بناء قصر فى هذه المدينة على هيئة شجر التين وكذا سوف يبنى ثكنات لقواته، سواء من المشاة أو الخيالة.

أما مشاريعه بالقاهرة فتقوم على إلزام الناس بدفع ضرائب كتلك الضريبة التى فرضها على المُلاك الآخرين للاراضى؛ حيث سيدفعون، ٤ بوطاقه على الفدان الواحد، والفدان فى مصر يمثل وحدة قياس للأراضى الزراعية، وكما يقال مربع الشكل من ٢٠ قصبة Cannes أو ٣٧٢٤ متراً، المعادل لوحدة القياس Arpent[1] التى تساوى ٦٧ من المائة بمقياس باريس، وهذه الضريبة ستدر عليه زيادة هائلة فى دخوله.

كذلك من بين مشاريع الباشا أن يتابع حملة إقرار بالقوات التى سيَّرها ضد الوهابيين. وكان على رأس تلك القوات ابنه الثانى، الشاب (حوالى ١٧ أو ١٨ سنة) الذى يعمل الباشا - دونما توقف - على وضعه على الطريق إلى ولاية جدة. وربما سيكون لحملة إقرار الشريعة هدف التبشير بمبادئ دين النبى ضد أولئك المتشيعين لهذه الملة الذين يريدون تغيير هذه المبادئ، وذلك بإبعادهم عن العاصمة.

وكما أن التجارة صارت اليوم بين مضاربات الباشا، فإنه يعمل على إنشاء مراكب جديدة وبعض السفن التجارية وذلك على نفقته .

---

(١) Arpent : قياس فرنسى للطول، وقديماً كان لقياس الأراضى الزراعية، وتتباين وحدة قياسه ما بين ٢٠ إلى ٥٠ آر Are (والآر يعادل ١٠٠ متر) - .Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 112 (المترجم).

ويُنتظر مجىء ٣٠ أو ٤٠ سفينة إنجليزية من مالطة؛ حيث يتيعن شحنهم بـ ٣٠ ألف أردب من القمح، تحصل الباشا بالفعل على قيمتها بواقع ٢,٤٠٠,٠٠٠ فرنك.

ويجرى فرض رسوم جديدة على جميع فروع تجارة التصدير لمصر؛ وليس ثمة شئ يفوته فى ذلك حتى البقسماط الضرورى للبحارة نجده يفرض عليه ستة قروش رسمًا على كل قنطار من البقسماط، والذى لم يكن فى الأصل يُثمن سعره بأكثر من ١٤ قرشاً؛ والأرز كذلك وهو الغلة الضرورية جدا لدى المسلمين، يتيعن أن يُدفع على كل قنطار منه ما قيمته ١٠ قروش. وهذا الابتزاز المبالغ فيه تسبب فى ارتفاع أسعار كل السلع.(١)

وعُلِم من جده أن الوهابيين اقتحموا مدينة الحُدَيدَة(٢) باليمن حيث استولوا من هناك على غنيمة تقدر بحوالى ١٢ مليون قرش كبير. والقتل بالسيف على أشده حتى إن البعض لم يجدوا لهم من خلاص إلا على بعض السفن التى فرت من جدة إلى سواكن. واتجه الوهابيون إلى مُخا وبالفعل سيطروا على ميناء اللحية التى دمروا بها بروح التعصب الدينى مزارع البن، أهم سلعة لدى سكان اليمن، إننى أقول: بروح التعصب الدينى ؛ لأن هؤلاء المتشيعين لهذه الملة يحرمون تناول هذا المشروب.

ويشرفنى أن أكون .... إلخ.

سان مارسيل

---

(١) يعطى الجبرتى صورة موازية لغلاء الأسعار، وإبداء نفس الاندهاش من المغالاة فى فرض المكوس أو الضرائب على بيع السلع (انظر: الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص٢٠٢). (المترجم)

(٢) الحُدَيدَة: ميناء ساحلى باليمن يقع على البحر الأحمر، وكان يُمثل إحدى أهم المراكز التجارية فى تجارة البحر الأحمر والتجارة الشرقية عمومًا فى القرن الثامن عشر. (المترجم)

٥٣- دروفتى إلى الوزير

موجز – الباشا يجرى صفقات عديدة فى تجارة القمح مع الإنجليز لإيجاد موارد – المفاوضات مع المماليك والمطالبة بنصيب لهم فى صعيد مصر – محمد على باشا فى السويس.

القاهرة ، فى ١٦ يناير ١٨١١

(سُجِّلت فى ٩ يونيو)

السيد المحترم ،

يعود محمد على من رحلته بالإسكندرية؛ ولاشك أن سان مارسيل سوف يتشرف بالفعل بإحاطة سيادتكم بالتصرف الذى اتبعه مع الإنجليز هناك. وقد دخلت إلى الميناء القديم الفرقاطة الإنجليزية التى كان على متنها قنصلهم الجديد، وكذا سفينة الطراد الحربى الحارس للسفن التى جاءت من مالطة باحثة عن المؤن الغذائية. وقد حصلوا على ترخيص يسمح لهم باستخلاص كميات كبيرة من المؤن الغذائية. وهم فى كل الأحوال يدفعون عنها رسمًا يبلغ ٥٠ قرشًا تركيا عن كل ٢٥ مريجرام. إن حاجته إلى النقود لتسديد مرتبات الجنود، ولبناء أسطول بالبحر الأحمر وللحملة التى يُقال إنه يعدها لمحاربة الوهابيين – هى دائمًا وسيلته فى تبرير ما يدعيه بشأن مبالغته فى تثمين سعر القمح المطلوب لحكومة إستانبول. وهذا الظرف نفسه يدعم أيضًا ما سبق أن تشرفت بكتابته إلى سيادتكم عن سياسة هذا الباشا. تلك السياسة التى لا تتجاوز حدود ولايته. وتلقينا بشكل مؤقت خبراً مفاده أن الوهابيين لن يتركوا أنفسهم يخضعون لسياسة هذا الباشا وذلك من جراء صخب الحملات التى يعدها ضدهم سواء هنا بمصر أو فى سوريا. وبعد الهزيمة الساحقة للشريف حمود، احتل الوهابيون خلال شهر نوفمبر اللُحية والحُديِّدة؛ وحصدوا غنائم من هذه المدينة الأخيرة التى يجمع فيها أكثر تجار اليمن ثراءً ثرواتهم المقدرة بعشرة ملايين من القروش الكبيرة، وهذا خلافًا للكمية الهائلة من البن وبضائع الهند. وتأكد أن الأمير

عثمان المضايفى[١]، الذى طاف بالجزيرة العربية فاتحًا على رأس هؤلاء المجددين، أنه تمكن من أن يُدخل بينهم ترتيبًا ونظامًا معينًا، جديراً بأن يقيم فى تلك البلاد أكبر المؤسسات.

وقام البكوات المماليك الذين كانوا قد لجأوا إلى أسوان، بحركة استهدفت الاقتراب من إسنا، وأرسلوا أيضًا مفاوضًا عنهم لدى الباشا، يخبر الأخير بأنهم يقبلون الاعتراف بالباشا كسيد على البلاد، بيد أنهم يريدون فى المقابل، أن يظلوا فى صعيد مصر؛ مطالبين إياه أن يقطعهم حصة من أراضى الصعيد. وأصر محمد على باشا على قراره ، على أن يأتوا ليقيموا بالقاهرة، سامحًا لهم بقدر من الملكية التى تكفل لهم المعاش ، وذلك وفقًا لرتبهم وبما يتناسب كذلك مع الرؤساء الآخرين فى جيشه.

ويتوجه محمد على خلال بضعة أيام قليلة إلى مدينة السويس؛ كيما يعجل من الأعمال الجارية فى ترسانته الصغيرة التى أقامها بالسويس، ولأجل أن يشهد إنزال سفينة الطراد الحربى الحربية وعدة سفن أخرى من أسطوله. [٢]

ولى الشرف أن أكون... إلخ .

دروفتى

---

(١) وردت فى النص "عثمان المادیسی" Osman El Madisi وصحتها "عثمان المضايفى" وفقًا لما ورد فى الجبرتى. وهذا الرجل كان مصاهراً للشريف غالب، إلاَّ أنه خرج عليه وانضم إلى الوهابيين فكان أعظم أعوانهم: يحارب ويقاتل ويجمع قبائل العربان ويدعوهم عدة سنين، ويوجه السرايا على المخالفين، وفتح مدن عديدة بالجزيرة العربية واشتهر أمره، غير أنه وقع فى نهاية الأمر أسيراً، وأحضروه إلى الشريف غالب الذى أرسله إلى مصر مكبلاً بالحديد ، ومنها أرسل إلى دار السلطنة. وكان الأمير مسعود قائد الحركة الوهابية قد حاول افتداء المضايفى بمائة ألف فرانسة إلا أن عرضه جاء متأخراً؛ حيث كانت السفن قد أقلته إلى إستانبول. (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٨٥ – ٢٨٧) . (المترجم)

(٢) يحدد الجبرتى عدد السفن التى أنزلها محمد على فى البحر الأحمر بخمسة سفن، وبيَّن أنه أرسلها إلى جهة اليمن "ليقبضوا على ما يجدونه من المراكب هناك" (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ٢٠٦). (المترجم)

٥٤- الوزير إلى دروفتى

موجز – توجيه الشكر على تزويده بالمعلومات – فرمانات الباب العالى بحظر تصدير القمح من مصر.

باريس ، فى ٤ فبراير ١٨١١.

أحيطك علمًا ، أيها السيد بأننى تلقيت الخطابات التى شرفنى أن كتبتموها إلىَّ والتى حملت الأرقام من ٤ إلى الخطاب رقم ١٤.

وتضمن خطابكم رقم ٦ الشهادتين اللتين سبق أن طالبتكم بهما فى خطابى المؤرخ فى ٢٣ من شهر ديسمبر، وقد أرسلتهما إلى ورثة الجنرالين دستان Destaing وفولتريه Faultrier .

وخطاب السيد المبجل الأب بالأراضى المقدسة Pére de terre Sainte المشار إليه فى رسالتكم رقم ٧ لم نجده مرفقًا بهذه الرسالة.

وأتوجه إليكم بالشكر على التفاصيل الشاملة التى جاءت متضمنة فى برقياتكم الخاصة بالعمليات العسكرية لمحمد على والمعارك التى شنَّها على المماليك فى صعيد مصر، وحقق فيها نتائج مهمة. وأحسب أن الانشقاق الذى دبَّ بين الكثيرين من البكوات المماليك التابعين لبيت الألفى والذين خضعوا بعد ذلك لهذا الباشا قد دمرهم، كما دمر هذا الانشقاق مشاريع احتلال الإنجليز للبلاد. وهذا الظرف ملائم بدرجة لا يخالجنى الشك قط إنكم ستستفيدون ببراعة فى أن توضحوا لمحمد على الدسائس السرية ووجهات نظر أعدائنا. ويمكنك أن تعرفنى من ناحية أخرى فى أى فترة محددة سوف يقوم هذا الباشا بتنفيذ فرمانات الباب العالى التى تأمره بسرعة توجيه قواته إلى محاربة الوهابيين.

وأحاطنى السيد سان مارسيل علمًا بأن محمد على باشا تلقى فرمانات تحرم من جديد أن يصدر من موانئ مصر كل أنواع المؤن الغذائية لأوروبا أو الغرب، وأن الباب

العالى اتخذ احتياطات معينة للقبض على كل السفن المخالفة لأوامر السلطنة والتى تشق طريقها فى البحر محملة بالحبوب. ويتعين أن يؤدى هذا الإجراء، بصفة خاصة، إلى توجيه ضربة لتجارة الإنجليز التى لا تتوقف عن تصدير شحنات القمح من الإسكندرية إلى مالطة، وسوف يكون من المناسب، وبقدر ما يمكن الاعتماد عليكم، ألاّ تتهاونوا فى فعل شيء ضرورى لمناوأة الدسائس (الإنجليزية) التى لا يكفون عن توظيفها لدى الباشا لكى يجعلوه يتملص من تنيفذ حظر الباب العالى. وإننى أعتمد فى هذا الصدد على الحماس والنشاط المتوفر لديكم فى جميع الأوقات والذى تؤكده البراهين.

واستمراراً لجهودكم ، أرجو أن تداوم على كتابة التقارير إلىّ، وبدرجة كبيرة من الدقة، حول كل الأحداث التى تبدو لكم جديرة ببعض الاهتمام، ولاسيما كل ما يمكن أن يكون مهما للخدمة ولوجهات نظر جلالته.

ولتقبلوا أيها السيد [التحية والتقدير ... إلخ].

٥٥- الوزير إلى سان مارسيل

موجز – توجيه الشكر على تزويده بالمعلومات – فرمانات جديدة صادرة من الباب العالى ضد استيراد الحبوب – مسألة التراخيص.

باريس ، فى ٤ فبراير ١٨١١.

تلقيت، أيها السيد، الخطابات التى كتبتها إلىَّ فى يوم ٢٠ من شهر يونيو، و ٧ و ٢١ يوليو و ٢٤ أغسطس و ١١، ١٤ أكتوبر الماضى، والتى جاءت تحت أرقام ٦٦، ٦٧، ٦٨، ٧٠، ٧١و ٧٢ ؛ أما الرسالتان الحاملتان لرقمى ٦٥ و ٦٩ فلم يصلانِ، ويتعين أن تكترثوا بموافاتى بنسخة منهما.

أشكركم على تحرى الدقة فى إخبارى بعدد السفن والمراكب التى تتابع وصولها إلى الإسكندرية، ونوعية البضائع التى كانت تحملها، ونوعية الشحنات التى تمت المقايضة بها والتى بالنسبة للإنجليز كانت جميعًا من سلعة القمح المحدد إرساله إلى مالطة. وأود أن تداوموا على كتابة التقارير إلىَّ بصورة منتظمة تمامًا حول كل التحركات الجارية داخل الميناء الذى تقيمون به، وحول كل الإجراءات التى اتُّخذت هناك بشأن تنفيذ فرمانات الباب العالى الجديدة التى تنص على تحريم تصدير موانئ مصر لكل أنواع المؤن الغذائية والحبوب لأوروبا أو الغرب؛ وأن تمدونى بكل التفاصيل الخاصة التى قمتم بإدخالها فى التقارير، وذلك حول ما يتعلق بالحالة الفعلية للتجارة عمومًا فى مصر، وهى تفاصيل تبدو لى مرضية ، بما فيه الكفاية ، للتعليمات التى وجهتها إليكم فى خطابى المؤرخ يوم ٢٣ من شهر يونيو. وأناشدكم بألاَّ يغرب عن بالكم الترتيبات التى تضمنها خطابى، وأن توافونى فى المستقبل بالمعلومات الأكثر تفصيلاً حول كل النقاط التى تم بحثها من تلك الترتيبات، وأن تمدونى، فيما يتعلق بتصاريح السفن، بالملاحظات التى أثارات انتباهى ، والتى أسعدنى للغاية أنكم أحطونى علمًا بها. وفضلاً عن ذلك أعتمد على همتكم فى أن تمرروا إلىَّ القوائم التى طلبتها منكم فى الخطاب نفسه ، وذلك حالما تتزودون بالوثائق الضرورية لتحريرها.

وأوصـــيكم من نـاحـــيـــة أخـــرى أن ترســـلوا إلىَّ وبشـــكل دقـــيـــق كل الآراء والمعلومات الاستخبارية التى ترون أنها جديرة بلفت نظر الحكومة. ويشرفنى أن أنقل إليكم التحية.

٥٦ - سان مارسيل إلى دوق دو كادور

موجز - شهادات المصدر

السيد المحترم ،

تلقيت ، جملة واحدة ، الخطابات التى شرفنى سيادتكم بأن كتبتموها إلىَّ، وهى المؤرخة فى ١٦ يوليو، ٢٢ و ٣٠ أغسطس، و ٢٧ سبتمبر من العام الماضى.

وتجد سيادتكم طى هذه المراسلة قائمة بشهادات المصدر التى سلمتها خلال عام ١٨١٠م. والقائمة سوف توضح أنه منذ تاريخ خطاب سيادتكم المتعلق بهذا الموضوع (وهو الخطاب الذى لم أتلقاه سوى فى يوم ٢ من هذا الشهر) فإن العديد من السفن التى رحلت من هنا بالإسكندرية متوجهة إلى تونس والجزائر وسالونيك كانت حاملة لشهادات المصدر التى تاريخ تحريرى لها تالٍ للأوامر الصادرة من جلالته. أيضًا لا يتعين علىَّ أن أترك سيادتكم بغير علمٍ فيما يخص السفينة التى سلمتها مؤخراً شهادة المصدر والتى جرى شحنها بسهولة بملح النطرون وكان مسار توجهها إلى الجزائر ومارسيليا، هذه السفينة التى حملت فى الجزائر اسم ف. د. كوهين باعريق V.D.Cohen Baïriq كانت بتاريخ ٤ يناير الماضى. ولكن من الآن فصاعداً سوف أتقيد بالأوامر التى تقليتها بحيث لا أسلم شهادات المصدر سوى للسفن المتوجهة لموانئ فرنسا. بيد أن سيادتكم لم يحدد لى فيما إذا كان بإمكانى تسليم هذه الشهادات للسفن المتوجهة إلى تريستا أم لا.

ولم يظهر علم القدس مرفوعًا على السفن هنا، وذلك منذ قمت فى شهر مايو من عام ١٨٠٨م، بمصادرة البضائع الإنجليزية التى كانت مشحونة على سفينة حاملة لهذا العلم.

وليس لدينا هنا بالإسكندرية أى مواطن إليرى Illyrien [١] وثمة أشخاص يقيمون فى الميناء بشكل مفاجئ، ويدخلون تحت حماية قنصل النمسا الذى يحتمون به، كذلك ثمة سبعة من مواطنى الجزر وآخرين من دالماشيا،[٢] يعملون لحساب التجارة الإنجليزية.

مع خالص احترامى....إلخ.

سان مارسيل

---

(١) الإليريون : Illyriens هم مواطنو أقاليم إليريا التى ظلت تابعة لحكومة الإمبراطورية الفرنسية (النابليونية) من عام ١٨٠٩م إلى ١٨١٥م، ولذا اعتبرهم سان مارسيل رعايا فرنسيين وبعد سقوط نابليون استعادت النمسا أقاليم إليريا ، وذلك وفقًا لمعاهدة فيينا ١٨١٥، على أن الإليريين أقاموا لأنفسهم مملكة إليريا بين عامى ١٨١٦م و ١٨٤٩م والتى لن تخرج إلى الوجود حقيقة قبل أن تصير أقاليمها تابعة للنمسا (راجع: Encyclopédique, Dict. Hachette, p. 935) . (المترجم)

(٢) دالماشيا: إقليم يقع على الساحل الأدرياتيكى وكان يحظى بحماية البندقية، على أنه صار تابعًا للنمسا بعد معاهدة كامبوفورميو الشهيرة، ثم ضمه نابليون لإمبراطوريته بين عامى ١٨٠٩ و ١٨١٤، ومن هنا نفهم اهتمام القنصل الفرنسى سان مارسيل بمواطنى دالماشيا الذين صاروا بعد سقوط نابليون تابعين للنمسا. (راجع: Encyclopédique, Dict. Hachette, p. 935) . (المترجم)

٥٧- دروفتى إلى الوزير

موجز – محمد على فى السويس – رسالة مشبوهة من المماليك – قتل المماليك فى الأول من مارس ١٨١١ – نكبة المماليك تولد ذُعْراً بين الموالين للإنجليز – الإنجليز يقلقون من تسليح محمد على فى البحر الأحمر.

القاهرة ، فى ٤ مارس ١٨١١

(سُجِّلت فى ٣ من سبتمبر)

السيد المحترم ،

تشرفت أن أعلنت لسيادتكم، فى تقريرى الصادر بتاريخ ١٦ من شهر يناير، بأن محمد على يستعد للتوجه إلى السويس. وقد عاد من هناك بعد بضعة أيام وكانت عودته بالتحديد يوم ٢٤ فبراير. [(١)] وكما قيل إنه خلال غيبته (عن القاهرة) تم اعتراض رسائل جعلته يتشكك فى سلوك البكوات والمماليك المقيمين فى هذه المدينة، ويُعتقد بأنهم (أى الإنجلين) تراسلوا معهم بصعيد مصر؛ وذلك بواسطة هؤلاء مع سليمان باشا حاكم سوريا ، الذى ليس على علاقة جيدة مع محمد على. ذلك هو السبب الذى قاده إلى اتخاذ قرار استثنائى، وحقيقة قام ، فى الأول من هذا الشهر، بدعوتهم بحجة عمل احتفال بمناسبة تعيين طوسون باشا قائداً للجيش المكلف بالمضى إلى محاربة الوهابيين، وما إن تجمع العدد الأكبر من البكوات والكشاف والمماليك داخل القلعة، حتى أُعطيت إشارة بغلق أبواب القلعة، ليُفاجئهم المشاة المكونين فى معظمهم من الجند الأرناؤط الذين هاجموهم ودمروهم ، دون أن يمكنوهم من إبداء أقل مقاومة. ولم يتسن لأحد من المماليك الذين صعدوا (إلى القلعة) النجاة من هذه المذبحة؛ وأولئك الذين بقوا بالمدينة تمت إبادة الجزء الأكبر منهم داخل بيوتهم التى تعرضت للنهب.

---

(١) يسجل الجبرتى تاريخ عودته فى يومية ٢ صفر ١٢٢٦هـ/الموافق ٢٦ فبراير١٨١١م، وتبدو دقته فى تحديده للساعة التى وصل فيها (السادسة مساءً). (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص٢٠٦) . (المترجم)

ومنذ عشية هذه الحادثة أخذت الأوامر تُرسل إلى جميع القادة العسكريين بالأقاليم بالقبض على كل المماليك الذين تشتتوا في مقاطعاتهم الريفية.

وكان لابد أن يترتب على هذا الحدث بالضرورة بعض الفوضى؛ وتعرض العديد من بيوت المماليك للنهب، وأصبح يُخشى من الآثار بعيدة المدى والأكثر شؤماً المتوقعة، بيد أنه بفضل النشاط الذى أظهره الباشا بحرصه على إرسال الدوريات العسكرية والحراس فى كل مكان؛ حيث كان وجودهم ضروريا، وبفضل قيامه بنفسه بالمرور بجميع الشوارع على رأس فرقة من قواته، قاطعًا رأس حوالى عشرين من النهابين دون أن يستثنى من ذلك اثنان من الحراس،[١] أصبح أمن السكان بعيداً عن أن يُهدد، واستعيدت الطمأنينة بشكل كامل ، تماماً مثلما كان عليه الحال قبل مساء أمس.[٢] ويُقدر عدد من أُبيدوا فى هذه المذبحة الفظيعة بأكثر من ٥٠٠ مملوك، من بينهم ٢٥ أميراً و ٦٠ كاشفاً، وتلاشى كلية تقريباً أتباع بيت الألفى.[٣]

إن هذه الحادثة التى أذهلت كل الناس وأثارت ذعر أعداء الباشا، أفقدت الإنجليز القليل من الموالين لها ممن أبقوا عليهم فى مصر ، والذين كان بإمكانهم الاعتماد عليهم فيما يطرأ فى المستقبل. وبدوا يسبرون نواياه؛ لأنهم منذ فترة وهم يحيكون كل دسائسهم من أجل كسب الحاشية المحيطة به، وذلك بقصد استمالته فيما يخدم مصالحهم.

---

(١) أشار الجبرتى إلى أن أحد هذين الشخصين كان تركيا والآخر "بلديا"، وأن محمد على أمر بقتلهما لأنهما أصرفا فى نهب بيوت العامة، وقطعت رءوسهما عند باب الخرق. (راجع الجبرتى: المصدر نفسه ، ج٤، ص١٢٠). (المترجم)

(٢) يؤكد الجبرتى هذه النتيجة بقوله: "ولولا نزول الباشا وابنه فى صبح ذلك اليوم، لنهب العسكر بقية المدينة، وحصل منهم غاية الضرر". (الجبرتى : نفس الجزء الصفحة) . (المترجم)

(٣) يقدر الجبرتى القتلى فى المذبحة بأكثر من ألف مملوك من الأمراء والأجناد والكشاف والمماليك، وبيَّن أيضًا أن بيت الألفى تم تصفيته فى هذه الحادثة باستثناء "أحمد بيك زوج عديلة هانم بنت إبراهيم بيك الكبير" لأنه كان غائبًا بناحية بوش (إحدى قرى بنى سويف) ولما بلغته الحادثة ، توجه سريعًا إلى الأمراء القبالى ، ولبسوا جميعا السواد حزنًا على أولادهم وإخوانهم وخشداشينهم (راجع الجبرتى : نفس المصدر، ج٤، ص ٢١٢، ٢١٣). (المترجم)

ويبدو لى أن وجهات نظرهم الآن تميل إلى التعريض به لدى الباب العالى؛ كيما تجعل هذا البلد فى حالة من الاضطراب والتبعية التى تمكنهم من اجتذاب بعض الجماعات الموالية. وهم لا ينظرون مع ذلك بعين هادئة إلى حركة تسليح محمد على فى البحر الأحمر. وتأكدت من أنهم عرضوا عليه فى مقابل توقفه عن تسليح أسطوله أن يمدونه بمراكب نقل تخدمه فى نقل قواته العسكرية ضد الوهابيين، لكن الباشا رفض كل ذلك.

ويشرفنى أن أكون.....إلخ.

دروفتى

٥٨- سان مارسيل إلى الوزير

موجز- حول مذبحة المماليك - تفاصيل أخرى.

إسكندرية مصر فى ٦ مارس ١٨١١

(سُجلت فى ٢٠ يوليو)

السيد المحترم،

أحيط سيادتكم علماً بالحادثة المأساوية للغاية التى وقعت بالقاهرة فى الأول من هذا الشهر. فالباشا بعملية ضبط مُحْكَمة أباد جميع المماليك الذين كانوا موجودين بعاصمة مصر. وكان قد أعلن أنه يحتفل بتقليد ابنه باشا على جده، وخروج معسكره فى موكب كبير: فحضرت جميع القوات وكل البكوات مجتمعين بالقلعة. ولما أُعطيت إشارة إلى قوات الباشا، انهالت على المماليك الطلقات فى وقت واحد ، وكل مَنْ لم يقتل تمت ملاحقته، وغُلِّقَت أبواب القلعة ، ولم يستطع أحد منهم الخلاص من الموت. ولم يُبد الباشا رحمة بأحد: فكل البكوات والكُشاف والمماليك تعقبوهم بالسيف. ويقدر الضحايا حتى الآن بأكثر من أربعمائة قتيل. وأصدر أمر ، فى الوقت نفسه ، بنهب بيوتهم والاستيلاء على ممتلكاتهم. إن هذه الضربة الشنيعة التى ستتزايد المعلومات بشأن أسبابها وتفاصيلها سوف أهتم، سيدى المحترم، بسرعة إبلاغكم بها متى توافرت لدى المعلومات بشكل كامل.

مع خالص الاحترام....إلخ.

سان مارسيل

٥٩ - سان مارسيل إلى دوق دوكادور

موجز - مذبحة المماليك بالقاهرة: العديد من البيوت المنهوبة - إبادة المماليك الآخرين بصعيد مصر - تفريغ السفن من المؤن.

إسكندرية مصر ، في ١٥ من مارس ١٨١١

(سُجِّلت في ٢٠ يوليو)

السيد المحترم ،

لقد ذُبِحَ المماليك في القاهرة، وكان على رأسهم شاهين بك خليفة الألفي. وهذا الزعيم المملوكي الموالي والمتحمس للإنجليز كان تحت قيادته العديد من البكوات والكشاف من نفس الجنس. وقوات الباشا التي أخذت تنهب في بيوت المماليك أفادت من هذه اللحظة ؛ كي تطوق أعيان المسلمين والآخرين. وقام الباشا بقطع رأس عشرين من هؤلاء النهابين الذين كان من بينهم بعض الجنود من حرسه. ويُقدر عدد البيوت التي نُهِبت بأكثر من عشرين بيتًا، وتقدر الغنائم بعشرة ملايين من القروش.

وكان من بين القتلى ٢٥ أميراً، و٦٠ كاشفًا وأكثر من ٤٠٠ مملوك عادي. وكان الباشا قد أصدر أمراً، عشية هذا الهجوم، إلى جميع قادة الأقاليم بأن يقبضوا على كل المماليك الذين يجدونهم هناك.

ويعتقد بأن الباشا لم يتخذ قرار القضاء عليهم إلاَّ بعد أن وصلته خطابات المماليك التي تم اعتراضها والتي كانت موجهة إلى بكوات صعيد مصر وإلى سليمان باشا دمشق الذي هو اليوم خصم لمحمد علي، وذلك منذ قام هذا الأخير بمنح يوسف باشا[١] سوريا السابق حق اللجوء إليه.

---

(١) يشير الجبرتي إلى أن محمد علي تشفع في يوسف باشا لدى حكومة الباب العالي ، وقُبلَت شفاعة والي مصر ، وصَدَرَ بها فرمان وصل إلى القاهرة عقب المذبحة وتحديداً في ٢٣ صفر١٢٢٦هـ/١٩ مارس ١٨١١م (راجع الجبرتي : المصدر السابق، ج٤، ص٢١٤). (المترجم)

ولم يبق من سلالة البيوت المملوكية القديمة سوى إبراهيم بيك، وعثمان بك حسن، وسليم بك، ومورandجى[٢] Murandgy الذين كان يتبعهم العديد من البكوات، وبين آخرين كان هناك عبد الرحمن بك ومنفوخ بك. ويمكن أن يزيد عددهم عن ٥٠٠ فرد؛ ولكن لكونهم استمالوا بعض الجند الفارين وبعض العبيد السود يمكنهم أن يشكلوا فرقة من ١٥٠٠ مملوك تقريبًا. وعاد كل هؤلاء البكوات إلى صعيد مصر إلى ما بعد جرجا والبعض الآخر بقى بأسوان.

وتم تجهيز ٢٤ رأسًا من البكوات المماليك بالقاهرة لإرسالها إلى إستانبول. وعلاوة على ذلك فإن القاهرة استعادت اليوم حالة الهدوء التى كانت عليها.

مع خالص الاحترام..إلخ .

سان مارسيل

(١) وردت هكذا فى نص الرسالة الفرنسى، وصحتها " سليم بيك الدمرجى" (راجع الجبرتى: نفسه، ج٤، ص٢١٢). (المترجم)

فى ١٧ من شهر مارس

أفرغت سفينة تجارية تونسية ستة آلاف قذيفة مدفع ، قادمة من مالطة، أرسلها الإنجليز إلى باشا القاهرة. وقد وصل من مالطة اثنان من الضباط الإنجليز، وأحدهما، كما يُقال، جاء تحت صفة مندوب لشراء القمح من مصر من أجل تموين جزيرة صقلية؛ وقد مرَّ الضابطان بالقاهرة؛ كى يتعاقدا مع الباشا على عمل صفقات تجارية قاصرة على الحبوب.

وعلمت بأن إبراهيم بك، رئيس المماليك الموجود فى صعيد مصر، تعافى من وظيفته التى عمل بها طويلاً.

سان مارسيل

٦٠- دروفتى إلى الوزير

موجز - محمد على يفسر لدروفتى حاجته إلى بيع الحبوب للإنجليز ليؤمن موارده الخاصة - خشيته من احتمالية غزو إنجليزى للبلاد إن هو رفض بيع القمح - عرضه على فرنسا شروطًا أكثر أهمية مما يعرضه على الإنجليز - علاقة الباشا بالباب العالى - دسائس الإنجليز.

القاهرة ، فى ٢٧ مارس ١٨١١

(سُجِّلت فى ٣ سبتمبر)

السيد المحترم،

سبق أن تشرفت بإحاطة سيادتكم علمًا بأن ضابطًا من المفوضية العامة Du Commissariat général بالجيش الإنجليزى بصقلية قد وصل إلى هنا (بالإسكندرية) مُكلفًا، كما يُقال، بالتفاوض على شراء كميات من المؤن الغذائية. ومنذ وصول هذا الضابط رأيت ضرورة مقابلة محمد على ، الذى اعتقدت أن الواجب يقتضى أن أوجه إليه عتابًا شديداً على استمرارية هذه التجارة مع أعدائنا ، والتى تتعارض أيضًا مع أوامر سيده (السلطان)، وكذا مع التقدير الذى يتعين عليه إبدائه لأوغسطس[1] رئيس الإمبراطورية الفرنسية. ولقد كرر علىَّ الباشا نفس الحجج التى دائمًا ما يستخدمها ليدلل بها على الضرورة التى ألزمته بمراعاة جانب أعدائنا ، ولينتفع فى الوقت نفسه من الحاجة الماسة للإنجليز إلى شراء الحبوب من مصر؛ لكى يؤمن لنفسه النقود الضرورية للغاية ؛ لكى يجعل الإسكندرية فى حالة دفاع؛ وليزيد من قوة جيشه، وليتم تسليح أسطوله بالبحر الأحمر، وليمول حملته على الوهابيين. وقال لى وهو فى الواقع أمر حقيقى إن نقص النقود وبؤس سكان الأرياف اضطراه إلى جباية الضرائب العقارية عينًا وذلك خلال العام الماضى، وإنه لا يزال فى نفس حالة العام

(١) المقصود : الإمبراطور نابليون.

الماضى، وعلى ذلك ليس أمامه سوى الإفادة من بيع القمح والذى يتلقى مبيعاته نقداً بما يمكنه من تدعيم مالياته؛ وبيَّن لى أنه فى حالة اتفاق مع الإنجليز على السماح لهم، فى المقام الأول، باستيراد القمح، ومن ثم فإن لا يمكن تحوله عن هذا الاتفاق خوفًا منهم ، وإذا قام بطرد الضابط القادم من صقلية، فإنه عندئذٍ عليه أن ينتظر أن يقوم الإنجليز بالهجوم على مصر لكى يتزودوا منها بما يكفى تمويل مالطة وأسطولهم؛ واليوم (وكما يبدو فإن الوكلاء الإنجليز يهددونه) يتعين أن يكون لديه نفس الخوف من المصير التالى للجيش الذى سيُجبر على مغادرة البرتغال، ويعلن له ضرورة التدخل فى البحر المتوسط؛ وله كذلك أن يخاف جدا من هجوم [محتمل] على بلاده من قبل أعدائنا، وهو يعتقد بأن انقطاع العلاقات بين الباب العالى وإنجلترا بات وشيكًا جدا؛ وأضاف بأنه إذا كان قد باع المؤن الغذائية للإنجليز، فإنه فرض عليهم شروطًا تجعل تلك الميرة تباع لهم بأسعار باهظة، وأنه إذا كان قد طالبهم بذخيرة حرب، ففى الإمكان استعمالها، ذات يوم ، ضدهم (وقد تم تفريغ سفينة بالإسكندرية بالفعل كانت حاملة لـ ٦٠٠٠ قذيفة مدفع)، وأن البيع لهم يتم وفقًا لأسعار مرتفعة للغاية، ثم إنه لكى يُبرهن على أن تصرفه فى هذه الظروف ليس من قبل قوة أملت عليه التحيز لأعدائنا، يعرض بأنه على استعداد لأن يبيع للسفن التى تأتى طالبة الميرة لحساب الحكومة الفرنسية بسعر أقل بواقع ٢٥٪ عما يبيعه للإنجليز. وأنه عمل على إرسال شحنات لموانئ ألمانيا التى يزودها بالحبوب من جزيرة كورفو التى علم أنها كذلك تعانى من حالة قحط.

وبالرغم من ارتفاع مثل تلك القيمة السعرية (للحبوب) التى يُراد إيعازها إلى هذه المسوغات، واستغلال مثل هذا الظرف الذى يمكنه من الحصول على الأموال، فإنه يبدو من الصعب للغاية على الباشا أن يدرك، بما يمكن أن يأخذه على نفسه، أنه إنما ينتهك بشدة أوامر سيده السلطان، ومع أن الإنجليز يبدون شديدى الاهتمام بالحفاظ على السلام مع الباب العالى فإنهم يتصرفون فى هذا الظرف بقليل جدا من التحفظ والحذر، بل إنهم لا يهتمون حتى بالحفاظ على المظاهر؛ إذ إنهم يسعون فى التحريض ضد محمد على بالصورة التى تعرضه للحرج بشدة مع الباب العالى. وفى كل هذا أفلا

يتعين استنتاج بعض سمات هذه السياسة المتقلبة لحكومة إستانبول التى كثيراً ما طرحت على محمد على فى الوقت نفسه فرمانين ، الواحد منهما يؤدى إلى تقويض الآخر؟ وحتى لو كان ذلك غير موجود، فإن الباب العالى إزاء تصرفات الوكلاء الإنجليز فى مصر سيكون لديه برهان واضح على أن حكومته (الإنجليزية) اليوم على استعداد للتضحية بكل الاعتبارات وبكل العلاقات السياسية مهما كانت، فى سبيل أدنى مصالحها. وليس ثمة شيء أكثر سخرية فى الواقع من أن ترى إعلانًا على بوابة القنصلية البريطانية بالإسكندرية يقضى بموجب أوامر سفير إستانبول الصادرة بتاريخ ٢٥ أكتوبر بأنه لن يوقع على شحنات السفن المحملة بالحبوب إلى مالطة...إلخ، وأن ترى فى الوقت نفسه قافلة من السفن تصل من هذه الجزيرة فى حراسة السفن الحربية التى تأتى طالبة للحبوب، ثم ترى بعد ذلك السيد ماتوس M. Mathos الموظف القديم فى السفارة يدخل فى تفاوض مع الباشا على استخلاص كميات مهمة من المؤن الغذائية. وربما مع تجرد الإنجليز من كل الوسائل التى كان المماليك يزودونهم بها ، حتى ذلك الحين ، والتى كانت تعمل على استمرار الحرب الأهلية والفوضى فى مصر، فإنهم يبحثون اليوم عما يعرض علاقة الباشا بحكومته للخطر؛ وذلك بهدف جذبه يومًا ما إلى اتخاذ الإجراءات التى تيسر المشروعات التى لا يكفون عن إعدادها حول هذا البلد. ولهذا وجدت من الواجب على أن أُنبه الباشا بأن يكون على حذر من تلك الدسائس. وأيا كان هذا التشويش فمن الصحيح دومًا أنه إذا كان محمد على يستجيب من ناحية لإغراءات أعدائنا، فإنه من ناحية أخرى يوجه ضربة شديدة التأثير لماليتهم: فهدفه أن يعمل بقدر ما يمكنه على رفع سعر الحبوب التى يتحكم فيها، والتى وجهت كل جهودى منذ اكتشفت استحالة اقناع الباشا بأن يحرم نفسه من الموارد التى تدرها عليه هذه التجارة.

ويشرفنى أن أكون...إلخ.

دروفتى

٦١ - دروفتى إلى الوزير

موجز - استعدادات محمد على لتجريد حملة مكة - سفره إلى الإسكندرية - قلقة من الجهة التى يقصدها الأسطول الفرنسى بطولون - اعتماده على الإنجليز فى تأكيد تحريره لمصر - تطلعه إلى باشويه سوريا - رواج مالياته - قوة جيشه - نفوذه الكبير فى الوقت الحالى وفيما بعد.

القاهرة، فى ١٩ أبريل ١٨١١

(سُجِّلَ فى ٢ سبتمبر)

السيد المحترم،

بعد أن عسكر طوسون باشا بن محمد على على مسافة ساعة من هذه المدينة؛(١) حيث يتعين أن يتجمع تحت أمره القوات التى قيل إنها مرسلة فى حملة على مكة، وأيضًا بعد رحيل ابنه الأكبر، دفتردار مصر، إلى أقاليم مصر العليا؛ كى يعمل على تنظيم إدارتها المالية، توجه محمد على باشا فجأة إلى الإسكندرية.(٢) إننا نجهل هنا سبب هذا السفر المفاجئ، والسيد سان مارسيل سوف يوضح لكم بدون شك السبب وراء ذلك؛ فهو مهتم بإبلاغكم بهذا الأمر. ومع ذلك يمكننا أن نخمن السبب فى أن دسائس المتآمرين الإنجليز هى أيضًا التى أسهمت فى قيامه بهذه الجولة على أنه منذ قيامه بالتوجه إلى الإسكندرية فى شهر ديسمبر الماضى(٣) لم يعد سلوكه يشى بالفطنة

---

(١) يُبين الجبرتى أن موكب طوسون باشا انطلق فى ٣١ مارس ١٨١١ (الجبرتى : المرجع السابق، ص ٢١٤) . (المترجم)

(٢) يشير الجبرتى إلى أن محمد على باشا توجه للإسكندرية مباشرة بعد إصلاحه لسد ترعة الفرعونية، وتحديداً يوم ١٢ من شهر إبريل ١٨١١. (نفسه، ج٤، ص٢١٥)

(٣) يحدد الجبرتى تاريخ سفره وعودته من الإسكندرية بين ٢٩ نوفمبر ١٨١٠م و ٢ يناير ١٨١١ (نفسه ، ص ٢٠٢) . (المترجم)

والحكمة اللتين كانتا سبباً فى النظر إليه على أنه رجل نابغة قلما يوجد فى العادة بين الأتراك. [(١)] بيد أن العيب ليس فيه، وإنما فى ضباط حاشيته الذين يمارسون تأثيراً كبيراً على فكرة، فهم الذين يبيعون (الغلال) إلى الإنجليز، وعلى ما يبدو ليست قليلة تلك الرسائل التى تصله من إستانبول فى خصوص هذا الأمر. وفى كلمات قليلة: هو مُضلَّل ومخدوع.

ويُبدى الباشا قلقه الشديد من جراء عدم درايته بأى أخبار تتعلق بأسطول طولون. ويبدو أن مخابرة معينة بشأن بنود مزعومة فى معاهدة تلست Traité de Tilsitt التى قيل لى إنه تحصل عليها من الأميرال قُطن Coton قد جعلته مقتنعًا بأن حركة تسليح (الأسطول). فى هذا الميناء التابع للإمبراطورية الفرنسية إنما هى موجهة ضده.

ويشكل لا يمكن تصوره يقوم العملاء البريطانيون باستخدام وسائل لا حصر لها من أجل اقناع محمد على بأن حكومتهم هى الوحيدة التى تحالفه، وأنها الصديق الضرورى للأتراك، وبصفة خاصة باشا مصر. وأراد هؤلاء العملاء أن يثبتوا لى أن زعمهم عرض الانسحاب المفيد من الهند، بالنظر إلى احتمالات المستقبل الأكثر سوءاً، إنما هو لأجل دعمه فى مشروعاته للاستقلال. واستخدموا كل الحيل الممكنة التى تفقده تقديره وثقته فىَّ. وقدمونى له على أننى شخص لا يحظى بأى اعتبار من قبل مليكنا أغسطس، وعلى ذلك فإنى لا أستحق أن يعيرنى اهتمامه حال قيامى بإسداء النصائح له أو حين أوجه إليه تنبيهات معينة. وقد تركت كل هذه المكائد أثراً عميقًا فى نفسه. وبقدر ما يقوله عن عدم ثقته فى الإنجليز بقدر ارتيابه فى الفرنسيين، وهو مع ذلك يتصرف بطريقة تجعلنى أعتقد بأنه يحافظ على الصلات الضرورية للمشروع الذى كان

---

(١) عادة ما نجد القناصل والرحالة يستخدمون مصطلح Les Turcs فى معظم كتاباتهم بمعنى "المسلمين" الذين يعيشون فى كنف الدولة العثمانية. وهو هنا يقصد هذا المعنى ، وليس الأتراك العثمانيين أنفسهم. (المترجم)

الموضوع الرئيسى فى تقريرى إليكم الصادر بتاريخ ٢٩ من شهر نوفمبر الماضى(١). وعلمت بأنه كلَّف قابى كتخداه، فى إستانبول، أن يسبر حقيقة المقاصد لدى وزراء السلطان هناك ، بشأن مدى إمكانية أن يحصل على التحرير الذى يتوق إليه. وهو يرنو ببصره دائمًا إلى باشوية سوريا، وبث لى يومًا بأنه لا يقنط من الحصول على هذه الباشوية فى مقابل التضحية بـ ٧ أو ٨ ملايين قرش سوف يعمل على تمريرها لصالح خزانة السلطان. وأخذت أفكاره عن الاستقلال تتزايد قوة مع نجاحاته التى حققها فى الانتصار على أعدائه، وضد عصيان قواته، وكذا مع تصديه للخلل الذى كان مستشريًا فى مالياته. ونمت وتزايدت أفكاره عن الاستقلال بشكل يفوق ما كان يتجاسر على التطلع إليه منذ عامين. ويمكننا أن نقدر دخوله من الضرائب المباشرة وغير المباشرة، ومن احتكاره للحبوب، فى هذا العام، بنحو ٤٥ إلى ٥٠ مليونًا من القروش التركية. ودعم جيشه بصورة غير محسوسة ويمكن أن يصل عما قريب إلى ٢٠,٠٠٠ رجل. وإذا كان مشروعه فى دعم جيشه، فإن عدد قواته سيتزايد بأكثر من ذلك، وأيضًا إذا ما واصلت جيوش الموسكوف(٢) Les armées moscovites انتصاراتها فى الروميلى: حيث كل المظاهر تشير إلى أن مصر ستكون بؤرة تجمع كل الجنود الفارين من الجيش العثمانى. وقد وصل بالفعل العديد من المنفصلين الذين تم إلحاقهم بمختلف الفرق تحت قيادة أوامر أبناء الباشا أو آخرين من القادة التابعين للباشا.

وتمضى تجارة الحبوب مع مالطة على نفس شروطها وأسعارها كما فى السابق، وعلى الرغم من الالتماسات الملحة على محمد على من قبل الوكلاء الإنجليز بتخفيض الأسعار فإنه يرفض زحزحتها عن مستواها السابق ، ووفقًا لما أنبأنى به السيد "سان

---

(١) هو التقرير الذى يحمل رقم (٥٠) والذى عرض فيه أبعاد مشروعه التجارى فى البحرين المتوسط والأحمر ، ورغبته فى الاتفاق مع نابليون بونابرت على تدعيم استقلاله . (المترجم)

(٢) الموسكوف: اسم اطلق على روسيا، ويرغم أنه كان سائدًا طيلة الفترة الممتدة بين القرنين الخامس عشر والسابع عشر، فإنه استمر فى بعض الأحيان فى أذهان الناس. وجاء الاسم نسبة إلى أكبر إمارة حاكمة فى موسكو (Encyclopédique, Dict. Hachette, p. 1252). (المترجم)

مارسيل" فإن الشكوك التى سبق وعرضتها عليكم فى تقريرى المرسل بتاريخ ٢٧ مارس[١] بشأن الاتفاق الضمنى مع الباب العالى فيما يخص هذه الاستخلاصات من المؤن الغذائية الموجهة لصالح أعدائنا، لا تبدو شكوكى قد بُنيت على أساس سيئ تماماً؛ وذلك لأن مصر ليست وحدها فحسب التى تمد الإنجليز بمؤنهم وإنما كذلك كل الموانئ الأخرى بالدولة العثمانية.

ويشرفنى أن أكون...إلخ .

دروفتى

(١) هو تاريخ التقرير رقم (٦٠) . (المترجم)

٦٢- سان مارسيل إلى السيد شامبانى

موجز – محمد على بالإسكندرية – المشروعات التجارية – استعداده للاعتماد على إنجلترا بسبب رُجحان كفتها فى البحر المتوسط.

الإسكندرية، فى ١٦ من شهر مايو ١٨١١

السيد المحترم،

إن محمد على باشا والى مصر هو الآن بين ظهرانينا بالإسكندرية التى وصلها منذ عشرين يوماً، ويعتزم البقاء هنا قرابة الشهر كذلك. ويُعتقد بأن مجيئه ليس له من سبب سوى الاستحمام بالبحر الذى يأخذه فى كل يوم.

وتلقى الباشا خطا شريفًا يلزمه بألاً يصدر الحبوب لأية جهة سوى إستانبول. ويطالبه الباب العالى بإرسال ٤٠٠ أو ٥٠٠ ألف أردب. وسوف نرى ما إذا كان هذا الأمر العالى سوف يوقف المشاريع التى يفكر فى مباشرتها فى تجارة الحبوب مع مالطة؛ حيث يتعين أن يرسل إلى هذه الأخيرة وكيلاً عنه يتولى فى المقابل إرسال البضائع الصالحة للاستهلاك بمصر. إن الرسوم الزائدة عن الحد التى فرضها على معظم الأصناف الداخلة فى الجمرك أو الخارجة منه والتى تدفع لحساب الجمرك، وكذا الرسوم الأخرى المفروضة على الملح التى بلغت حوالى ٣٠٪ من قيمته – كل هذه الرسوم تثبت بدرجة كافية أنه يريد تكدير التاجر القائم على هذه التجارة التى يعمل على أن يضع لها حصراً شاملاً.

وهو على الجانب الآخر شديد الصرامة فى تعامله مع حالات التهريب والتدليس بالجمرك. وقد حدث مؤخراً أن قام بحرق صناديق بها طواقى، قادمة من مالطة، وتخص قبطان قديم من إسكلافونيا،[1] وكانت هذه الشحنة مرسلة إلى قبرص، وعُلل

---

(١) انظر حاشية رقم (٢) فى التقرير رقم (٥٢). (المترجم)

حرقها بحجة أنها قد تم نقلها من على متن سفينة إنجليزية إلى زورق آخر دونما إخطار موظفي الجمارك، ولم يُبدِ القنصل الإنجليزى أية ملاحظة إلى الباشا بشأن هذه الشدة التى ربما ليس لها مثيل فى موانئ الشرق.

وإننى على اقتناع بأن الباشا يرغب فى التحالف مع الإنجليز. ولذا كان جميلاً أن ننبهه إلى أنه عند التمسك بأن يكون صديقًا لفرنسا، فإنها سوف تكون قادرة على أن توطده فى حكومته. ولكن لما كان بعيداً جدا عن القوة التى تواعده، ولا يفكر سوى فى اللحظة التالية، فإنه يعتقد بأن من الأفضل له أن يعمل على الاتفاق مع الإنجليز الذين بفضل قوتهم البحرية يمكنهم حماية تجارته، ومن ناحية أخرى، هو يفهم جيداً أن الإنجليز لن يحموه إلا فيما يخدم وجهات نظرهم الماكرة؛ ولكنه يتحسب إذا ما تعاقب الوقوع تحت نفوذ قوات الباب العالى العثمانى أو قوات الجيش الإنجليزى، فإنه سيتعين عليه أن يُفضل الاستسلام للقوات الأخيرة (الإنجليز) التى ستبقى على حياته وتحفظ له ثروته عن الخضوع للقوات العثمانية التى ستنزع منه الاثنين معًا (حياته وثروته).

مع خالص الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

٦٣- دروفتى إلى الوزير

موجز - محمد على ينشئ مكتبًا تجاريا مصريا فى مالطة لتنظيم المقايضات - الإنجليز يهنئون محمد على على انتصاره على المماليك، حلفائهم القدامى - "السمة البشعة" فى سياستهم - المماليك فى صعيد مصر - المماليك مازالوا خطرين - الاستعدادات الموجهة ضد الوهابيين .

القاهرة ، فى ٨ من شهر مايو ١٨١١

(سُجل فى ١٥ نوفمبر)

السيد المحترم،

تلقيت منذ ثلاثة أيام فقط منشور سيادتكم الصادر بتاريخ ٣٠ من نوفمبر ١٨١٠. وأعتقد أن التقارير التى نلت شرف كتابتها إليه لم تكن بطيئة إلى حد ما فى وصولها إليه؛ فآخر تقرير أرسلته إليه كان بتاريخ ١٩ إبريل الماضى. [١] ومنذ هذه الفترة لم تصلنى أخبار ذات أهمية ما عن الحوادث الأخرى، ولم أعرف الحوادث التى جرت بالإسكندرية حيث مازال يقيم بها الباشا، ولن يفوت السيد سان مارسيل أن يحيطكم علمًا بها. ومن المتعين أن يكون هذا القنصل المحترم قد وضع تحت عين سيادتكم مجموعة الوقائع التى تأتى لتؤكد ما سبق أن أوضحته حول مدى التأثير الكبير الذى يمارسه الوكلاء الإنجليز على فكر الباشا وسلوكه السياسى. وهو تأثيرهم الذى اتخذ طابعًا تجاريا مناظراً لطبيعة مستشاريهم الحاليين. ولم يكتف محمد على فحسب بممارسة تجارة الحبوب مع مالطة، وإنما سوف يقوم - أيضًا - بإنشاء مكتب وكالة[٢] داخل هذه الجزيرة، مكلفًا ببيع ما سوف يرسله إلى هناك، فيما بعد، من مؤن

---

(١) هو التقرير الذى يحمل رقم (٦١). (المترجم)

(٢) انظر تعريف هذا المصطلح التجارى فى حاشية رقم (١) بالتقرير رقم (٥١). (المترجم)

غذائية، أو العمل على تمريرها إلى إسبانيا أو البرتغال. وتتولى هذه المنشأة فى المقابل شراء الواردات من كل نوع من المنتجات الصناعية والتجارية.

إن تبنى محمد على لمثل هذه الخطة التى تضمنت ما يناقض تمامًا الأفكار الصحيحة حول أرباحه الحقيقية، إنما بدا بدون شكٍ أمرًا مُفاجئًا، بيد أن ما سوف يدهشكم، أكثر من ذلك، أن يُفهم هذا الأمر على أنه نتيجة لما قام به الباشا فى مذبحة البكوات والمماليك الذين، بتلميحات من الوكلاء الإنجليز، جاءوا واضعين أنفسهم تحت إرادته، لقد اقترف هؤلاء الوكلاء حماقة بتجاسرهم على مداهنته، وسوف يدهشكم القول بأن محمد على بهذا النجاح الذى حققه على أعدائه فى الداخل أحرز مقدمًا نصرًا صغيرًا على الجيش الفرنسى الذى يتعين مجيئه لغزو مصر. وفى الاجتماع الذى حضرته مع الباشا، قبل سفره للإسكندرية، أفلت منه، فى هذا الموضوع، عبارة أننى لم أفهم المعنى المقصود آنذاك، لكن اليوم يبدو لى أن الأمر لابد أن يكون قد فُسِّرَ بهذا المعنى نفسه. وأيا كان الأمر، فإن هذه التهكمات بدت لى دليلاً على أن الإنجليز لم يعودوا يعتبرون المماليك أداة جيدة قادرة على أن تمدهم فى دسائسهم بكل ما تطلعت إليه آمالهم الواسعة، وأنهم دائمًا ما ينمون القدرات الكامنة، وهو الأسلوب الذى اتبعوه عند إنزال حملتهم بالإسكندرية فى سنة ١٨٠٧م، لقد اعتقدوا أنهم بتضحيتهم بالمماليك حلفائهم القدامى إنما يُبرءون ساحتهم من الاتهامات التى كان مع الباشا الحق فى توجيهها إليهم؛ جراء اتصالاتهم السابقة بالمماليك، وإنهم بهذه التضحية يوطدون كذلك علاقات الود التى أقاموها معه. وهذا المثال الفظيع مُضافًا إليه عدد آخر من الأمثلة يؤكد بالفعل الطبيعة القاسية لسياستهم. ومع ذلك فإن من المشكوك فيه تمامًا زعمهم بأن انتصارات (محمد على) على أعدائه فى الداخل أثمرت وستثمر النتائج التى يعولون عليها.

إن المماليك الذين كان قد استقر بهم الحال فى صعيد مصر، والذين كان سيسرهم حصولهم على امتياز باقتطاع إقليم لهم يتعيشون منه، إذا وقع الصلح بينهم وبين الباشا، بات جميعهم مِمنْ تمكن منهم من الإفلات من المذبحة، وكذلك

مختلف قبائل البدو الذين غادروا حفلة الباشا بعد هذا الحادث المريع، أقول: إن هؤلاء المماليك قد فقدوا كل أملٍ في إصلاح ذات البَيْن. وباتوا مقتنعين تمامًا بأن الباشا لن يُخصص لهم جانبًا مما كانوا يطالبونه به، ومع أن أعدادهم أصبحت قليلة عما في السابق، فإنه سيُخشى جانبهم بصورة أكبر مما كانوا عليه: فيُقال بأن مشروعهم أن يعيشوا، من الآن فصاعداً، عيشة الحياة البدوية، وينهبون ويسلبون كل القرى التي يمكنهم مباغتتها، وإنهم سيدمرون المحاصيل، ويغتالون كل من يبرز لمعارضة احتياجاتهم.

ولسوف يجذب هذا الأسلوب من الاعتداء على الممتلكات الكثير من الموالين للمماليك، ومن بينهم العربان، مما سيتسبب في استمرار الحالة التي باتت فيها مصر مسرحًا لحرب عُصبية تعسة للغاية، وصحيح أن محمد علي يملك الكثير من القوات إلاَّ أنه ليس في حاجة لأن يدافع عن نفسه بهجوم عسكري مفاجئ، بيد أنه لن يضطر، على الأقل، لأن يوجه إلى هؤلاء المماليك والبدو أفضل جزء من قواته العسكرية؛ كيما يحبطهم عن القيام بأي هجوم، وهو ما سيصرفه عن العمليات العسكرية الكبيرة التي كان قد خطط للقيام بها. ويتم تعزيز معسكر طوسون باشا، طوال الأيام، بالمقاتلين الذين يتم تجنيدهم من مختلف الجهات بمصر. ويتعين أن يكتمل عدد هذا الجيش حتى ليصل إلى سبعة آلاف رجل.

ومع ذلك فتنظيم هذا الجيش تمخض عنه، بطريقة مباشرة، تأثيرين مناقضين للهدف المحدد لهذا الجيش. فقد تأكد أن ضخامة هذا الجيش أوحت لسليمان باشا دمشق بالمخاوف الخطيرة جدا، بشكل جعل الأخير يتوقف عن عمل الاستعدادات اللازمة لتجريدته ضد الوهابيين. وقيل إن شريف جده توجس خيفة كذلك، أن يقوم هذا الجيش بالأحرى بالعمل ضد مصالحه عن أن يتوجه إلى الأماكن المقدسة بمكة والمدينة، ومن ثم يُقال إن هذا الشريف قد يتفاهم مع الوهابيين بالشكل الذي يحفظ له

ممتلكاته[1] . والمؤكد لدينا أن طرق المواصلات قد توقفت تمامًا بين موانئ السويس والقصير ومختلف إسكالات البحر الأحمر.

وليس لدى علم بقرار هذه الحكومة ولا بالتقلبات فى عالم التجارة التى تبدو جديرة باهتمام سيادتكم.

ويشرفنى أن أكون....إلخ.

دروفتى

(١) لعل دروفتى يقصد هنا شريف مكة "الشريف غالب": إذ لم يكن ثمة شريف يحكم جده، بل كانت الأخيرة تابعة للشريف غالب نفسه. والجبرتى طوال الوقت يتحدث عن شريف مكة. وقد أشار فى يومية ١٢ رمضان سنة ١٢٢٦هـ/٣٠ سبتمبر ١٨١١م إلى مخاوف الشريف غالب وأنه أخذ ينافق الطرفين" العثمانى (يقصد محمد على) والوهابى ويداهنهما، أما الوهابى فلخوفه منه وعدم قدرته عليه، فيظهر له الموافقة والامتثال، وأنه معه على العهود التى عاهده عليها... ويميل باطنًا للعثمانيين لكونه على طريقتهم ومذاهبهم..." (راجع الجبرتى، ج٤، ص ٢١٩). (المترجم)

١٤ - سان مارسيل إلى شامبانى

موجز - بيت الكولونيل بوتان Boutin - احتفال على شرف ملك روما

الإسكندرية، فى ٤ من يونيو ١٨١١

السيد المحترم،

إن السيد بوتان Boutin الذى وصل إلى هذه المدينة (الإسكندرية) فى نهاية شهر مايو، سلمنى الخطاب الذى شرفنى أن سيادتكم قد كتبه إلىّ بتاريخ ١٦ من شهر نوفمبر. ولسوف أعطى السيد بوتان كل المعلومات التى سألتمونى عنها، فيما يختص بعلاقاتنا التجارية داخل هذه المدينة؛ وبعد إقامة السيد بوتان لعدة أيام هنا رحل إلى مدينة رشيد، حيث سيتوجه مباشرة ودون توقف إلى مدينة القاهرة.

وأبلغنى هذا الوكيل (بوتان) رسميا بالخبر السعيد بأن جلالة زوجة الإمبراطور قد وضعت، وهذا هو ميلاد ملك روما. ونظرًا لهذه المناسبة العظيمة وهذا الحدث المشهود فقد تم ترتيل نشيد الـ "تو دوم" Te Deum(١) فى كنيسة مضيفة الأراضى المقدسة الموجودة بالإسكندرية، وتجمع عندى قنصل النمسا وأبناء جاليته ليحضروا هذا الاحتفال الذى جرت مراسيمه فى صخب النبيذ.

ورحل محمد على باشا مصر، إلى القاهرة، حيث إنه عازم، بشكل واضح، على إرسال جيش صغير إلى جدة. ويشرفنى أن أرفق لسيادتكم هنا قائمة بوجهات نظره (أى وجهات نظر محمد على) التجارية والسياسية.

---

(١) Te Deum : نشيد تشريفى له صفة دينية ورسمية، يُغنى به فى الكنيسة وفقًا لطقس احتفالى مُعد لأجل تعظيم مناسبة مهمة. (انظر هذا المصطلح فى: .Dict. Hachette, Encyclopédique, p 1842). (المترجم)

وكان خطابى الصادر فى تاريخ ١٦ من إبريل (الماضى) رقم ٧٨، متضمنًا قوائم التجارة والملاحة الخاصة بالواردات والصادرات، وذلك منذ الأول من شهر يناير حتى يوم ٣١ من الشهر الماضى .

مع خالص الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

٦٥- دروفتى إلى الوزير

موجز - اعتراض مراسلة - الرد على الاستخبارات المطلوبة - هل استعدادات الباشا (العسكرية) موجهة ضد الوهابيين أم ضد سوريا؟ - سره - هجمات المماليك داخل صعيد مصر - ارتباك محمد على - إنه لا يمكنه على الإطلاق أن يجهز سوى من ٩ إلى ١٠ آلاف رجل للمنازلة - الاعتقاد بأن قواته لا يمكنها أن تقاوم الفرنسيين - إعداده لخطط الانسحاب - دفاعات القاهرة - محمد على يجدُّ فى حفظ الإسكندرية لانتظاره بها وصول المساعدات من قِبل الإنجليز - الحالة العسكرية - للإسكندرية.

القاهرة، فى ٥ من يونيو ١٨١١

(سُجِّلت فى ١٩ نوفمبر)

السيد المحترم،

لم أتلق سوى مساء أمس برقية السيد لاتور موبور Latour Maubourg المؤرخة فى الأول من شهر مايو، وهى البرقية التى بها خطاب شرفنى أن كتبتموه إلىَّ بتاريخ ٧ من ديسمبر. إن أهمية الموضوعات التى اشتمل عليها هذا الخطاب أنها سببت لى قلقًا شديداً من جراء التأخر فى وصول الخطابات، وكذا من التأخير المنتظر الذى سوف تتحققونه عند استلام هذا الجواب. ولست أقل قلقًا أن يكون خطابكم المؤرخ فى ٢٤ من شهر أكتوبر - حسبما أخبرتمونى - قد ضلَّ طريقه إلىَّ أو تم اعتراضه. ومع أننى لا يمكننى أن أجمع ، فى التو والحين ، مثلما يرغب سيادتكم، المادة اللازمة لتحرير تقرير، إلاَّ أننى أعتقد أنه من واجبى أن أدون لكم مسودة، بطريقة عاجلة تتضمن الأفكار والمعلومات الدقيقة عن الحالة السياسية والعسكرية فى هذا البلد، وما يتعلق بحال التحصينات الجارية فى هذه المدينة (القاهرة)، والتحصينات الأخرى بمدينة الإسكندرية. وفيما يخص المدينة الأخيرة فإننى سوف أطلب الاستخبارات المؤكدة من السيد سان مارسيل.

لقد وصل الباشا إلى القاهرة قادمًا من الإسكندرية، وذلك يوم ٣٠ من شهر مايو.[1] ووجه اهتماماته الأولى إلى الجيش الذى ينظمه تحت قيادة طوسون باشا، والذى قيل إنه متوجه لمحاربة الوهابيين. وكل الاستعدادات تشير إلى أن هذا الجيش لابد أن يمر بالصحراء للتوجه إلى سوريا. إن الهدف الحقيقى لهذه الحملة هو أيضًا سر هذا الباشا الذى لن يعدل عنه، فى هذه المناسبة، ويقوم نظامه على أن يؤجل أو يتصرف فى شئونه وفقًا للظروف. ودائمًا يقرر بأن هذا الجيش سوف يبلغ اكتمال عدده حين يصل إلى سبعة آلاف رجل.

إن الأخبار الواردة من سوريا والجزيرة العربية منذ اليوم الثامن من شهر مايو والتى دونتها فى تقريرى الأخير لم تتعارض مع ما تشرفت بإخباركم إياه؛ وذلك بخصوص موضوع تأثير الاستعدادات (الضخمة) للجيش التى أثارت مخاوف كل من سليمان باشا دمشق وشريف جدة.[2]

وبدأ بكوات مصر العليا فى شن هجماتهم. ويُعتقد أنه خلافًا لهؤلاء المماليك، تشكلت فرقة من سلاح الفرسان، بلغ قوامها ما بين ألف وألف ومائتى رجل. وإن كان معهم كذلك العديد من قبائل العربان الذين بإمكانهم أن يشاركوهم بألف فارس. واضطرت تحركاتهم الأخيرة الباشا إلى أن يرسل إليهم فرقة من سلاح الفرسان[3] تتولى إسعاف الفرقة المكلفة هناك بمراقبتهم. وأرسل البكوات فرقة ضخمة من جيشهم إلى الواحة الكبرى،[4] ولم يبدوا اهتمامًا سوى بما يحافظ على قوتهم، حتى لا

---

(١) سجل الجبرتى تاريخ قفوله فى أواخرشهر ربيع الثانى سنة ١٢٢٦هـ/٢٣ مايو ١٨١١م وأشار إلى أنه حضر على حين غفلة ، فبات بقصر شبرا، وبعد يومين صعد إلى القلعة. (راجع: الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٦) . (المترجم)

(٢) المقصود: شريف مكة (راجع حاشية رقم (١) فى التقرير رقم (٦٣)). (المترجم)

(٣) أشار الجبرتى إلى أن محمد على فى يوم ٧ من شوال سنة ١٢٢٦هـ/٢٥ أكتوبر١٨١١م أرسل تجريدة إلى قبلى "لمحاربة من بقى من الأمراء المصريين بناحية أبريم". (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص٢٢٠). (المترجم)

(٤) المقصود بها: واحة الخارجة، وانظر حاشية رقم (١) بالتقرير رقم (٥١) . (المترجم)

يخوضوا حربهم إلا وسط أشياعهم. وتسبَّبت حالة القنوط التى كان عليها المماليك بالإضافة إلى روح السلب والنهب المعروفة عند العربان، فى إحداث ربكة للباشا ولسوف يصعب عليه مهاجمة البكوات.

واستمرت الضرائب والإهانات تعمل عملها فى تكدير الفقراء من قاطنى الأرياف. [1] إن صبر هؤلاء على التحرر من نير الظلم الحالى قد بلغ منتهاه؛ بيد أنه لا يجب الاتكال على أنهم لن يتجاسروا على الخروج والظهور حتى وإن لم يشعروا بأنهم مضغوطين بقوة قادرة على إخضاعهم لمستبديهم. إن الانتصارات الأولى التى سوف تتحقق ضد قوات محمد على سوف تكون علامة الخطر على وقوع ثورة مسلحة وحركة اغتيالات المماليك ونهب حريمهم التى ينظر إليها الأتراك[2] على أنها حُرمات مقدسة تركت أثراً مهولاً٢٦٧. وبات الباشا الذى بدا وقد تخلص من المساوئ المعتادة عند الأتراك؛ وذلك باتخاذه طابع الكرم والحلم، بات اليوم عرضه للمقت العام.

وقوات الجيش ليست مستثناة من هذه الأوضاع السيئة المشحونة ضده. صحيح أن هذه القوات تخشاه كثيراً إلاَّ أنها لم تعد تطرح فيه الثقة التى كانت فى السابق.

ومن المستحيل اليوم، بل وعلى نحو دائم، أن نعرف بالضبط القوة العددية للجيش التركى ، ومع ذلك فالأرقام الأكثر احتمالاً تشير إلى أن قوات محمد على تبلغ ١٥ ألف رجلاً، منها ٩ آلاف من المشاة، و٤ آلاف من الفرسان، و ٥٠٠ رجل بسلاح المدفعية وفرقة صغيرة مخصصة للخدمة على ١٠ إلى ١٢ زورقًا مسلحًا بالمدفعية، وهى الفرقة التى تشكل سلاح البحرية عنده. ومن بين الخمسة عشر ألف جندى، يوجد ثلاثة آلاف فى صعيد مصر، وإن كان يصعب الاعتماد عليهم فى حال تعرض البلاد لهجوم

---

(١) قدم الجبرتى تفاصيل كاشفة للصورة المؤسفة التى كان عليها الفلاحون الذين اعتصرتهم الضرائب والرسوم حتى تكالبوا على القاهرة أفواجًا وهم "غاية فى الزحام والعياط والشياط" – على حد قوله (انظر الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٢٤، ٢٣٠) . (المترجم)

(٢) المقصود: المسلمين ، راجع حاشية رقم (٢) بالتقرير رقم (٦١). (المترجم)

خارجى. والباشا مضطر لأن يتركهم هناك؛ كيما يراقب بهم المماليك والعربان؛ وسوف يكون من المستحيل عليه ، من ناحية أخرى ، أن يدفع بهم من هناك فى الوقت الذى يريده، إذ لابد لهذه العملية أن يصحبها وقوع حوادث فاصلة. ويمكن القول بأنه من بين الاثنى عشر ألفًا، وبدون أن نخطئ فى التقدير، ثمة ١٥٠٠ إلى ١٨٠٠ جندى، يبحثون عن ملاذ للهرب أو مكان يختبئون فيه، ليحافظوا على النقود التى وفروا منها الكثير، بحيث إن محمد على، على هذا الوضع، لا يمكنه على الإطلاق أن يقاوم سوى بجيش قوامه تسعة آلاف إلى عشرة آلاف رجل، أولئك الذين فى إمكانه إنزالهم على السواحل. ومع ذلك يتعين أن نلاحظ هنا أن هذا الرقم سوف يرتفع، مع توالى الأيام؛ جراء توافد المتطوعين الجدد الذين يجرى إرسالهم إليه من قبل العديد من مبعوثيه الذين أرسلهم للقيام بهذه المهمة فى أقاليم تركيا الأوروبية؛ فهدف ومشروع هذا الرجل أن يصل بجيشه إلى ٢٠ ألف رجل أو أكثر من ذلك بحسب ما تسمح به الظروف. وعلى الرغم من وجود هذه القوات تحت أوامره، وهى التى يأمل من خلالها التصدى بثبات لكل الجيوش الأجنبية، فإن ثمة اعتقاد ثابت بين قوات جيشه، مفاده : أن هذا الجيش لا يمكنه أن يقاوم الفرنسيين. والباشا نفسه مقتنع بهذا تمامًا، وهو لذلك أيضًا يُبدى كل عنايته واهتمامه بسلاح الفرسان الذى يقيم عليه كل آماله وتطلعاته، فى حال الانسحاب الذى يمكن أن يفعله ، عبر توجهه إلى أحد الساحلين ، سواء إلى العريش ومنها إلى سوريا أو الاتجاه إلى السويس (حيث أسطوله القائم هناك على أهبة الاستعداد فى جميع الأحوال) ليتوجه من هناك إلى الجزيرة العربية.

ويندرج أيضًا ضمن خطة الانسحاب اهتمامه بالطريق الواصل بين القلعة الموجودة فى هذه المدينة وبين المقطم. وهذا الطريق ليس له أى أهمية فى اللجوء إليه سوى لأنه مزود بأنماط مختلفة من الحصون، والطريق فى مجمله ببساطة عبارة عن رحبة واسعة للدفاع، تبدأ من سفح الجبل حتى مسافة مهمة من الباب الذى تأتى منه الإمدادات، وعبر منحدر طفيف يصل منه إلى قمته، ومن هناك يمكنه أن يتابع سيره فى الصحراء وبالنسبة للقلعة والتحصينات الأخرى المحيطة بالقاهرة، فإنها فى حالة

جيدة نوعًا ما، وذلك مقارنة بالتحصينات التى تركها جيش الشرق هناك. ومع ذلك إذا فكر الباشا فى اللجوء إليها، فإن الجيش من المحتمل أن يقوم ببعض الدفاع. وهو يمده بذخيرة الحرب، وبشكل أفضل مما كان عليه تحت قيادة أسلافه السابقين وهو فى إمكانه، فيما يتعلق بالميرة الغذائية، أن يجمع كميات مهمة منها فى بضعة أيام قليلة. ومعظم الحصون الصغيرة القائمة فى مواقع تحيط بالقاهرة فى حالة سيئة؛ ولا يوجد منها سوى الحصون الواقعة على الطريق بين القاهرة وبولاق، وهى حصون خاضعة للحراسة ومزودة بالمدفعية. وتلك الحصون، كما هو معروف واقعة تحت حماية خندق طويل، هو الخندق[1] الذى أقيم فى زمن الاجتياح الأخير للإنجليز (١٨٠٧م)؛ ويتوقع أن يتخذ محمد على، إذا تطلبت الظروف ذلك، نفس الاحتياطات السابقة؛ بيد أن القوات التركية بإمكانها أن تحرس بصعوبة مثل هذه المساحة الطويلة من الأرض، ولو أنها لا تحبذ حالة فيضان النيل المرتفع الذى يتسبب فى ملء حفر الخنادق بالمياه. وفى هذه الحال، فإن هجومًا مفاجئًا يصبح متعذرًا تنفيذه ما لم يتم الالتفاف حول هذه المواقع، وهذا ما يمثل أكثر الصعوبات فى هذا الهجوم. ولكنى لا أعتقد أن الباشا يصل إلى هذه النقطة من النهاية، فسوف يُثابر بجدية فى المقاومة خارج القلعة. وخطة حملته تبدو لى على هذا النحو: فهو سيبذل قصارى جهده فى الحفاظ على الإسكندرية حتى يتمكن من تلقى الإمدادات التى وعده بها الإنجليز فى مثل هذه الظروف.

وإذا فقد هذا المكان (الإسكندرية)، وصارت المعركة أمرًا محسومًا له، فإنه سينسحب إلى القاهرة، مخربًا كل البلاد التى سيمر بها. وعند وصوله للقاهرة سيبحث عن الوسائل التى يُخضع بها هذه المدينة، مستخدمًا حديد ونار مدفعية القلعة. وسوف

(١) أشار الجبرتى فى يومياته إلى هذا الخندق الذى أقيم ببولاق وأن تكاليف حفر الخندق وُزِّعت على "مياسير الناس وأهل الوكائل والخانات والتجار وأرباب الحرف والروزنامجى" وأشار الجبرتى إلى أن "دروفتى" نفسه كان فى صحبة السيد عمر مكرم والقاضى والأعيان إبان وضع الترتيب الهندسى لعمل الخندق. (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص ص ٨٠، ٨٢، يومية ٢٩محرم١٢٢٢هـ/١٨ أبريل ١٨٠٧م) . (المترجم)

يوزع سلاح فرسانه فى ضواحى القاهرة وعلى ضفاف النهر، ومتى رأى وتحقق ذلك اتجه إلى عصبته الأخيرة أو أنه سيطلب الاستسلام أو البحث عن نجاته بالهروب فى اتجاه السويس؛ حاملاً معه كنوزه، ومصطحبًا معه أهل بيته وحلفاءه المؤتمنين، ولأجل هذا فإنه يحتفظ بكمية كافية من الجمال.

ولم يضف الأتراك، خلال السنوات الأخيرة من إقامتهم بالإسكندرية، شيئًا إلى تحصينات هذه المدينة. إذ كل ما فعلوه لا يعدو أن يكون ترميمًا لتلك التحصينات التى كان قد خلفها جيش الشرق عند مغادرته للمدينة. وسوف يكتب بالفعل السيد سان مارسيل تقريره عن المشروعات الجديدة التى أحدثها الباشا. وقد تأكد لى أن تلك الأعمال لم تثمر أى نتائج؛ فهى لا تعدو ترميمًا للحوائط القديمة فى سور العرب. وهذه الأعمال حتى وإن كانت درجة الإتقان فيها عالية فإنها لا تستطيع أن تقدم سوى مقاومة ضعيفة لهجوم مدعم بسلاح المدفعية. ويتعين كذلك للدفاع عنها وضع حامية كبيرة، بيد أنه يصعب على محمد على جمعها هناك بالإسكندرية. إننى أعتقد أنه من المستحيل تمكنه ، وبشكل مطلق ، من تزويد المدينة بالكميات الضرورية من المدافع المطلوب وضعها فى خدمة المواقع الأكثر أهمية. وتحصينات دمياط، هى بشكل قطعى، على نفس الحال التى أقامها الفرنسيون هناك على نهر النيل عبر مسافة قريبة من بوغازها.

ويشرفنى أن أكون ... إلخ.

إمضاء: **دروفتى**

٦٦- دروفتي إلى الوزير

موجز - تتمة للمعلومات السابقة - الحالة الذهنية للعربان البدو - علاقات محمد على مع قبائلهم.

القاهرة، فى ٢٠ من شهر يونيو ١٨١١

(سُجِّلت فى ١٨ من شهر نوفمبر)

السيد المحترم،

اقترحت فى تقريرى السابق الذى تشرفت بكتابته إليكم، فى الخامس من هذا الشهر، بأن أطلب من السيد سان مارسيل الاستعلام عن الحالة العسكرية للإسكندرية. وستجدون هذه المعلومات طى المذكرة المرفقة. وأعلمت هذا زميلى المحترم بأنه لا يتوفر لديه قوائم الأرقام Tables de Chiffres الخاصة بالتراسل مع سيادتكم. وأعتقدت أنه من واجبى أن أرسل إليه واحدة من القوائم الثلاث الموجودة فى حوزة القنصلية العامة.

ومنذ كتبت إليكم لم يصلنى أى معلومات أخرى تناقض ما تضمنه تقريرى المذكور من استخبارات؛ غير أنه يتعين علىَّ أن أضيف إلى تقريرى السابق بعض الملاحظات الخاصة بالعرب البدو التابعين لحزب الباشا. إن محمد على، بعد حملته الأخيرة ضد البكوات، أنزل الهزيمة بهؤلاء العرب[1] ممن كانوا مساعدين للمماليك، ثم جنح إلى الدخول معهم فى علاقة تلزمهم ببعض روابط التبعية. وبداية عمل على استقرارهم

(١) يُحدد الجبرتى قبائل أولاد على بالبحيرة الذين تعرض لهم محمد على فى أعقاب مذبحة القلعة، وذلك بالتحديد خلال شهر ربيع الأول ١٢٢٩هـ/إبريل ١٨١١م، ويشير الجبرتى إلى أنه بعد أن أمَّنهم تحيل عليهم وأرسل عساكره تنهب تجوعهم وتسبى نساءهم وأولادهم ومواشيهم. (راجع التفاصيل فى الجبرتى : المصدر السابق ، ج٤، ص٢١٥). (المترجم)

بمنحهم قرى، ثم عيّن عليهم واحداً من ضباطه كحاكم وحيد يفصل فيما ينشب بينهم من خلافات، وكلفه بمعالجة شئونهم المتداخلة مع الحكومة. وأمل محمد على أن يمدهم يومًا بحاكم يرأسهم. ويدأ العرب البدو فى الخضوع لهذه العادات، بيد أن مذبحة المماليك التى حركت فيهم روح الحرية والريبة اللتين تميزان طباعهم، أدت إلى طرد قبيلتين تابعتين لحزب البكوات، وإحلال آخرين محلهما على حدود الصحراء حيث يقطن العرب على جارى عادتهم، ومن هنا بدأ يظهر السلوك المراوغ والجدير بإثارة الشكوك فى مدى صدق علاقتهم بالباشا . على أن الأخير (محمد على) لم يبد متأثراً بذلك: ففى كل المرات التى حدثنى فيها كان يُظهر لى أنه لا يخشاهم، بل إنه لينظر إليهم كما لو كانوا قوات إضافية، يمكنه أن يعدها، عند الحاجة إليهم، من خلال عقد اتفاق معهم يجعلهم بمثابة جنود بين قواته الأخرى، وأنه لن يعتمد عليهم، مع ذلك، فى حال تعرض البلاد لهجوم خارجى. ولمّا عدّد لى منذ ثمانية أيام مختلف القوات التى تشكل جيشه، فإنه لم يذكرهم بأقل إشارة. وهو يعرف جيداً أنهم لن يتنازلوا عن المبدأ الأساسى فى نهجهم التكتيكى الذى يعلنونه دائمًا للمنتصر الغالب. ومحمد على منشغل بصورة مستمرة بالإعداد لحملته على الوهابيين، وإن كانت استعداداته تمضى ببطء شديد، وسيكون من الصعب جدا إن لم نقل من المستحيل، أن تكون القوات فى طريقها إلى التحرك فى نهاية يوليو القادم مثلما أعلن للباب العالى.

وليس ثمة شىء مهم يحدث فى صعيد مصر، وسوف يضطر فيضان النيل القادم البكوات المماليك إلى الانسحاب إلى الواحات. ويأمل الباشا الإفادة من هذا الظرف فى جذب العرب البدو إليه حاصراً حركة الهجرة بين الترك الألبان والقوات المساعدة الأخرى الموجودة معهم.

ويشرفنى أن أكون...إلخ.

إمضاء: **دروفتى**

٦٧- سان مارسيل إلى الوزير

موجز – الحالة السياسية والعسكرية فى مدينة الإسكندرية – تقارير الباشا مع الإنجليز – قلعة أبى قير – وصول الكولونيل ميست Misset المندوب الإنجليزى الجديد – مؤسسة تجارية مصرية بمالطة.

الإسكندرية، فى ٣ من شهر يوليو ١٨١١

(سُجِّلت فى ١٨ من شهر نوفمبر)

السيد المحترم،

أرسل إلىَّ السيد دروفتي الشفرة الرقمية، وهى نفس الشفرة التى يستخدمها فى نظام المراسلات مع سيادتكم، ومنذ اليوم سوف أستخدم هذه الشفرة فى إمدادكم بما طلبه منى هذا القنصل من معلومات عن الحالة السياسية والعسكرية بالإسكندرية.

وتقع الإسكندرية على ساحل البحر، ويتم الدفاع عنها من خلال قلعتين، الأولى تسمى قلعة الفنار[1] Château du Phare والقلعة الأخرى تسمى حصن المنارة[2] Le Pharillon القلعة الأولى (الفنار) مع كونها فى حالة سيئة، إلاَّ إننا نجدها مزودة ببعض بطاريات المدافع، أما "قلعة المنار" فقد صارت مهجورة تقريبًا، وأصابها الخراب. وفى الداخل نجد الإسكندرية محاطة بسور قديم، مدعم بالعديد من الأبراج. وآل هذا السور إلى الخراب حيث هُدِم، وشُيدت على أنقاضه متاريس مُحصَّنة، وفُتِحت

(١) قلعة الفنار: كانت تقع فى نهاية شبه جزيرة فاروس حيث كان يوجد فنار الإسكندرية القديم الذى بناه بطلميوس الثانى (٢٨٠ – ٢٧٩ ق.م) وتتكون القلعة من ثلاثة طوابق، ويتم الاتصال بالقلعة عن طريق جسر ضيق يحميه طريق به متاريس وطوله ٥٥٠ مترًا. (المترجم)

(٢) حصن المنارة: حصن صغير يتخذ اسمه من موقعه تجاه "حصن الفنار"، وكان مقامًا على حافة شريط من الشعب الصخرية التى تغلق مدخل الميناء الشرقى (الجديد)، وثمة جسر يؤدى إلى هذا الحصن كان فى مستوى مياه البحر، وبالحصن برج مربع الشكل ، تخرب زمن الحملة الفرنسية، وهو البرج الذى كان يسمى "برج السلسلة". (المترجم)

به بعض كوّات لإطلاق المدافع، كما عملوا سبيلاً بداخل سمك الحائط، وهذه المتاريس عريضة نوعًا ما، ومن ناحية أخرى نجد بعض الارتفاعات تحيط بها فى الخارج. ويعمل على هذا السور ٤٠٠ عامل كانوا قد بدأوا العمل منذ مايو من العام الماضى، ولم يبق من الإصلاح سوى ربع العمل، بدءًا - كما يقال- من ناحية الشمال الشرقى حتى أسفل قلعة "كوم الدكة"[١] Fort Grétin ويقتضى الحال لإتمام إصلاح السور عامين تاليين. ومن ناحية الشمال الشرقى عُمِلَ فى السور بعض التحصينات بها فتحات لتنصيب ثلاثة مدافع؛ ومن جهة الشمال الغربى من هذا السور وحتى جنوب [باب] رشيد توجد استحكامات عريضة وسميكة. وعلى الجانب الجنوبى الشرقى، حيث العمل جارى إلى اليوم، يجرى عمل حوائط بسيطة مزودة بفتحات لإطلاق البنادق، لكن هذه الحوائط بدون استحكامات. وشُيِّد على بقية الحوائط تقريباً استحكامات من نفس نوعية نظيرتها التى عملها الفرنسيون بالقرب من الميدان الكبير بالإسكندرية، فى زمن الجنرال مينو، وحين يضرب الإنجليز حصاراً على هذا الميدان فإن الاستحكامات لن تقوى على التصدى لجيش أوروبى يستخدم سلاح المدفعية ، القادر على تقويض الحوائط الضعيفة تقريبًا، التى تشرف تلالها الخارجية على أماكن عديدة. ومن جانب باب رشيد كان الفرنسيون قد أزالوا بعض المتاريس التى كان جميعها متهدمًا، بيد أن خطوط دفاع الفرنسيين لاتزال صالحة للاستخدام، وهى عبارة عن خنادق عميقة، ممتدة من باب رشيد إلى الترعة الواقعة على الجهة الشرقية. ويوجد بداخل سور الإسكندرية ثلاث قلاع، الأولى (المسماة بقلعة كفاريللى)[٢] Fort Gafarelli والثانية (التى يُطلق عليها كريتان) شيدهما الفرنسيون وهما القلعتان اللتان لم يلحقهما سوى

---

(١) قلعة كوم الدكة: تقع فى أقصى شرق المدينة قريبًا من باب رشيد داخل أسوار المدينة الغربية، والفرنسيون هم الذين أطلقوا عليه حصن كريتان Grétin وهو اسم الكولونيل المهندس الفرنسى الذى قُتل فى موقعة أبى قير البرية فى يوليو ١٧٩٩م، وقاموا بتحصينه تحصينًا جيداً. (المترجم)

(٢) قلعة كفاريللى: هى القلعة التى كان يطلق عليها قلعة "كوم الناضورة"، وهى عبارة عن برج صغير كان يستخدم كنطقة استرشاد للمسافرين عند الاقتراب من هذا الميناء. (المترجم)

بعض الإتلافات البسيطة؛ أما القلعة الثالثة هى القلعة المثلثة[1] الواقعة فى الجنوب الشرقى. وخارج هذه المنطقة، وبالقرب من نيكروبوليس Necropolis مازال يوجد هناك قلعة صغيرة أخرى التى جرى تشييدها كذلك فى زمن الفرنسيين.

ويعتزم الباشا أن يُشيد بالقرب من القصر الذى سوف يبنيه هناك فى المكان الذى يُطلق عليه "رأس التين"، قلعة، بيد أنها لن يكون لها أهمية كبيرة، ثم إن قلعة كافاريللى محمية بشكل جيد ؛ بسبب موقعها عند مدخل الميناء القديم، وخارج هذا المكان من جهة الجنوب الغربى بامتداد هذا السور توجد قلاع تستخدم فى الدفاع عن الإسكندرية، وتتطلب التزود بكميات ضخمة من المدفعية، ويلزمها على الأقل من ٥ إلى ٦ آلاف رجل. وهذه المنطقة لا يحرسها اليوم سوى بعض المدفعجية سيئى التدريب، وحامية من حوالى ٥٠٠ إلى ٦٠٠ رجل.

ويحافظ الباشا على أن تكون صلاته مع الإنجليز فى نطاق ضيق جدا، سواء من خلال عائدات تجارته معهم فى القمح الذى يدرٌ عليه بالأرباح الهائلة أو بسبب تطلعه إلى الحصول على مساعداتهم فى تدعيم طموحه فى الاستقلال أو أن يكون أقل خضوعاً لأوامر الباب العالى الذى دائماً ما يتشكك فى مكره السياسى، أو فى النهاية بسبب تخوفه من دولة أخرى، ولكل ذلك يعتزم أن يصل بعدد قواته إلى ٤٠ ألف رجل، وهو العدد الذى يعتقد بأنه يمثل قوة لا يمكن قهرها.

وتعانى كذلك قلعة أبى قير من الخراب، كما فى الماضى؛ حيث لم يجر بها أى إصلاح، وليس ثمة حامية بها سوى بعض رجال المدفعية غير الأكفاء. والأرض التى كانت مياه البحر قد غمرتها، إثر قطع الإنجليز للسد، قد بدأت تجف، وذلك منذ ثلاث سنوات؛ حيث شُيِّد هناك سد جديد، ولو أنه بُنِىَ بشكل سيئ للغاية، إلا أنه يعمل على

(١) القلعة المثلثة: هى قلعة الركن الشهيرة. (المترجم)

تصريف مياه البحر. ويوجد كذلك عند مدخل الميناء القديم للإسكندرية، باتجاه رأس التين، بطارية لعدد من المدافع المقامة هناك على ربوة تشرف على مدخل هذا الميناء.

وكان الكولونيل "ميست"، المندوب الإنجليزى القديم فى مصر، إبان انسحاب الجيش الإنجليزى فى سنة ١٨٠٧م، قد عاد إلى صقلية، ورجع إلى وظيفته. وهذا الرجل المهم، رجل كسيح القدمين واليدين، لا يمكنه التحرك إلاَّ بواسطة كرس متحرك، وهو الضابط الذى أرسلته الحكومة الإنجليزية للقيام بهذه المهمة، معطية إياه مرتبًا سنويا قدره ٨٠,٠٠٠ قرش، وهذا بخلاف مرتبه كـ "كولونيل". وقد عُمِلَ له استقبال عظيم عند دخوله: فحوالى ٢٠٠ رجل من قوات الألبان كانت تحرس عربته المحاطة بالفرسان، وكما يقال إن الإنجليز يقيمون هنا (بالإسكندرية) قائدًا وضباطًا من السفينة كورفت الإنجليزية الراسية داخل هذا الميناء. ويتقدم عربته اثنان من الخيالة، وتم استقباله فى وسط صخب دوى مدافع المدينة ومدافع السفن الإنجليزية، وكانت جنيهاته تفعل تأثيرها فى ظل هذا الموكب الكبير.

ولقد علمت، سيادتكم، أن مؤسسة باشا مصر التى تأسست فى مالطة تحت اسم "كون" Keun قد قامت بالفعل بإرسال ثلاث شحنات من الحبوب إلى مالطة. ووكيل الأعمال د"كوان" تلقى الحبوب من مصر وسوف يرسل فى مقابلها إلى الباشا سلعًا عينية مناسبة للاستهلاك فى مصر. ولاتزال تجارة الحبوب مع الإنجليز مستمرة هنا، ويكثر مجىء السفن النمساوية والبندقية والإسكلافونية[١] التى ترفع على متنها علمًا إنجليزيًا، وهذه السفن تشحن الحبوب إلى مالطة وإسبانيا أو البرتغال. ولقد باع الباشا للإنجليز الحبوب بسعر ١٠٠ قرش الـ "٢١ صاع فرنسى".[٢]

مع خالص الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

---

(١) راجع تعريف إسكلافون فى حاشية (٢) بالتقرير رقم (٥٢). (المترجم)

(٢) راجع تعريف الصاع الفرنسى فى حاشية رقم (٣) بالتقرير رقم (٥٢). (المترجم)

٦٨- سان مارسيل إلى الوزير (دون دوباسانو)

موجز - عودة مُقْعَمة بالنصر للكولونيل ميست - تحصينات الإسكندرية - على باشا يانينا يرسل الصناع الألبانيين - تعزيزات من الجنود القادمين من مختلف جهات الشرق - الاتفاقات السرية لمحمد على مع الإنجليز بخصوص تجارة الحبوب - رحيل القوات إلى السويس.

الإسكندرية، فى ١٤ من شهر يوليو ١٨١١

(سُجِّلت فى ١٨ من شهر نوفمبر)

السيد المحترم ،

إن الكولونيل ميست المكلف سابقًا بالشئون البريطانية فى مصر، والذى كان قد رحل فى شهر سبتمبر من سنة ١٨٠٧م مع الجيش الإنجليزى، قد عاد إلى وظيفته، على أنه قعيد (مشلول الذراعين والساقين) لا يمكنه التنقل سوى بكرس متحرك. وهذا الكرسى لا يعوق تحركاته، وذلك بفضل عربته التى تساعده، وعُمل له استقبال حافل عظيم؛ حيث مضى فى حراسته خمسمائة من الجنود الألبان حتى أوصلوه إلى فندقه، على أنه بعد ذلك طلب قادة هؤلاء الجنود وأعطاهم مكافأة نقدية تبلغ ألفى قرش (من القروش الكبار) دُفعت لهم بالفعل.

وإن بناء الحوائط الجديدة المشكلة لسور مدينة الإسكندرية، التى يجرى تأسيسها فى المواضع القديمة الموجودة من قبل، إنما لايزال العمل فيها مستمرا بحماس ونشاط. وأرسل باشا يانينا إلى الإسكندرية ٣٠٠ حرفى، عززوا عدد البنائين الموجودين فى مصر، وهو الأمر الذى عجل بإنجاز عمل هذا البناء. وفضلاً عن ذلك بُنِيَت هذه الحوائط بحسب طريقة أولئك البنائين الموجودين بالإسكندرية، وذلك على يد الفرنسيين، زمن قيادة الجنرال مينو. وكانت هذه الحوائط يجرى تحصينها من وقت

لآخر، لكن العمل ليس متيناً، ومن ناحية أخرى، إن مثل هذا السور ضخم، ومن ثم سوف يكون من الصعوبة تزويده بالمدفعية اللازمة، وبالقوات الكبيرة التى يتطلبها الأمر هناك. وأظن أنه، نحو نهاية هذا العام، ومع استمرار بناء هذه الحوائط، سوف يصل السور إلى الميناء فى المنطقة التى يُقال لها "بومبيه" Pompée .

إن بناء تلك الحوائط وبصورة مستقلة، جعلها تقريبًا على نفس الحال التى تركها عليها الفرنسيون، وخمسمائة رجل فقط هم الذين يشكلون اليوم حاميتها الوحيدة.

ويخطط باشا مصر فى أن يزيد عدد قواته العسكرية بحيث يتراوح بين ٣٠ ألف و ٤٠ ألف رجل. وبالفعل وصلت إلى هنا سفن من مختلف الجهات ببلاد الشرق، محملة بالقوات. ولما أعطى الباشا فجأة أمره بخصوص جلب القوات العسكرية، قيل إن فرمانًا من الباب العالى صدر إليه، ولم يسمح بدخول تلك القوات، وتم إعادتها، بيد أن القوات التى نزلت بالميناء بالفعل ضمها لقواته التى زادت بها ألفى أو ثلاثة آلاف رجل.

ولم تزل الحملة المحدد إرسالها إلى جدة لمقاتلة الوهابيين، بدون تحرك، ويفترض بأنها لم تتوقف سوى بسبب نقص الجمال اللازمة لهذه الحملة.

وقام المماليك ببعض التحركات داخل ضواحى الفيوم؛ إلا أنهم مع ذلك لا يمكنهم التجاسر على الظهور بالنهب والسلب؛ إذ ليس لديهم وسائل يقاومون بها فى حرب معلنة ومكشوفة.

وتعد أرباح تجارة حبوب باشا مصر مع مالطة هى السبب الرئيس لعلاقات هذا الباشا مع الإنجليز. وأميل إلى الاعتقاد أيضًا بأن استمرارية هذه التجارة التى تخالف أوامر الباب العالى نفسها، إنما هى نتيجة لالتزام قطعه الباشا على نفسه نحو الإنجليز، التزام تضمنته معاهدة سرية، تم عملها عند رحيلهم من مصر فى سنة ١٨٠٧ .

ولم تصل إليَّ البرقيتان الصادرتان بتاريخ ٢٣ من نوفمبر ١٨١٠ و ١١ من فبراير ١٨١١ اللتان أخبرتمونى عنهما فى خطابكم الصادر بتاريخ ٢٧ إبريل ١٨١١.

مع خالص الاحترام....إلخ.

سان مارسيل

فى ٨ من شهر أغسطس

إن تجريدة القوات الموجهة إلى جدة بالجزيرة العربية أحدثت فى النهاية أثرها، وتوجهت الحملة من القاهرة إلى السويس، وتوجه كذلك الباشا بنفسه مع ابنه طوسون، الشاب ابن الثمانى عشرة سنة الذى يقود هذه التجربة.

ولدينا الآن فى هذا المرسى ٤٦ سفينة إنجليزية قادمة من مالطة؛ كيما يجرى شحنها بالحبوب. بيد أن هذا التصدير يتوقف على مقدار زيادة مياه النيل التى تُنْبئ بخصوبة ووفرة فى العام التالى.

سان مارسيل

٦٩- تقرير حول الفترة من ٢٠ يونيو إلى ٢٠ يوليو

موجز – عودة مُفْعَمة بالحماس والنصر للكولونيل ميست – استعدادات الحملة ضد الوهابيين – مؤسسة للتجارة مع اليمن.

إن الماجور السابق ميست الذى أصبح اليوم كولونيل قد عاد إلى وظائفه القديمة كمندوب عن بلاده فى مصر. وكان الاحتفاء بنزوله للإسكندرية نوعًا من الابتهاج أشبه بعيد نصر. فقد أحدث مجيئه تحركًا كبيراً لإيجاد مقر سكن له. ويقال إنه عاد وفى صحبته مجموعة كبيرة (من الموظفين) وإنه مزود بموارد مادية كبيرة تؤكد تعاظم التمثيل (الإنجليزى).

وقام محمد على، من ١٠ إلى ١٨ من هذا الشهر، بجولة داخل أقاليم القليوبية والشرقية، ليجمع الجمال المخصصة لنقل المشاة ومعدات الجيش. وهو يصر على أن يتم رحيل الفيلق الأول فى نهاية هذا الشهر. ويقال بأن الجيش سوف يتجه إلى السويس؛ حيث السفن على أهبة الاستعداد لتقله إلى ينبع، وسلاح الفرسان سوف يتخذ الطريق البرى حين تعتدل حرارة الجو وبفعل برودة الرياح والليالى الطويلة جدا لن تواجه هذه الفرق بعراقيل كبيرة فى مسار زحفها بالصحراء.

وعلق الباشا موافقته على منح تراخيص تصدير المؤن الغذائية حتى يمكنه التأكد من أن فيضان هذا العام لن يتسبب فى إثارة القلاقل بشأن محصول سنة ١٨١٢.[1]

(١) المعروف أن فيضان عام ١٨١١م جاء فى بدايته قويًا وموافيًا، بيد أنه بعد فترة هبط منسوبه بدرجة أثارت القلق عند الفلاحين والسلطة ، حتى إن الجبرتى وضع هذا الحدث فى مقدمة الحوادث المهمة المميزة للعام المنصرم الذى دون أحداثه (وهو عام ١٨١١). (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص ص ٢١٧، ٢٢٣). (المترجم)

وكُتِبَ إلينا من عكا أنه ظهر على سواحل سوريا فرقاطات طرادات تركية ومعها أمر بمصادرة كل السفن المشحونة بالمنتجات الغذائية، وإرسالها إلى إستانبول.[١] ولو كان الباب العالى يريد حقيقة منع تصدير الحبوب لمالطة أو لموانئ إسبانيا والبرتغال لكان عليه أن يتخذ هذا الإجراء منذ عام مضى، وأن يعمل على تنفيذ أوامره عند اللزوم. وفيما يتعلق بما تم استخلاصه وتصديره من مصر من الحبوب، لا يوجد شك فى أن الباب العالى قد تساهل فيها دون أن نقول إنه رخَّص بتصديرها.

ولقد استعيدت المواصلات بين جدة والسويس؛ وذلك بوصول ثلاث سفن محملة بالبن إلى هذا الميناء الأخير. وكان الارتفاع الباهظ فى سعر حب البن سببًا مُغريًا لمجيء هذه السفن إلى السويس؛ حيث بيعت حتى لقد بلغ سعر الكيلوجرام منها عشرة قروش تركية.[٢]

وكيل القنصل[٣] القائم بأعمال القنصلية العامة .

دروفتى

(١) الملاحظ أن فرمانات حظر بيع القمح ومصادرة السفن الأجنبية المخالفة واعتبارها غنيمة وإرسالها لإستانبول قد تم تعميمه على سوريا ومصر، وثمة فرمانين أُرسلا إلى محمد على فى هذا الخصوص، ونُشِرَا ضمن مجموعة الفرمانات المنشورة والمترجمة إلى الفرنسية، تحت رقمى (١٤٧)، (١٥١) (راجع:
Recueil de Firmans impériaux Ottomans adressé au Valis et aux Khédives d'Egypte 1006 - 1322 H. (1597 - 1904), [IFAO], Le Cairoe 1934, pp. 45, 47.)
(المترجم)

(٢) يبين الجبرتى أزمة البن وارتفاع سعره كنتيجة لانقطاع واردات "الديار الحجازية"، مشيراً إلى أن رطل البن بلغ ٢٧٠ نصف فضه، وأنه قلَّ بالأسواق والدكاكين حتى "صنع الناس القهوة من أنواع الحبوب المحمصة كالشعير والقمح والفول وبذر العاقول وغيره، مخلوطا مع البن وبغير خلط". (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ٢١٧، يومية ١جمادى الأولى ١٢٢٦هـ/٢٤ مايو ١٨١١م) . (المترجم)

(٣) هذه هى أول إشارة يوضح فيها دروفتى صفته كمساعد للقنصل أو كقائم بأعمال القنصلية الفرنسية بالقاهرة، بصفته وكيل قنصل Le Vice Consul؛ حيث لم ترسل باريس قنصلاً عامًا فى ذلك الحين معتمدة على كفاءة دروفتى. (المترجم)

٧٠- سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز – رسالة بقوائم الملاحة والتجارة – محمد على التاجر الوحيد فى مصر – تجارة البن – أقمشة الجوخ الفرنسية.

الإسكندرية، فى ٢٤ يوليو ١٨١١

(سُجِّلَتْ فى ١٤ نوفمبر)

السيد المحترم،

يشرفنى أن أرسل إلى سيادتكم التقرير الخاص بالفصل السنوى الثانى(١) لقوائم الملاحة والتجارة للوارد والصادر. وسوف تلاحظون سيادتكم أن تصدير الحبوب لمالطة آخذ فى الزيادة؛ فالباشا يجد فى هذه التجارة أرباحًا هائلة للغاية، ولم يستطع أن يلتزم بتنفيذ أوامر الباب العالى التى كُرِّرَت عليه مرارًا. فهو بعيد جدا عن أن يعطى لهم بعض إمارات الخضوع والامتثال؛ فقد أقام مؤسسة للتجارة فى مالطة التى سوف يرسل إليها الحبوب، سواء لبيعها فى هذه الجزيرة أو لتصريفها من هناك إلى جهة صقلية أو إسبانيا والبرتغال. وفى المقابل سوف يتلقى عوضًا عنها الواردات من البضائع التى تحتاجها دائرة الاستهلاك فى مصر؛ وفى كلمة واحدة سيصبح محمد على التاجر الوحيد بمصر، وهو ما يسمح له باستبعاد كل المضاربات والمنافسات.

وأدى شحة بن مُخا إلى ورود البن الأمريكى إلى مصر، وذلك من خلال فرض رسم جمركى فادح يصل إلى ١١٪، وجنى الإنجليز من وراء ذلك أرباحًا معتبرة، بيد

---

(١) ثمة تقارير كانت ترسل بشكل دورى عبر الأسابيع والشهور ؛ وذلك بحسب ما كان يطرأ من حوادث مهمة تستدعى الكتابة وإعلام الخارجية الفرنسية ، وإلى جانب ذلك كان هناك "تقارير عامة" تُرسل كل ثلاثة شهور، تُجمل ما كُتِبَ فى هذه المدة، برؤية أوسع وتحليل أكثر عمقًا، وذلك لتفادى التحليلات الجزئية البسيطة. (المترجم)

أن هذا النوع من التجارة الجديدة كلية فى مصر لا يمكن أن يتسع؛ وذلك لأن بن مُخا هو المفضل دائماً، وله سوقه الرئيس فى هذه البلاد. وبالفعل أدى وصول بعض السفن المحملة من حبوب بن مُخا إلى السويس، إلى انخفاض سعر قنطار البن من ١٠٠ قرش كبير إلى ٦٠ قرشاً فحسب. (١)

إن العديد من سلع التجارة الخارجية والداخلية محمل الآن برسوم جمركية باهظة للغاية، فما يدفع على البضائع للمالية يصل إلى حوالى ٢٥٪ من قيمتها.

ويشتد الطلب دائماً فى مصر على قماش جوخ اللوندرين الفرنسى(٢) Londrins de France، ويُفضل هذا النوع من القماش على الجوخ الإنجليزى.

ومنذ العام ونصف العام لم نر أى سفينة فرنسية تظهر فى هذا الميناء.

مع خالص الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

---

(١) اشتدت المنافسة بين الفرنسيين والإنجليز فى الترويج لبيع الأقمشة الصوفية من الجوخ غير أن جوخ "اللوندرين الفرنسى" كان فى القرن الثامن عشر الأكثر انتشاراً ومبيعاً بالقاهرة ؛ حيث أقبل على شرائه جميع الطبقات الشعبية، وخاصة مع انخفاض سعره ؛ الناجم عن تطور صناعته فى فرنسا؛ وكذا من جراء وقوع المضاربات السعرية بين التجار الأوروبيين. (راجع أندريه ريمون: المرجع السابق، ج١، ص٣٢٦). (المترجم)

(٢) يشير الجبرتى إلى أن محمد على هو الذى طلب تلك المراكب من جدة واليمن، وكان هدفه استغلالها فى نقل عساكره ومهمات الحرب ضد الوهابيين، وأن التجار قاموا بشحنها بالبن مما أدى إلى "انحلال سعره قليلاً" (راجع: الجبرتى: نفس المصدر، ج٤، ص٢١٧). (المترجم)

٧١- تقرير حول الفترة من ٢٠ يوليو إلى ٣١ يوليو ١٨١١م

موجز - توجه الباشا إلى السويس - إمدادات القوات الألبانية - الإنجليز يرفضون السماح بإطلاق سفينة الكورفت المصرية المخصصة للبحر الأحمر.

لما عجز محمد على عن تدبير كل الوسائل الضرورية لنقل المشاة (المتوجهين فى حملة المدينة ومكة) فى توقيت واحد إلى السويس،[١] قرر أن يتخذ حلا آخر يمكنه من نقلهم عبر ثلاث قوافل تتتابع بقدر الإمكان (الواحدة تلو الأخرى). وقد توجه بنفسه إلى السويس مساء يوم ٣٠ يوليو، بصحبه ١٥٠٠ جندى. ويتعين أن تنزل هذه الفرقة، فى اليوم الأول، على الساحل الشرقى للبحر الأحمر. ويفترض الأشخاص الذين يعتقدون فى تصريح الباشا بأنه سيتوجه إلى Cimbt؛ ومع ذلك ليس من المحتمل أن محمد على الذى تمكن، على ما يبدو، من الحصول على استخبارات دقيقة جدا حول هذا البلد، أن يكون فى عزمه أن يتركه هناك بين يدى أناس، ثقة فى أن من بينهم مَنْ لا يمكنه تقدير أهمية الموقع وأهمية قلعة المويلح.

وثمة سفينتين تحملان على متنهما قوات من الألبان، كانتا تريدان الرسو بالإسكندرية ودمياط، غير أن الأوامر صدرت بردهما، فالباشا يبدو أنه قرر ألاّ يتلقى سوى الجنود المتطوعين وذلك من خلال المبعوثين الذين أرسلهم فى هذا الصدد إلى مقدونيا والأناضول.

إن الطراد الذى وجهه محمد على إلى مالطة فى سنة ١٨١٠، بعد أن تم تبطينها بالنحاس مضى إلى إنجلترا حيث يتعين أن يتجه من هناك إلى البحر الأحمر. ورفضت

---

(١) عانى محمد على باشا بالفعل من تدبير عملية جمع الجمال والبغال حتى لقد اضطر أن يفرض على كل فرد من "مياسير الناس وأهل الحرف" تقديم بغلة أو بغلتين وثلاثًا، ومن لم يكن فى حوزه يُلزم بشرائه واحدة أو أن يدفع عنها كيسًا (٥ ألف بارة)، ولما اشتدت الحاجة للجمال والبغال أطلق للجند خطف ما يجيدونه بالشوارع، مما جعل الناس "يخفون حميرهم وبغالهم"! (راجع تفاصيل ذلك فى الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢١٧، ٢٢٣). (المترجم)

الحكومة البريطانية تقديم المساعدات والتأمينات التى كان وكلاء الباشا قد وعدوه بها القيام بالدفع بالطراد فى هذا المسار عبر المحيط (الأطلنطى) وبحر الهند. وسوف تعيدها إنجلترا إلى الإسكندرية. وليس ثمة شىء جديد يتعلق بما يحدث بمصر العليا.

وكيل القنصل القائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

٧٢- تقرير حول الفترة من ١ أغسطس إلى ٢٠ أغسطس [١١٨١]

موجز- استعدادات حملة الجزيرة العربية – إبراهيم بك بن الباشا يصبح أمين الخزانة المالية العامة لصعيد مصر.

رحلت كل فرقة المشاة التى خصصها محمد على للتوجه فى الحملة على الوهابيين وكان آخر موكب منها قد شق طريقه مساء يوم ١٧ [أغسطس] .وكلما وصلت قوات إلى السويس، كانت تنزل بها ثم تتوجه إلى الطور، وهناك يتعين تجميعها لتنطلق جميع القوات معًا.

وسوف يعود محمد على إلى القاهرة بعد ستة أيام على الأكثر. ويُقال أنه لم يكن راضيًا عن الاستعراضات العسكرية التى مضت إلى السويس. وفرق المشاة ، الواقعة تحت أوامر مختلف القادة من حلفائه المخلصين، ليست هى القوة التى كان يظن الاعتماد عليها ، والتى سوف يمكنه زيادتها عوضًا عن ٧٠٠٠ من الجند المشاة الذين كان يعتقد بإمكانية استخدامهم فى هذه الحملة، فعلى الأكثر لم يجد من بينهم سوى ٦٠٠٠ جندى.

ومع انتظار عودة الباشا، يتم الانشغال الآن بالاستعدادات اللازمة لرحيل فرقة الخيَّالة ، وسوف يرحل طوسون باشا مع هذه الفرقة . ولا يزال الابن الأكبر للباشا، إبراهيم بك، ماضيًا فى جولاته بأقاليم صعيد مصر، ويمر الآن بإقليم أسيوط. وقد كابد صعوبات فى جباية الضرائب من بعض القرى. ويتعين عليه أن يجبرها على العمل بقوة الجيش.

وتأكد لنا أن ما كان ينتظر وقوعه الباشا من فرار بعض الأتباع الذين كانوا على صلة بالمماليك قد تحقق بالفعل، أما العربان فلم يمكنهم أن يتبعوا المماليك. (١٨٦)

(١) يشير الجبرتى إلى أن العربان أقبلت أفواجًا على طوسون باشا، وأن الأخير أكرمهم وقدم لرؤسائهم الخلع والكسوة (راجع: الجبرتى، ج٤، ص٢٢١). (المترجم)

واصطف الجند الترك، الذين قدموا عروضاً مفيدة، تحت قادة الجيش النازلين بالمدن الرئيسة بـ الصعيد Saïd .

ويبشر النيل هذا العام بفيضان غزير، وكذا بمستوى منخفض لأسعار الحبوب. ومع ذلك مازال الباشا لا يوافق على إعطاء تراخيص استخلاص وتصدير الحبوب التى يفترض بأنه سوف يصدرها؛ إذ ليس ثمة احتمال ظاهر يشير إلى أنه يريد أن ينقض الشروط التى قطعها فى مبيعاته الأخيرة، ويقال بأن سعر القمح بلغ ٢٤ قرشاً للأردب أو ٢٥ ميريجرام للشعير أما البقول الأخرى فبيعت على ٤٠ قرشاً.

وسعياً إلى التسهيل فى دفع الضرائب على سكان الأرياف؛ أذن بأن يجمع الجزء الأهم من كل منهم عيناً.

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

٧٣- تقرير عن الفترة من ٢٠ إلى ٣١ أغسطس

موجز- رحيل القوات إلى الجزيرة العربية

عاد محمد على باشا إلى القاهرة مساء يوم ٢٧ [من أغسطس] . والقوات التى أخبروا فى النشرات السابقة عن رحيلها إلى السويس وصلت إلى هناك، ومنذ صباح يوم ٢٨ [أغسطس] كانت جميع القوات قد أبحرت فى اتجاهها إلى الجزيرة العربية. وتم استعادة وسائل المواصلات بين جدة والسويس، وقد وصلت إلى هذا الميناء الأخير قافلة من "سفينة محملة بين مُخا.

ويدا الباشا راضياً على مَرؤوسيه، وسادت هذه الحال بين قوات الحملة. ويعتمد الباشا كثيراً على تعاون شريف جدة. وأرسلت قبيلة عربان الجيعانى ، الذين كانوا تابعين لحزب البكوات، إلى الباشا ممثلين عنها، يطلبون منه العفو والإذن لهم بالعودة إلى أرض مصر. ويقال بأن اثنين أو ثلاثة بكوات من المماليك قد مروا عبر برابرا Barabra بسوريا بالقرب من سليمان باشا.

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة.

دروفتى

٧٤- سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز- وصول سفينة قرصنة نابوليه(*) تُدعى لو روا دو روم: حوادث مختلفة - معارضة الكولونيل ميست على بيع غنائم قرصنة هذه السفينة - معاهدة بين الإنجليز والباب العالى بشأن أعمال القَرصْنة فى بلاد الشرق - حوادث ومشاجرات بين الإنجليز والفرنسيين- سفن إنجليزية مشحونة بالحبوب.

الإسكندرية، فى ٢٦ أغسطس ١٨١١

السيد المحترم،

وصلت، نحو يوم ١٢ من هذا الشهر، إلى ميناء الإسكندرية، سفينة قرصنة من نابولى، تدعى لو روى دو روم، يقودها القبطان أنطوان ميشيل Antoine Michel، حاملة لافتة عليها اسم: س.م. لو روا تابعة للصقليتين De Deux Siciles، الفارس الملكى، وبوصول هذه السفينة أُثيرت المناقشات مع هذه الحكومة (حكومة محمد على)، كما ترتب عليها مشادات عنيفة أثارها البحارة الإنجليز ضد بحارة سفينة القرصنة.

وكان مصدر إثارة المناقشات اعتراض قدمه لهذه الحكومة الكولونيل ميست، المندوب والقنصل العام الإنجليزى، على بيع غنيمة قرصنة لسفينة راسية فى ميناء الإسكندرية. وقام اعتراضه على بيع غنائم القرصنة، أيا كان نوعها، فى جميع الموانئ الواقعة ببلاد السلطان (العثمانى)، على أساس الامتيازات التى أُبرِمت، منذ وقت قريب، بين حكومته (الإنجليزية) والباب العالى، بشأن هذا البند من الامتيازات المعلن عنه بشكل خاص. ووفقًا لملاحظته، فإن حاكم مدينة الإسكندرية لم يكن لديه ، هو نفسه ، إذن يسمح له بإنزال غنائم القرصنة، حتى يعود إلى استطلاع أوامر الباشا التى يستند إليها فى ذلك.

(*) نسبة إلى نابولى Naple. (المترجم)

ولقد أخبرت في الحال السيد دروفتي بهذه الادعاءات الغريبة الصادرة من الإنجليز الذين سوف يحاولون - بدون شك - خداع الباشا. وإن كنت مع ذلك لا أعتقد أن الباشا يلتزم بمثل هذه النصوص على علاتها دون أن يتبصرها: فهو لا يجهل أن سفن القراصنة الفرنسيين تأتي في كثير من الأحيان، محملة بغنائم القرصنة إلى داخل موانئ بلاد السلطان، ويجرى بيعها هناك دون اعتراضات من أي نوع، فهل مصر ستكون في ذلك مثل تونس وطرابلس بشمال إفريقيا؛ حيث تأكد لي أن البكوات والباشوات في تلك الولايات بدأوا يستقبلون بخصوص هذه المسألة ممثلين إنجليز؟ ومهما كانت المصلحة هي الشيء الوحيد الذي يقود محمد على لجانب الإنجليز، فإنه يعرف كيف يقدر تماماً ما يتعين عليه فعله قبل فرنسا والباب العالي اللذين يعتمد عليهما، فلا يمكنه الإقرار بطلبات الإنجليز، والعمل على تنفيذها في الحال قبل أن يتلقى أوامر صريحة بذلك من الباب العالي. وإلى أن يتحقق قرار الباشا الموجود اليوم في السويس، فإن السفينة والغنيمة سوف يظلان داخل هذا الميناء، فيما رحل القرصان؛ لمباشرة أعمال قرصنته. وكان قد تم الاستيلاء على هذه الغنيمة بالقرب من مالطة، ثم جرى نقلها إلى ولاية طرابلس بشمال إفريقيا، بيد أن باشا طرابلس لم يأذن بأمر البيع. والغنيمة مكونة بشكل رئيسي من مسكرات العرق وقليل من النبيذ والخل وألواح الخشب والقَطْران. وكانت هذه السلع قد نقلت من سفالونيا Cephalonie [1] إلى مالطة.

وإذا كان صحيحاً إدراج المادة المذكورة أعلاه في امتيازات جديدة حصل عليها الإنجليز من الباب العالي، فسوف يكون هذا مفيداً من كل جانب لأعدائنا؛ فغنائمهم سوف تصل بأقصى سرعة إلى جزيرة مالطة القريبة من الشرق، على حين أن غنائمنا ستكون بعيدة جدا عن بلوغها موانينا. وسوف يكون محرماً تقريباً على القراصنة

(١) هي أكبر الجزر الأيونية باليونان (راجع: D ict. Hachette, Encyclopédique, p. 315 -). (المترجم)

الفرنسيين ممارسة حركة سطوهم فى بحار الشرق، الأمر الذى سيوفر عنصر الأمان الكامل للتجارة الإنجليزية التى هى بالفعل فى حالة ازدهار كبير.

والمشادة التى حدثت بشكل مفاجئ يوم ١٥ من هذا الشهر بين البحارة الإنجليز فى موضوع "القرصان النابولى" كان يمكن أن يتمخض عنها نتائج خطيرة جدا: فقد فرَّ أحد البحارة من سفينة القرصان حيث كان يتنزه بشكل عام، حاملاً شارته الوطنية الإنجليزية، وأخذ يجاهر بالسبِّ بألف شتيمة ضد الحكومة، وهذا ما أدى إلى خلق المشكلة بكل تبعاتها.

فقد طالبنى قبطان سفينة القرصنة بإلقاء القبض على هذا البحار الوقح، فأرسلت رجلاً إنكشاريا يعمل معى بالإضافة إلى رجل آخر يعرف ذلك البحار الإنجليزى، وبعد قليل وجدوه وقبضوا عليه؛ لكن على ما يبدو، كان الإنجليز يحيكون مؤامرة لإثارة مشكلة فى هذه المناسبة، وحاول الترجمان الإنجليزى، دون جدوى، نزع البحار من بين يدى الجندى الإنكشارى التابع لنا، ثم كان أن تلقى الترجمان استغاثة من القباطنة الإنجليز والبحار الذين تكالبوا على مهاجمة الجندى الإنكشارى.

ولم يجد الأخير خلاصه إلا داخل وحدة الخدمة بفرقته. على أنه سحب طبنجته، وأطلق منها رصاصة، اخترقت فخذ البحار الأثيم من الجانبين . وبعد ذلك انسحب الإنكشارى بعيداً عن القنصلية. وأدرك المتمردون الجريح وحملوه إلى القنصلية الإنجليزية، وبعد ذلك فزعوا إلى سفنهم؛ ليأخذوا منها أسلحتهم؛ لكن إجراءاتى السريعة مع الحكومة التركية استوعبت الموقف، وأوقفت النتائج الخطيرة لهذه المشكلة ، ومنذ ذلك الحين هدأت الأمور وعادت إلى نصابها .

ولم يكن المتمردون المحركون لهذه الفوضى من الإنجليز الخلصاء؛ وإنما كانوا من الإسكلافون Esclavons ومن الإليريين Illyriens الذين كانوا يعملون تحت حماية العلم الإنجليزى. واعتقدوا أن ذلك يعطيهم السماح بحرية التظاهر بكرههم ضد الفرنسيين. وهؤلاء الملاحون قدموا إلى هنا من مالطة تحت الأعلام الإنجليزية ليقوموا

بشحن سفنهم بالحبوب. ولدينا في هذا التوقيت ٥٠ سفينة من سفنهم القادمة لهذا الغرض. والمذنبون الرئيسيون وراء أعمال هذه الفوضى هم: أنطونيو نيكولوفيتش Antonio Nicolovich وهو من أصل براتزا Brazza بإقليم دالماشيا،[1] ويقال بأن أباه مقيم في تريستا، والمذنب الآخر يدعى أوغسطين كانيفارو Augustin Canevaro الجنوى الأصل الذى تظاهر في اليوم التالي للفتنة، على متن سفينته بالفرحة والابتهاج وباحتقار العلم الفرنسي، أما الأخير فهو دوليشيو دو زارا Delucio De Zara وهؤلاء جميعًا المذكورون قباطنة سفن.

مع خالص الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

---

(١) إقليم دالماشيا: إقليم جبلي يقع على ساحل الأدرياتيك، ويشتمل على عدة جزر، وكان هذا الإقليم قد ضمَّ إلى ممتلكات النمسا بعد معاهدة كامبوفورميو Campoformio (١٧٩٧)؛ غير أن نابليون خلال توسعاته وفتوحاته ضمه للإمبراطورية الفرنسية بين عامي ١٨٠٩– ١٨١٤، ويرينا هذا لماذا تضامن الدالماشيون مع الإنجليز ضد الفرنسيين بالإسكندرية ، وعادت دالماشيا للنمسا بعد سقوط نابليون في ووترلو (١٨١٥) (راجع: -(Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 489). (المترجم)

٧٥- سان مارسيل إلى دوق ،وباسانو

موجز- الباشا يمنع بيع غنائم القرصنة بسفينة لو روا دو روم- الرضى يعم الإنجليز – الولع بالإنجليز فى مصر.

الإسكندرية، فى الأول من سبتمبر ١٨١١

السيد المحترم،

لقد أصدر الباشا أمرًا إلى حاكم هذه المدينة (الإسكندرية) بألا يصدر عنه أى اعتراض على بيع الغنيمة التى أتت بها سفينة القرصنة لو روى دو روم، والتى كانت قد بدأت البيع داخل هذا الميناء؛ لكن الباشا أبطل هذا الأمر فور قيام الوكلاء الإنجليز بإبلاغه بما يتعلق بهذا الأمر. على أننى أفدت ، خلال الأيام القليلة السابقة على وصول أمر الإلغاء، مَنْ يُسارع بتفريغ شحنة السفينة، وبيع القليل من موادها؛ بيد أننى أُجبرت على تعليق كل أمر البيع ، وذلك وفقًا لأوامر الباشا التى أبلغنى بها حاكم هذه المدينة.

وسيظل هذا الأمر قائمًا حتى وصول فرمان من الباب العالى فى هذه المسألة التى رُفعت إليه. ومن جديد تم إعاقتنا، والإنجليز راضون الآن جدا على إنجازاتهم فى هذا الصدد، بعد أن فجروا ، بكل غطرسة ، شكاويهم ضد أوامر الباشا الأولى ؛ وذلك عبر نشرات علنية هاجمت سلطته[1] أيضًا هؤلاء الإنجليز المسيطرون بمصر الذين

(١) ملاحظة استدراكية كتبها سان مارسيل فى نهاية خطابه وهى: "وضع هذا الإعلان على باب بيت القنصلية الإسبانية متضمنًا بأن الحكومة المحلية سمحت ببيع بضائع إنجليزية منهوبة على يد سفينة القرصنة التى تحمل اسم لو روى، والإعلان يحذر ، عبر أمر صادر من السيد ميست المندوب والقنصل العام لبريطانيا العظمى فى مصر، بأنه أيا كان الشخص الذى سوف يشترى شحنه غنيمة لابومبارد La Bombarde وسان بول St. Paul أو جزءًا من الغنيمة أو كل حمولة البومبارد نفسها، فلسوف يتم مطاردته فى كل زمان ومكان ، باعتبار أن هذا الشراء غير شرعى mal acheté، ونكون مضطرين لرد القيمة فى حالة إذا ما كان الشىء المشترى نفسه لم تنبه بشأنه.

استوردوا من هذا البلد كل الحبوب اللازمة لإمداد أعدائنا بالأغذية، والذين لا يعترفون بهذه المحاباة، هم الذين أجبروا الباشا على الاستسلام لإرادتهم فى عدم بيع تلك الغنيمة الحقيرة التى جلبها إلى هذه البلاد فرنسيون أو نابوليَّة (أى من نابولى). إن الولع بإنجلترا Anglomanie فى مصر يظل يزداد قوة وازدهاراً ، والفرنسيون المقيمون لا يمكنهم أن ينسوا الإهانات التى يكابدونها هنا ؛ من جراء عظمة أمتهم التى لها حاكم أكثر عظمة من الأبطال.(١)

مع خالص الاحترام....إلخ .

سان مارسيل

---

(١) المقصود هنا: نابليون بونابرت الذى كان فى ذلك الحين قد سيطر على ممالك ودول عديدة فى أوروبا، مقيمًا ما عُرِفَ فى ذلك الوقت بالإمبراطورية الفرنسية. (المترجم)

٧٦- سان مارسيل إلى دوق دو باسانو

موجز – مسألة السفينة روا دو روم – شراء محمد على للقنابل – تجارة الحبوب: ثراء مصر غير العادى من وراء هذه التجارة – إرسالية الحبوب إلى كورفو – حظر بيع البن الأمريكى.

الإسكندرية، فى الأول من سبتمبر ١٨١١

السيد المحترم،

فى خطابى الذى يحمل رقم ٨٦ بتاريخ ٢٦ من شهر أغسطس أشرت إلى وصول سفينة قرصنة نابولية إلى ميناء الإسكندرية، تدعى لو روا دو روم، وهى السفينة التى كان يقودها القبطان الفارس ميشيل إنسينى Michel Enseigne والحاملة للافتة مدون عليها س.م.لوروى تابعة للصقليتين. وذكرت لكم أن سفينة الغنيمة الإنجليزية تم اقتيادها إلى هنا بعد أن وصلت إلى طرابلس بشمال إفريقيا؛ حيث ارتأى قنصل فرنسا هنا بأنها غنيمة مهمة، وفى النهاية حدثت معارضة الباشا على البيع الفعلى لهذه الغنيمة، وذلك بناءً على طلب الإنجليز، وعرض هذه القضية على الباب العالى، الذى ننتظر قراره فيها. وقد أبلغت السيد لاتور موبور La Tour Mambourg بكل ما حدث فى هذا الموضوع.

وقد تم إرسال حوالى ٨٠٠٠ قنبلة من مالطة إلى بالإسكندرية، من خلال مسئول خصوصى يدعى لو كومنت جاللينى Le Comte Gallini الذى تولى بيعها للباشا.

ولدينا فى هذا الميناء خمسون سفينة نمساوية أو إسكلافونية تحمل أعلامًا إنجليزية ، والتى تنتظر أمر شحنها بالحبوب للتوجه إلى مالطة. بيد أن إرسالياتهم سوف تتأخر من جراء الظروف التى وقعت هنا مؤخرًا. وقد أرسل الباب العالى من قبل إلى الإسكندرية سبع سفن نمساوية تحمل أعلامًا عثمانية ، ومعها فرمانات تنص على شحن تلك السفن السبعة بالحبوب. وقد تأكد لنا أن عددهم سوف يصل إلى خمسين سفينة تأتى إلى الإسكندرية من أجل نفس هذا الغرض.

على أن ذلك لن يمنع الباشا حتى مع إطاعته، بدون شك، فى هذا الظرف، لأوامر الباب العالى، أن يقوم بتزويد الإنجليز بالحبوب؛ وذلك لأن مصر يمكنها أن تبيع للأجانب أكثر من مائتى ألف أردب أو ما يعادل ٤,٢٠٠,٠٠٠ صاع فرنسى دون أن يترتب على ذلك أى خلل باحتياجات رعيته منها.

ودعا السيد دروفتى الباشا إلى أن يبعث بإرسالية حبوب لكورفو Corfou، وبناءً على ذلك تم استئجار سفينة إسكلافونية على يد وكيل فرنسى فى جهة دمياط، وهى السفينة التى كان يقودها القبطان بتروفيتش Petroviche ولابد أنها تُشحن بالحبوب فى الوقت الحالى، وسوف يتم إرسالها إلى كورفو تحت رقابة تاجر بالقاهرة يُدعى السيد منتل Mr. Mentel. ويتعين التطلع إلى أن يعقب ذلك إرسالية أخرى من الحبوب، إذا لم يكن ثمة شىء يتعارض مع استعداد الباشا لذلك.

ومازال العمل مستمرا فى بناء المتاريس بسور المدينة. وثمة ألفى عامل يعملون هناك يوميا. والعمل متقدم حتى إنه وصل إلى المدخل المسمى بومبيه Pompée. وجرى تحصين المتاريس من جميع جهاتها، ولكن بناءها ليس قويا تماماً، وسوف يتم بعد ذلك إحاطتها بخندق.

ووصل إلى السويس جزء من جيش مصر الموجه إلى محاربة الوهابيين، والفيلق الثانى مازال بالقاهرة. وقد تأكد لنا أن هذا الجيش لن يتجاوز ٦٠٠٠ جندى.

ومنع الباشا دخول البن الأمريكى الذى كان قد سمح بوروده من قبل. وكانت كميات من هذا البن (الأمريكى) قد جاءت من جهة مالطة وأزمير، غير أنه لم يكن ثمة سبيل لتفريغها بالإسكندرية، وعادت أدراجها من حيث وردت. وفى الواقع كان سيترتب على دخول البن الأمريكى إلحاق الضرر بالبن اليمنى الذى يجرى استهلاكه فى الداخل وتصديره فى الخارج بكميات كبيرة ومهمة. ومع ذلك فإن الحرب الحالية ضد الوهابيين سوف توقف تجارة هذا البن (اليمنى) بصورة مؤقتة، ومن ثم سوف يُهيأ الظرف لتجديد جلب البن (الأمريكى) الذى يحذر بيعه اليوم.

ويتلقى الباشا فى مقابل ما يرسله إلى مالطة وأماكن أخرى من حبوب بلاده كميات من البضائع الأوروبية و سلع المستعمرات. وهذه التجارة لا يمكنها أن تصمد طويلاً؛ وذلك لأن البيع المحلى من حبوبه إلى الإنجليز، قد اعطاه أكثر من فائدة تفوق ما حققه فى الخارج.

مع خالص الاحترام....إلخ .

سان مارسيل

٧٧- دروفتي إلى الوزير

موجز- مسألة السفينة لو روا دو روم - دروفتي في حضرة الباشا - الباشا يريد إحالة المسألة على إستانبول.

السيد المحترم،

حاز السيد سان مارسيل، دون شك، شرف إخباركم بمسألة سفينة القرصنة النابوليتية المسماة لو روا دو روم Le Roi de Rome التي أدخلت إلى ميناء الإسكندرية غنيمة تحت العلم الإنجليزي، وإزاء ما قدمه الوكلاء البريطانيون قام حاكم مدينة الإسكندرية بمعارضة تفريغ السفينة وبيع شحنتها التي تم أسرها. وكان الباشا آنذاك بالسويس. ورأيت أنه يتعين عليَّ أن أرسل إلى السويس السيد منجان Le Sieur Mengin الذي كان يعمل في السابق وكيلاً بالقنصلية العامة في تلك المدينة، مصطحباً معه ترجماناً. وقد وصلته الأوامر التي كلفته بإثارتها لدى الباشا إزاء الكولونيل ميست (المندوب البريطاني الذي اعترض على بيع الغنيمة بحجة المعاهدة الجديدة مع الباب العالي) التي حتَّمت على الباشا أن يرجئ اتخاذه لقرار حاسم في هذه المسألة عند رجوعه إلى القاهرة. وعاد الباشا في الأول من هذا الشهر. وسارعت إلى لقائه ولم يجد إزاء كل احتجاجاتي من حلٍ سوى عرض القضية على إستانبول. وبشكل رئيسي كان المدعو لوشافاليه بلان M. Le Ohevalier Palin القائم بشئون قنصلية السويد لدى الباب العالي، هو مَنْ حثَّه على هذا المسعى. وكان بلان هذا قادماً إلى مصر في زيارة الآثار، والتقى به الباشا في السويس. واستقصى محمد على منه عن الإجراءات المتعين اتخاذها في مثل هذا الأمر، فكان رد السيد بلان بأنه يجهل بما حدث في الخارج، لكنه يعرف جيداً أنه ليس ثمة وعود طُرِحت للفرنسيين ولا للإنجليز ببيع غنائم القرصنة في إستانبول. وبدا لي أن القول بالجهل لما يحدث في هذه المسألة هو من قبيل التحفظ الخبيث؛ إذ كيف للسيد بلان أن يجهل أن أعمال القرصنة الفرنسية التي تمخض عنها أسلاب يتم بيعها بموانئ Scio وسالونيك، وهي من الأسلاب الناتجة عن أسر السفن

الإنجليزية؟ إن السيد بلان هو ذلك الشخص الذى قبل بتعيين السيد بطروتشى الشهير وكيلاً للقنصلية العامة للسويد فى مصر، وكان بطروشى هذا موضوعاً متكرراً فى كثير من تقاريرى إلى سيادتكم: إنه العدو الأكثر عناداً واحتداداً على الاسم الفرنسى، والوكيل الأكثر حماساً الذى اعتمدت عليه الحكومة الإنجليزية فى مصر.

ويشرفنى أن أكون....إلخ .

دروفتى

٧٨- دروفتى إلى الوزير

موجز - الاحتفال بمولد ملك روما.

السيد المحترم،

لم أتشرف بتلقى رسالتكم سوى بالأمس، وهى الرسالة التى كُتِبت بتاريخ ٢٠ من شهر مارس التى تخبرونى من خلالها بمولد ملك روما.(١)

وقد قام رعايا جلالة الإمبراطور والملك بالاحتفال يوم ١٤ من شهر يونيو بهذا الحدث السعيد، مُبدين حماساً وابتهاجاً غير عاديين، وشاركهم فى احتفالهم السادة قناصل الدول الحليفة لفرنسا ورعاياهم.

ويلتمس كل المقيمين فى مصر من ضباط ورعايا الإمبراطور الملك من سيادتكم أن تقدموا بين قدمى عرش جلالته أمنياتهم الصادقة التى يناجون بها الخالق بأن يحفظ مثل هذه الأيام العظيمة لملك روما ولأبويه أغسطس.(٢)

ويشرفنى أن أكون....إلخ.

دروفتى

---

(١) هو فرانسوا شارل جوزيف نابليون بونابرت، عاش بين عامى ١٨١١ و ١٨٣٢ عُرف منذ ولادته "بملك روما" Roi de Rome، وتلقب بالإمبرطور فى عام ١٨١٥، لكنه عاش فى النمسا بدءاً من عام ١٨١٤ متخذاً لقب "دوق ريتشتاد" ونقلت رفاته إلى فرنسا فى عام ١٩٤٠م (راجع: Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1277) (المترجم)

(٢) المقصود: الإمبراطور نابليون وزوجته مارى لويز. (المترجم)

٧٩- دروفتى إلى الوزير

موجز – إرسالية بذر القطن

القاهرة، فى ١١ من شهر سبتمبر ١٨١١

(سُجلت فى ٣٠ من يناير ١٨١٢)

السيد المحترم،

يشرفنى أن أحيط سيادتكم علماً بأنى أرسلت إلى السيد كليرامبو **M. Clairam-bault**، قنصل سالونيك، رزمتين تشتمل كل واحدة منهما على ٢٦ رطلاً من بذر القطن الذى حصلت عليه من إقليم المنصورة، حيث يزرع هناك بنجاح كبير، واعتقدت بأن بذر قطن هذا البلد يمكن أن ندخله ونوطنه بسهولة تامة فى الأقاليم الجنوبية بالإمبراطورية (الفرنسية) التى مناخها أكثر تماثلاً مع مناخ هذا البلد.

ويشرفنى أن أكون....إلخ .

دروفتى

٨٠ - تقرير الفترة من ١ إلى ٣٠ سبتمبر

موجز - حملة الجزيرة العربية - الاتصالات الأولى: الاستيلاء على ينبع - منسوب جيد لفيضان النيل.

لم يرحل طوسون باشا سوى فى يوم ٢٨ من سبتمبر، ويتعين أن ينضم إليه عبر الصحراء فرق مختلفة من المشاة[1] التى بلغت "المويلح وينبع". ويصحب طوسون باشا معه ألفى جندى من سلاح الفرسان وعشرين قطعة مدفع.

وواجهت قوات محمد على فى "ينبع" مقاومة لم تكن متوقعة: فعملية الاستيلاء على هذه المدينة وقلعتها الصغيرة التى أبدت دفاعًا قويا أدت إلى إثارة العديد من الهجمات الدامية التى أسفرت عن سقوط ٢٩٠ مقاتلاً، وأسر جزء كبير من حامية الوهابيين وجنود الشريف. وقد وُجد بالقلعة ستة عشر مدفعًا.[2]

وكان الكولونيل ميست، القنصل العام الإنجليزى، ينتظر مجىء محمد على باشا إلى هنا ، خلال الأيام الأولى من هذا الشهر، إلاَّ أنه ألغى سفره واستمر فى إقامته بالإسكندرية. ونجهل دوافعه وراء هذا القرار، ومع ذلك يعتقد بأن الأخبار الأخيرة الواردة من إسبانيا هى التى أسهمت فى اتخاذه لهذا القرار.

ولقد تلقى الباشا أيضًا من مالطة ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ قنبلة، وتم تبادلها بسلع غذائية، أُرسِلت إلى هذه الجزيرة. ويبشر فيضان هذا العام بمحاصيل وفيرة جدا،

---

(١) وكان طوسون باشا قد أمكنه استمالة عدد كبير من القبائل بمساعدة قوية من نصر الشديد وعربانه، وهى قبائل: الحويطات، العبابدة، بلى، الطرابين، الصوالحة، الكواملة، العليقات، مزينة، تبة، لحون، عمران ، علوين، عميرات، الدقيقات، بنى عقبة، بنى واصل، جهينة ، وكلها من القبائل القاطنة بالقرب من المدينة أو على الطريق إليها . (راجع عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: الدولة السعودية الأولى ١٧٤٥ - ١٨١٨، منشورات معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة ١٩٦٩، ص٢٩٣). (المترجم)

(٢) إن رواية الجبرتى تبين أن "ينبع البحر" كما يسميها كانت مستودعًا لكثير من بضائع التجار فى البحر الأحمر وأن عسكر محمد على لما اقتحموها "نهبوا ما كان بها من الودائع والأموال والأقمشة والبن" وهذا خلافًا لما ركز عليه دروفتى الذى كان معنيا أكثر بالنتائج والمعلومات العسكرية (راجع: الجبرتى، ج٤، ص ص ٢١٩ - ٢٢٠). (المترجم)

وسوف تزداد إرساليات الحبوب بدلاً من تناقصها، على أن الباشا مع ذلك لا يريد أن يخفض شيئًا عن مستوى الأسعار السابقة (المرتفعة).

القاهرة، فى ٢ من أكتوبر ١٨١١

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة

دروفتى

٨١ - تقرير الفترة من ١ إلى ٣١ أكتوبر ١٨١١م

موجز - مآل حملة الجزيرة العربية - السير على المدينة - موارد مالية كبيرة لمحمد على - مشروعات محمد على حول سوريا.

تلقى محمد على منذ أيام قليلة فحسب نبأ وصول قواته من سلاح الفرسان إلى المويلح، وهى القوات التى يقودها ابنه طوسون باشا، وهو يتطلع إلى أن يتلقى بدون توقف قوات أخرى يضمها إلى جيشه مع المشاه الذين ينتظرونه عند الينبع؛ كيما يتوجه بهم جميعًا إلى المدينة. ويُقال بأن جيش طوسون تعرض لهجمات مختلفة خلال سير حملته، غير أن قوات الوهابيين كانت دائمًا ما ترد على أعقابها بقوة. ويقود جيش العرب قائد يُدعى ابن جبارة[١] Ebn Giubbara المكلف بالدفاع عن مكة والمدينة.

وأرجأ الباشا سفره إلى الإسكندرية؛ وذلك لانشغاله بعمل حساب عن إدارة الجمارك، والضرائب المفروضة على الملح Des gabelles، ومحدثات المكوس Apaltnes التى عمَّمها تقريبًا على كل السلع الزراعية والتجارية فى هذه المملكة[٢] وقد أضاف هذه الأنواع من الضرائب غير المباشرة حتى أنه أصبح يجنى منها إيرادًا سنويا يبلغ ٨ ملايين قرش تركى. وهذه الموارد التى يُضاف إليها دخول أخرى ليست أقل أهمية، إنما زودته بالعملة، ووفرت له استخلاص فائض المؤن الغذائية، الأمر الذى جعله يحلم باستبدال القوات التى أرسلها إلى الجزيرة العربية. وقد أرسل كذلك تعزيزات للحاميات العسكرية التى يعتمد عليها فى حفظ مصر العليا. [٢] ولابد أن هذه الحاميات تتوقع

---

(١) جاء ذكره فى الجبرتى فى يومية ١٥ ذى الحجة ١٢٢٦هـ/٣١ ديسمبر ١٨١١م لمَّا سجل انتصار جيش طوسون عند ينبع: "اجتمع هناك (ينبع البر) العسكران البرى والبحرى... وملكوا قرية ابن جبارة من الوهابية.وفر ابن جبارة هاربًا" (راجع : الجبرتى : المصدر السابق ، ج٤، ص٢٢١). (المترجم)

(٢) يستخدم دروفتى مصطلح Royaume بمعنى "مملكة" للإشارة إلى "ولاية مصر"، ويبدو أن زيادة نفوذ محمد على فى إدارة البلاد هو ما جعله يستخدم هذا المصطلح بكل معناه الدلالى المغاير لواقع حالة محمد على فى مصر وخاصة فى السنوات الأولى من حكمه. (المترجم)

عقب تراجع مياه الفيضان عن الأراضى، هجمات من المماليك، وسلاح الخيَّالة سوف يكون بإمكانه الطواف بالأرياف.

ومازال محمد على متمسكًا بمشروع إعادة يوسف باشا إلى مركزه فى حكومة دمشق؛ إذ إنه بهذه الوسيلة يصبح على الطريق إلى سوريا. ويأمل الباب العالى فى إمكانية أن يضع محمد على تنظيماً مشابهًا فى الجزيرة العربية، وذلك حال تمكنه من القبض على الوهابية بالأراضى المقدسة فى دين الإسلام.

القاهرة فى ٣ نوفمبر .

دروفتى

٨٢ - سان مارسيل إلى دوق باسانو

موجز - قوائم التجارة والملاحة - تحصينات مدينة الإسكندرية - انتظار أخبار الجزيرة العربية: صعوبات الحملة - قوة ونفوذ محمد على فى حال تحقق انتصاره على الوهابيين - محمد على يسعى إلى امتلاك سلاح بحرى مهم - محمد على يفرض الاحتكار على كل التجارة المصرية: الترخيص ثم حظر استيراد بن المستعمرات - مسألة السفينة لو روا دو روم - غنيمة القرصنة نفسها تقع فى أسر الإنجليز عند قبرص - دروفتى وبوتان فى صعيد مصر.

الإسكندرية، فى ٢ من نوفمبر ١٨١١

السيد المحترم،

يشرفنى أن أقدم لسيادتكم القوائم العامة للتجارة والملاحة الخاصة بهذا الميناء، وذلك على مدار الفصل الثالث من هذه السنة، وسوف أولى اهتمامًا فى نهاية العام بإرسال التقرير الشامل (لسنة ١٨١١).

إن المبالغ المحصلة من الرسوم الجديدة المفروضة على رسوم الجمرك وعلى البضائع الواردة والصادرة من البلاد والتى بلغت حوالى ٢٥٪ من قيمتها، ساعدت الباشا فى استمرارية الإنفاق على عمل التحصينات الجديدة بالإسكندرية، فكان يصرف يوميا حوالى ١٥٠٠ قرش، ويستخدم فى ذلك حوالى ألفى عامل يوميا.

وباشر البدايات الأولى لهذا المشروع عند باب يُقال له المثلث، وتوقفت الإصلاحات ضمنيا عند باب بومبيه Pompée . وتهدمت المعاقل القديمة وأقيم مكانها معاقل أخرى جديدة، على نفس النسق الموجود عند باب رشيد. وجرى تحصين هذه المتاريس من جميع جهاتها؛ وثمة برج أقاموا فى محله معقلاً محصنًا. وحين يتم الانتهاء من هذه التحصينات، سوف يحفرون خندقًا، يحيط بكل تلك التحصينات؛ بيد أنهم لن يمكنهم تمهيد الأراضى المجاورة للخندق؛ والمنتشر بها ارتفاعات صغيرة تطل على تلك الاستحكامات.

ويتعين بعد ذلك توجيه الاهتمام إلى إصلاح قلاع الفنار التى آلت إلى الخراب، والطريق الممهد المؤدى إليها، الذى هدمته مياه البحر كما هدمت الأسوار، وما حول الفنار المهجور، وقلعة أبى قير الباقية بشكل دائم على نفس حالها، وأخيراً ما تعلق بالمنطقة المحيطة بالخليج الذى يحمل مياه النيل (إلى الإسكندرية)، وشُيِّدَ حديثًا فى المكان نفسه سد ، وهو السد الذى سبق وتهدم على يد الإنجليز، ولكن بناءه الجديد سيئ جدا، وعما قريب سوف تمر مياه المعدية إلى الداخل؛ تلك هى الترميمات بشكل عام التى تبدو فى حاجة ماسة إلى الإصلاح، وكان لابد أن تتحول إليها أنظار الباشا.

وعزم محمد على على المجىء إلى الإسكندرية بعد عيد الأضحى، وكان قد أرجأ سفره بسبب تواتر الأحداث الباعثة على القلق و الخاصة بجيشه الموجه إلى محاربة الوهابيين.

وعُرِف بأنه قد تم الاستيلاء على "المويلح وينبع"، بعد تكبد خسارة عدد من الرجال من الجانب التركى. ولكن هذه الانتصارات ليست شيئًا أمام العقبات التى ذللها هذا الباشا فى بلاد تغطيها الصحراء التى يندر فيها الماء، ويقطنها أمة غفيرة، لكنها على أية حال أقل ثقافة وتسلحاً من أعدائها، إن هذا الباشا يعرف ما يمكن أن يجنيه دائماً من مزايا محلية اعتماداً على قوات متعبة وشاردة. ونتساءل من ناحية أخرى، هل جدة سوف تفتح أبوابها دون مقاومة تفرض خلالها حصاراً ضد الجيش المصرى؟ وإذا كان يجب أن تستسلم بفعل ضربات المدفعية التى وقعت مؤخراً فى هذه المدينة ، بمناسبة تحقق انتصارات المصريين العثمانيين على الوهابيين، فهل يمكن آنذاك تخمين ما سيحدث فى المستقبل. وبرغم مظاهر البشرة العامة فإنه يتعين أن يعلق فكره على هذه الحملة التى إذا ما نجحت ستجعل باشا مصر قادراً، بفعل ما سيجده من خزائن ببلاد العرب؛ وبفعل فتحه لهذا البلد؛ ومن جراء العظمة والمجد الذى سيناله بسيطرته على الأماكن المقدسة للنبى التى سوف تجعله قادراً على إنزال الهزيمة بالوهابيين المُضطهدين فى عالم الإسلام.

ودائمًا ما أنبه فى ملاحظاتى على أن قوائم تجارة الواردات تبين أن التدابير التجارية للباشا وأهدافه تتجه إلى امتلاكه سلاحًا للبحرية. وهو لايزال منذ حوالى ثلاث سنوات يبيع للإنجليز قمح مصر بمبالغ كبيرة دخلت حصيلتها خزائنه، وكونت لديه نقدية وفيرة، جعلته يُباشر بنفسه فى الخارج مضاربات مركنتيلية (تجارية). ولهذا السبب وظف العديد من الوكلاء الأتراك واليونانيين والأوروبيين الذين أرسلهم، سواء إلى مالطة أو إسبانيا أو البرتغال كوكلاء يزودهم بشحنات الحبوب؛ على أن هؤلاء الوكلاء غير القادرين على التعاون معًا فى عملية البيع؛ مستاءون من أسعار الحبوب من جراء منافستهم. والمشتروات التى يجرونها فى المقابل تتصل بهذه العمليات المعيبة؛ حتى أنه بسبب الإجراءات سيئة التخطيط بدت النتائج لا تمثل له الإغراء الذى كان ينتظره. على أن هناك ما يدعو للاعتقاد بأنه، منذ هذا الحين فصاعداً سوف يقتصر على عقد صفقات تجارية منفردة مع بيت التجارة الذى أسسه فى مالطة، تحت اسم دوكين وشركاه Dekeun et Compagnie . ولابد أن عمليات الباشا التجارية سوف تعطل العمليات التجارية للتجار الأجانب، تلك الصفقات التى تزوده بالبضائع الأوروبية المناسبة لحاجة الاستهلاك فى مصر. ولايمكن لهذه البضائع أن تتجمع سوى لأجله. كذلك لا يمكن لأى مؤسسة أوروبية أن تزدهر: فالإنجليز لهم اثنتان تعملان بشكل أساسى فى تجارة الحبوب وحدها. وبالنسبة لنا ليس لدينا فى مصر سوى بيت وحيد، قدَّم حتى الآن تنظيمات تجارية واسعة النطاق، وإن كانت صفقاته التجارية اليوم مع فرنسا متوقفة؛ جراء وجود صعوبات فى الملاحة، ولتفاقم أحوال التجارة.

ولم نر على الإطلاق البن الأمريكى يتم التصريح له بدخول مصر. والمعروف أن أسعار البن اليمنى ارتفعت جدا والظروف السياسية هى التى منعت صادراته من جدة. وكان هذا بدون شك السبب الذى سمح بدخول "بن المستعمرات" إلى مصر، وهو ما وفر ميزة كبيرة للتجارة الإنجليزية: فاستيراد مثل هذه السلعة وبكميات هائلة جدا لفت نظر هذه الحكومة إلى سرعة استدراك الخسائر التى تنتج عن ذلك بالنسبة لتجارة مزدهرة جدا ومفيدة جدا للبن اليمنى؛ فقد قررت الحكومة بعد بضعة شهور من قدوم بن المستعمرات، حظر جلب هذا البن إلى مصر.

وأرسل الباب العالى خمس عشرة سفينة إلى الإسكندرية لتشحن بحبوب إيستيرا L'Estira ووفقًا لأوامر الباب العالى، يتعين إنجاز شحن هذه السفن سريعًا، بيد أن تزويد مالطة بشحنات مربحة أدى إلى إهمال شحن سفن إستانبول. ولاتزال معظم هذه السفن راسية بالإسكندرية، ولا يمكنها كذلك أن تعرف موعدًا لرحيلها.

وإننى مازلت منتظرًا نتيجة مطالبى المعروضة على السيد دو لاتور موبورج، فيما يتعلق بالغنيمة التى أتى بها إلى هنا السيد لوشوفالييه ميشيل قائد سفينة القرصنة النابوليتية المسماة لو روى دو روم. وقد أبلغت سيادتكم باعتراضات الباشا على أمر بيع هذه الغنيمة، وأعتزم طلب التماس أوامر الباب العالى فى هذا الموضوع.

وكانت هذه السفينة قد تم أسرها فى شهر سبتمبر الماضى، وذلك بواسطة بريك حربى إنجليزى ، باتجاه سواحل جزيرة قبرص. وكان القبطان الإنجليزى قد أنزل طاقم رجال السفينة فى أرناكا Arnaca ولم يحتجزهم كأسرى سوى كل من لوشوفالييه ميشيل ومساعده الثانى القبطان كافاسو Cavasso . وكان طاقم السفينة مكونًا من أربعين رجلاً تم اقتيادهم إلى الإسكندرية بأمر من قنصل قبرص الذى دفع مبلغ ٨٠٠ قرش تقريبًا نفقة نقلهم؛ وكتب إلىَّ أن نفقات هؤلاء البحارة – وفقًا للقواعد المتبعة – يجرى تغطيتها من عائد بيع هذه الغنيمة. وفى الواقع، لمَّا كانت هذه الغنيمة لم تبع بسبب الاعتراضات القوية، فإننى قمت بتزويد هؤلاء البحارة بكل المساعدات الضرورية، وذلك اعتمادًا على تسديد قيمة ذلك، فيما بعد، من حصيلة بيع الغنيمة، إذا ما قدر بيعها هنا بالإسكندرية، وبالنسبة للـ ٨٠٠ قرش التى دفعها السيد رينو Regnault كنفقة لنقل هؤلاء البحارة إلى هذا الميناء (الإسكندرية) لم أوافق على سحبها علىَّ فى تسوية حسابها إلاَّ إذا بيعت الغنيمة التى هى عبارة عن مدفع صغير وشحنة مكونة من حوالى ٩٠ برميلاً من العَرقَ المُسكر.

ومع ذلك فإن معظم هؤلاء البحارة قد تم إنزالهم فى مختلف السفن التى كانت متوجهة إلى شمال إفريقيا أو إلى مختلف أساكل الشرق. ولم يكن لدى خوف أن يصيروا فى خدمة الإنجليز؛ حيث إن القناصل البريطانيين أصدروا أمرًا إلى

قباطنتهم بألا ينزلوا أيًا منهم على سفنهم؛ ولا يوجد من هذا الطاقم سوى ضابطين وستة من الملاحين.

في ١٥ من ديسمبر ١٨١١

اصطحب السيد دروفتي السيد بوتان Boutin في رحلة إلى صعيد مصر، وقد رحلا يوم ١٧ من شهر نوفمبر.

وليس ثمة أخبار جديدة عن موضوع الجيش المصري على سواحل شبه الجزيرة العربية. فبعد استيلائهم على "الينبع"، اتجه الجيش إلى "المدينة"، ولا حديث هنا سوى عن أن الوهابيين سوف يحشدون حشودهم لاعتراض خططه.

واستمر الإنجليز والباشا في تجارتهم للحبوب مع مالطة وإسبانيا. والسفن نفسها التي أرسلها الباب العالي إلى الإسكندرية من أجل قمح إيستيرا Estira تم إهمالها، بحيث إنه لا يهتم سوى بشحن السفن الأولى (سفن الإنجليز) التي يجري إخضاعها لرسوم باهظة تنذر بالإفلاس.

ووصل إلى الإسكندرية سفينتان حربيتان إنجليزيتان، الأولى كانت قادمة من مالطة لا تحمل على متنها سوى طرود، والأخرى وفدت من جهة ساحل قبرص، ولعلها لم تستخدم سوى في أعمال القرصنة.

وليس لدي أي خبر رسمي بخصوص موضوع غنيمة سفينة القرصنة لو روا لو روم.

مع خالص الاحترام..إلخ.

سان مارسيل

٨٣ - دروفتى إلى الوزير
تقرير الفترة من ١ إلى ٢٠ نوفمبر ١٨١١

موجز - أخبار الجزيرة العربية

فى صبيحة يوم ١٥ [نوفمبر] أُطلق مدفع القلعة معلنًا عن أن التقاء طوسون باشا مع فرقة المشاة الذين كانوا بـ "ينبع البحر" قد أدى إلى تحقق الاستيلاء على "ينبع البر".[1] وعند مغادرة حامل البريد حاملاً لهذا الخبر كان الجيش فى حالة جيدة ومكتفيًا بمؤنه الغذائية ولم يكن ثمة نقص فى المؤن سوى فى المواشى المخصصة النقل. ويُنتظر عودة الأسطول إلى السويس والذى سوف يتم فى أعقابه إرسال مؤن وعتاد الحرب.

ويبدو أن محمد على باشا قد أجَّلَ سفره إلى الإسكندرية إلى فصل الربيع القادم.

القاهرة، فى ٢٢ من نوفمبر ١٨١١

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة.

دروفتى

---

(١) إن هذا التمييز بين قسمى المدينة "ينبع البحر" Yambo sur la mer و"ينبع البر" Yamb dans les terres نجده متماشيًا مع وصف الجبرتى للمدينة لحظة استيلاء الجيش المصرى عليها. (راجع الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤، ص ص ٢١٩، ٢٢١) (يومية ١٢ رمضان، ١٥ ذى الحجة ١٢٢٦هـ) . (المترجم)

٨٤- دروفتى إلى الوزير
تقرير الفترة من ١٠ إلى ٣١ ديسمبر ١٨١١

موجز – أنباء مكدرة من بلاد العرب – إخفاق طوسون باشا عند مضايق بدر – ألبانى مُلقب باسم بونابرت.

إن الأخبار الواردة عن حملة بلاد العرب مكدرة للغاية، فقد تقدم طوسون باشا فى سهل بدر – ذلك السهل الشهير بانتصار النبى – حيث أقام مقره العسكرى فى قرية بدر نفسها، واستعد للمرور من خلال مضيقى وادى الصفراء[1] والجديدة الواقعين على مسافة ستة أميال، وهما مضيقان بالغى الضيق حتى أن بعض الأماكن لا يمكن لجمل واحد أن يمر من خلالها إلاّ بشق الأنفس. وفى ذلك الحين انطلق الوهابيون كالغبار المتطاير يقاومون من جميع الجهات ، وهاجموا تلك القوات المضطربة التى كانت تعانى الفوضى والتبعثر فى كل جانب. وجرى نهب المدفعية والخيام والأمتعة والمؤن والجمال، وبدأ النهب من جند طوسون باشا نفسه، وقام الأخير بالتوجه إلى ينبع البحر لإنقاذ نفسه ، ويجمع الآن فلول جيشه بينبع البحر. ولم يلاحق الوهابيون ذلك الجيش خلال تقهقره؛ إذ انسحبوا من جديد إلى الجبال.

وعمل محمد على على إعداد ٢٠٠٠ رجل من سلاح الفرسان ليمد ابنه بالمساعدة. والألبانى الذى أصبح يسمى بونابرت[2] هو واحد من القادة الذين تولوا قيادة هذا المدد.

القاهرة، فى ٣ من شهر يناير ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) مضيق وادى الصفراء: تحيط به الصخور الصلدة من كل جانب وله روابى صخرية عالية على جانبيه، وكان لقيام الوهابيين باحتلال تلك الروابى العالية أثرها الواضح فى إلحاق الهزيمة بطوسون باشا وجنوده (راجع: عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المصدر السابق ، ص٢٩٣). (المترجم)

(٢) أشار إليه الجبرتى تحت مسمى: "بونابرته الخازندار" (راجع الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤، ص٢٣٦) . (المترجم)

١٨١٢

٨٥ - تقرير مرسل إلى سيادة وزير العلاقات الخارجية كتبه الموقع أدناه عند وصوله إلى كورفو[1]

موجز - الحالة السياسية لمصر حتى ٢٨ من أكتوبر ١٨١١م - تسليحات محمد على فى السويس - سلوك شريف مكة - مماليك صعيد مصر - علاقاتهم مع باشا عكا - منافسو محمد على - انقساماتهم - محمد على والعرب - التكاليف التى قامت الخزانة بإرهاق الأهالى بها - علاقات الإنجليز بمحمد على - "الولع بالإنجليز" داخل حاشية محمد على - أعمال تُجرى بالإسكندرية ضد غزو فرنسى (محتمل) - اعتقاد مانجان حول عملية إنزال فرنسى.

أمدتنى إقامتى بمصر، وبقائى بها أربع سنوات، وما كونته خلال هذه المدة من علاقات مع شخصيات بارزة ومهمة، بمعرفة تامة بحالة مصر السياسية، وبشكل يمكننى من إعطاء فكرة دقيقة عن أحوالها حتى ٢٨ من شهر أكتوبر ١٨١١، وهو التاريخ الذى غادرت فيه هذا البلد متوجهًا إلى كورفو فى صحبة شحنة من القمح.

كان قيام محمد على بتوجيه ضربة قوية ضد القوة المملوكية، قد جعله يفكر بجدية، تحت تتابع الأوامر الإلزامية المتكررة من قبل جلالة السلطان، فى القيام بحملته على المدينة ومكة. وشيد سفنه ببولاق وجهزها ثم جعلها تبحر فى ميناء السويس، وعلى متنها ٤٠٠٠ من جند المشاة، وهى القوة التى تحدد لها النزول بالسويس. وكنت شاهد عيان على تلك العملية التى أرسل بسببها، من قبله، مَنْ يتولى إزالة الصعوبات التى

(١) كُتب فى الهامش مصدر هذا التقرير على النحو التالى:

Correspondance polticque, Turquie, Vol. 224, F 44

اعترضت بيع واحدة من الغنائم التى حملتها إلى ميناء الإسكندرية سفينة القرصنة لو روا دو روم. وتُقدر قوة سلاح الخيالة بـ ٢٥٠٠ رجل، يقودهم طوسون باشا، ابنه الذى كان قد عسكَر بالقرب من بركة الحاج، فى انتظار استكمال احتياجات الجيش من الدواب الضرورية؛ لتوصيله إلى ينبع التى كانت قوة المشاة قد سيطرت عليها بالفعل ، واتُّخذت مدينة ينبع موقعًا لحشد جميع قوات الجيش. وما إن اقترب طوسون باشا من قوات الشريف حتى انسحب سريعًا وبلا قتال. وكان لهذا الرئيس الدينى، منذ وقت طويل، اتصالات سرية مع محمد على باشا الذى تلقى منه هدايا، بيد أن هذه الاتصالات كانت خافية على الوهابيين. وكل شىء يحمل على الاعتقاد بأن الشريف يؤثر خوض هذه المغامرة التى من وجهة نظر معينة قد تمكنه من استعادة منصبه الذى تألق بعظمته فى السابق. ومع ذلك فإن الشريف الذى مصلحته تشكل جوهر طابعه لن تتأثر دخوله وعوائده مع أشياعه الجدد:[1] فهو يحتفظ باقطاعيته كاملة ولن يمكنه مع تغير السيطرة (السياسية) أن يتطلع إلى الحصول على مكاسب برغم وعود محمد على باشا. إن أهالى المدينتين المقدستين سعداء تحت الحكم المعتدل للوهابيين الذين بانتشارهم الواسع انجذب إليهم أنصار فى كل جهة؛ ففى القاهرة، ودمشق، وميناءى مكة ، صارت لهم وفقًا لأتباع محمد Les Mahometiens [2] أعداد كبيرة تتزايد مع الوقت وبحسب الظروف.

وانسحب البكوات، فى صعيد مصر، إلى ما بعد إسنا، ويعمل تحت إمرة هؤلاء البكوات ٨٠٠ مملوك و٤٠٠ من الاتباع الذين يعملون فى خدمتهم من قديم الزمان؛ وقد تجمعوا من جديد تحت بيارقهم فى الآونة الأخيرة التى بات فيها الباشا يُطلق النفير عليهم فى جميع الأقاليم، وقد ردَّهم إلى أقصى حدود مصر، فارين من سلطة سيفه.

---

(١) يقصد كاتب التقرير هنا انضمام الشريف لمحمد على. (المترجم)

(٢) المقصود بهم : أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب صاحب الدعوة الإصلاحية الدينية . (المترجم)

(٣) ظل فى الإمارة ٤٨ سنة ولذلك كان أقدم بيت مملوكى، وهو من مماليك محمد بك أبى الذهب، وتوفى فى فبراير ١٨١٦، وحول ترجمته انظر (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٤٠٨ - ٤١١) . (المترجم)

وليس لزعيمهم إبراهيم بك من نفوذ سوى اسمه وأقدمية بيته. (٢) ويعد محمد بك المنفوخ وعبد الرحمن بك وعلى بك الفيومى هم البكوات الأكثر قوة؛ وذلك بفضل أتباعهم من المماليك، وكذا بفضل خدماتهم العسكرية الحديثة. ويمكنهم القتال والحرب حتى شهر أغسطس فحسب؛ إذ إنه فى هذا الشهر تنتشر مياه فيضان النيل فى الأرياف، وهم يحاربون بسلاح فرسان الدلاة الذين كانوا من قبل خصومًا لهم. ولأجل أن يقوموا بهذه الجولات تزودوا بما كانوا يحتاجونه من المؤن والأموال. وعلمتهم الأحداث الأخيرة أن الاتحاد قوة؛ ويبدو أنهم فهموا هذه الحقيقة؛ فلم يعد أحدهم ينفصل عن سيده الذى يُطيعه، والقادة أنفسهم تخلوا عن الدخول فى نزاعات خاصة. ويحافظ هؤلاء البكوات على اتصالاتهم بباشا عكا الذى لاحظوا أنه على خلاف مع الوالى (محمد على باشا)، وذلك منذ أعطى هذا الأخير ملجأً ليوسف باشا حاكم دمشق المطرود من وظائفه بأمر من الباب العالى. ولم تخف هذه الصلات قط عن محمد على باشا؛ لأنه لا يوجد قائد قوة يمكنه أن يحتضنهم؛ وأولئك الذين قد يضرون بمصالحه توجهوا إلى مكة. إن حسن باشا الذى يتبعه قوة من ١٥٠٠ ألبانى قد كرس نفسه لمحمد على تمامًا، وأثبت فى الأوقات العصيبة وده الذى يكنه للأخير، وهو رجل ذو طبع هادئ، ومحدود الكفاءة، وهى صفات أبعدته عن كل الدسائس. على حين أن أخاه عابدين بك، متسلم جرجا، أكثر كمالاً وأكثر بسالة، وهو على رتبة بمباشى، ويعمل تحت إمرته ٥٠٠ رجل، يقدمون له كل إمارات الود والتبعية.

ويمكن أن يشكل حزبًا مع لوص أحمد أغا Luss Hamet Aga المتولى على قنا والقصير وكل الأقاليم حتى إسنا، ولكن الألبان نادرًا ما يجمعهم بالأتراك مصلحة مشتركة، وتلك هى سياسة الباشا فى تقسيمهم، والقادة المرتبطون به هم أكثر مَنْ يخشاهم.

وبسبب انفعالات أحمد لوص Hamet Luss وميوله الاستقلالية نجده أحيانًا يتجاوز حدود سلطته؛ إن مجاورته للمماليك، وبقاء قوة من ٦٠٠ رجل تحت إمرته يمكن أن يُثير قلق الباشا الذى بفضل تقلب سياسته بين اللين والتهديد يتمكن من جعله تحت

قوانين سلطته. وقد وضع فى هذا الإقليم مصطفى بك، أخاه الطيب مزوداً بـ ١٠٠٠ من الدلاة؛ كى يتفادى أى أمر مفاجئ، وهو يضع فى جميع الأماكن الأخرى أفراداً من أقربائه ومن أهل بيته. وعهد بالقلعة إلى ابن أخته إبراهيم أغا، ورئيس حرس حريمه فرد من عائلته. ولخليل بك، صهره، ثلاثمائة رجل يحكم بهم الإسكندرية ورشيد ودمياط، وهذه المدن ليس بها سوى حاميات هزيلة، ولا يوجد داخل الدلتا والبحيرة سوى كُشّاف قائمون بالضرورة على جمع الضرائب، وباقى القوات مبعثرة فى مختلف أحياء القاهرة؛ ليجرى استخدامها فى كل الظروف التى تتطلب استدعاءهم.

ولما خاض محمد على باشا حربه مع المماليك، وأمكنه أبعادهم إلى صعيد مصر، كان يبحث بكل الوسائل الممكنة عما يجعله فى حال وفاق مع عربان الضفة اليسرى للنيل، ولم يدخر وسعاً لأجل التحالف معهم، وأجرى عليهم العطايا، وخصص لهم قرى يقومون على زراعتها وإطعام مواشيهم، واليوم يعاملهم بأقل كرم، وفى كثير من الأحيان يستغلهم، ولما كانت فرقة الخيالة فى طريقها إلى السويس كانت كل قبيلة فى سلام معه متعيناً عليها تزويدها بمائة جمل؛ ويشكو كل من عرب قرواديس[١] والجميس[٢] والفوايد[٣] وأولاد على[٤] من مكوسه الجائرة؛[٥] وإذا كان للباشا بعض

---

(١) لم نجد فى معاجم قبائل العرب هذا الاسم " قرواديس"، ولعله يقصد عرب "قُردوس" أو القراديس" وهم من عرب القحطانية الذين نزل بعضهم فى مصر، (راجع : عمر رضا خالد: معجم قبائل العرب القديمة والحديثة، مؤسسة الرسالة، بيروت ط٣، ١٩٨٢، ج٣، ص٩٤٢). (المترجم)

(٢) الجميس : فرقة من البشاكم إحدى عشائر حماة بسوريا، نزلت فى الصحراء الغربية (راجع : عمر رضا خالد: المرجع السابق ، ج١ ، ص٢٠٦). (المترجم)

(٣) الفوايد : من نسل فايد برغوث ، نزلوا من برقة فى صحراء مصر الغربية (المرجع نفسه، ج٢، ص٩٢٣) . (المترجم)

(٤) أولاد على : هم من كبرى القبائل العربية القاطنة فى الصحراء الغربية وبرقة. (المترجم)

(٥) حدد الجبرتى قيمة الغرامة التى فرضها محمد على على هؤلاء العرب ، ومنهم عرب الفوائد الذين تحملوا وحدهم دفع سبعين ألف ريال فرانسه، وحسب الجبرتى أبدوا نوعاً من العصيان والرفض " فعصوا ورمحوا بإقليم الجيزة وأخذوا المواشى وشلحوا من صادفوه " (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٧٦). (المترجم)

الأعداء الذين يعلنون جهاراً أنهم ضده، فإن العرب يستسلمون لحزبه. ويحذو العرب المزارعون بالضفة اليمنى لنهر النيل حذوهم؛ ومن ثم امتد نمط الاستبداد الممارس فى مصر حتى عمَّ فروع قبائلهم.

ومازال الفلاحون أقل قدرة على الادخار، والضرائب من كل نوع تثقل كاهلهم، ففدان الأرض الذى كان يدفع تحت حكم جلالة الإمبراطور،[1] ضريبة مقدارها ١٢ قرشاً صار مفروضاً عليه اليوم خمسين قرشاً. إن مصادرة المواشى، ودفع ضريبة حق الطريق، ومرور القوات أجهد هؤلاء التعساء، ونزع منهم ثمرة كدهم وعرقهم. ولا يمكن لإنتاج المحاصيل أن تكفى احتياجات خزانة المالية، ولا تكفى شراهة وجشع وكلائه. إن هؤلاء المخربين نهبوا أكثر من ثلث سكان مصر، وتسببوا فى بوار مساحة مهمة من الأراضى التى لم يكن ثمة إمكانية لجعلها تتلقى مياه النيل؛ وذلك بسبب حالة الإحباط وإهمال الملكيات مما أعاق إمكانية تفعيل وسائل الرى. وفى مثل هذه الأجواء كان الشيوخ والعلماء يسمعون لشكاويهم التى لم يكن الباشا على استعداد للإصغاء إليها سوى بآذانٍ غير مبالية. وقد باعت له الأغلبية ، واستبعد فى المقابل أولئك الذين لم يحبذوا مشاريعه. ورغم كبر سن الشيخ السادات فإنه يعد اليوم الأكثر حظوة ومقدرة؛ وذلك بسبب شغله منصب نقيب الأشراف منذ نفى السيد عمر مكرم.[2] وعلى حين أن البعض (من العلماء) يطيع رغبات الباشا بشكل أعمى، نجد آخرين لا يريدون أن يعملوا شيئاً، والشيخ سُليمان الفيومى[3] الأكثر شعبية واحتراماً أنهى أيامه. والطابع

---

(١) المقصود بحكم جلالة الإمبراطور: نابليون بونابرت وهو يعنى هنا فى زمن الحملة الفرنسية تحت قيادة بونابرت. (المترجم)

(٢) صدر فرمان محمد على بنفى السيد عمر مكرم إلى دمياط فى ٢٧ جمادى الثانية١٢٢٤هـ/٦أغسطس ١٨٠٩م (راجع تفاصيل نفى عمر مكرم فى الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص١٦١، ١٦٢). (المترجم)

(٣) لمزيد من التفاصيل حول ترجمة الشيخ سليمان الفيومى انظر (الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤، ص ص ٣٧٠- ٣٧٢) وفى زمن كتابة هذا التقرير كان الشيخ سليمان الفيومى قد تجاوز سنه السبعين، وصار طاعناً فى السن، وخلع من منصب شيخ الأزهر فى تلك الآونة، وانصرف إلى نفسه ولم يعد يولى اهتماماً بمتابعة التدريس بانتظام فى الجامع الأزهر حتى توفى فى ٢صفر١٢٣٠هـ/١٤يناير١٨١٥م . (المترجم)

الهادئ للشيخ عبد الله الشرقاوى[1] لا يسمح له بأن يقحم نفسه فى متاعب، وأن يتبعها دون المجازفة بوظائفه التى يشغلها كرئيس لأكبر مسجد فى البلاد (الأزهر). وأما الشيخ المهدى[2] الأكثر حذقًا ولينًا وممارسة للأمور المختلفة هو لسان حال زملائه من العلماء، بيد أنه أكثر انشغالاً بمصالحه الخاصة، وهو أكثر من يتعامل مع الباشا بصورة جيدة، ويتجاسر على مخالفة أوامره. وقام هذا الشيخ مع ابن الشيخ El Lunir بمرافقة ابن الباشا (طوسون) فى حملته حتى يتولى ردَّ الناس الضالة إلى دين محمد.[3]

تلك هى المبادئ التى تحكم وتدار بها اليوم مصر؛ وهى نفس المبادئ التى كانت مفضلة لدى الألفى بك الذى حظى بحماية الإنجليز، وتم اتباع هذه المبادئ بصورة مستمرة من خلال الحكومة الحالية التى غير بعيدٍ عنها ما يقوم به الإنجليز من رعاية لوكلاء لهم سريين وعموميين، ولا يأخذ الإنجليز أى شفقة على المصير الذى آل إليه المماليك؛ وذلك منذ تناقصت أعدادهم، واستحالت منفعتهم لهم، ويحثون محمد على باشا على ألاَّ يتغافل عن شىء فى مصلحتهم. وقد مالت كفة الميزان إلى جانبهم؛ وصارت حاشية الباشا غاصة بالمهووسين بالإنجليز الذين يقدمون خدماتهم فى صالحهم. ونجد بصفة خاصة طبيبه مندرى Mendrie الأكثر تأثيراً على الباشا، ولا

(١) راجع الترجمة المفصلة والمطولة للشيخ عبد الله الشرقاوى شيخ الأزهر الشافعى فى (الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤، ص ص ٢٥٦ - ٢٦٣). (المترجم)

(٢) ورد اسمه فى النص المنشور Nandi ونعتقد بعدم دقة قراءة دريو لحروف الاسم المكتوب فى مخطوطة التقرير، وصحة الاسم Mahdi وحول ترجمة الشيخ محمد المهدى (توفى فى سنة ١٨١٥م) انظر (الجبرتى، ج٤، ص ص ٢٦٦ - ٢٧٠). (المترجم)

(٣) أشار الجبرتى إلى أن الفقهاء والعلماء الذين اصطحبوا طوسون باشا فى حملته بالحجاز هم الشيخ محمد المهدى الشافعى، والسيد أحمد الطحاوى الحنفى، أما الشيخ حسن كريت المالكى، والشيخ على خفاجى فقد اعتذرا وأُعفيا من السفر ورجعا إلى بلديهما برشيد ودمياط ، راجع (الجبرتى: المصدر نفسه، ج٤، ص٢١٨ يومية ١٥ شعبان ١٢٢٦هـ/٤ سبتمبر ١٨١١م). (المترجم)

يدخر هذا الرجل الماكر (أى مندرى) وسعًا لإلحاق الأذى بنا ، وبالأحرى يسعى فى تمزيق الفرنسيين. وهو كذلك أكثر خطورة؛ جراء إصغاء الباشا، عن طيب خاطر لنصائحه والعمل على اتباعها؛ إن تنظيم الأمور مع مالطة، والكميات الكبيرة من الأغذية التى كان يتم تصديرها من مصر لتغذية كل من جزيرة منوريكا Minorque(١) وميناءى قادش Cadix(٢) ولشبونة Lisbonne (٣) الذين يمثلون وسائل التقارب التى حافظت على وجود اتصالات جيدة بين الجانبين. ووصل الكولونيل ميست Le Colonel Miscette قادمًا من مسينا Messine،(٤) بصفته المقيم البريطانى Résident Britan-niques؛ وذلك لتوطيد العلاقة (بين ولاية مصر وإنجلترا)؛ ولا يغفل قنصل السويد، المدعو بطروشى، عن شيء يساعده به. وثمة أخبار منافية للمنطق بشكل دائم تظهر بأن الأسلحة التى يستخدمونها تعمل فى كثير من الأحيان على هزيمتنا. ويجد الشوام والأقباط، وهم من أكبر أعدائنا، سعادة غامرة فى ترويج مثل هذه الأخبار المزعومة، ولا يألون جهدًا فى المجاهرة بذلك. والإنجليز الراغبون بصورة مستمرة فى حدوث اجتياح لهذا البلد من جانب الفرنسيين؛ حيث إن ذلك يتوافق مع مصالحهم، يعلنون هنا عن خروج أسطول طولون؛(٥) ومن ثم قرروا بأن الباشا عليه أن يتهيأ للدفاع. وكان الباشا، منذ وقت طويل، قد أمر بالأعمال التحصينية للإسكندرية. وأحاط بالفعل مدينة العرب القديمة بسور ضخم؛ واستخدم فى أعمال أخرى ثلاثمائة رجل من البنائين والنجارين

---

(١) منوريكا : Minorique واسمها بالإسبانية Menorca؛ وهى جزيرة بالبحر المتوسط تابعة لإسبانيا، وتقع إلى الشمال الشرقى من إسبانيا، وتبلغ مساحتها ٦٦٨ كم٢ (راجع: Dict. Hachette, Ency-clopédique, p. 1223) . (المترجم)

(٢) قادش : Cadix ميناء إسبانى يقع على الأطلنطى، وتحديدًا إلى الشمال من جزيرة ليون Léon وكان ميناءً مهما فى القرن الثامن عشر، وذلك خلال فترة الإمبراطورية الاستعمارية الإسبانية فى الأمريكتين، راجع (Dict. Hachette, Encyclopédique, p. - 264). (المترجم)

(٣) لشبونة : Lisbonne هى عاصمة دولة البرتغال، وتُعد من أهم المدن الموانئ، جراء علاقاتها مع أمريكا الجنوبية وإفريقيا، راجع (Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1098). (المترجم)

(٤) مسينا : Messine مدينة صغيرة ببلاد اليونان . (المترجم)

الذين أرسلهم إليه على باشا الألبانى. إن خطط الحملة التى رسمها له أعداؤنا يمكن أن تواجه ببعض العقبات البسيطة جدا بالنسبة لجيش أوروبى، مكون من عشرة آلاف مقاتل، مخصصين لغزو هذا البلد. وأقر بأن ليس لدى سوى معرفة محدودة بالفن العسكرى، بيد أننى إذا ما تجاسرت، مجازفًا بتقديم تصورى حول هذا الغزو، فأعتقد بأن العملية الأكيدة أن نتوجه بإنزال الجيش، تحت لهيب نيران الزوارق، داخل الميناء الجديد بالمكان نفسه بالإسكندرية، وأن يعمل سلاح المدفعية بالفرقاطتين على إخراس مدفعية حصن الفنار الذى هو بالفعل فى حالة سيئة، وتتولى المراكب الأخرى بث الفوضى بإطلاق المدافع على كل شىء من شأنه أن يساعد على إضرام النيران، وذلك من جانب الميناء القديم. وأن يتم فى الوقت نفسه الاستيلاء على المدينة، وأعتقد بأن أهالى الإسكندرية، بما لديهم من خبرة، فضلاً عن كونهم مرهقين من المظالم والضغوط، لن يذهبوا إلى أى جهة أخرى. والجزء الكبير من الجيش يمكنه الوصول إلى دمنهور قبل أن يخرج الباشا بقواته، وفى هذا الوقت سوف يُفزعهم انتصاراتنا الأولى. وسوف يمكننا، فضلاً عن ذلك، أن نلحق الهزيمة بـ ٣٠٠٠ رجلاً من الخيالة، و ٥٠٠٠ من المشاة؛ حيث إن هذه القوات المبعثرة فى صعيد مصر لا يمكن تجميعها معًا (فى وقت واحد)؛ والنتيجة الأولى أن هذه القوات ستظل فى حالة انقسام، فى الوقت الذى يدعم فيه أهالى الأقاليم والبدو مشاريع النصر. ويضطر الباشا آنذاك للانسحاب إلى داخل قلعة القاهرة، منتظرًا عقد اتفاقية تسليم، تُمكنه من الاحتفاظ لنفسه بالخزائن التى جمعها، وربما خرج عبر الطريق الآمن الذى اعتاد المضى فيه، بالقرب من باب الإنكشارية حتى سفح جبل المقطم هاربًا إلى السويس؛ لينزل بسفنه ، وينطلق من هناك إلى جدة، حيث يتعين أن يفتح له ابنه (طوسون) الموانئ. ويضع الباشا تحت يده كمية كبيرة من الجمال التى تساعده على اتمام تقهقره. والقوات المهملة فى حد ذاتها فى صعيد مصر إما أنها ستستسلم فى سرية تامة أو أنها ستكرس حقد وضغينة الناس المتطلعة إلى إقرار نظام جديد لشئون البلاد.

ولن أتطرق إلى الدخول فى كل هذه التفاصيل، إذ إن رغبتى الوحيدة أن يكون لدى ما أفيد به سيادتكم، وأن أخدم إمبراطورنا أوغسطس(*) لأدلل على برهان إخلاصى التام لشخصه.

كورفو، فى ٢٠ يناير ١٨١٢م .

مانجان Mengin

(*) المقصود : نابليون بونابرت. (المترجم)

٨٦ – سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز – تعنف قنصل الإنجليز مع الرعايا الإنجليز – القناصل الإنجليز يحمون سفاحاً مشهوراً.

الإسكندرية، فى ٢٠ من شهر يناير ١٨١٢

(سُجلت فى ٢٦ من شهر يونيو)

السيد المحترم ،

وقع بمدينة الإسكندرية حادثة تُبين إلى أى حد انغمست القنصلية الإنجليزية فى ممارسات استبدادية. فأحد أتباع الكويكرز(*) الإنجليز ، ويدعى القبطان دالتون Dalton أساء معاملة رجل موريتانى كان متعهداً بإمداده بالمؤن، مما دفع بالأخير إلى حمل شكايته إلى حاكم المدينة، بيد أن هذا الأخير طالبه بأن يتراضى مع السيد ستيفن مالطاس Sieur Stephens Maltas، وكيل القنصل الإنجليزى. وهذا الأخير، وبدون أن يستمع للمدعى عليه (دالتون) أرسل إليه فى الحال أمراً بأن يراعى تنفيذ الأوامر على متن سفينته؛ واستحق القبطان دالتون مثل هذا الظلم، فكان أن رفض إطاعة أوامر القنصل ونزل محتجًا إلى البر. وفى هذه اللحظة ألقى القنصل القبض عليه، واقتاده إلى سجون القنصلية. واستشاط القبطان دالتون غضباً فقام بسب القنصل الذى أراد فى ذلك الحين أن يقضى بالعدل فى هذه الحادثة بنفسه، وأصدر أمره إلى أتباعه بأن يضربوه فى سجنه وألاً يراعوا شأنه؛ ونُفِّذ أمر القنصل وفى حضوره شخصيا، ولسوء الحظ أُصيب القبطان فى رأسه وبطنه بجرح خطير، وظل

(*) الكويكرز: هم إحدى الحركات الدينية البروتستانتية التى لا تعرف الكهنوت ولا السر المقدس، وتدعو إلى السلام والبساطة وحب البشر، وتكره الحرب راجع:

(Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1551) .

غارقًا فى دمه؛ وجىء بالطبيب الجراح ويأمر من القنصل نقلوا هذا الجريح ، نحو الساعة الحادية عشرة مساءً ، إلى البيت المخصص لمعالجة الجرحى. وربما تركت هذه الحادثة فى نفسية القبطان دالتون، فى المستقبل، آثاراً أليمة.

وتمسك القبطان دالتون بأن يجرى تقصٍ للحقائق، وبصورة عادلة، فى شأن تلك الممارسات التعسفية والجائرة التى اقترفها – القنصل فى حقه: بيد أن القنصل العام البريطانى، المدعو السيد ميست، حين لجأ إليه دالتون، امتنع عن الحكم فى قضيته، مشيراً إلى اعتقاده بأنه من غير الممكن الحصول على أدلة عادلة لتقديمها وعرضها على المحاكم فى لندن، فالتصرف التعسفى والاستبدادى للسيد مالطاس سيظل من ثم بلا عقاب. إن نموذج الحرية التى كرسها الدستور الإنجليزى لا يظهر منه، كما فى أشياء أخرى، سوى هذه التجاوزات.

وأضيف إلى هذا العرض بعض تصرفات السادة القناصل الإنجليز، التى يمارسونها فى هذا الميناء، وتحديداً بشأن الحماية التى منحوها لسفاح هارب من سجون القنصلية الفرنسية، والذى كان معتقلاً بها منذ حوالى أربعة شهور، فى انتظار فرصة للإبحار به إلى فرنسا أو إيطاليا. وإجراء التحقيق فى مسألة هذا السفاح كان مُعدا، وكان من المتعين أن ينقل معه هذا التحقيق. وما إن علمت بمكان هروبه حتى استدعيت حضوره من عند السيد ميست، القنصل العام البريطانى، بوصف الهارب مجرماً لا يمكن أن يتلقى حماية من أى أمة متحضرة.

وصرح هذا الوكيل الإنجليزى بأن المجرم فر هارباً من عند السيد مالطاس، ولا يمكن رده أيضًا لأن الوكلاء الإنجليز فى مصر عملوا بصورة مضاعفة لذلك، سواء بعملهم على إخفاء الجريمة من خلال الحامى الأزيلى **L'Azyle protecteur** التى منحوها لكل القتلة الأوروبيين أو من خلال اضطهاد واستبداد مواطنيهم المتقاضين.

مع كل الاحترام...إلخ.

سان مارسيل

٨٧- نشرة من ١ إلى ٣١ يناير ١٨١٢

موجز – إخفاق طوسون باشا فى مضيق بدر – محمد على يرسل الدعم – انتصارات إبراهيم بك فى صعيد مصر – ارتفاع أسعار المواد الغذائية – الوصى على عرش إنجلترا يُرسل إلى محمد على هدايا عظيمة .

(سُجِّلَت فى ٢٠ من شهر نوفمبر)

إن كل التقارير التى تم تلقيها خلال شهر يناير حول الضربة التى أصابت جيش طوسون باشا إنما تعزو سبب الإخفاق إلى اندفاع هذا الشاب المحارب ، وإلى سوء الحظ الذى جعله يُجرح فى المعركة ، ويقع من فوق جواده الذى وقع صريعًا تحته . ومع تزايد سقوط القتلى فى قواته ، تراءى للجند اتخاذ قرار الهروب من تلقاء أنفسهم ،[١] تاركين ميدان القتال ، الذى سُلِبَ منهم فيه سبعة مدافع ، وذخائر وعتاد وأمتعة...إلخ.

وتم تعليق كل الترتيبات التى اتخذها محمد على باشا فى إرسال فرقة من سلاح الخيالة لمعاونة طوسون باشا ؛ فقد عاد نحو ٤٠٠ أو ٥٠٠ رجل من جيش طوسون باشا إلى المويلح وهم فى حالة تدعو للرثاء . وكان سلوك العسكر (الفارين) على هذا النحو قد أزعج العرب وسكان الساحل ؛ بحيث إن هؤلاء الأخيرين لم يستطيعوا سحب مؤنهم التى كانوا ، منذ البداية ، يزودون بها الجيش . ومع ذلك ، فإن محمد على باشا لا يريد أن يتخلى عن هذا المشروع الذى بمرور الأيام يزداد صعوبة ؛ وقد عمل على إرسال العديد من فرق المشاة ؛ لأجل مؤازرة جيش ابنه ؛ كيما يجعله فى حالة قادرة – كما يقال – على احتلال جدة.

---

(١) بلغ عدد جنود جيش طوسون الذين عادوا إلى ينبع ثلاثة آلاف جندى . (راجع : عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم: المرجع السابق ، ص٢٩٢). (المترجم)

وكان محمد على أكثر رضى وسعادة عن الأخبار الواردة من صعيد مصر : إذ يُقال بأن ابنه الكبير إبراهيم بك قد تمكن من طرد القوات المملوكية إلى ما بعد إبريم[1] . والعربان الذين كانوا فى سالف الأيام أتباعًا لحزب البكوات تأثروا بهذا الانتصار، وعرف إبراهيم بك ، بهذا الانتصار ، كيف يجذب إليه هؤلاء العربان. ويروى بأشكال مختلفة عن نتائج هذه العمليات (العسكرية) ، وهناك الكثير من الناس يعتقد بأنها مجرد أخبار ملفقة وغير حقيقية، وأنهم ينشرونها لإلهاء الفكر العام عند الناس بطريقة مناسبة . ومع ذلك فمن المؤكد أن إبراهيم بك أصبح له مقرا عاما فى أسيوط، وذلك منذ يوم ١٦ من الشهر الماضى.

وتضاعفت أسعار المواد الغذائية فجأة ، وبدأ الناس يتأثرون بالحركة الكبيرة للصادرات الموجهة إلى مالطة . ووفدت من إستانبول سفن عديدة ؛ لأجل شحنها بالحبوب ، بيد أنهم علقوا شحنها ، منذ بضعة أشهر ، داخل موانئ الإسكندرية ، وسوف تضطر تلك السفن إلى العودة من حيث أتت وهى فارغة.

وأيًا كانت درجة منسوب الفيضان ، فى العام الماضى ، قد وافت الحد المناسب الذى يسمح بحصاد وفير، فإن التراجع السريع لمياه الفيضان دون أن تقضى على الحشرات العديدة الموجودة على الأراضى من قبل زمن الفيضان ، قد تسبَّب فى إتلاف بذور الزرع ، وبعض الأقاليم تعين إعادة بذرها ثلاث مرات ؛ بحيث إن الآمال التى كان يظنها الناس فى الخصوبة ووفرة الحصاد فى الموسم القادم باتت بعيدة عن أن تتحقق.

وتلقى الباشا من الأمير الوصى على عرش بريطانيا العظمى هدايا ثمينة، حملها إليه إسماعيل القبطان، قائد الطراد الذى كان محمد على قد أرسله ، من قبل ، إلى

---

(١) إبْريم : من النواحى القديمة بأسوان (انظر : محمد رمزى : القاموس الجغرافى للبلاد المصرية ، القسم الثانى ، الجزء الرابع ، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ، ١٩٩٤، ص٢٢٠).

إنجلترا ، حيث كان محدداً له أن يمر بالبحر الأحمر عبر المحيط. ولتعديل ما يمكن أن يؤدى إليه رفض مرور هذه السفينة من تكدير (للعلاقات) ، قام الإنجليز بإعادة الطراد إليه ، وذلك بعد أن بطنوها تماماً بالنحاس المعتمد، وبعد أن سلّحوها على نفقة الحكومة البريطانية . وأوعزوا إلى الباشا اعتقاداً بأن تكلفة إعداد هذه السفينة تجاوزت الثلاثة آلاف قرش تركي . وقرر الباشا أن يتوجه إلى الإسكندرية ، عما قريب ، لزيارة هذه الطراد ، وسفينة (بريك) أخرى كان قد اشتراها من مالطة.

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتي

٨٨ - سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز- الإنجليز يعيدون إلى الإسكندرية الطراد الذى سلَّحوه على نفقتهم ، هو الطراد الذى عزم محمد على إرساله إلى البحر الأحمر - محمد على يعمل على زيادة قواته البحرية بدرجة كبيرة - إخفاق (حملة بدر) - تحصينات الإسكندرية - شحنات القمح الموجهة لإستانبول - فرمان الباب العالى بشأن غنائم سفينة روى دو روم .

الإسكندرية ، فى ٢٠ من يناير ١٨١٢

(سجلت فى ٣٠ سبتمبر)

السيد المحترم ،

إن الطراد التابع لمحمد على باشا القاهرة ، الذى تحت قيادة إسماعيل قبطان ، تحرك من هذا الميناء (الإسكندرية) نحو شهر أبريل من سنة ١٨١٠ ، وكان مقرراً له الدوران حول إفريقيا ، ثم عودته من خلال البحر الأحمر . هذه السفينة وصلت إلى ميناء الإسكندرية ، قادمة من لندن ، وكانت حكومة بريطانيا هى التى أثارت فى وجه إسماعيل القبطان العقبات ؛ حيث أقلقها المسار الذى تحدد لهذا الطراد؛ وكان ذلك سبباً فى تحولها عن متابعة رحلتها ، ولكى يبرر الإنجليز سبب رفضهم بطريقة أقل غلواً قرروا أن يمدوا محمد على بالذهب والهدايا المُغرية جدا لدى أهالى المشرق .

وهذا الطراد تم تشييده بالإسكندرية ، وجرى إصلاحه فى لندن على نفقة الحكومة (البريطانية) ، وكما قيل جرى تبطينه بالنحاس ، كما تم تطريق سطحه ، وعمل أشرعة جديدة ، فضلاً عن تسليحه بثلاثين قطعة مدفع برونزى ، وتزويده بثلاثمائة بندقية ، وعلى مدار العام كان الطراد يمد بكل الذخائر المطلوبة سواء فى حال استخدامها للحرب أو لمرورها عبر المنافذ (البحرية) . ولم تتوقف عطايا الإنجليز عند هذا الحد ؛ حيث قدموا ، بين أشياء كثيرة أخرى ، لمحمد على : الساعات المرصعة

بالماس ، والساعات ذات البندول ، والماس والطبنجات المرصعة كذلك ، وتسلم إسماعيل قبطان كل هذه العطايا فى شكل هدايا كُلِّف بتوصيلها إلى محمد على باشا الذى تشرف الأمير الوصى على العرش الإنجليزى بإرسالها إليه . وتُقدر هذه الهدايا بـ ١٥٠٠ جنيه إسترلينى.

ورست بالإسكندرية سفينة البريجانتين الأمريكية المسلحة بالبضائع المشتراة من مالطة على حساب الباشا . ويوجد فى ترسانة هذه المدينة (الإسكندرية) فرقاطة، يجرى الآن تصنيعها ، وسوف تحمل على متنها أربعين قطعة مدفعية . واشترى الباشا أيضًا بعض السفن النمساوية ، ومن ثم فإن سلاح بحريته الذى بدأ فى تدشينه قد صار اليوم مكونًا من الطراد الحربى ، ومن ثمانى سفن تجارية ، وذلك خلافًا للفرقاطة التى لا تزال تحت الإنشاء ، والمتوقع لها أن يبحرون بها خلال شهرين أو ثلاثة أشهر .

وتلقى الباشا أخباراً مقلقة ؛ جراء تحركات جيشه بالقرب من الينبع . وتأكد لنا أن جيشه كابد هزيمة كاملة عند التحامه بالوهابيين فى إحدى الشعب الضيقة بين "ينبع" و " المدينة " ؛ فقوات الباشا بُوغِتت بقوات غَفيرة من الوهابيين الذين كانوا كامنين فى هذا المضيق.

وخسر جيش الأتراك أعدادًا كبيرة من الرجال والعتاد والأمتعة ؛ واضطروا إلى الإنسحاب من جديد إلى " الينبع " ؛ فقد وهنت عزائمهم جراء ضعف قوتهم ، وقتالهم ضد عدو كثيف العدد ، وملئ بالحماسة ، ومزود إلى جانب ذلك بالأسلحة والمؤن الغذائية .

ولاتزال حركة بناء الأسوار الجديدة مستمرة ، وهى التى تشكل حزامًا حول هذه المدينة ، وهذا العمل لن يبلغ نهايته قبل مرور عامين على الأكثر ، وقد وصلت أعمالهم إلى الحصن الذى يُقال له " حصن المثلث " . والباب القديم المسمى " باب بومبيه " صار باليًا ، وعلى أساسيات الأسوار القديمة جرى تدشين ثلاثة أسوار [جديدة] . وبين

البابين الأولين (باب المثلث/ باب بومبيه) ، واللذين يقع أحدهما إلى الشمال ، والآخر إلى الجنوب الغربى ، كان يوجد ممر مُقَبَّب بمخزنين ، وذلك بالقرب من الباب الواقع إلى الشمال ، وفوق هذين البابين يوجد حصن ، وأيا كان ارتفاع هذا الحصن ، فإنه يشرف على ربوات عالية تواجهه .

وفيما يتعلق بالباب الثالث ، الواقع إلى الجنوب ، قبالة عمود بومبيه ، يوجد جسر قوى تم إنشاؤه على غرار جسر الباب العالى بالميدان الكبير بهذه المدينة . وعلاوة على ذلك ، فإن هذه المنشآت أقل صلابة ، والأسوار القديمة هى وحدها المرتكزة على الأسوار الجديدة، والحصون لا تشكل سوى أبراج قديمة ومثقوبة بالعديد من الغرف المعقودة الشكل ، التى مُلِئَتْ بالأتربة والأنقاض ؛ هكذا فإن الأسوار القديمة المدعمة بهذه الكتلة من الأتربة المجلوبة إليها ، قد تنهار بمجرد تعرض أحد هذه الأسوار للهدم أو التلف .

وأرسل الباب العالى ، منذ خمسة شهور ، إحدى عشرة سفينة ، إلى هذين الميناءين[١] وذلك بقصد شحنهم بحبوب إستيفا Les grains de l' Istiva وثلاثة من هذه السفن فقط هى التى رحلت من الميناء مشحونة بالحبوب المرسلة لإستانبول ؛ وثمة أربعة أخرى فى طريقها للشحن ، أما الأربعة المتبقية الأخرى فقد طُلِب إليها أن ترحل عن الميناء ، بعد خمسة شهور من الانتظار بميناءى الإسكندرية ؛ وهذا ما كبَّد قباطنة هذه السفن الأربعة خسائر كبيرة، وبعض قباطنة هذه السفن من إليريا Illyrie وثغور قطارو De bouches de Cataro وبرغم هذه الصادرات من الحبوب فإن القمح لم يتناقص هنا، بيد أنهم يرسلونه إلى السفن المتجهة إلى مالطة .

ولم أتلق سوى خطاب واحد ، بتاريخ ٢٤ من أكتوبر ١٨١١، من قبل السيد دو لاتور – مابور ، والخاص بموضوع بيع غنيمة القرصنة التى قيدت إلى الإسكندرية بواسطة سفينة القرصنة ، التى احتجزها الباشا انتظاراً لقرار يصدر عن الباب العالى . ولم ينقل إلىَّ السيد لاتور – موبور أى فرمان صادر من الباب العالى فى

خصوص هذا الموضوع ؛ وأدركت ، بناء على ذلك ، أن الباب العالى أصدر فحسب أمره إلى الباشا بألاَّ يسمح بأى اعتراض على بيع غنيمة القرصنة ، وكتبت فى هذا الصدد رسالة إلى السيد دروفتى.

وقد وصل هذا القنصل (دروفتى) من صعيد مصر ، حاملاً معه مجموعة كبيرة من الآثار القديمة ، وخاصة ما كان منها فى شكل لفافات ، ومخطوطات من ورق البردى . وترك دروفتى السيد بوتان " Boutin" فى قنا ؛ حيث توجه إلى القصير.

مع خالص الاحترام ...إلخ .

سان مارسيل

(١) المقصود بالميناءين : الميناء الشرقى والميناء الغربى بالإسكندرية . (المترجم)

٨٩- دروفتى إلى الوزير
نشرة شهر فبراير ١٨١٢

موجز – حالة حملة الجزيرة العربية – طوسون باشا مُهدد فى الينبع – الباب العالى يعد حملة أخرى فى سوريا لتوجيهها إلى قتال الوهابيين – طموحات خسرو باشا – اضطراب التجارة المصرية وصعوباتها – استيراد البن الأمريكى – المضاربة على تجارة البن .

تحدد سفر الباشا إلى الإسكندرية يوم ١٥ من شهر فبراير ، وكان هذا السفر قد تم تأجيله ، ولم يعد موضوعًا ذا بال ، بعد ما بلغه أنباء غير سارة من الجزيرة العربية : فالوهابيون الذين حمّسهم كثيراً انتصارهم فى الجديدة كادوا يدركون طوسون باشا الذى لم يعد تحت حوزته سوى " الينبع " . وتسبّب نقص المؤن الغذائية ، وفتور الحماس وتناقص قواته بفعل الأمراض ، فى إضعاف إمكانية استئنافه للهجوم . وعمل محمد على بالفعل على إرسال العديد من فرق المشاة من أجل دعم قواته . ولنفس الهدف أعد فرقة من المغاربة أو البربر ، على أنه اختار من أفراد هذه الجالية من كان منهم مقيماً فى مصر منذ بضع سنوات . ويبقى أن نعرف فيما إذا كانت هذه الإمدادات سوف تصل فى حينها أم لا . والمؤكد لنا أن شريف جدة سوف يضم قواته إلى قوات الوهابيين ، لشنٍّ هجوم على الينبع برا وبحراً . وكانت الحجة التى تذرع بها الشريف أنه لا يمكنه مقاومة هؤلاء العرب (الوهابيين) الذين أجبروه على اتخاذ هذا المسلك ؛ وكتب كذلك إلى محمد على رسالة ليبرر مسلكه هذا بأنه يعد الباشا بالمساعدة إذا ما تغيرت الظروف لصالحه .

إن تطلعات محمد على فى إعادة يوسف باشا إلى تولى حكومة دمشق ، والتى بدت بعيدة عن التحقق ، تحولت اليوم إلى مصدر للقلق : إذ يُقال هنا إنه فى حال تحقق السلام بين روسيا والباب العالى ، فإن حكومة الباب العالى سوف تعتزم أن

تنظم جيشاً فى سوريا ، توجهه إلى محاربة الوهابيين ، وإن قيادة هذا الجيش سوف تسند إلى كور يوسف باشا ، الذى كان فى السابق وزيراً كبيراً ، ومن ثم سوف يعمل تحت أوامر هذا الباشا قوات مصر . ومن جانب آخر ، نجد القبطان الجديد محمد خسرو باشا الذى كان فى السابق باشا القاهرة (وجرى طرده منذ ثمانى سنوات على يد قوات عسكرية تمردت عليه وكان من بين رؤساء تلك القوات محمد على نفسه). يجاهر بادعاءات تتماشى مع روح السيطرة المطلقة التى تتنامى هنا . وبالرغم من كل ذلك يتطلع محمد على إلى تدارك كل هذا الإزعاج، فى الحال ، بالتضحيات المادية والمحسوبية.

ولا تزال تجارة مصر باستمرار سوى من خلال تصدير المواد الغذائية . على أن هذه التجارة عانت من إخفاقات شديدة ؛ وذلك من جراء العديد من عمليات السطو التى يمارسها قراصنتنا . وطوال الوقت نجد المحلات غاصة بالبضائع الإنجليزية التى أسعارها منخفضة . على أن صدمة حالات الإفلاس العديدة التى وقعت مؤخراً فى مالطة تركت أثراً قوياً، وذلك بطريقة أدت إلى إفلاس العديد من المؤسسات فى هذه البلاد . ومن جانب آخر يتناقص على مدار الأيام ، عدد المستهلكين، سواء بسبب غياب القوات العسكرية أو من جراء البؤس الذى بدأ يتسلل إلى العائلات التى كانت فى الماض ميسورة الحال . إن الباشا وأفراد عائلته وضباط حاشيته يشكلون اليوم المستهلكين الوحيدين الذين قدموا بعض المكاسب للتجارة الخارجية بدفعهم بالمراقبين وبموظفيهم من الموردين ؛ وذلك من خلال الاحتكار الذى كان يمارسه التجار القدامى.

وتتعرض واحدة من أهم فروع تجارة مصر للضرر الشديد الذى جاء نتيجة استيراد البن الأمريكى، وهى العملية الغريبة التى لا تزال حتى اليوم مستمرة . وكانت الوكالة التجارية التى أنشأها الباشا فى مالطة قد عملت على إرسال كميات كبيرة من هذا البن ، كما اتبع تجار آخرون التصرف نفسه . ومع ارتفاع سعر بن مُخا تأكد للجميع أن تجارة بيع البن بالتجزئة سوف تدر أرباحاً كبيرة تفوق غيرها من السلع

الأخرى . وفاق هذا التخمين الحسابى التجارى كل الحدود المناسبة ، وبيع بن الأنتيل فى مصر . واستغل المضاربون بالإسكندرية هذا الظرف بقيامهم بخلط النوعين معًا (بن مخا و بن الأنتيل) لأجل عملائهم بإستانبول وأزمير. وأدرك المستهلكون فى آسيا هذا الغش (فى خلط البن) وآثروا تناول بن المستعمرات الذى كان متوافراً بين أيديهم بسعر منخفض جدا . ومع ذلك فإن محمد على لم يصم آذانه عن سماع النصيحة التى أُسديت إليه فى هذا الموضوع الذى له أهمية أخرى كذلك بالنسبة للرسوم (الجمركية) ولتجارة مصر : فمنع أى استيراد تالٍ من البن الأمريكى، ووضع يده على كل البن المتبقى بين خاصة التجار ، ولكن هذا الإجراء جاء بعد فوات الأوان ، فقد أصابته ضربة سببت له خسارة كبيرة ، فيما صار الأمر منذ ذلك الحين فى صالح الإنجليز الذين سوف يبيعون بكثير من التسهيلات بن المستعمرات فى جميع أنحاء الإمبراطورية التركية .

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

دروفتى

٩٠ – سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز – قوائم التجارة والملاحة – المشروعات التجارية للباشا – الباشا يستولى بالسويس على تجارة مُخا – تجارة الأقمشة (الصوفية) – الأقمشة المذهبة والحريرية .

الإسكندرية ، فى ٣ فبراير ١٨١٢

(سُجِّلت فى ٦ يونيو)

السيد المحترم ،

يشرفنى أن أقدم لسيادتكم قوائم الملاحة والتجارة الفصلية الرابعة من السنة الماضية ؛ وأيضاً القائمة العامة لتجارة الوارد والصادر لعام ١٨١١ . وفى سبيل عمل هذه القوائم كان لابد أن يجرفنى تطلعى للحصول على المعلومات الضرورية المهمة والمؤكدة أن أبذل لإنجازها نفقات عديدة .

ولا تعنى السلع الواردة من مالطة سوى عودة الأموال التى نتجت فى الأساس عن بيع الحبوب . ولا يمكن أن يعطل هذه التجارة سوى نقص صادرات الحبوب ؛ واليوم ليست هذه السلعة متوفرة بالشكل الكافى فى مصر ؛ وذلك سواء لأن المُلاك تعمدوا إخفاءها عن نظر الباشا الذى يريد إجبارهم على بيعها له بسعر بخس ؛ أو لأن كميات كبيرة منها قد صُدِّرت واستنفدت من ثم صوامع الغلال فى مصر .

وسبق لى بالفعل ، أن أخبرتكم مرات عديدة بمشاريع الباشا التجارية ، والرسوم التى فرضها على الصادرات خلافاً لرسوم الجمرك ، وهى رسوم تسحق تجارة الأفراد الخاصة بقدر ما تعطى الباشا ميزة على التجار . كذلك تجد البيوت التجارية الأكثر صلابة لا تنشغل سوى بتخليص مستحقاتها من الديون المحلية، والتى لا يمكن لهم تسلمها إلا بالخسارة، وهم ينتظرون اللحظة المناسبة لاستئناف تجارة تعد اليوم منهارة تماماً .

وكانت تحركات العسكر باتجاه جدة والمدينة قد أعاقت واردات البن اليمنى ، وهو ما أعطى الفرصة سانحة لاستيراد البن الأمريكى[1] إلى مصر . كذلك نلحظ أن العديد من رسالات " بن المستعمرات " قد تم جلبها إلى هنا ، ونتج عنها بداية فوائد مهمة. ولكن بعد قليل ، ومع وصول البن اليمنى إلى السويس توقفت هذه التجارة التى ربما لا يوجد لها نظير فى مصر .

وضرب محمد على حظراً على توريد حبوب البن الأمريكية إلى مصر ، الأمر الذى كبَّد المصدرين خسائر فادحة . وكان الباشا وحده مَنْ له حرية إدخال هذا النوع من السلع ، وبالفعل تلقى مؤخراً زنابيل عديدة مليئة بالبن الأمريكى . وفيما يتعلق ببن اليمن ، قام الباشا بشرائه لحسابه ، وذلك منذ وصوله إلى السويس ، وبعد ذلك أجبر التجار على شرائه منه بسعر مرتفع جداً. [2]

إن أقمشة الجوخ الفرنسى المطلوبة فى مصر هى المفضلة على نظيرتها الإنجليزية . وتم تصدير عدد من البالات إلى مصر عبر مالطة ، وجيء ببالات أخرى من أزمير أو من إستانبول ، وكان الجوخ البندقى (المسمى بالبلاد التى تصنعه) أقل طلبًا لدى الأتراك فى مصر مقارنة بما كان عليه الحال فى زمن المماليك . ولما كان هؤلاء الأخيرون (أى المماليك) قد تلاشوا من على الساحة ، فإن هذا النوع من الأقمشة قد فقد رواجه كلية .

---

(١) نجد فى الجبرتى وصفًا للبن الأمريكى حين يقارنه بالبن اليمنى فيقول : " ورد من ناحية بلاد الإفرنج كثير من البن الإفرنجى، وحبه أخضر ، وجرمه أكبر من حب البن اليمنى وكان يباع رخيصًا فى ابتداء وروده لأنه دون البن اليمنى فى الطعم واللذة فى شربه وتعاطيه ، وبينهما فرق ظاهر يدركه صاحب الكيف البتة " (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٤). (المترجم)

(٢) يُبيِّن الجبرتى السعر الإجبارى الذى حدده محمد على لقنطار البن بأنه بلغ " ٢٣ ريال فرانسة " (راجع الجبرتى : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٣٤) . (المترجم)

وفيما مضى كانت الأقمشة المذهبة والحريرية المصنوعة فى ليون Lyon سلعة استهلاكية فى مصر ، أما اليوم فقد تناقص استيرادها جدا ، وذلك لأن الحكام الحاليين أقل ترفًا وبذخًا واستعراضًا من سابقيهم المماليك .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

٩١ – سان مارسيل إلى باسانو

موجز – تفاصيل عن هزيمة طوسون باشا – طوسون باشا المحاصر فى ينبع.

إسكندرية مصر فى ١٠ من فبراير ١٨١٢

(سُجلت فى ٢٣ من يونيو)

السيد المحترم ،

وصلتنى بعض التفاصيل حول تحركات جيش باشا مصر بالقرب من ينبع التى يقال لها طيرو Turo. وكان طوسون باشا بن محمد على باشا القاهرة يقود هذا الجيش الذى اتخذ معسكره على مقربة من مدينة الينبع . فعدد مهم من فرق العربان ومن قبائل أخرى وهابية كانت تقوم على حراسة مضيق هناك ، وهو المضيق الذى تعين على جيش طوسون أن يمر من خلاله للتوجه إلى المدينة . وسعى فى تضليلهم شيخ كان يتولى إرشادهم ، وفيما يبدو انضم هذا الشيخ إلى الحشد (أى القبائل الوهابية). بيد أنه مع الوصول إلى معسكر الأعداء تحرك ضابط كان مكلفًا بالتفاوض باسم الوهابيين ، غير أن طوسون باشا قطع فى الحال رأس هذا الضابط ، وعلم العربان بالخيانة ، ولسوء الحظ كان بعض رؤسائهم قد هزتهم الحادثة فى الحال . وأمر طوسون باشا قواته بالهجوم على العدو ، ومن ثم بدأت المعركة ؛ ولكن جيش الأتراك الأقل عدداً ، والذى كان معسكراً فى موقع غير ملائم دُحِر بعد ذلك وارهقته قوة العدو التى نالت من جيشه حوالى ١٥٠٠ رجل، وذلك دون أن نضع فى الحسبان عدد الجرحى ولا الأسرى . وهرع طوسون باشا من جراء الإحساس بالخطر الكبير الذى أحدق به : فقد قُتِلَ من تحته حصانه .

وسرعان ما انسحب المهزمون إلى ينبع التى تحصنوا بها ، ولكنهم اليوم محاصرون بها . وخسر أيضاً طوسون باشا جزءاً كبيراً من مدفعيته ، وطلب من أبيه

أن يمده بالرجال والمؤن وذخيرة الحرب . وأرسل محمد على باشا إلى ابنه ألفين من الرجال ، مزودين بالمؤن والعتاد ، ليتمكن طوسون باشا من إعادة تجميع الجيش مسرعًا . ولكن هل يمكن لمثل هذه القوة أن تتصدى لجيش جرار من الأعداء الذين لا ينقصهم لا المدفعية ولا أى نوع من الأسلحة ؟ إن الوهابيين قد عسكروا داخل سهل متصل بشعاب ومضايق يكمن بها فرق من القبائل العربية .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

---

(٢) حدد الجبرتى اتجاه إرسال التجريدة بأنها كانت "متجهة لمحاربة من بقى من الأمراء المصرية بناحية أبريم" (راجع الجبرتى: نفس المصدر ، ج٤، ص٢٢٠). (المترجم)

٩٢ - سان مارسيل إلى الوزير

موجز – مواطن قلق محمد علي – مسألة السفينة روا دو روم – سوء نية محمد علي – صادرات القمح المتوقفة – تحصينات الإسكندرية – العوائد المجمدة بين محمد علي والإنجليز .

الإسكندرية ، في ٢٠ من شهر فبراير ١٨١٢

(سُجلت في ٣٠ سبتمبر)

السيد المحترم ،

إن مراسلاتي التي تحمل أرقام ٩٣ ، ٩٤ المرسلة (بتاريخ ٣ و ١٠ فبراير) إلى سيادتكم ، تضمنت أخباراً عن تحركات جيش الباشا ضد الوهابيين بالقرب من الينبع. . ولم يصلنا معلومات لاحقة ؛ ولكن هناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن كل شيء يمضي على هذه السواحل ، من سيئ إلى أسوأ ضد الجيش المصري ، بحيث إن الباشا الذي كان مقرراً مجيئة إلى الإسكندرية ، بات منشغلاً بعمل الترتيبات العسكرية اللازمة ، وبدا قلقه يتزايد بشدة على مصير جيشه .

إن الأخبار الواردة من جانب السيد دروفتي في محادثاته مع الباشا في موضوع الغنيمة (التي حملتها إلى الإسكندرية سفينة القرصان النابولية المسماه " لو روا دو روم ") ، ليس بها نتيجة واضحة . وقد أعلمني السيد دو لا تور موبور بأن الباب العالي كتب إلى الباشا بألا يسمح بأى اعتراض على بيع هذه الغنيمة . بيد أن الباشا الذي راوغ بأنه لم يتلق من الباب العالي أى فرمان ، أجاب بأنه لا يمكنه الاتفاق على شيء في هذا الموضوع دون أن يعلمني به . وقد أخبرت السيد دو لاتور موبور بهذا الموقف ، ودعوته أن يرسل إليَّ فرمان الباب العالي المرسل إلى باشا القاهرة بخصوص هذه المسألة ، فساعتئذٍ لن يمكنه (أى محمد علي باشا) أن يعطيني إجابة غامضة .

إن تجارة حبوب مصر مع الإنجليز سوف تتوقف حتى موسم الحصاد الجديد؛ ومع ذلك فإننا نجد فى هذين الميناءين عشرين سفينة ، سواء أكانت إنجليزية ، أو إسبانية ، ومن المتعين أن يتم شحنها بالحبوب ، وما يتبقى يكاد يفى بشق الأنفس جمهور المستهلكين الذين يدفعون فى شرائه اليوم ثمنًا غاليًا ، ومن ثم يقتضى الحال بالضرورة إرجاء تصدير الحبوب .

وتستمر أعمال بناء الأسوار الجديدة التى تشكل حزامًا حول المدينة . وتقدمت مسيرة العمل حتى وصلت إلى قلعة باب المثلث . والباب القديم المسمى باب بومبيه صار باليًا ، وقد شيدوا على أساسيات الأسوار القديمة ثلاثة أسوار جديدة . وفوق البابين الأولين (باب المثلث وباب بومبيه) الذى يقع أحدهما إلى الشمال والآخر إلى الجنوب الغربى ، شيدوا حصنًا بلغ من ارتفاعه أنه كان يشرف على تلال رملية تقع فى الجهة المقابلة ، وبمحاذاة الباب الثالث فى الجنوب حيث العمود المسمى بومبيه يوجد جسر شيد تمامًا على غرار الجسر الموجود فى الميدان الكبير بالمدينة والذى شيده الفرنسيون . وفضلاً عن ذلك فإن هذه التحصينات لا تبدو قوية تمامًا بحيث إن الأسوار القديمة تشكل الدعامة الوحيدة للأسوار الجديدة المنشأة ، والاستحكامات لا تشكل سوى أبراجًا قديمة ذات فتحات فى العديد من الغرف ذات العقود المُقبَّية التى قاموا بطمرها ببساطة بالأتربة أو الأنقاض ، حتى أن الأسوار القديمة المحيطة بها تدعم كلية هذه الركامات من الأنقاض المجلوبة ، والتى قد تنهار بمجرد أن أحد هذه الأسوار يتعرض للهدم أو يلحق به تلف ما .

وبشكل مطرد تتوطد العلاقات السياسية والتجارية لباشا مصر مع الإنجليز ؛ وتنزع وجهات نظر الباشا إلى استقلاله قبل الباب العالى ، وتميل وجهة نظر إنجلترا إلى حمايتها لتجعل هذه البلاد بعد ذلك فى حالة تبعية لها (هى نفسها) ومن ثم تستولى على مصر التى يخشون دائمًا من قيام الفرنسيين باجتياحها .

وعلمنا أن السيد بوتان وصل إلى القصير .

مع خالص الاحترام .. إلخ.

سان مارسيل

٩٣ - الـوزيـر إلـى دروفتـى

موجز - تقرير السيد لسبس Lesseps المندوب الإمبراطورى فى كورفو - اقتراح بتقديم عرض لأسلحة مهمة لمحمد على - إخطار دروفتى بهذه المسألة الضرورية - طلب بإرسال شحنة غذائية من القمح إلى كورفو .

باريس ، فى ٢١ مارس ١٨١٢

إن السيد لسبس ، المندوب الإمبراطورى فى كورفو ، نقل إلىَّ ، سيد دروفتى، التقرير الذى أرسله إليه السيد مانجان Mengin، وكيل شحن السفن بالحبوب لحساب محمد على باشا القاهرة ، وأنه رحل من دمياط ، يوم ٧ ديسمبر الماضى ، متوجهًا إلى كورفو .

ويستنتج من هذا التقرير الذى أنقله إليك طى هذه المراسلة ، أنه بسبب جشع وسوء نية القبطان تريسون بتروفيتش Trisson Petrovich بيعت شحنة القمح فى سفالونيا Céphalonie [(١)] ولم تُسلم من حصيلة بيع هذه الشحنة إلى المندوب الإمبراطورى سوى مبلغ يصل إلى حوالى عشرة آلاف قرش ، رُصدت لإرسالها إلى محمد على ولمبادلتها بشراء زيت .

وأحاطنى السيد لسبس فى الوقت نفسه بأنه جلب من ليفورن Livourne أسلحة ضرورية ، عُهِدَ إليه أن يعرضها على محمد على ، ولما كان من المتعين أن يعود إلى مصر بصفته قنصلاً عاما ؛ وما نبهنى إليه من أنه فى ظل الظروف الحالية، سيكون من المفيد جعل هذا الوزير (أى محمد على) فى حالة استعداد تام لإمداد كورفو بالمؤن الغذائية ، فقد أشار علىَّ بأن نرسل إلى محمد على هذه الأسلحة الضرورية فى مقابل البقية القليلة الناتجة عن شحنة الحبوب .

---

(١) سفالونيا : هى أكبر الجزر الأيونية ببلاد اليونان. (المترجم)

وقد قبلت اقتراح المندوب الإمبراطورى لأجل هذا الاعتبار ، وكلفته بأن يرسل إليكم شحنة الأسلحة الضرورية التى يتعين أن يأتى بها من ليفورن ، مصحوبة بهدية تتلاءم مع هذه المناسبة الأكيدة . ولما كنتم سوف تحيطون علمًا بهذه الإرسالية ، فلتكونوا مستعدين لتلقيها ، ومن أجل هذا ، أصرح لكم (هذا إذا كنتم ترون أن الوقت مناسب تمامًا لذلك) بأن تعرض على محمد على هذه الشحنة المهمة من الأسلحة، وأن توضحوا له بأنها تشهد على تقدير وحسن ترحاب الحكومة الفرنسية به .

وأعتقد بأن الوزير (محمد على) سيتأثر بهذا الأمر ، وسوف يعده علامة على الاهتمام به . ولا يخالجنى الشك قط فى أنكم لن تألوا جهداً فيما يحقق الإفادة من هذا الظرف بحيث تجعلونه يقرر تجديد (العلاقة) . وبالمثل ، يتعين أن يرسل محمد على – كما وعدكم – شحنات القمح إلى كورفو : على أنه فى ضوء ما حدث ، سوف تشعرون كم من الضرورى أن مثل هذه الإرساليات لا ينبغى أن يُعهد بها إلا إلى قادة ذى حماسة وإخلاص وهما صفتان أساسيتان نراهن عليهما فى مثل هذه الأمور .

ولتتفضلوا بإخبارى بنتائج جهودكم في هذا الصدد . وأنتهز الفرصة ، سيد دروفتى ، لأفيدكم بتسلم مراسلاتكم الأخيرة المدموغة بالأرقام من ١٥ إلى ٤٢ وذلك على وجه الحصر .

فضلاً عن الأوراق التى كانت مرفقة بها . وأشكركم على التفاصيل التى نقلتموها إلينا بشأن الحالة السياسية والتجارية لمصر . وأدعوكم إلى مواصلة المراسلة معى بكل دقة ، ونقل الأخبار والمعلومات التى قد يتراءى لكم أنها من المحتمل أن تكون جديرة بالاهتمام من قبل الحكومة (الفرنسية).

ولتتفضل أيها السيد [دروفتى] بتلقى خالص تقديرى إليك .

لو دوق دو باسانو

٩٤ - دروفتى إلى الوزير

موجز - إرسالية بذور شجرة النيلة .

السيد المحترم ،

إنه ليشرفنى أن أحيطكم علمًا بأنى أرسلت إلى السيد قنصل جلالة الإمبراطور والملك بسالونيك كيسين ، يشتمل كل منهما على وزن ٢٤ لتر من بذور النيلة . وأسمح لنفسى بأن ألتمس من سيادتكم أن تعرفونى بمقاصدكم من شحن هذه البذور ، وكذلك بالمثل بذور القطن ، وما هى الكمية المناسبة التى يتعين أن أمدكم بها من البذور.

ويشرفنى أن أكون ... إلخ .

دروفتى

٩٥ – دروفتى إلى الوزير

موجز – عودة إبراهيم بك – انكسار شوكة المماليك – إصلاحات محمد على فى الجيش : ولاء العسكر يتحول إلى شخص محمد على وليس إلى رؤسائهم : " حالة من التمرد داخل الجيش " – شحنات القمح المتجهة إلى مالطة – إدخال تحسينات على نظام الضرائب – زراعة شجر الزيتون فى الفيوم – تربية دودة القز .

(سُجلت فى ٣٠ نوفمبر)

وصل إبراهيم بك ، الإبن الأكبر لمحمد على ، إلى القاهرة . وهو الذى كان يقود الحملة الأخيرة فى ظروف حتمها تحرك البكوات إلى ما بعد أبريم . وعلاوة على الخسائر التى تكبدوها (أى البكوات) والمقدرة بـ ٦٠ مملوكًا وبعض الكشاف الذين لاقوا حتفهم فى مختلف الاشتباكات التى وقعت بالصعيد ، كان هناك أكثر من ١٥٠ من الترك أو الأرناءوط ، الذين كانوا يعملون تحت لواء المماليك ، قد أفادوا من تلك المعارك فى اتخاذهم قرار العودة إلى الانضواء تحت قيادة حزب الباشا . ونلمس هنا تضاؤل قوة المماليك ، تضاؤلاً يصل إلى حد العجز المطلق عن إزعاج محمد على فى ملكيته التى باتت هادئة فى كل صعيد مصر .

ولم يقم لا الوهابيون ولا شريف جدة بعمل أى هجوم حتى اليوم على مدينة الينبع . ولم يجد طوسون باشا وقوات جيشه من أسلاب المعارك سوى العوز والفاقة وتقلبات المناخ غير المألوفة .

وقد طالب العديد من ضباط الجيش من رتبة " بمباشى " ، من محمد على أن يأذن لهم بالعودة إلى مصر ؛ وقد أعطاهم تصريحًا ، برغم الظرف المؤسف للغاية ، بأن يعودوا بمفردهم . وأحدث هذا الأمر نوعًا ما من التمرد داخل الجيش . وكان القادة فى العادة لا يتحركون إلا فى صحبة عسكرهم الذين كانوا ينظرون إليهم كما لو أنهم قادة مستقلون غير خاضعين للأوامر المباشرة الصادرة عن القيادة العليا . أما الباشا فقد أراد أن يشكل الجيش من خلال تفرده هو بتعيينهم ودفع مرتباتهم، وبدأ

بالفعل فى اتخاذ إجراءات لتعريفهم مشروعية هذا المبدأ المؤسس الجديد فى تنظيم جيشه . ولا يبدو محمد على ساخطًا من الإخفاقات التى كابدها فى الجزيرة العربية . وذات يوم كان يقول إنه فى حال حققت ، منذ البداية ، القوات المرسلة إلى الجزيرة العربية الانتصارات ، فإنه سيعمل على القضاء على غطرسة وصلف وغرور القادة الذين يثيرون قلقه. وليس ثمة شك فى أنه يتعين أن ينظر بعين الابتهاج والتواضع إلى أنه أمكنه ، من وجهة النظر هذه ، أن يُفقدهم القوة (التابعة) من العسكر ،[1] وعمل على تناقص هؤلاء القادة[2] بصورة استحال معها أن يلحقوا به أى ضرر ، ولو أنه لا يزال متخوفًا بعض الشىء من العسكر الذين دخلوا مع قادتهم.

ووصل خلال شهر مارس إلى الإسكندرية العديد من السفن الإنجليزية التى يحرسها بريك حربى قادم من مسين[3] Messine لأجل شحن تلك السفن بالحبوب . وكان الياور المساعد للورد بوديك Lord Beudick قد جاء ، بخصوص هذه المناسبة، للتعاقد مع الباشا على شراء كميات من المؤن الغذائية المخصصة لإعاشة الجيش الإنجليزى فى صقلية . ويُباع القمح فى مالطة بسعر مرتفع للغاية . ولسوف يستغل محمد على هذا الظرف ويعمل من جانبه على رفع الأسعار كذلك . ويقدر عائد الكمية التى يمكنه تصديرها فى هذا العام بما يتجاوز العشرين مليون قرش تركى .

---

(١) يشير الجبرتى إلى الخسارة الكبيرة التى تكبدها القادة الأرناءوط ، ويخص بالذكر عسكر " محو بيك وحسين بيك " (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٢٢٩ - ٢٣٠). (المترجم)

(٢) يوضح الجبرتى كيف عمل محمد على على التخلص من هؤلاء القادة بأن أصدر إليهم أمرًا بالخروج من مصر بعد أن استقر معهم على تسديد " علائقهم المنكسرة " والمقدرة بـ ١٨٠٠ كيس من الريالات الفرانسة ! " (راجع الجبرتى : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٤ - ٢٣٥) . (المترجم)

(٣) مسينا: ميناء إيطالى يقع على ساحل جزيرة صقلية، ويطل الميناء على مضيق يصل طوله إلى ٤٢ كم، ويعرف بذات الاسم " مضيق مسينا" الذى يفصل صقلية عن جنوبها الإيطالى، فيما يصلها بالبحرين التيرانى والأيونى Les mers Tyrrhénienne et Ionienne راجع : Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1206) (المترجم)

ويتجه محمد على إلى جباية الضرائب العقارية حبوباً فى هذا العام تماماً كما فعل فى العام الماضى ، ولكن بحساب الأردب بمعدل أعلى من سعره فى السوق، وهذا هو السبب الذى جعل النظام الجائر فى جباية الضرائب يحقق ، فى هذا العام، وضعاً أفضل للمزراعين وبصورة أكثر ملاءمة عما كانوا عليه وحتى الوقت الحاضر.

وتنزع مشروعات الباشا إلى تحسين جميع فروع الضرائب المتصلة بالأراضى ، وهو الأمر الذى تعاظمت معه الآمال الطيبة فى النفوس . وبدأت الأوامر التى أصدرها من قبل ، والخاصة بزراعة ٣٠٠٠٠ قدم من أشجار الزيتون فى إقليم الفيوم ، تأخذ وضعها فى التنفيذ ، وحققت الخبرات التى تحصلها ، حتى هذه اللحظة، فى تربية دودة القز نجاحًا مهما ، وإذا ما استمر فى ذلك فإننا نتوقع أن مصر سوف تتوقف عن دفع هذه الجزية[1] ذات المبالغ الكبيرة لسوريا ، تلك المبالغ التى كانت تدفع فى شراء الحرير المنتج هناك .

القاهرة فى ٤ إبريل ١٨١٢ .

---

(١) المقصود هنا انتهاء اعتماد مصر فى الحرير الخام على سوريا. (المترجم)

٩٦- نشرة شهر إبريل ١٨١٢

موجز - محمد على بالإسكندرية - الفزع من أسطول طولون - التحصينات - ورش البناء : الباشا يريد إدراك مغزى الأحداث الواقعة فى أوروبا وإستانبول - إمدادات عسكرية للحرب فى بلاد العرب - خضوع آخر المماليك بصعيد مصر - سفن إنجليزية من الهند إلى جدة .

رحل محمد على باشا يوم ٢٨ من شهر إبريل إلى الإسكندرية حيث يتعين أن يستقر بها لمدة شهرين ، والواقع أنه منذ أثار الإنجليز الخوف من أسطول طولون (الفرنسى) المستعد لشن هجوم على مصر ، وكذا منذ ترقية محمد خسرو إلى رتبة قبطان باشا ، وآلاف التكهنات تتداعى حول هدفه من السفر للإسكندرية . والظاهر أن هدفه من الإقامة لفترة طويلة خارج بؤرة الأحداث راجع إلى رغبته فى أن يراقب بنفسه وأن يعجل بأعمال التحصينات الجارية بالإسكندرية ، وكذا الإشراف على أعمال الترسانة التى يجرى بها الآن صناعة فرقاطة ؛ ونضيف إلى ذلك أسباب صحية ، تتعلق بضرورة الاستحمام بالبحر ، ولسوف يتناول ذلك حين يوشك الموسم على الاقتراب ؛ ولكن يعتقد أيضاً أن الباشا يريد أن يتابع عن كثب مغزى الأحداث الجارية فى أوروبا وفى إستانبول التى يمكن أن تؤثر على مصير مستقبله . ويجد الإنجليز فائدة كبيرة لهم فى جعل الباشا فى حالة قلق وتخوف [من هجوم فرنسى محتمل .] وبهذه الوسيلة يروجون للمزايا المزعومة عند مرافقتهم له .

وإلى أن يتحقق ذلك ، فإنه لا يكف عن تجنيد المتطوعين من مختلف أقاليم الإمبراطورية العثمانية ، وذلك بقصد استبدالهم بالقوات الأخرى التى أرسلها إلى بلاد العرب ؛ وهو لا يكف فى الوقت نفسه عن الانشغال بهذه الحملة . ويعمل فى هذه الآونة الاستعدادات اللازمة لإرسال ٤٠٠٠ إلى ٥٠٠٠ جندى بعد شهر رمضان . وأعلن محمد على أنه إذا لم تعقه الحوادث الخارجية، فإنه سيتوجه بنفسه على رأس قوات جيشه (إلى بلاد العرب) .

عاد إبراهيم بيك[1] من صعيد مصر التى أصبح حاكمًا عليها . واتخذ إبراهيم بيك من إسنا مقرا لقيادته ؛ وثمة ٢٠٠ مملوك فروا من معسكر البكوات ؛ طالبين الرحمة من المنتصر (إبراهيم بيك) ؛ فقد آثروا الهروب من المخاطر خلال هذه الفرصة الأخيرة عن أن يسيروا فى صحبة قادتهم البكوات المشتتين فى بلاد النوبة ويعيشون أيامًا مضنية ومشؤومة .

ويجرى بين البكوات المماليك ، مثلما كان حالهم دائمًا، مناقشات حول الحزب الذى تبقى لهم لينضووا تحت لوائه فى مثل هذه الظروف الكئيبة التى باتوا فيها ، والبكوات الأكثر بسالة وعنادًا يريدون أن يمضوا إلى الوهابيين ، والبكوات القدامى أمثال إبراهيم بيك وعثمان بيك حسن يتذرعون بأسباب دينية لئلا يغادروا ضفتى النيل. وتناقصت فرقهم إلى ٥٠٠ أو ٦٠٠ مملوك .

وانتشر قبل أمس صخب كبير ؛ جراء رسو العديد من السفن الإنجليزية القادمة من الهند بميناء جدة. وزعمت شخصيات ساذجة وأخرى من الأصدقاء الاستثنائيين أن بين هذه السفن فرقاطة حربية ، لكن الرأى الأكثر دقة لا يشير إلا إلى سفن تجارية . وترك هذا الخبر أثرًا عميقًا لأنه منذ ثلاث سنوات لم تتجاوز سفينة تحمل علمًا إنجليزيا المنطقة البحرية لجدة .

القاهرة فى ٢ من شهر مايو ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) المقصود هنا : إبراهيم باشا بن محمد على باشا. (المترجم)

٩٧ - سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز - قوائم الوارد والصادر - الميزان التجارى لمصر .

الإسكندرية ، فى ٢ من شهر مايو ١٨١٢

(سُجِّلت فى ٣٠ نوفمبر)

السيد المحترم ،

يشرفنى أن اقدم لسيادتكم قوائم تجارة الوارد والصادر ، وكذلك ما يتعلق بقائمة الملاحة عن فترة الفصلية الأولى من هذا العام .

وسوف تلاحظون سيادتكم من هذه القوائم أنه خلال هذه الفترة ارتفعت صادرات السلع الواردة من مالطة بما قيمته نقداً ١,٢٣٧,٠٠٠ فرانك التى تدفع بالتقريب مع ما يعادلها من واردات الحبوب التى تشكل السلعة الوحيدة التى يشتريها الإنجليز لمالطة ؛ حيث بلغت قيمة هذه الحبوب ١,٣٩٠,٠٠٠ فرنك التى تسدد مبالغها بسحبها على إنتاج الصادرات الداخلية .

ولا تقوم صادرات الأتراك لمالطة إلاً على الحبوب التى تصل قيمتها إلى ٢٣٠,٠٠٠ فرنك تتوازن مع العائد النقدى والبضائع المشتراة .

وتصل صادرات البضائع من مختلف موانئ الشرق المرسلة على سفن تركية ويونانية من مختلف أساكل الشرق ، تصل إلى ٨٦٥,٠٦٤ فرنك والعائد منها يصل إلى ١,٧١٠,٠٠٠ فرنك . وتأتى هذه الزيادة من إجمالى الصادر أو من رصيد ديون الأجانب أو ربما من جراء بعض إرساليات تجار تلك البلاد . وتتشكل صادرات البضائع الأوروبية من أقمشة الجوخ ، والطواقى والشيلان ونبات القرمزية والحرير وغيرها .... إلخ مما كانت تحمله الإرساليات والتى بلغت ٣٣٤,٠٠٠ فرنك .

على أن منتجات صنّاعنا (الفرنسيين) لا ترد إلى مصر سوى عن هذا الطريق (طريق أساكل الشرق) ، أو أنها ترد من خلال مالطة مما يتجمع بها من سلع غنائم القرصنة .

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

٩٨- سان مارسيل إلى دوق دو باسانو

موجز – مسألة السفينة روا دو روم : الباشا يصدر التعليمات الواردة من إستانبول .

السيد المحترم ،

سبق أن أخبرت سيادتكم بما تعلق بغنيمة قرصنة تركها بالميناء القرصان النابولى لوشوفاليه ميشيل الذى كان يقود سفينة لو روى دو روم . ولم نستطع بيع هذه الأسلاب : فالباشا الذى قدم له الإنجليز اعتراضات بشأنها ، ادعى أنه ليس لديه فرمان صادر من الباب العالى فى هذا الموضوع ، وأنه يتعين أن يُكتب إليه بما يجب أن يفعله قبل أن يحدد أى شيء.

وواجهت ، بشكل مباشر ، مع السيد دو لا تور موبور صعوبات من قبل الباشا فى بيع هذه الأسلاب ؛ ولم يصلنى من هذا الوزير خطاب سوى فى شهر فبراير، وكان تاريخ صدوره فى أكتوبر ، وهو الخطاب الذى أبلغنى فيه بأن الباشا وصله فرمان من الباب العالى بألا يضع أى عقبة فى بيع هذه الأسلاب . واستفسر السيد دروفتى من الباشا عن هذا الفرمان ، فأجابه بالنفى ؛ وفى شهر مارس فقط كان صاحب السفينة وقائد القرصنة قد وصل إلى الإسكندرية قادمًا من إستانبول ، ومعه خطاب من كتخدا باشا القاهرة . وكان لهذا الخطاب مفعوله : فقد سمح الباشا ببيع الغنيمة ولكن بشرط ألا تجلب أو تباع ، منذ هذا الحين ، بالإسكندرية أى أسلاب جديدة ، ومن ناحية أخرى ووفقًا للأوامر الصادرة حديثًا من الباب العالى ، صار من المحظور على أى أسلاب ، فرنسية كانت أم إنجليزية ، أن تحمل إلى أو تُباع فى كل موانئ إمبراطورية السلطنة (العثمانية) .

واليوم نحن منشغلون ببيع هذه الغنيمة التى لا تشتمل سوى على منجنيق واحد و٩٠٪ من المحتويات براميل نبيذ .

مع خالص الاحترام .. . إلخ .

سان مارسيل

٩٩ – سان مارسيل إلى دوق دوباسانو

موجز – محمد على بالإسكندرية – إمدادات عسكرية مهمة مرسلة إلى الينبع – تحصينات الإسكندرية – عائدات التجارة مع مالطة – الباشا يريد تنظيم المبادلات التجارية المعتادة مع فرنسا – إنشاء مصلحة للتأمينات البحرية وصندوق للخصومات – محمد على يقترن بالأرملة القديمة لباشا درنا – مخططاته بشأن سرينيك برقة .

الإسكندرية ، فى ٢٠ من شهر مايو ١٨١٢

(سُجلت فى ٣٠ من شهر نوفمبر)

السيد المحترم ،

يقيم محمد على باشا القاهرة بالإسكندرية منذ شهر ، ويعتزم البقاء حتى شهر سبتمبر وينتظر الباشا مجىء اثنى عشر ألف رجل من القوات العسكرية ، وذلك من مختلف أساكل الشرق ، وقد وصله بالفعل جزء منها . وأرسلها فى الحال إلى القاهرة؛ حيث سيتم تجميعهم هناك لإرسالهم إلى ينبع عبر البحر.[1] وكان الجيش الصغير الذى أرسله الباشا لمحاربة الوهابيين متحصنًا بشكل دائم فى الينبع ، وينتظر الإمدادات العسكرية التى كان طوسون باشا فى حاجة إليها كيما يبادر بالتحرك.

إن بناء الأسوار التى تشكل حزامًا حول المدينة تقدمت أعمالها حتى بلغت البحر وذلك بالقرب ، من المكان المسمى قديمًا بحصن المثلث ؛ ذلك الحصن الذى تهدم؛ وبعض الاستحكامات مقامة على طول الأراضى المقام عليها ذلك الحصن . وفضلاً عن ذلك ، فإن هذه التحصينات دائمًا ما تُشيد على الأسوار القديمة ، إلا أنها تبدو أقل

---

(١) حدد الجبرتى فى يومية (أخر ربيع الثانى ١٢٢٧، ١٢ مايو ١٨١٢) نوعين من العسكر : "عسكر المغاربة" ، و "عسكر الأروام" الذين وصلوا إلى الإسكندرية، ودفع بهم إلى الينبع مباشرة، بعد أن صرف عليهم العلائف . (راجع : الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٣٠). (المترجم)

صلابة ؛ لأن السور الخارجي من الباب المسمي بومبيه الذى أعِيد بناؤه حديثًا قد تهدم مع جزء من القباب المعقودة التي كانت تدعمه ؛ وقد أعادوا بناءه على أساسيات جديدة بعد أن قوضوا السور القديم .

وشيد محمد على على الأرض المقام عليها المسجد السابق القريب من البحر أسفل الحصن المثلث ، ثكنات عسكرية لسكن الجنود .

إن تجارة الباشا مع مالطة تحقق له عائدات مهمة ، واليوم يعتزم أن يوجه إلى مالطة وكلاء جدد يرسل إليهم حبوبه التي تشكل السلعة الأساسية فى صادراته . وقد أفضى إلىَّ بأنه يرغب أيضًا فى أن يرسل إلى فرنسا منتجات مصر ليبادلها بمنتجات هذه الإمبراطورية (الفرنسية) . وبيَّنت له العقبات التي يمكن أن تنشأ سواء عن تجاراته مع الإنجليز أو من معارضة الإنجليز أنفسهم أو أخيرًا من جراء الإجراءات التي يقضى بها النظام القارى Le système continental والتى لا يمكن تنحيتها جانبًا . وقد قال لى : إنه قبل أن يشرع فى هذا الأمر ، سوف يرسل ممثلاً عنه لدى الحكومة الفرنسية ، مزودًا بالصلاحيات السياسية الضرورية .

وأنشأ الباشا مؤسسة جديدة ليس لها نموذج مماثل فى الإمبراطورية العثمانية ، فهذه الحكومة تنصت بشكل مطلق للنصائح تمامًا مثل اهتمامها بما يُقترح عليها ، وأصدر محمد على تنبيهًا للرأى العام ، أعلن فيه عن عزمه إنشاء مصلحة عقود[1] التى سوف يصل رأس مالها إلى ١٥,٠٠٠,٠٠٠ قرش ، وتحدد أن يكون مديرو هذه المصلحة هم : حاكم (الإسكندرية) أغا الجمرك ، والسيد بطروتشى Petrucci، القنصل العام للسويد . وأشاروا أيضًا إلى أن أقساط التأمين ستكون مناسبة ، وأن هذا التأمين سوف يشمل السفينة بشحناتها ، ولكل مكان تتوجه إليه فى موانئ الشرق

---

(١) المعروف أن حالة الحرب الأوروبية النابوليونية و الحصار القارى وانتشار القرصنة فى البحر المتوسط أثرت تأثيرًا سلبيا على الحركة التجارية ، مما دفع محمد على للتفكير فى عمل المصلحة "مصلحة العقود" لتحفيز التجار وأرباب السفن على المجيء إلى مصر . (المترجم)

أو موانئ أوروبا . ويعتزم أيضًا أن يجعل هذه المؤسسة (أى مصلحة التأمين) تقدم فائدة مضاعفة ، وذلك من خلال ما يُسمى بخدمة " صندوق الخصومات ". وهذه المؤسسة المستحدثة ستكون بلا شك مفيدة للجمهور إذا ما أمكن لها أن تحقق الثقة ، وإذا لم يتوقع نتائج سلبية للسلطة الاستبدادية القائمة ، وتم تجنب التعديات التى تحيط بها وتهددها . أيضًا من المؤكد تقريبًا أن هذا المشروع لا يمكن أن يحظى بأى تنفيذ .

وتستمر السفن الإنجليزية والإسبانية فى المجىء إلى هنا ليجرى شحنها بحبوب مصر . وعدد السفن الموجودة أقل كثيراً مما فى السابق ، وذلك بسبب نقص الحبوب التى يتضايق الناس أنفسهم من قلة عرضها ، ويدفعون فى سبيل الحصول عليها ثمنًا غاليًا ، وذلك بسبب التصدير وعمل الباشا صفقات جديدة مع الإنجليز بشأن المحصول الجديد .

ووصل من مالطة بريك حربى إنجليزى حاملاً مبالغ نقدية كبيرة .

وعزل باشا طرابلس [الغرب] أخاه من باشوية درنة ، وكان الأخير قد لجأ إلى الإسكندرية ومات بها . وقام باشا مصر بالاقتران بأرملته ، ووفر لإخوته مكانًا مناسبًا لهم ، وهم الذين جاءوا مجردين من الثروة .

وثمة ما يُحمل على الاعتقاد بأن الباشا لم يعقد هذه الزيجة سوى لتطلعه إلى غزو برقة التى كانت فى الزمن القديم يملكها ملك مصر . ونعرف ، من ناحية أخرى، أن طموح باشا مصر أن ينشئ حكومة لمصر على غرار ولايات شمال إفريقيا إذا ما القوى العظمى دعمت وجهات نظره .

والقنصل الإنجليزى سيحتفل هنا بعيد ميلاد الملك جورج ، من خلال إقامة الاحتفالات والابتهاجات العامة مثل : قذف المدفعية والإضاءات الزينية ، وإطلاق الأسهم النارية ، وبعمل الولائم الكبيرة ، وحفلات الرقص .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٠٠ - نشرة شهر مايو ١٨١٢

موجز - مذبحة المماليك فى إسنا خلال غياب إبراهيم بيك - اقتراف محمد على لعدد من الفظائع : الطابع الحذر عند محمد على - إمدادات عسكرية للبحر الأحمر - شريف جدة - ابن ملك المغرب يقوم بالحج - الزواج الجديد لمحمد على ، وطموحاته فى نيل باشوية درنة - محمد على يطرد فرقة من الخيالة السوريين - زيادة حراس حكام الأقاليم - فيضان غير عادى لنهر النيل .

إن كل المماليك الذين جاءوا إلى إبراهيم بيك مستسلمين ، جرى بأمر من الباشا ذبحهم فى إسنا ، وذلك خلال فترة وجود ابنه هنا (بالقاهرة) لدى محمد على. إن هؤلاء التعساء ضحايا لثقتهم المطلقة فى مروءة عدوهم ، وبين هؤلاء المماليك مَنْ أعطاه إبراهيم بيك تصريحًا بالأمان ولكن هذه الاغتيالات التى لا يمكن أن تغتفر والأكثر فظاعة لم تكن مفيدة على الإطلاق ، ولم يعف حتى عن العبيد الأحباش أو الزنوج ممن كانوا فى سن الخامسة عشر إلى الثامنة عشر سنة.

ومن المعروف الآن أن الطبيب المشهور ماندريسى Mandrici، طبيب الباشا ، وأحد عملاء وأنصار الحكومة الإنجليزية فى مصر ، أنه أشار على الباشا وحرضه على (التخلص من المماليك) تحت زعم أن البكوات لايزالون يحتفظون باتصالات مع الفرنسيين . إن هذا الموقف ، يعبر فى الحقيقة عن رغبة فى الثأر من المماليك الذين لم ينضموا للجيش البريطانى فى سنة ١٨٠٧ . ومنذ هذا اليوم الفظيع الواقع فى الأول من مارس من العام الماضى [١] صارت أقل الشكوك الموحية بوجود خيانة كافية بإراقة دم شخص سيئ الحظ عاجز عن دفع هذا الاتهام عن نفسه .

---

(١) المقصود هنا : مذبحة المماليك فى مارس ١٨١١. (المترجم)

ومن بين هؤلاء شخص معين يدعى محمد أفندى ، وهو رجل ذو أهلية نادرة بين الأتراك، وكان يعمل مديراً لترسانة محمد على حتى نهاية سنة ١٨١٠ ، وكان قد أراد المضى إلى إستانبول ، ليعمل لدى قبطان باشا الذى منحه ثقته ، وهو وإن كان لم يتآمر ضد محمد على، فإنه شكاه ، الأمر الذى عرّضه للخنق فى الإسكندرية . – وحين وقعت كارثة الأول من مارس سارع طوسون باشا بإنقاذ حياة كتخداه الذى كان يعمل فى السابق ضابطًا فى جيش الألفى بيك : إلاَّ أن خدمة هذا الضابط على مدار عامين دون أن يقترف فعلاً يُلام عليه لم تقلته من حالة السخط الشديد التى باتت تزعج الباشا ضد كل مَنْ كان مملوكيا : وبلغ الشك مبلغه فى نفس محمد على وذلك فيما يخص جدوى احتفاظه بعلاقاته مع رفقائه القدامى (الألبان)، فمضى فى قطع الرقاب وهو درنَ بينبع .

وليس للأخبار التى وصلتنا من ميناء ينبع الواقع على البحر الأحمر أى أهمية، ونعرف أن الأمراض لا تزال تفتك بالجنود . وثمة خمسة من كبار قادة الجيش حصلوا على تصريح بالعودة إلى مصر ، ووصلوا إلى القصير[1] – وعمل الباشا على إرسال قوات من المغاربة إلى السويس ، وكان هذا ضمن المسائل التى تم تناولها فى نشرة فبراير[2] : وبلغ مجموع هذه القوة ١٥٠٠ مغربى . وأقاموا معسكراً جديداً خارج أسوار مدينة الينبع ، وهذا المعسكر يتكون – حتى الآن – من ٥٠٠ ألبانى ، تحت أوامر عابدين بك أخى حسين باشا ، أيضًا وصلت قوات مؤخراً من جهة تركيا الأوروبية ، يقدر عددها بحوالى٢٥٠٠ جندياً . وكل السفن التى وصلت إلى ميناءى دمياط والإسكندرية كانت تحمل على متنها جنوداً ؛ وسرعان ما كان يرسلهم محمد على إلى القاهرة ، ومنها يتم إرسالهم إلى معسكر الينبع .

(١) يحدد الجبرتى أسماءهم على النحو التالى : صالح قوج ، ومحو بيك ، وسليمان أغا ، وخليل أغا، أما الخامس فهو " أحمد أغا لاظ " حاكم قنا (الذى لم يكن بالحجاز ، ولكنه انضم إلى الأربعة من بنى جلدته (الأرنؤود) بعد ذلك (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٣ ، ٢٣٤، ٢٣٧ ، ٢٣٩). (المترجم)

(٢) هى النشرة التى حملت رقم (٨٩) . (المترجم)

وأشاع شريف جدة نبأ يفيد بأن علاقته مع الوهابيين صارت مشوشة . ويروى هنا أنه أراد الذهاب إلى المدينة ، فى صحبة حراسة قوية إلى حد ما ، غير أن الحاكم الوهابى للمدينة أبلغه أنه إذا كان يريد أن يتم استقباله بالمدينة ، فيلزم عليه أن يتقدم فى رفقه عدد قليل من الأتباع المتتاليين والمجردين من السلاح – وفى ظل ما يتبدى من خصومة عابرة تشوب علاقة الشريف بمحمد على ، فكر الأول فى أن يُجدد اتصالاته مع الأخير ، واستغل تلك الظروف ليرسل من جدة إلى السويس تسع سفن محملة بـ " بن مخا واللبان والصمغ .. إلخ " .

إن الأسطول الإنجليزى المزعوم الذى قيل إنه وصل إلى جدة ، تبين أنه عبارة عن سفينتين تجاريتين قادمتين من ساحل المالابار[١] ويعتقد بعض الناس أن الشريف فى ظل مخاوفه من فقد أملاكه على يد باشا مصر ، قد أعرب للحكومة الإنجليزية بالهند عن قلقه من النتائج التى يمكن أن تتمخض عن امتداد نفوذ محمد على إلى اليمن .

وعاد ابن ملك المغرب[٢] من الحج ، وحتى يؤمن نفسه التزم بدفع إتاوة للوهابيين ، بلغت ٢٤ ألف قرش كبير .[٣]

وتزوج محمد على باشا بالإسكندرية من البنت الكبرى للمرحوم أحمد باشا ، والذى كان فى السابق داى طرابلس ، وهو الأخ الأكبر للداى الحالى الذى أجبره على أن يتخلى له عن مقاليد السلطة ،[٤] وجاء (أى أحمد باشا) لاجئًا إلى مصر . وكان

---

(١) ساحل المالابار : Malabar هو الساحل الغربى للهند . (المترجم)

(٢) هو المولا إبراهيم بن السلطان سليمان سلطان المغرب. (المترجم)

(٣) على العكس من رواية دروفتى يكتب الجبرتى عن كرم الوهابيين لابن ملك المغرب فيقول : "وأخبروا أنهم قضوا مناسكهم وحجوا وزاروا المدينة ، وأكرمهم الوهابية إكرامًا زائدًا وذهبوا ورجعوا من غير طريق العسكر " (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٢٩). (المترجم)

(٣) تمكن الداى أحمد بن على القرمانلى فى سنة ١٧٩٥ من استعادة حكم أسرة القرمانلية على ولاية طرابلس ، وبعد ستة شهور تاقت نفس أخيه " يوسف " لإزاحته عن باشوية طرابلس ، وتمكن من ذلك بفضل سيطرته على الجيش ، وظل يوسف باشا يحكم الولاية بين ١٧٩٥ و ١٨٣٢ . (لمزيد من التفاصيل انظر الكتاب المرجع فى تاريخ الأمة العربية ؛ المجلد الخامس : " الأمة العربية فى العصر العثمانى ") ، تونس ٢٠٠٧ ، [ص ص ٢٠٥ – ٣٢٩] . (المترجم)

أحمد باشا هذا موجوداً فى مصر منذ ١٨٠٥ ، واستقر عند المماليك وجاء السيد إيتون M. Eaton، القنصل العام السابق بتونس ، يبحث عن أحمد باشا ليصالحه على أخيه عبر الدخول فى مفاوضات سلمية ؛ ثم من خلال تملقه يقوم بإحلاله محله ، ومن أجل ذلك تعاهدوا على المضى أولاً نحو بلاد برقة . وقام إيتون بتدعيمه بمجموعات غريبة من الرجال من مختلف أجناس الأمم والذين جرى تسليحهم بالإسكندرية ، إلى جانب عدد معين من القبائل ، والأهم من ذلك إمداده بسفينتين حربيتين أمريكتين ، من نوع الطراد ومزودة بكامل معداتها ، وأمكنهم احتلال درنة ونواحيها ، ولما حدث ذلك أدرك الداى [يوسف القرمانلى] ضرورة التوصل إلى عمل سلام مع الأمريكيين ، ووافق على أن يترك لأخيه [أحمد باشا القرمانلى] وعائلته درنة ونواحيها كإقطاعية من قبله ، ولم يستمر هذا التنازل طويلاً . وفى العام ١٨١٠ لجأ أحمد باشا إلى الإسكندرية ، وتم استقباله بطريقة لائقة. وفى سنة ١٨١١ جرى الحديث عن زواج طوسون باشا بالفتاة نفسها التى اقترن بها أبوه بعد ذلك . وتأكد لنا أن محمد على عقد هذه الزيجة وهو مخطط على أن يحصل على حقوق عائلة زوجته فى إقليم درنة .

وأمر محمد على بتسريح قوات فرق الدلاة والفرسان السوريين فى الأول من مايو، وذلك بعد أن قَدَّم له هؤلاء (الدلاة والفرسان) خدمات مهمة ، وخاصة يوم ٢٤ من شهر أغسطس سنة ١٨١٠ الذى تقرر فيه مصير المماليك . وكانت قوتهم تصل إلى حوالى ١٦٠٠ جندى ، وقد رحلوا بالفعل إلى سوريا ؛ ولم يتبق منهم سوى أعداد قليلة ، سرعان ما آثرت المضى فى إثر زملائهم . وكان الباشا يشكو من طلبهم مرتبات كبيرة جدا تتناسب مع نفوذهم . قام محمد على باستبدالهم بزيادة أتباع الكشاف وحكام الأقاليم . وهؤلاء الحكام ليس تحت إمرة كل منهم أكثر من مائة من الفرسان ؛ وأعطى محمد على أقاليم بنى سويف والفيوم ودمنهور والمحلة الكبرى لأشخاص ممن يحظون بكامل ثقته ، مرتبات وجرايات وعلائف ضرورية تغطى احتياجات ٥٠٠ فارس ، مع الاستعداد لزيادة هذا العدد إذا ما كان فى إمكانهم ذلك .

ونحن شهود هنا على ظاهرة لم تشهدها مصر ، وذلك بخصوص فيضان النيل[1] الذى عادة ما لا نشعر به إلا نحو منتصف شهر يونيو : ففى هذا العام جاء الفيضان فى ٩ و ١٠ مايو وزاد بالأمس ، يوم ٢ من شهر يونيو ، حوالى ذراعين عن المستوى الذى سجله فى الأيام الأولى من مايو : والعواقب المتكهن بها تدور حول فيضان استثنائى ، يُعزى على الأغلب إلى أن هذا العام لم يشهد تقريبًا رياح جنوبية ، وأن الرياح الشمالية الغربية سادت بصفة دائمة تقريبًا وذلك منذ منتصف شهر إبريل . والتوقعات تنذر بالخوف أو بفيضان عال جدا أو بانسحاب المياه قبل أوان الزرع ، وكل ذلك آثار لدى الحكومة قلقًا صحيا ؛ إذ أنها علقت مسألة إعطاء تصاريح باستخلاص الحبوب وتصديرها حتى يتبين بشكل مؤكد النتيجة المتوقعة لهذا الفيضان.

والأخبار الواردة من الإسكندرية تشير إلى قيام محمد على ، خلال الأيام الأولى من وصوله إلى هذا الميناء ، بالدخول فى مفاوضات عديدة وطويلة مع القنصل العام الإنجليزى ، الكولونيل ميست . وينتاب التجار فى ساحة الإسكندرية كذلك وبشكل دائم نفس المخاوف والقلق .

وأشير هنا إلى أن التجربة التى خاضوها (فى مصر) فى تربية دودة القز قد لاقت نجاحًا تاما .[2]

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) يتفق الجبرتى مع دروفتى فى رصد هذه الحادثة النادرة (شراقى وتحريق ثم زيادة غير عادية ومستمرة قبل موعد الفيضان بعدة شهور) حتى أنه ليعدها " من الحوادث الغريبة " التى لم يتفق حدوثها فى العصور السابقة، مدللاً على أنها حدثت مرة واحدة فى العام ١٤٥٢ فى زمن المقريزى . (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤ ، ص ص ٢٤٦ – ٢٤٧). (المترجم)

(٢) لمزيد من التفاصيل حول المراحل التى مرت بها تجربة تربية ديدان القز وصناعة الحرير فى مصر فى عهد محمد على انظر: هيلين آن ريفلين: الاقتصاد والإدارة فى مصر فى مستهل القرن التاسع عشر، دار المعارف بمصر، القاهرة ١٩٦٧، ص ص ٢٤١ – ٢٤٤. (المترجم)

١٠١ - تقرير شهر مايو ١٨١٢

موجز - بيع المؤن الغذائية للإنجليز والإسبان - القنصل العام لملك صقلية المعين بالإسكندرية - تدفق السلع الإنجليزية على مصر ، وبيعها بسعر منخفض - واردات البن من جزر الأنتيل - الأمراض تبيد الجنود بمعسكر ينبع - تجنيد مجندين جدد من مقدونيا والروميلي .

عاد محمد علي إلى عاصمته قبل مساء أمس الموافق ٣٠ من شهر يونيو . وباع للإنجليز وللإسبان ، خلال فترة إقامته بالإسكندرية ، ٤٠,٠٠٠ أردب من المؤن الغذائية والتي تعادل ٩٠,٨٠٠ هيكتوليتر . وانتجت له هذه المبيعات حصيلة قدرها ٣,٠٦٠,٠٠٠ قرش تركي . ومع ذلك انخفض سعر الحبوب بدرجة كبيرة في مالطة كما في جزر الأرخبيل .[١] ويُعزى هذا الانخفاض إلى قرب الحصاد الجديد ، وكذا بسبب خبر إعلان إقامة السلام بين الباب العثماني وروسيا .

وعين ملك صقلية فرديناند Ferdinand قنصلاً عاماً لبلاده في مصر هو السيد ريكاردو فاندوزي Riccardo Fandozzi، وهو من أصل توسكاني ، وكان قد استغل فرصة وجود الباشا بالإسكندرية ليرفع علم مليكه (فوق القنصلية) . ويعد البيت التجاري لـ " فاندوزي " أحد البيوت التي منحها الباشا ثقته في تجارته في المؤن الغذائية مع مالطة وإسبانيا . إن محمد علي الذي يعمل على تعظيم العائدات التي يمكن أن تغلها هذه التجارة ، قام بشراء العديد من السفن من مالطة ، والتي سوف يستخدمها في نقل الحبوب . وطالب محمد علي الإنجليز بأن السفن الحاملة لعلمه تتمتع بالحصانة والحياد ؛ ويبدو أن الوكلاء البريطانيين آملوا منه أن يعمل لهم تسهيلات وأن يعطيهم امتيازات خاصة .

---

(١) على حين انخفض سعر الأردب من الحبوب المصدرة إلى مالطة و إسبانيا ، نجد الجبرتي يشير إلى ارتفاع أسعارها في الداخل بسبب نقص المعروض منها " بالرقع والعرصات " وارتفاع الضرائب الدخولية ؛ فضلاً عن تكلفة نقلها من الأقاليم إلى القاهرة . (راجع الجبرتي : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٧ ، ٢٥١). (المترجم)

وتستمر البضائع الإنجليزية فى التدفق إلى مصر ؛ وأسعارها منخفضة إلى حد كبير ، بحيث من المؤكد أن أصحاب المصانع يفقدون هنا على الأقل أصل تكلفة المادة الأولية (لمصنوعاتهم) ؛ فهم يبيعون الأقمشة الهندية الجميلة والموسيلين بفرنك واحد لنصف المتر .

وعلى الرغم من الحظر المزعوم لاستيراد بن الأنتيل ، فإنه يصل منه كميات على كل السفن الوافدة من جزر الباليار[1] Des Isle Baléares، ومن مالطة وإسبانيا . وفقد بن مُخا كل تأثيره كسلعة (استهلاكية) فى بلاد تركيا . والشيء نفسه فى مصر بسبب السوق الرائج للبن الأمريكى الذى بات يُهدد (البن اليمنى) باكتسابه مزية الأفضلية فى الاستهلاك .

وكُتب من مالطة بأن السلطة استأجرت هنا (فى مصر) العديد من السفن لأجل نقل الجنود وذخيرة الحرب .

ويرغم أن نشاط محمد على ووجوده هناك قد مكّناه من إنجاز الأعمال الناقصة وغير المهمة فى تحصينات مدينة الإسكندرية ، فإن الإنجاز الكامل لها لا يزال بعيداً عن التحقق .

وعاد القادة الذين كانوا برتبة بمباشى من الينبع إلى مصر ، وهم الذين كانوا أحد الموضوعات التى تناولتها فى تقريرى السابق ، ويبدو أنهم قلقون من لقاء محمد على ، والألبان بصفة عامة لا يرضون على محمد على ولا يُخفون موقفهم هذا منه.

وتعانى القوات التى وصلت إلى الينبع باستمرار من نقص المرطبات فى الأماكن التى يقطنونها . والمياه سيئة بدرجة ينتج عنها مرض الدوسنتاريا التى تصيبهم وتنتشل منهم من ١٥ إلى ٢٠ جندياً يومياً .

---

(١) جزر الباليار : Baléares تتكون من خمسة جزر أساسية : " مايروكه Majorique ومينوركه Minorque وابيزه Ibiza وفورمنتره Formentera وكابريره Cabrera، وتصل مساحتها الإجمالية إلى ٥٠١٤ كم ٢ ، وحصلت فى سنة ١٩٨٣ على الاعتراف بتجمعها الذاتى التابع لإسبانيا – راجع : (Dict. Hachette , Encyclopédique , p. 158) . (المترجم)

والعديد من قبائل العربان الذين صرحوا لهم بأن يرعوا ماشيتهم فى الأراضى غير المزروعة بإقليمى بنى سويف والفيوم ، أخذوا يتصرفون بطريقة أجبرت حكومات هذين الإقليمين على حمل السلاح خلال مباشرتهم لأعمالهم .

ولم نسمع خبراً عن المماليك ، والكثيرون من بينهم لجأوا إلى العبابدة .

أيضاً لاحظنا خلال شهر يونيو الجارى وصول حوالى ١٥٠٠ جندى إلى القاهرة ممن اتجه الباشا إلى تجنيدهم من مقدونيا والروميلى .

وجرى الاستيلاء على ١٠٠٠ شجرة من شجر النخيل . ومن المتعين استخدام هذا الخشب فى بناء ثكنة[١] (عسكرية) فى منطقة دمبراسور[٢] Dembrassour، ولسوف تتسع هذه الثكنة لتستوعب ألف عسكرى بخيولهم .

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

(١) على حين نجد الجبرتى يشير إلى أن مسألة قطع الأشجار من جميع الأقاليم كانت بهدف تصنيع المراكب . (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٥٤). (المترجم)

(٢) لم نعثر فى القواميس الجغرافية على اسم هذه الناحية، وأغلب الظن أنها كانت بالوجه القبلى. (المترجم)

١٠٢ - سان مارسيل إلى الوزير

موجز - قوائم التجارة والملاحة - تجارة " أقمشة الهنديات " الإنجليزية النشطة جدا فى مصر - بن المستعمرات يحل محل بن اليمن .

إسكندرية مصر ، فى ٢٠ يوليو ١٨١٢

(سُجلت فى ٢٠ من شهر أكتوبر)

السيد المحترم ،

يشرفنى أن أنقل إليكم قوائم تجارة الوارد والصادر ، وكذا قوائم الملاحة للفصلية الثانية من هذا العام . وأضيف إلى ذلك قائمة تتعلق بالأسعار الجارية للبضائع الواردة والمصدرة .

وستلاحظون سيادتكم أن الإنجليز هم الأمة الأوروبية الوحيدة التى تمارس تجارة مهمة فى مصر ؛ فهم يُجلبون إلى هنا جميع منتجات مصانعهم ومنتجات مستعمراتهم ، ليتلقوا فى مقابلها حبوب مصر التى تسدد أثمانها بعد ذلك بالقروش الكبيرة . ومن بين مصنوعاتهم الأكثر استهلاكًا فى مصر الأقمشة القطنية التى يُقال لها " الهندية " والتى يستخدمها المصريون فى عمل ستراتهم وعمائمهم ومفروشاتهم . إن رقة وجمال الألوان والذوق ورخص أسعار هذه الأقمشة جعل الناس تقبل على شرائها ، وأدى تفضيلهم لها على ما عداها من الأقمشة الأخرى المنتجة فى بلادهم إلى توجيه ضربة لصنّاعهم . والعديد من مصانعهم توقفت كل أعمالها وفيما يخص تجارتنا ، فإن متوسطات ما نصدره يتعرض لكثير من المخاطر التى لا يمكن معها سوى تصدير القليل لمصر ، ومعظم منتجاتنا من الجوخ والأقمشة لا تُرسل إلى الشرق إلا عبر الطريق البرى ، وما نتلقاه فى مقابلها يأتى عن طريق سالونيك .

ويصدر الإنجليز إلى الأسواق الرئيسة فى الشرق كميات كبيرة من بن المستعمرات ، وهم يبيعونه بسعر منخفض جدا ، حتى إن أهالى الشرق الذين

يقتصدون اليوم فى نفقاتهم ، بما فى ذلك مجال المشروبات التى يحبونها كثيراً ، تخلوا عن تناول البن اليمنى تقريباً بالرغم من تناقص سعره كذلك بدرجة كبيرة .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٠٣ - تقرير شهر يوليو

موجز – تسريح أربعة من رؤساء قادة العسكر بينبع – وصول القراصنة الفرنسيين – فرمان حظر بيع أسلاب (القراصنة) فى الموانئ العثمانية – تحسن وضع الإنجليز بفضل مالطة – المحلات الإفريقية و الآسيوية تغص منذ ذلك الحين بالمتاجر الإنجليزية – آلاف البحارة الفرنسيين والإيطاليين يعملون تحت العلم الإنجليزى .

استُقبِلَ القادة الأربعة الذين وصلوا من ينبع استقبالاً سيئًا ؛ بل واتُّخذ قرار تسريحهم . ويُخشى من أن يقاوم هؤلاء الأربعة (حاملى رتبة البمباشى) قرار مغادرتهم مصر . وإذا ما نجح الباشا فى تنفيذ قرار ترحيلهم ، فإن هذا سيمثل ضربة حظ للباشا . وكان هؤلاء القادة ، رفقاء الدرب القدامى ، أقل تعوداً على التبعية وأغنياء جدا بدرجة يمكن معها أن يشكلوا حزبًا .

ودخلت ميناء الإسكندرية ، يوم ١٧ من هذا الشهر ، سفينة القرصنة الفرنسية التى يقودها القبطان بنوا ريفارولا Benoit Rivarola الجنوى ، ومعه واحدة من غنائم قرصنته . وثمة سفينة أخرى مشحونة (بالبضائع) صدُرَ بشأنها أمر بمتابعتها، ولكن تعين بعد ذلك إطلاق سراحها فى ميناء مملكة[1] طرابلس ، كيما يسمح لها بالتزود بالمياه اللازمة ، نزع الإنجليز إلى إرسال بريك حربى إنجليزى لخطفها من هذا المرسى . وهنا دعم أعداؤنا موقفهم بحصولهم على فرمان من الباب العالى بحظر بيع غنيمة القرصنة التى جاء بها القبطان ريفارولا ، ولسوف يُجبر هذا القبطان على الإبحار ، وربما تركوه بين يدى الإنجليز : إن الفرمانات التى كانت تحظر تصدير المؤن الغذائية إلى مالطة وإسبانيا لم تكن حتى لتُقرأ ، أما اليوم فإنها تُتلى وبنوع من التبجيل ،

---

(١) المقصود بمصطلح " Royaume ولاية " أو " إيالة " وليس " مملكة " ، ولكن حرصنا على ترجمتها كما هى : حفاظًا على تصور القناصل لمفهوم كلمة " ولاية " . (المترجم)

بحيث يُمنع بيع الغنائم التى تحصل عليها القراصنة الفرنسيون داخل الموانئ الخاضعة للسيادة العثمانية . ومع ذلك يجرى بحرية تامة بيع أسلاب القرصنة الإنجليزية ، وكذا الأسلاب الواردة من مالطة ، وبدون إثارة أقل عرقلة لها . وإذا وجد أعداؤنا داخل الولايات العثمانية وفى البحر الذى بات غاصا بهم كل العوامل التى تدعم وتحابى بدرجة كبيرة تجارتهم وملاحتهم ، فيما بات من المحظور على الفرنسيين تقريبًا أن يمارسوا داخل نفس الأماكن أقل اقتصاصٍ مماثل لما يفعله خصومهم الإنجليز ، ففيما يفيد ، فى الحقيقة ، الحصول على الأسلاب إذا لم نستطع بيعها ؟

لقد كرست تمامًا الحكومة الخاصة بهذا الميناء جهودها فى صالح الإنجليز ، وصار قناصلهم يتصرفون كسادة بالإسكندرية .

إن كل السفن التى وصلت من تركيا [1] إلى مصر ، خلال هذا الشهر ، كانت تحمل على متنها جنودًا . وجاءت إلى محمد على كذلك سفن أخرى مشحونة بالجنود من إستانبول.

إن الفرقاطة الإنجليزية المحروسة بفرقاطتين حربيتين وطراد تابع لملك المغرب جاءت إلى الإسكندرية خصيصًا لتقل ابن هذا الأمير الذى كان قد وصل إلى الإسكندرية عائدًا من الحج .

وفقدت تجارة مالطة مع تركيا الكثير من نشاطها فصارت اليوم جميع المحلات فى آسيا وإفريقيا غاصة بالبضائع الإنجليزية ، لكن هذا سوف يحدث لبعض الوقت قبل ما يُرجىَ من هذه التجليات الظاهرة الحصول على أقل عائد لها .

وتستخدم الملاحة الإنجليزية فى البحر المتوسط كثيرًا من السفن ، ومن زمن مضى كان البحارة متعلقون بدول أخرى مثل البندقية وراجوزة وجنوة ... إلخ .

---

(١) المقصود فى النص بكلمة : De La Turquie بلاد السلطان العثمانى أو الأقاليم التابعة للإمبراطورية العثمانية ، وليست تركيا آسيا الصغرى فحسب. (المترجم)

ومن المؤكد أن هناك فى البحر أكثر من عشرة آلاف بحار فرنسى أو إيطالى، يقومون بالملاحة فى البحر تحت العلم الإنجليزى ؛ وتوجد أيضًا أعداد كبيرة أخرى يعانون البطالة ويحيون حياة التشرد فى مختلف أساكل الشرق . على أنه يمكن لإجراء صارم أن يُعيد الكثيرين منهم إلى خدمة الدولة . وبين هؤلاء من لا يؤثر طلب العودة إلى وطنه ، بيد أنه ليس لهم وسائل تمكنهم من فعل ذلك . وعلى ما يبدو ينقص قناصل جلالة الإمبراطور الملك (نابليون) الموارد اللازمة التى لا غنى عنها ، لتيسير تنقلاتهم داخل الأماكن التى يمكنهم من خلالها المضى إلى دوائر عملهم .

الإسكندرية فى ٤ من شهر أغسطس ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١٠٤ - سان مارسيل إلى الوزير

موجز - سفينة القرصنة المسماه " القناص" Le Chasseur بالإسكندرية - التجارة الفرنسية تتلاشى داخل الشرق بفعل التسليح الإنجليزى - سفينة " القناص " تنجح مع ذلك فى إنقاذ غنيمتها - حصيلة رسوم هذه الصفقة .

إسكندرية مصر فى ١٤ من شهر أغسطس ١٨١٢

(سُجِّلت فى ٢٠ من شهر أكتوبر)

السيد المحترم ،

إن سفينة القرصنة المسماه " القناص" Le Chausseur، والتى كان يقودها القبطان ريفارولا الجنوى ، وقعت فى الأسر ، واقتيد إلى هذا الميناء كغنيمة إنجليزية، وتقدر شحنتها بحوالى ٥٠,٠٠٠ فرنك . ولم تبع هذه الغنيمة فى تلك الأماكن ، ثم إن الباب العالى أصدر مؤخراً أوامر إلى محمد على باشا ، بحيث إن أى سفينة قرصنة تخص القوى المتحاربة(*) لا يمكنها ولا يتم استقبالها ولا بيع منهوبات قرصنتها داخل هذين الميناءين . وهذا القرار مفيد فى شموله الإنجليز الذى ألحوا دون شك فى استصداره ، ثم إن ذلك هو الوسيلة الوحيدة التى يمكن من خلالها أن نعترض على ممارسة تجارتهم فى بلاد الشرق التى يوجد بها القراصنة ، وهؤلاء الأخيرون ، منذ هذا الحين فصاعداً ، سوف يضطرون أن يتجردوا من السلاح ، إذا ما استمرت هذه الأوامر ولم يُلغها الباب العالى . ومن جانب آخر ، نجد أن تجارتنا قد تلاشت على إثر كثرة عدد السفن الإنجليزية المسلحة التى تغطى تلك البحار ، والتى لا تدع أى سفينة تخص التجار تمر إلا وقادوها إلى جزيرة مالطة . ومن هناك يرسلون البضائع الناجمة عن مثل تلك الأسلاب إلى أساكل الشرق ؛ حيث يعملون على بيعها بسهولة وبما يحقق

(*) المقصود بالقوى المتحاربة Des Puissances belligérantes إنجلترا وفرنسا والبرتغال وإسبانيا وغيرهم من البلاد الأوروبية التى كانت ساحة للحروب النابليونية . (المترجم)

لهم مكسبًا كبيرًا ، وعلى هذا النحو يمكن للإنجليز أن يمارسوا تجارتهم ، ويغدون ويروحون ، بدون أى مخاطر يتعرضون لها فى الشرق ، فى الوقت الذى لا يمكن للفرنسيين أن يَباشروا شيئًا من تجارتهم دون أن يُخاطروا بتكبد خسائر محققة .

ومع ذلك باع قرصان سفينة " القناص " الغنيمة بالإسكندرية لرجل فرنسى قام بنقلها إلى جزيرة قبرص ، حيث أمّن الغنيمة بحراستها بسفينة قرصنة قامت بتوصيلها إلى نواحى هذه الجزيرة . ولتجنب المخاطر بقدر الإمكان ، احتاط هذا المشترى بأن سارع فى الوقت نفسه بنقل الغنيمة على ظهر جرم أو مركب صغيرة ؛ حيث عزم على أن ينقل جزءًا من هذه الشحنة إلى سفينة أخرى ، طالما أن ذلك يتم خارج نطاق هذا الميناء . وأبحر القرصان وغنيمته يوم ١١ من هذا الشهر .

وكان على متن سفينة القرصنة بعض البضائع الناتجة عن عملية قرصنة ، قُضى فى أمرها بولاية طرابلس بشمال إفريقيا ، وقام القرصان ببيعها لنفس الرجل الفرنسى الذى اشترى الأسلاب السابقة ، وعمل الأخير على تمرير هذه السفينة إلى حيث يتم تسليحها وحماية بضائعها ؛ بيد أن الباشا أصدر أمره باحتجازها ووضعها تحت مسئولية الجمرك ، وذلك تذرعًا بأنه يوجد بين الشحنة سلع استعمارية . ونأمل أن السيد دروفتى ينجح فى تسلمها .

ونقلت إلى سيادة وزير البحرية ملخصًا بالوقائع والمحاضر والقرارات الأخرى التى عُملت إلى السيد وكيل القنصل [دروفتى] بشأن موضوع بيع الغنيمة المذكورة . وكانت حصيلة بيعها قد بلغت ٢٧٧٦ قرشًا بمصر ، وفرضت على حصيلة القرصنة رسمًا قدره ٥ ٪ وذلك فيما يخص البضائع غير الشرعية ، وقام قبطان سفينة " القناص " بإيداع حصيلة بيعها فى صندوق الأمانات.

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٠٥ - سان مارسيل إلى دوق دو باسانو

موجز - تحصينات الإسكندرية - مرور ابن ملك المغرب - صخب حول المفاوضات بين محمد على والوهابيين - محمد على والقادة الألبان .

إسكندرية مصر ، فى ١٨ أغسطس ١٨١٢

(سُجِّل فى ٢٠ من شهر أكتوبر)

السيد المحترم ،

إن خطابى الذى يحمل رقم ٩٩ والصادر بتاريخ ٢٠ من شهر مايو، نقل إلى سيادتكم خبراً عن الحالة الراهنة للتحصينات المُقامة على التحصينات القديمة والتى شكلت سوراً يُطوق هذه المدينة . إن بناء الأسوار يتقدم فى اتجاه البحر بمحاذاة الميناء القديم ؛ ويقومون كذلك بتحصينها ببعض الاستحكامات بأحجام مختلفة والتى يمكن أن تسع أربعة أو ثلاثة أو مدفعين . والثكنات العسكرية التى تم تشييدها تقع بالقرب من الميناء القديم ؛ على أنها لا يمكن أن تشتمل على أكثر من ٥٠٠ جندى . واليوم بدأوا يعملون خنادق بالقرب من الميناء القديم : وجرى استخدام حوالى مائتى رجل من سكان هذه المدينة فى عمل هذه الخنادق .

إن ابن ملك المغرب القادم من الحج بمكه والمدينة مع العديد من أتباعه المغاربة ، أقام بالإسكندرية لمدة شهرين ، وقد نزل على متن فرقاطة إنجليزية جاءت إلى هنا بالإسكندرية خصيصاً لتفسح له مسلكاً بحريا للعودة . وكانت هذه الفرقاطة كذلك تحت حراسة طرادين، بالإضافة إلى بريك مغربى . ونزل الحجيج المغربى والأمتعة العديدة الخاصة بابن ملك المغرب فى الطرادين والبريك .

ولم يقم جيش الباشا الذى بينبع بأى تحركات عسكرية ، ومع ذلك ثمة جلبة كبيرة تشيع انعقاد الصلح بين الباشا وزعيم الوهابيين وأنه أخلى مكة والمدينة من أتباعه لقاء دفع مبلغ نقدى معين له .[1]

وأقال الباشا ، وهو اليوم بالقاهرة ، ثلاثة من قادة الألبان كانوا موضع شكواه: وهذا الاستبعاد أشاع الخوف بالقاهرة من جراء احتمال نشوب اضطرابات بالقاهرة . ولكن الباشا اكتشف مؤامرات ومكائد هؤلاء القادة الذين أرادوا جذب معظم القوات الألبانية إلى صفهم . ودفع الباشا لهم مبلغًا يصل إلى حوالى ثلاثة آلاف كيس [2] ، وهو المبلغ الذى تعين عليه دفعه لهم ؛ ليطردهم من مصر . ولما كانوا لم يخرجوا بعد من البلاد، فإننى لا يمكننى معرفة النتائج الأخيرة لهذه الحادثة .

إن السيد دروفتى الذى صحته متوعكة قليلاً جاء إلى الإسكندرية ليقضى بضعة أشهر ليستعيد عافيته . وعلمت أن هذا القنصل أبلغ سيادتكم بالأخبار التامة التى تلقاها من القاهرة .

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

(١) إن رواية الجبرتى تشير إلى استيلاء جيش طوسون باشا على قلعة المدينة المنورة ، وأن مفاتيح المدينة نُقلت إلى محمد على باشا الذى أمر بضرب المدافع احتفالاً بهذه البشرة (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٢). (المترجم)

(٢) يعطى الجبرتى رقماً مغايراً ؛ فهو يذكر أن المبلغ المنكسر من علائفهم والذى أرسله إليهم على ظهر الجمال كان ١٨٠٠ كيس " جميعها ريالات فرانسة " . (راجع الجبرتى : المصدر نفسه ، ج٤، ص ٢٣٥) . (المترجم)

١٠٦ - تقرير شهر أغسطس ١٨١٢

موجز - مؤامرة قادة ألبان ينبع - بعض حركات العصيان فى صعيد مصر - إرسال إمدادات عسكرية لبلاد العرب - وفاء فيضان النيل - تجارة القمح - وفاة أمير المغرب في سريجو - تحصينات مدينة الإسكندرية .

إن القادة الأربعة العائدين من ينبع والذين سبق أن ذكرت موضوعهم فى التقرير السابق ، حاولوا تدبير مؤامرة تهدف إلى وضع مقاليد السلطة فى مصر بين يدى قائد الأرناؤوط المسمى " أحمد بيك " . بيد أن دسائسهم كُشِفَت وأُحبطت تمامًا . ومات أحمد بيك مسمومًا،[١] فيما أُلزِمَ القادة الثلاثة المتمردون بالرحيل عن القاهرة . ويبدو أن حسن باشا الذى كان فى السابق القائد الأعلى لقوات محمد على باشا ، قد نال حظوة هذا الأخير ؛ ورحل اليمباشى قوج[٢] متخذًا طريق سوريا عبر الصحراء. أما صالح أغا[٣] وسليمان أغا الأرناؤط فقد تعين عليهما أن ينزلا بأتباعهما فى أبى قير ثم التوجه إلى إستانبول . وثمة حالة نفى أخرى للمدعو أحمد أغا لاظ قائد إحدى الفرق المقيمة فى صعيد مصر . هذا القائد العسكرى الذى حظى بسمعة رائعة فى الجيش والذى كان يُخشى من تأثيره ومقداميته الجسورة ، هو القائد الوحيد الذى لايزال يثير الشك والقلق للسلطة العليا لمحمد على .

وحدث فى صعيد مصر اضطرابات أثارها سكان الريف ضد الأشخاص المكلفين بجباية الضرائب ، ثم ضد القوات المرسلة لتدعيم هؤلاء الجباة - واقتضى الأمر اتخاذ

---

(١) تُشير رواية الجبرتى إلى أن محمد على أرسل طبيبه إلى أحمد بيك " فسقاه شربة وافتصده فمات من ليلته " . (راجع الجبرتى : المصدر نفسه ، ج ٤ ، ص ٢٢٥). (المترجم)

(٢) اليمباشى قوج : Egio Bimbachi هو صالح أغا قوج الذى يذكر الجبرتى أنه سافر فى صحبة مائتين من أتباعه فى أواخر أغسطس ١٨١٢ م (الجبرتى ، ج ٤ ، ص ٢٣٦) . (المترجم)

(٣) يبدو أن دروفتى اختلطت عليه أسماء القادة الأرناؤط ، فاللذين رحلا معًا إلى إستانبول هما محو بيك وسليمان أغا وليس صالح أغا (نفس المصدر والصفحة) . (المترجم)

إجراء أكثر صرامة ؛ وهو ما أثار العديد من القرى التى حارب سكانها بالسيوف . ويعتقد بأن هذه الاضطرابات جاءت فى إطار خطة تمرد القادة الألبان المستبعدين ، وأن أحمد أغا لاظ ليس بعيداً عن إثارتها .

وتم خلال الشهر الجارى إرسال العديد من القوات العسكرية لإمداد وتدعيم جيش طوسون باشا . وأعلن محمد على أنه سيتولى بنفسه قيادة الحملة التى أخذ فى إعدادها منذ شهر مايو ، وقد خرج بالفعل يوم ٢٩ [أغسطس] مع كل ما تبقى لديه من القوات الاحتياطية الجاهزة بالقاهرة ، واحتشدت القوات فى معسكر واقع بين القبة وقرية المطرية .

وتحدد موعد رحيله فى منتصف شهر أكتوبر ، تماماً بعد انقضاء شهر رمضان . وأخذ فى حساباته بذل الأموال للعديد من قبائل العربان الرابضين بالصحراء الفاصلة بين مصر وبلاد العرب . ويتعين على هذه القبائل أن تزوده بـ ٦٠٠٠ رجل ، ويتطلع محمد على إلى أن يكون على رأس قوة من عشرين ألف مقاتل ضد الوهابيين . وبدأ بالفعل فى إرسال شحنات مهمة من المؤن الغذائية إلى الينبع . وأخذ فى إنزال القوات فى القصير والسويس . ومع ذلك فمن المؤكد أن الباشا باشر مفاوضات مع زعماء الوهابيين، وعرض عليهم دفع مبلغ كبير من الأموال لإخلاء المدينة ومكة . ويعتقد بأنه راهن كثيراً على تأثير هذه الاتصالات .

وأعلِن عن أن فيضان النيل قد جاء وافياً ، وأنه إذا ما انسحبت المياه بطريقة تدريجية دورية ، فإن جميع الأراضى سوف يمكن ريُّها بشكل كافٍ وحالئذٍ يمكن توقع إمكانية جنى محصول جيد .

وثمة طراد وبريك وثلاثة سفن تجارية أخرى تابعة للباشا قد شحنت بالحبوب مؤخراً وأرسلت إلى مالطة . وكان قائد الطراد الأول هو المدعو إسماعيل قبطان ، وهو الشخص الذى كان فى إنجلترا مع هذه السفينة التى كان الباشا يتطلع إلى الدفع بها للمرور بالبحر الأحمر ، ويعد إسماعيل قبطان شخصاً موهوباً بالمعارف التى هى أقل

شيوعًا بين الأتراك ، ويتعين عليه أن يقيم فى مالطة بصفته وكيلاً عن محمد على .

وانتشرت إشاعة قوية حول أمير المغرب الذى رحل من هنا بالإسكندرية عائداً إلى وطنه ، بأنه مات فى جزيرة سرجيو التى رسى بها ، ليتعالج من مرض الدوسنتاريا التى أودت بحياته وقادته إلى القبر .

وأشرفت عملية بناء الأسوار التى تطوق المدينة على الانتهاء تقريبًا ، وبدأ العمل فى تمهيد الأرض لحفر خندق وإصلاح المنحدر القديم وذلك بسواعد مغاربة شمال إفريقيا Les Sarrasins[١] من النادر أن نرى سيطرة على نشاط كبير جدا ضمن أعمال غير مكتملة ولم يتم التحقق بعد من منفعتها بشكل مؤكد ، فى حين أن الطريق المعبد الذى يصل من المدينة إلى قلعة الفنار يقع وسط ركام من الأنقاض تحيطه من كل جانب ، وأحدث البحر فى هذه القلعة فتحة كبيرة جدا ، تزعج بشدة السفن الراسية داخل الميناء الجديد ، وذلك حين تهب الرياح الغربية بعنف شديد .

وهم يشيدون كذلك ثكنات عسكرية فى موقع المدينة القديمة من جانب الميناء القديم .

الإسكندرية ، فى ٥ سبتمبر ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) Les Sarrasins هو المصطلح الذى أطلقه الكتاب فى العصور الوسطى الإسلامية على سكان شمال إفريقيا وإسبانيا والمشرقيين . (راجع : Dict . Hachette , Encyclopédique , p. 1698) . (المترجم)

١٠٧ - تقرير شهر سبتمبر ١٨١٢

موجز - إعدام لاظ أحمد أغا - انتصارات يحققها طوسون باشا - قلة تقدير الإنجليز لعلم السفينة المصرية .

تخلص محمد على من أهم ضابط يحظى بمكانة كبيرة فى جيشه ، وهو الضابط الذى كان يخشى أيضًا من طموحه وشجاعته وتأثيره على العسكر . إنه لاظ أحمد أغا الذى أشرت إليه فى تقريرى السابق ، فقد جئ به من قنا إلى القاهرة بحجة إجراء بعض الترتيبات الخاصة بمرتبات فرقته . وعند خروجه من مقابلته بالباشا ، وأثناء ذلك طالبوه بأن يعيد أتباعه من العساكر ، وكان عددهم ثلاثين رجلاً ممن كانوا فى صحبته ، وبعدها قطعوا رأسه .(١)

ويتعين أن ترحل فرقة العسكر إلى ينبع نحو نهاية هذا الشهر ، وهى تزيد عن أربعة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان .

ويحتفلون بالقاهرة والإسكندرية باحتلال (عسكر محمد على) لشعاب "الجديدة" التى وصل إليها طوسون باشا ، وطرد منها - كما يقال - الوهابيين . وهو نفس الموقع الذى هُزِمَ فيه طوسون باشا فى ديسمبر ١٨١١ . ووصلت سفينة إنجليزية حربية إلى هذا الميناء (أى الإسكندرية) ، حاملة معها الأموال المخصصة لشراء المؤن الغذائية من خلال وكلاء هذه الأمة . وتظاهر قائد البريك أمام الباشا بنموذج التقدير والاعتبار الذى يعتزم ضباط البحرية البريطانية أن يقدموه لراية سفينته. وكان أن أراد هذا القائد أن يدفع ببحارته الخصوصيين إلى متن سفينة تابعة لمحمد على ؛ كيما يقبضوا بالقوة على ملاح فرنسى أسير على متن تلك السفينة ، وهو الملاح الذى كان قد تمكن ،

---

(١) نجد فى رواية الجبرتى وصفًا تفصيليًا ودراميًا لمشهد قتل أحمد أغا لاظ ، ويذكر الجبرتى أن عدد أتباعه الذين اصطحبوه إلى القلعة كان نحو الخمسين جنديًا وليس ثلاثين كما ذكر دروفتى . (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٢٣٨ - ٢٣٩). (المترجم)

منذ حوالى تسعة أشهر ، من الهرب - لكن القائد التركى أظهر رباطة جأشه في عدم تسليمه ، ومن ثم عاد الإنجليز مخذولين من العار الذى لحقهم ، بيد أن سفينة الباشا وأرض ولايته لم ينلهما ما نال الإنجليز ، ولابد أن هذا بيَّن للباشا إلى أى حد يتعين عليه ألاَّ يعتمد على مظاهر المحبة التى يُبديها له الإنجليز ، وذلك لكى يحظى بقدر من الاحترام والتقدير .

ولم يعد فيضان النيل يُبشر بالأمل فى جنى محصول متواضع للعام القادم ، والباشا رفع من سعر القمح المصدر للخارج ، وفرض ضريبة تصدير قدرها ١٠٠ فرنك على كل ٢,٥ هكتولتر .[1]

الإسكندرية فى ٤ أكتوبر ١٨١٢

وكيل القنصل ، مدير القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) راجع تعريف قيمة الهكتولتر فى هامش رقم (٢) بالتقرير رقم (٤٧) . (المترجم)

١٠٨ - تقرير شهر أكتوبر ١٨١٢

موجز - حالة من الذعر بالقاهرة - إعدام واختفاء (أشخاص) - تقدم مسيرة طوسون باشا فى بلاد العرب عبر اللجوء إلى وسائل ملتوية - إمدادات عسكرية لبلاد العرب - التجارة الإنجليزية - خزينة محمد على - الثروات العقارية .

(سُجِّلَت فى ٢٠ فبراير)

يستمر محمد على فى التخلص من الأشخاص الذين بدا له أن إخلاصهم بات محل شكٍ . ومات الشيخ الشرقاوى ، [١] رئيس (المؤسسة) الدينية [*] فى اليوم التالى لزيارته للباشا . وقُطِعَتْ رأس إسماعيل كاشف طويجى حاكم إقليم المنيا ؛ وهناك شخصيات أخرى من القادة العسكريين تلقوا فجأة أمراً بالرحيل إلى ينبع . إن جميع الضباط الذين فى حاشية الباشا أو داخل جيشه ممن كانوا على علاقة ودية مع القبطان باشا و الصدر الأعظم الحالى قد وُضِعوا تحت مظلة المشكوك فى ولائهم ، الأمر الذى أصابهم بالفزع والخوف على حياتهم .

والمعروف أن خورشيد باشا الصدر الأعظم ومحمد خسرو الأميرال الكبير بالباب العالى كانا يحكمان من قبل ولاية مصر ، وطردا منها بفعل ثورات العسكر التى كان محمد على أحد القادة المحركين لها .

وفى رأى الوكلاء الإنجليز أن أسطول طولون دائماً فى حالة استعدد للهجوم على مصر ، وهو ما يثير الآن المخاوف . بيد أن مصادر الخطر أقرب من ذلك بالفعل : فهم يبدون استعدادهم لبذل كل التضحيات التى تهدئ الباب العثمانى من جانب الخطر

---

(١) لمزيد من التفاصيل حول ترجمة حياة الشيخ عبد الله الشرقاوى (انظر الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ص ٢٥٦ - ٢٦٣). (المترجم)

(*) المقصود هنا الجامع الأزهر. (المترجم)

الوهابى . وإن كان محمد على على قناعة بأنه سوف يمكنه بصعوبة بالغة حشد كل القوات الضرورية ؛ وذلك بسبب تناقصها ، فإنه لهذا السبب يلجأ إلى استخدام كل الوسائل الملتوية [١] التى دائمًا ما تظهر فاعليتها بين قبائل العرب . وكتبوا من ينبع بأن حوالى عشرين ألفًا من هؤلاء المبتدعين فى دين الإسلام Les novateurs de l'Isla-misme الذين كانوا يمثلون نواحى مكة والمدينة قد انضووا تحت ألوية طوسون باشا ، وأنه بفضل هذا الحشد تمكن من احتلال أهم المواقع بالصفراء والجديدة[٢] وذلك دون أدنى مقاومة .

إن الفرقة العسكرية التى كانت تعسكر خارج أسوار القاهرة قد بدأت فى التحرك للمضى إلى ينبع . وشق المشاة طريق السويس التى تعين أن ينزلوا بها؛ واتخذ سلاح الفرسان طريق الصحراء . وبالمثل تصل باستمرار فرق عسكرية إلى مصر ، ومن بينها الأتراك ويبلغت قوة هذه الفرقة ما يزيد عن ٥٠٠٠ جندى . ويعتقد بأنه بمجرد التحاق هذه القوات بطوسون باشا سوف يمضون إلى جدة .

وتجارة هذه البلاد لا تقوم تقريبًا على أساس آخر سوى العمليات القائمة حول تصدير المؤن الغذائية . وكل المضاربات الأخرى مرتبطة بهذه التجارة أو فلنقل قائمة عليها بشكل أساسى . ونتيجة لذلك فإن أرباب الصناعات الإنجليزية صاروا هم وحدهم المستفيدين من هذه الظروف . ومع ذلك فإن الكميات الكبيرة من الأقمشة من نوع الهنديات والموصلين والمنسوجات القطنية الأخرى جعلتهم فى موقف سيئ من جراء كثرة خسارتهم ؛ إذ إن أسعار بيعها لا تغطى المبالغ الأصلية المستخدمة فى إنتاجها .

---

(١) يوضح الجبرتى أحد هذه الوسائل المهمة فى استمالة قبائل العربان ، والمتمثلة فى دفع حصيلة كبيرة من الأموال ، وترتيب علائف لهم يقبضونها فى كل شهر ، تسجل بأسماء كل فرد فى القبيلة (راجع تفاصيل ذلك فى الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٧٤) . (المترجم)

(٢) الصفراء والجديدة: قريتان من قرى بدر بمنطقة المدينة، حمد الجاسر: المعجم الجغرافى للبلاد العربية السعودية (معجم مختصر)، منشورات دار اليمامة، الرياض ج١، ص٣٥٧، ج٢، ص٨٤٧) . (المترجم)

وإلى أن يتحقق ذلك ، فإن محمد على يعمل على إدخار الأموال ، والمقترح له أن يدخر مبلغًا يصل إلى ٤٠ مليون من القروش التركية . ويمثل هذا وسيلة أساسية يراهن عليها كثيراً ؛ فى تحرزه من الحوادث والطوارئ المحتمل حدوثها فى المستقبل، وخاصة مساعيه لتجنيب نفسه المؤامرات الشديدة التى تُحاك ضده فى عاصمة السلطنة العثمانية . وعلاوة على ذلك تمكنه الثروة المالية من الاستحواذ على مناطق نفوذ مهمة : فعلى وجه التقريب صارت جميع قرى صعيد مصر والقرى الأكثر خصوبة بمصر السفلى التى كانت تشكل إقطاعًا للبكوات وعائلاتهم ، صارت ملكًا خاصا له ، أو لأولاده وأقاربه ؛ وهذا نموذج واضح هنا على الكيفية التى يجرى بها تطبيق النظرية الرائعة لرابطة الدم على الهيئة السياسية . على أن هذه الثروات ليست متاحة للتداول بين الجميع ؛ إذ تأتى رابطة الدم فى مقدمة كل معايير التوزيع ، فيما يظل جميع الأعضاء الآخرين فى حالة من الفتور المنذر بالخطر . ولم نر على الإطلاق طبقة واحدة من جميع طبقات المجتمع المصرى فى حالة من البؤس الشديد .

الإسكندرية فى ٤ من نوفمبر ١٨١٢

وكيل القنصل ومدير القنصلية العامة .

دروفتى

١٠٩ – تقرير فترة من ١ إلى ٢٣ نوفمبر

موجز – المشروعات السياسية والتجارية لإنجلترا فى مصر – منشآت بحرية محمد على – الطاعون يحل بإستانبول وأزمير – محمد على يأمر بأخذ المحاذير الصحية – طوسون باشا يحتل المدينة (المنورة) – ثورة قبائل العربان بنواحى الفيوم .

(سُجِّلت فى ٢٤ من إبريل)

إن أحمد أغا لاظ الذى غادر فرقته بالصعيد ، حين قدم للقاهرة ، قد لاقى مصيراً تعساً ، وعلى أثر ذلك لجأ أخوه إلى العربان مصطحباً معه ٤٠٠ من الجنود الأتباع ، ليُشكل مع العربان – كما يقال – حزباً قادراً على أن يثير القلاقل للحاميات العسكرية الخاصة بالباشا فى صعيد مصر .

ودخلت يوم ١١ من هذا الشهر سفينة الجويلت [١] الإنجليزية Goëlette؛ تحمل مندوباً ومبالغ مالية ، مخصصة لشراء المؤن الغذائية والخيول . – وتوجه[٢] المندوب الإنجليزى إلى القاهرة يوم ١٣ (نوفمبر) ، ولما كان الحال قد اقتضى أن يصطحبه فى هذه الرحلة السيد ملتاس Maltas الذى كان يعمل فى السابق مديراً للمفوضية البريطانية بإستانبول ، والقنصل الحالى لهذا الميناء ، فقد اعتبروا بأن وراء هذه المهمة أهدافًا سياسية كبيرة ، ومع ذلك فثمة رجال أكثر حذقًا وحصافة لم يروا لها من هدف سوى أن يحصلوا من حبوب مصر على جانب من المؤن الممثلة فى الدقيق الذى كانت كل من قادش Cadix ولشبونة وجبل طارق Gibraltar تجلبه من أمريكا .

---

(١) الجويلت : سفينة سريعة بصاريين وأشرعة مربعة . (المترجم)

(٢) قدرها الجبرتى بـ ٥٠,٠٠٠ كيس (الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص ٢٤٥) . (المترجم)

وحدث فى يوم ١٥ من هذا الشهر أن أجبرت الأحوال السيئة للطقس بريكًا حربيا إنجليزيا ، كان يجول فى مياه البحر المتوسط قِبل خانيه ،(*) أجبرته على اللجوء إلى ميناء الإسكندرية . وتم إصلاحه بهذا الميناء وتزويده بالمؤن ، ويتعين أن يرحل ليستكمل رحلته البحرية إلى نواحى أزمير .

وأبحرت الفرقاطة التى كان محمد على قد شادها . فى شهر مارس الماضى . وتشتمل هذه السفينة على فتحات لأربعين قطعة مدفع ؛ ولكن لما كانت صناعة صوارى هذه الفرقاطة تتوقف على الخشب الذى يُجلب من إستانبول ، فإن الأمر يتطلب بضعة أشهر أخرى حتى يكون فى الإمكان الإبحار بها .

ويحُدث الطاعون خرابًا كبيرًا فى إستانبول وأزمير ، ويشكل يُثير المخاوف من النتائج الخطيرة التى يمكن أن تتمخض عن حرية العلاقات التجارية مع هذين الميناءين ، وعمل قناصل الدول المختلفة المقيمين فى مصر مساعيهم لحثً محمد على باشا على أن يأمر باتخاذ بعض المحاذير الضرورية : وكُلِّلَتْ مساعيهم بالنجاح الكامل. إن محمد على المعروف بعجلته فى كل المناسبات التى يمكنه التمرد فيها على الأحكام السائدة ، فى الوقت الذى يعترض فيه الأتراك كثيراً على إجراءات الإدارة الأكثر عقلانية والأكثر صحية ، قرر (محمد على) إصدار مرسوم يقضى بإخضاع كل السفن الوافدة من إستانبول وأزمير لقواعد الحجر الصحى ، وتم بالفعل تنفيذ هذا المرسوم .

ورحل محمد على إلى السويس فى يوم ١٣ [نوفمبر] وكان ابنه إبراهيم بك قد وصل إلى القاهرة يوم ١٥ [نوفمبر] ويفترض بأن إبراهيم بك سيحكم البلاد فى غيبة أبيه . وكان يُعتقد بأن محمد على يريد أن يفى بوعوده ، وأن يمر على السواحل الشرقية للبحر الأحمر ، غير أن شيئًا من ذلك لم يتحقق كذلك . وأُطلِق

(*) خانيه : Candie هى عاصمة جزيرة كريت. (المترجم)

صباح يوم [نوفمبر] مدفعًا من القلعة يعلن عن نجاح طوسون باشا فى احتلال المدينة (المنورة) . وجَدَّ محمد على فى صباح يوم ٢٣ [نوفمبر] فى العودة إلى عاصمته ، ليتعذر على كل من المندوب (الإمبراطورى) والقنصل الإنجليزى الالتقاء به ، وكان هذان الرجلان قد توجها إلى السويس للتفاوض مع هذا الوزير ، إلاَّ أنهما عادا فى أثره دون أن يلتقيا به.

الإسكندرية ن فى ٢٦ من نوفمبر ١٨١٢

وكيل القنصل ومدير القنصلية العامة .

دروفتى

[تقرير عن الأيام من] ٢٥ إلى ٣٠ نوفمبر

قام قبائل العربان بعصيان مسلح على أطراف إقليمى الفيوم وبنى سويف ، الأمر الذى عجَّل بعودة محمد على المفاجئة إلى عاصمته . ووجه فى الحال كتخداه على رأس ١٥٠ رجلاً من سلاح الفرسان ، مزودين بعشرة قطع مدفعية ؛ لقتال هؤلاء المتمردين ، وتراوح عدد المتمردين بين ٦٠٠٠ و ٧٠٠٠ رجل ، وكما قيل كان بينهم بعض المماليك الذين نزلوا إليهم من النوبة .

وبسبب هذا الحدث يُثار الشك فى تحقيق الاستيلاء على المدينة (المنورة) . ويعتقد بأن عنايتهم بنشر هذا الخبر والاحتفاء به ليس مبعثه سوى الإيحاء بشجاعة وخضوع الجند المتعين ضمهم لجيش طوسون باشا .

وعلى الرغم من جهود كل من المندوب (الإمبراطورى) والقنصل الإنجليزى فى إضفاء طابع السرية على مهمتهما لدى باشا مصر ، فإنه يُعتقد بشكل دائم بأن مهمتهما لا تخرج عن التفاوض حول التزود بالمؤن الغذائية والخيول .

وعاد البريك الحربى (الإنجليزى) إلى متابعة جولته البحرية ، وذلك يوم ٢٧ [من نوفمبر].

الإسكندرية ، فى ٣٠ من نوفمبر ١٨١٢

وكيل القنصل ومدير القنصلية العامة

دروفتى

١١٠ - دروفتي إلى الوزير

موجز – أخبار كورفو – شحنة الأسلحة الضرورية المهداة إلى محمد على – زيادة أسعار القمح – محمد على أكثر باشاوات الإمبراطورية العثمانية ثراءً.

الإسكندرية ، فى ٢٨ نوفمبر سنة ١٨١٢

(سُجِّلت فى ٢٤ من إبريل ، وتم الرد عليها فى ١٢ يونيو ١٨١٣)

السيد المحترم ،

سلمت السيد لسبس ، المندوب الإمبراطورى فى كورفو ، الخطاب الذى تفضلتم بكتابته إلىَّ بتاريخ ٢١ من مارس . وأخبرنى هذا المندوب المحترم بالناتج الضعيف لشحنة الحبوب التى أرسلها محمد على إلى كورفو ، وذكر أنها بيعت فى سفالونيا . وعند الكتابة إلى الباشا لإحاطته بالنتائج المتعلقة بهذه العملية ، أعلنت له عن شحنة الأسلحة المهمة التى قرر جلالته ، فى الوقت الحالى ، إرسالها إليه .

وبطبيعة الحال لا يمكننى تركه بدون علم بهذه الشحنة التى كُلِّفت من قبلكم بعرضها عليه ، حتى إذا تم تلقيها كان لديه إحاطه بها . ولم يُبد السيد لسبس رأيه فيما يتعلق بالمخاطر التى قد تتعرض لها الشحنة على السفينة التى وصلت إلى كورفو ؛ وقد نصح لسبس محمد على بأن يرسل شخصًا موثوق فيه لفحص هذه الشحنة من الأسلحة الضرورية فى يانِّينا[١] Jannina أو بريفيزا[٢] Prévésa، وهناك يمكنه أخذ كل التأكيدات اللازمة لذلك . وكان الباشا فى غاية التأثر بهذه الشحنة من الأسلحة التى كانت بمثابة شهادة تبرهن على تقدير وترحاب جلالة الإمبراطور والملك به ؛ بيد أنه لما

---

(١) يانِّينا : هى عاصمة إقليم إبيريا الجبلى Épire ببلاد اليونان ، وكان هذا الإقليم ضمن منطقة البلقان الخاضعة للدولة العثمانية ، لكنه فى عام ١٩١٣ انفصل عن التبعية للعثمانيين (راجع : Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 648) . (المترجم)

(٢) بريفيزا : مدينة تقع على الساحل الغربى لبلاد اليونان وهى أيضًا ضمن إقليم إبيريا. (المترجم)

كان هذا الباشا يميل فى تصرفاته دائمًا إلى إظهار محاباته المميزة لأعدائنا ، وإظهار شدة ارتباطه بمصالحه المالية ، فقد اعتقدت بأنه من المناسب أن نتركه يستنتج بأن هذه الهدية إنما هى تعبير عن العرفان والشكر بالمساعى التى بذلها فى تزويد كورفو بالمؤن ، وأنها أيضًا نوع من التعويض عن خسائره التى تكبدها فى حروبه .

وبدا لى أن هذا الانطباع يُرضى المشروعات الأثيرة عند الباشا ، ويجعله يكف عن الاستـمرار فى رفع الشكاوى والتظلمات السابقة التى يريدون إثارتها ضده عند اللزوم.

ولا يبدو محتملاً أن محمد على يريد فى هذا العام أن يرسل شحنات جديدة من الحبوب إلى كورفو ؛ فالحبوب تُباع فى كورفو بسعر لا يحقق له أى فائدة . واتجه محمد على إلى تثبيت معدل فائدة بيع الحبوب ، بحيث يتم دفع ١٠٠ فرنك على كل ٢ هيكتولتر .

ومع ذلك فإن الإنجليز والإسبان يتعجلون فى شراء القمح حتى على هذا الشرط ، وذلك من جراء حاجتهم الماسة للحبوب . وتعاهدوا معه حتى الآن على أن يصدر إليهم من الحبوب ، قبل حلول موسم جنى الحصاد الجديد ، بما قدره ٢٥,٠٠٠ كيلو لتر . ويمكن تقدير عائد هذه الكمية ، فى إجمالى السنة ، بـ ٤٠ ألف كيلو لتر ، بما فى ذلك الأرز والخضروات التى تشكل دخلاً استثنائيًا ، يصل إلى حوالى عشرة ملايين فرنك . ويجبى الباشا رسومًا على الجمارك والملح ورسومًا أخرى غير مباشرة، تغلُّ له فى المالية بما يقرب من ثلاثين مليونًا ؛ وتغطى هذه العائدات الضخمة نفقات الجيش ، ونفقات القصر ، والهدايا المعتادة التى يرسلها إلى إستانبول ، فضلاً عن النفقات الأخرى الاستثنائية . وإذًا فإن محمد على يدخر سنويا ما قدره عشرون مليونًا من أجل مواجهة تقلبات الحظ فى المستقبل . ويُعتبر فى هذه اللحظة "الباشا الأكثر ثراء" على مستوى الإمبراطورية العثمانية .

إن سياسة محمد قِبَل الأوروبيين هى نفسها دائمًا ودون تغيير ؛ فهو كما يقول: يريد أن يبدو فى صورة الصديق للجميع ، مؤكدًا على أنه يعطى الجميع دون تمييز

نفس الامتيازات التى يحظى بها الإنجليز والتى هى سبب تفوقهم ؛ بيد أنه فى الواقع يُؤثر علينا أعداءنا ؛ لأنه يخشاهم قليلاً ؛ ولأنه أيضًا يجد فى علاقاته معهم ما يشجع ويدعم طموحاته ويرضى شحه . وتكشف علاقاته مع إستانبول التى يحافظ عليها الآن، عن الخوف والرغبة فى مراعاة تسامح السلطان معه ومحبة الوزراء [العظام] له .

ويشرفنى أن أكون فى .... إلخ.

توقيع : دروفتى

١١١- أخبار مصر الخاصة بالوهابيين(١)

موجز – أنباء سارة من بلاد العرب – حيوية ونشاط الباشا – غموض تصرفات شريف مكة – الباشا يتوجه إلى السويس – هزيمة الوهابيين أمام المدينة (المنورة).

" ملخص خطاب مرسل من القاهرة بتاريخ ٢٦ أكتوبر سنة ١٨١٢ "

تلقى سعادته (محمد على باشا) إخطاراً مرضياً يشير إلى أن سبعين شيخاً من قبائل العرب بنواحى المدينة (المنورة) ، ممن كانوا خاضعين للوهابيين حتى ذلك الحين ، قد انضموا إلى لواء طوسون باشا الذى استقبلهم بحفاوة مميزة ، مغدقاً عليهم هدايا من الفرو السمور والملابس والحبوب والنقود . وأرسل كبار شيوخ المدينة أيضاً إلى هذا الوزير ما يفيد بأنهم على استعداد لاستقباله ، والتوجه إليه طوعاً لتسليمه ملكية هذه العاصمة . وعلى ذلك ، فإنهم يتطلعون هنا ، خلال بضعة أيام ، إلى أن يتلقوا الخبر السعيد الذى يؤكد احتلالهم لهذه المدينة . وبرغم كل هذه الأخبار إلا أن سمو الباشا لا تتوانى تحركاته ونشاطاته ؛ فقد عمل على توجيه عابدى بك أخى حسن باشا ، يوم ١٠ من الشهر الجارى ، على رأس ١٥٠٠ جندى من المشاه ، وقد وصل عابدى بك بصعوبة بالغة إلى السويس ، ومن هناك أبحر مع فرقته . ويعتقد بأن هذه الفرقة تحددت مهمتها فى مباغتة جَدَّة ، وإذا ما نُفِّذت هذه العملية ، فإن شريف مكة لن يحرص آنذاك على أن يُخفى مشاعره الحقيقية التى لا تزال إلى اليوم غامضة تماماً . وفى خط متوازٍ مع ذلك سوف يرحل ، خلال الأيام الأولى من الشهر القمرى القادم ، حضرة الباشا ورئيس الدلاة ، وذلك على رأس أكثر من ١٠,٠٠٠ رجل من

(1) Correspondance politique, Turquie , Vol. 227 , F o 29.

سلاح الفرسان ؛ حيث إن شيخ العرب ابن شديد وأكابر شيوخ العرب التابعين للوهابيين أقبلوا عليه وهم يبدون الخضوع والطاعة ثم اصطحبوه في زحفه.[1]

" ملخص خطاب مرسل من القاهرة بتاريخ ١٤ من نوفمبر ١٨١٢

لم يصلنا أى خبر جديد من ينبع ؛ ورحلت منذ ثمانية أيام فرقة من سلاح الخيَّالة التى يقودها مصطفى بك ؛ وصدرت فى الحال الأوامر بعمل معسكر آخر للمشاه والخيالة ، وهما اللذان يتعين ترحيلهما بأقصى سرعة ممكنة ، وذلك تحت قيادة سلحدار بك وجابيس أوغلو Jabus - Oghlou كتخدا بك سابقًا.

وبالأمس استدعى حضرة (الوزير) حسن باشا ، وركبا معه على الجمال فى حراسة أربعين من أخص خدمه المؤتمنين . وسببٌ سفر هذا الوزير ، والذى لم نتحدث عنه ، مفاجأة كبيرة ، فالبعض فسر سفره على أنه بقصد تفتيشه ومتابعته لما يجرى بالسويس ، والبعض الآخر اعتقد أن هدفه التوجه إلى الينبع .

* * *

ملخص رسالة من القاهرة بتاريخ ٢٠ من نوفمبر [١٨١٢]

لقد شرفنى أن أعلمت سيادتكم فى خطابى السابق المحرر بتاريخ ١٤ من الشهر الجارى ، والذى يحمل رقم ١٩٣ ، بأنه قبل اليوم الذى كان فيه الباشا مسافراً إلى السويس ؛ نقلت فرقة الجمَّالة التى أرسلت إلى السويس ، فى لحظة وصولها إلى هناك ،

(١) نجد فى الجبرتى أن القائد بونابارته الخازندار (وليس مصطفى بك) هو الذى نجح وهو بالينبع فى استمالة شيوخ العرب ، وكان فى مقدمتهم شيخ العرب ابن شديد الحويطى وشيخ حرب وذلك بمساعدة قوية من الشريف غالب أمير مكة (راجع الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص٢٧٤). (المترجم)

خبراً يفيد بأن خازندار بك الذى تقدم بفرقة من جيش طوسون باشا قد بلغ أسوار المدينة (المنورة) ، وأن الوهابيين خرجوا إليه ، وبدأت المعركة ، التى لقى فيها الوهابيون هزيمة ساحقة ؛ إذ سقط منهم فى ساحة المعركة ٤٠٠٠ قتيل ، فيما جَدَّت البقية الباقية فى الهروب .

وكتب حضرته بأن على الفرقة أن تنتظر أن يصلها من جانبه قريبًا جدا قرار اقتحام الجيش للمدينة (المنورة) . وجرى الإعلان عن هذا الخبر السار على العامة؛ وذلك من خلال إطلاق دفعة متتالية من مدفعية القلعة ، وتكرر هذا الأمر فى جميع القلاع والحصون الأخرى .

* * *

١١٢ - سان مارسيل إلى الوزير

موجز – قوائم الملاحة – التجارة الإنجليزية الأكثر نشاطًا فى مالطة – تراجع نشاط التجارة الفرنسية .

الإسكندرية ، فى ٢٠ من نوفمبر ١٨١٢

السيد المحترم ،

تشرفت بأن قدمت لكم قائمة بالبضائع الواردة والصادرة ، وأسعارها الجارية، وأسعار السلع الاستعمارية Les denrées colonials، كما قدمت لكم أيضًا قوائم حركة الملاحة عن الفصلية الثالثة لهذا العام .

ويداوم الإنجليز على المحافظة على علاقاتهم التجارية مع مصر ، وهدفهم الحصول على المؤن الغذائية من هذا البلد والتى ينقلونها إلى مالطة وإسبانيا ، ويبيعون هنا ، فى مقابلها ، وهو ما يعود عليهم بأرباح طائلة ، سلعهم الاستعمارية ومنتجات مصنوعاتهم (المحلية) . ويجلبون إلى مصر بصفة خاصة كميات من أقمشة الهنديات والموصلين، التى يبيعونها بسعر منخفض جدا حتى عن المستوى الذى يمكنهم أن يشتروا على أساسه المواد الخام الأولية المنتجة فى هذا البلد . ووجه هذا السعر المنخفض ضربة قوية لبعض المصنوعات المحلية ومنها مصنوعات الأقمشة المعتادة عند سكان مصر .

ولا يدخل مصر بن المستعمرات إلا من خلال باشا القاهرة الذى أنشأ مؤسسة تجارية فى مالطة ، يرسل إليها القمح والشعير والفول والأرز والعدس ، ويتلقى فى مقابلها القروش الكبار وبعض المنتجات (الأوروبية) ونبات الشوفان والذخيرة الحربية . وتزداد هذه التجارة ، على مدار الأيام ، قوة وازدهاراً .

ولم نتلق من البضائع الفرنسية والإيطالية سوى ما كان عن طريق السفن والمراكب الوافدة من أزمير وإستانبول وسالونيك . وأُرسِلَت بعض السلع (الفرنسية)

إلى مصر على متن سفن إنجليزية قادمة من مالطة ، حيث تم شحنها من خلال سفن أخرى إما أنها كانت من السفن المحايدة أو سفن فرنسية أو إيطالية مزودة بترخيص يسمح لها بذلك . بيد أن السلع المصدرة من مصر إلى فرنسا لا تتم سوى عن طريق سالونيك، ومن هناك يجرى نقلها برا إلى تريستا .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١١٣ - نشرة من ١ إلى ١٥ ديسمبر [١٨١٢]

موجز - استعادة السيطرة على الفيوم - عدم التأكد من خبر احتلال المدينة (المنورة) - بدو الصحراء ينهبون قافلة - محمد على يهدد بدخوله سوريا - بيع القمح إلى الإنجليز - شراء الخيول .

ينتسب العربان الذين أثاروا الذعر فى إقليم الفيوم إلى قبيلة ليبية غفيرة العدد، كان قد طردها ابن سليمان (باى طرابلس) من ولايته ، ولما أعطاهم محمد على وعداً بأن يوطنهم فى مصر ، استعاد النظام فى إقليم الفيوم .

وأُقِيمتْ بالقاهرة أيضًا الاحتفالات يوم ٢٩ من نوفمبر ؛ وذلك احتفاءً بالانتصارات الجديدة التى أحرزتها قوات طوسون باشا على الوهابيين ، وذلك بالقرب من المدينة (المنورة) ؛ وإن كان لم يتأكد خبر استيلائهم على هذه المدينة . ودائمًا ما نعتقد بأن هذا الخبر لم يتم الإعلان عنه سوى للإيحاء بامتثال وشجاعة الجنود الذين كان مرتبًا لهم التوجه إلى السويس للالتحاق بالجيش ، ولعل مما يؤكد ذلك أن مقر القيادة العامة العسكرية ما زال فى الينبع . على أن هذه الحيلة كانت ضرورية للغاية بالنسبة لسلاح الفرسان الذى خلال مسيرته فى الصحراء تم اقتطاع ٣٠٠ جندى من وحدته بشكل مفاجئ ؛ كيما يتوجهون إلى سوريا .

وكان الباشا قد نجح فى ردِّ أخى لاظ أحمد أغا إلى طاعته بما فى ذلك القوات التى تتبعه ، حين توجه بهم لاجئًا إلى العربان .

وحدث فى الصحراء الفاصلة بين مصر وسوريا أن قافلة ثرية هوجِمَت ونهبت بالكامل وهى قادمة من السويس إلى القاهرة . [١] وأرسل محمد على

---

(١) وفقًا للجبرتى وقعت الحادثة فى ٢٦ ذى القعدة ١٢٢٧ هـ/الموافق ١ ديسمبر ١٨١٢م ، وكانت القافلة تحمل بضائع لكبار التجار والباشا نفسه . (الجبرتى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٤٢) . (المترجم)

مهرداره[1] إلى سليمان باشا حاكم عكا ؛ ليطالبه باستعادة الأشياء التى نهبها العرب ، - وبهذه المناسبة تركه يتصور ما إذا كان محمد على لم يتخل بعد عن مشروع مد سيطرته ونفوذه إلى سوريا . - ولابد أن مهرداره سيهدد بأن التقصير فى عمل التعويض المناسب (لقيمه المنهوبات) سيثير عليه العداء ، وجرى إرسال رسالة بنفس المضمون إلى إستانبول .

وأخيراً أميط اللثام عن الهدف من توجه القنصل الإنجليزى إلى القاهرة . - والتزم محمد على بتزويد الإنجليز بعشرة آلاف كيلو لتراً من القمح ، بما يعادل فى المتوسط ٣,٦٠٠,٠٠٠ فرنك ، إضافة إلى مضخة تقدر بـ ٤٠٠,٠٠٠ فرنك - وهذه الآلة الهيدروليكية ستعمل - كما يقال - فى تغذية الخليج الذى يجتاز مدينة القاهرة ، ذلك الخليج الذى من المعروف أنه يبقى جافا طيلة ثمانية أشهر من العام .

ووصل إلى الإسكندرية ، فى يوم ٩ من هذا الشهر ، بريك حربى إنجليزى ، ونزل منه ضابطان من سلاح الفرسان وبعض صف الضباط وبيطرى ، وتوجهوا يوم ١٤ [ديسمبر] إلى القاهرة . ولابد أن هؤلاء جاءوا للتفاوض مع الباشا بخصوص الخيول . وإذا كنا نريد أن نضيف هنا قوة الاعتقاد فى الشائعة التى تدور على ألسنة العامة ، فإن المطلب المطروح لا يعنى شيئاً أكثر من (التعاقد) على شراء ألفين أو ثلاثة آلاف ؛ وإنه إذا كان هذا صحيحاً ، فإنه يتعين الاعتقاد بأنهم سيعتنون كثيراً جدا بهذا الأمر ، لأن كل الخيول من إفريقيا ، وبرغم أن المصرى طبعه جميل وحيويته كبيرة ، فإنه يبدو أقل قدرة على الصمود أمام شظف العيش والحرمان والمتاعب التى تحدثها

---

(١) المهردار : هو حامل أو متولى أمر الخاتم ، ويطلق هذا المعنى على مَنْ يتولون التوقيع على الأوراق الرسمية بالخاتم . ومن الواضح فى النص أن محمد على كان يستخدم مهرداره فى نقل الرسائل الخاصة والمهمة التى يخشى من عدم وصولها أو تعطلها أو وقوعها فى يد خصومه (لمزيد من التفاصيل حول مصطلح وظيفة المهردار انظر حسين مجيب المصرى : معجم الدولة العثمانية ، مكتبة الأنجلو المصرية ، القاهرة ، د.ت، ص ٢١٦) ؛ ووفقًا للجبرتى كان مهردار محمد على يُدعى إبراهيم أفندى (الجبرتى : نفس المصدر والصفحة). (المترجم)

حروبنا . ثم إنه بافتراض أن الباشا قَبِلَ بأن يبيع لهم (الخيول)، فإنه سيجد صعوبة بالغة فى تزويدهم بالكميات التى طلبوها ، فقد نزعت من البلاد ، فى حملة بلاد العرب ، الكثير من الخيول والبغال ، والحرب المستمرة هناك ستتطلب المزيد دائمًا حتى وصل بهم الأمر إلى حد احتجازها بما فى ذلك الخيول والبغال الموجودة فى المدينة ومكة .

وتلقى الباشا من خلال سفينة تجارية قادمة من مالطة ٣٠٠٠ بندقية اشتراها من إنجلترا .

الإسكندرية ، فى ١٥ من شهر ديسمبر ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١١٤- سان مارسيل إلى دوق دو باسانو

موجز – نظرة عامة على حملة بلاد العرب – الاستيلاء على المدينة (المنورة) – إقامة الاحتفالات فى القاهرة والإسكندرية – العلاقات التجارية للإنجليز مع محمد على – أعمال بالإسكندرية .

إسكندرية مصر ، فى ٣ من ديسمبر ١٨١٢

(سُجِلَت فى ٢٤ إبريل ، وتم الرد عليها بتاريخ ١٥ يوليو ١٨١٣)

السيد المحترم ،

إن محمد على باشا مصر مشغول بأن يؤكد لحكومته بأنه لا يبحث سوى عما يجعله يحظى بعطف الباب العالى ، وأيضًا عما يحفظ له علاقاته مع الإنجليز . وسعيًا إلى بلوغه مآربه السياسية ، فإنه يتصرف تبعًا لمرامى هاتين القوتين (الباب العالى / إنجلترا) . وكل ما يرغب فيه الباب العالى بشكل أساسى هو أن يُعيد فتح مكة والمدينة : وقد أصدر الباب العالى أوامره إلى باشوات سوريا ومصر بأن يجيشوا الجنود لضرب ودحر الوهابيين ببلاد العرب ، وبصفة خاصة العمل على استعادة هاتين المدينتين المقدستين . ويعد باشا مصر الرجل الوحيد الذى يشغل نفسه بهذا المشروع الكبير . وهو لا يدخر شيئًا فى سبيل امتلاك العديد من القوات والأسلحة وكل ما هو ضرورى لهذه الحملة . وفرق جيشه التى أرسلها إلى بلاد العرب فى العام الماضى بلغت حوالى اثنى عشر رجلاً تحت قيادة طوسون باشا بن محمد على باشا : وتكبد فى سبيل ذلك خسائر عديدة ، واضطر طوسون باشا إلى التحصن فى ينبع ، حتى تصله إمدادت جديدة ، طلبها من أبيه . وقد نزل بينبع فى أكتوبر الماضى من ٧٠٠٠ إلى ٨٠٠٠ جندى ، وإمدادات أخرى سوف تصل من سوريا لتخضع لجيش طوسون باشا .

إن هذا الحشد من القوات والقوة المهمة من قبائل العرب جعل الباشا يتمكن من كيفية إدارة هذه الحملة بطريقة مناسبة ؛ فقد تمكن من عمل هجوم مباغت على المدينة (المنورة) . وقام محمد على بعمل احتفالات بهذه المناسبة فى القاهرة لمدة عشرة أيام ؛ وعملوا احتفالات مماثلة فى مدينة الإسكندرية لمدة ثلاثة أيام ؛ حيث وصل رجل من طرف الباشا[1] مكلفًا بحمل مفاتيح المدينة إلى السلطان العثمانى . ولا يحمل هذا الأمر من معنى سوى أنه استولى على مكة وجدة حيث إن قوات الباشا يتعين أن تمضى فى قبضها على الوهابيين بالجزيرة العربية ، وتأكيد حالة الهدوء الدينى والسياسى للعثمانيين .

ولا يصدق البعض تمامًا مسألة الاستيلاء على المدينة ، وهذا التشكيك مبنى على نوايا الباب العالى التى جاهر بها إلى باشا عكا فى أن يرسل إلى مصر قوات عديدة لتأكيد نجاحات العمليات العسكرية فى شبه الجزيرة العربية ؛ وإذا كان هذا الأمر قد أثار تخوف محمد على من مجيئهم ، فإنه يُفترض بأن تعجيل الاستيلاء على المدينة (المنورة) كان بهدف إيقاف مخطط هذه الحملة .

إن الصلة التى تربط الإنجليز بمحمد على تنطوى على هدف رئيسى يقوم على أساس أن يستهلك فى مصر موادهم الغذائية المنتجة فى المستعمرات (الإنجليزية) إلى جانب منتجاتهم الصناعية ، وفى المقابل يضمنون له حرية تصدير الحبوب إلى مالطة وإسبانيا وصقلية .

ومن جانب باشا مصر ، نجد أن وجهة نظره تتجه إلى ما يخدم سياسته ومصالحه : فسياسيا هو يرغب عبر الوساطة الإنجليزية ، فى أن يقيم فى مصر حكومة على غرار حكومات ولايات شمال إفريقيا ، وأن يجد نفسه ، بطريقة ما ،

---

(١) هو لطيف بيك ، وأطلق عليه الجبرتى اسم " أغات المفتاح " لأنه هو من حمل مفاتيح المدينة إلى دار السلطنة (الجبرتى : المصدر السابق ، ج ٤ ، ص٢٤٣). (المترجم)

مستقلاً عن الباب العالى ؛ أما من زاوية مصالحه فهو يجد أن الإنجليز يملأون خزائنه بالذهب والفضة التى يدفعونها فى مقابل مشترواتهم من الحبوب وعائدات التجارة المباشرة للباشا معهم . ومن جانب آخر ، يهدف الإنجليز إلى التقرب من هذه الحكومة كيما يسدون إليه، بسوء نية، نصائحهم التى تثير كل ما هو ضد فرنسا ، ولا يكفون عن محادثته فى مشروعات الغزو التى يفترضون أن فرنسا سوف تقوم بها ضد مصر ؛ وذلك حتى يروجون لديه شدة الحاجة إلى طلب مساعدات إنجلترا له .

إن المتاريس والاستحكامات الجديدة بالمدينة (الإسكندرية) التى شيدوها على المواضع القديمة قد أوشكت على الانتهاء ، وذلك فى المنطقة الممتدة حتى الباب الواقع فى أسفل الحصن الذى يُقال له " حصن كفاريللى " ، ولكن هذه المتاريس ضعيفة جدا ، وبالفعل يوجد فى العديد من المواضع تهدمات . على أنهم يعملون فى هذه الأيام خنادق ومنحدرات متصلة بالخنادق . ويتم تسخير الناس فى عمل هذه الخنادق ، كما يجعلون نفقات تكلفتها على أهالى المدينة . ويمكن للثكنات العسكرية المقامة عند الاستحكامات الواقعة فى مواجهة مدخل الميناء القديم ، أن تستوعب من ٨٠٠ إلى ٩٠٠ جندى . وهم يعملون بالطابق الثانى فيها . ومع ذلك فإن كل هذه التحصينات لا يمكن لها أن تنتهى بشكل تام ونهائى قبل مرور عامين على الأقل .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

الموقع : سان مارسيل

١٨١٣

١١٥- دروفتى إلى الوزير

ملخص – طلب أجازة لأسباب صحية .

الإسكندرية ، فى ١٨ من يناير ١٨١٣

(سُجِّلت فى ٥ يوليو)

السيد المحترم ،

تشرفت ، منذ بضعة أيام ، بتسلم الخطاب الذى تفضلتم بكتابته إلىَّ من مدينة فيلنا Wilna فى يوم ٢٤ من شهر أغسطس . ووفقًا للأمر الذى أبلغتمونى إياه فى خطابكم ، يشرفنى أن أرسل إليه طى هذا الخطاب نسخة ثالثة من تقريرى الذى يحمل رقم (١٢) .

إننى أرجو من سعادتكم أن تتفضلوا بقبول خالص شكرى وامتنانى بما يتعلق بالمصلحة العامة أن تتكرموا علىَّ بتقدير حالتى الصحية السيئة . إن تسامحكم معى فى طلبى الأول هو ما شجعنى على أن أضع تحت نظركم شهادة طبية جديدة من الطبيب الذى يعالجنى ، والذى لايزال يمنحنى عنايته فى هذا الميناء . ولسوف ترون سيادتكم فى هذه الشهادة بأن المرض الذى أعانيه قد جعلنى على مدار الأيام فى حالة مزاجية مقلقة للغاية ، وألتمس أن أوضح لسيادتكم كذلك بأن حسن أدائى للخدمة مرتبط باستعادة عافيتى . إننى فى الواقع أعانى فى كثير من الأحيان من تشوش برأسى ، يجعلنى أمارس عملى المكتبى بصعوبة بالغة ، ويمنعنى من التفرغ لممارسة المهام التى أسندها إلىَّ جلالة الإمبراطور أوغسطس (نابوليون بونابرت) على النحو الذى يرضينى . وإذاً فإننى أجدد طلب التماساتى وكم أتألم كثيراً لذلك ، على أننى أرجو من سيادتكم أن تأخذوا بعين الاعتبار الأسباب الملحة التى اضطرتنى إلى

التماس الإذن بعودتى إلى فرنسا أو إيطاليا ، حيث يمكننى استعمال المياه المعدنية كى أكون فى حالة تسمح بإعادتى إلى وظيفتى كى أقدم المزيد من البراهين التى تؤكد على حماستى ووفائى فى خدمة جلالة الإمبراطور الملك .

ويشرفنى أن أكون ... إلخ .

دروفتى

١١٦- تقرير شهر يناير ١٨١٣

موجز – وقوع طاعون خطير بالإسكندرية – إنشاء الحجر الصحى

تمضى ببطء شديد الاحتياطات التى اتخذتها (الحكومة) لإبعاد مرض الطاعون عن مصر. وكان الفيروس المسبب لهذا المرض الشنيع قد نجم عن البضائع الواردة من أزمير وإستانبول . وتم الإعلان عن وقوع الإصابة بعدوى الطاعون فى الإسكندرية منذ اليوم الثانى عشر من هذا الشهر . ويسعى محمد على إلى تأمين البلاد من الداخل من شر عدوى الإصابة بالطاعون ، ولهذا حدد عزل قواته بالإسكندرية داخل منطقة معزولة (صحيًا) ، وأقام حجرًا صحيا فى رشيد وآخر فى بولاق . وصار من المحظور إرسال البضائع الواردة من تركيا إلى الإسكندرية ومنها إلى رشيد ، وبعد فترة القديس جين La saint Jean التى توقف فيها المرض بشكل طبيعى، عاد ظهوره وصار من السهل الإصابة بعدواه .

ولم يستطع الضباط الإنجليز الذى كُلِّفوا بشراء الخيول أن يجمعوا منها سوى مائة فرس .

وتلقى الباشا من ينبع ما كان يأمل فى سماعه : فقد بلغه فى وقت وجيز أن قواته سيطرت على جدة .

الإسكندرية فى ٤ فبراير ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١١٧- تقرير شهر فبراير ١٨١٣

موجز – تدميرات الطاعون – الاستيلاء على جدة ومكة – مشروعات لمؤسسات تجارية ببلاد العرب .

يحدث الطاعون هنا تدميرات غير عادية فى هذا الفصل . وبالفعل يموت بسببه يوميا من ٦٠ إلى ٨٠ فرداً . ولا يوجد بعد أى إصابات بالعدوى فى كل من القاهرة ودمياط ورشيد .

وعلمنا أن الطاعون ظهر أيضاً فى سوريا .

وتلقى الباشا خبراً سارا يفيد بأن قوات جيشه استولت على جدة ؛ وذلك بالاتفاق مع شريف مكة ، ثم احتلوا بعد ذلك مكة بدون صعوبة . ويتعين أن يتوجه إلى إستانبول إسماعيل باشا الشاب أصغر أبناء محمد على ؛ ليسلم مفاتيح مكة للسلطان العثمانى .

ويشغلهم الآن بالفعل بالقاهرة مشروع إنشاء وكالات تجارية فى جدة ومُخا والموانئ الأخرى الواقعة على البحر الأحمر . ويريد محمد على أن يرسل أشخاصاً يحظون بثقته إلى هناك مزودين بمبالغ مهمة ؛ كيما يضعوا الأسس القوية لإقامة هذه العلاقات (التجارية) التى يرغب فى مدِّها حتى مسقط .

ويذيع الوكلاء الإنجليز هنا بالإسكندرية أخباراً سخيفة وبطريقة لا يمكن تصورها، ولكنهم فى كثير من الأحيان يقومون بنفيها ، والشائعات التى يعملون على ترويجها مجردة تماماً من أى معان حقيقية .

الإسكندرية ، فى ٢ من مارس ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١١٨- دروفتي إلى السيد دي هرمان رئيس فرقة القناصلة

موجز – شائعات لا تصدق تشي بقيام ثورة في باريس

الإسكندرية في ٧ من مارس ١٨١٣

السيد المحترم ،

يروج أعداؤنا شائعات عبثية لا يقبلها عقل حول الحادثة التي شرفتموني بخطابكم الصادر في ٢٣ من أكتوبر[١] بإعلامي بحقيقتها ؛ وأنه ليس ثمة مَنْ يقتنع بهذه الشائعات سواهم (أي الإنجليز) ، وليس ثمة ضرورة على الإطلاق من إعلان رسمي يجعل الأتراك المسلمين أنفسهم يعتقدون بأنه يوجد كذلك في فرنسا أفراد حمقى يعملون على إشاعة الاضطراب في النظام (الإمبراطوري) القائم ، ذلك النظام الذي حقق للأمة الفرنسية رخاءً وازدهاراً جعلها في مصاف أمم الأرض جميعًا . – إن رعايا جلالة الإمبراطور الملك القائمين في مصر تتجه رغباتهم المخلصة إلى الإبقاء على هذا النظام والمحافظة على هذه الأيام الغالية لجلالة الإمبراطور وكذلك لابنه أوغسطس .

وأسمح لنفسي ، سيدي ، أن أضع طيه تحت عنايتكم العامة مضمون البرقية .

ويشرفني أن أكون ... إلخ .

دروفتي

(١) المقصود هنا : مسألة مالطة. (المترجم)

١١٩- سان مارسيل إلى الوزير

موجز – الاستيلاء على المدينة ومكة وجدة – استعادة النشاط التجارى – إصابات الطاعون فى مصر – الأعمال الإنشائية الجارية بالإسكندرية .

السيد المحترم ،

أخبرت سيادتكم عبر خطابى المحرر بتاريخ ٣٠ ديسمبر ١٨١٢ ، رقم ١٠٤، باستيلاء جيش باشا القاهرة – الذى يقوده ابنه طوسون باشا – على المدينة وأسفر هذا الفتح عن مزايا كبرى (لمحمد على) ، وفى الواقع تلا هذا الفتح تحقق الاستيلاء على كل من مكة وجدة .

وانسحب الوهابيون إلى مقاطعاتهم ؛ بحيث صارت اتصالات العثمانيين بالأماكن المقدسة صريحة وآمنة ، والحمية الدينية لشعيرة الحج التى لم يمكنهم تأديتها ، منذ الغزو الوهابى ، ستنطلق من جديد .

وتجنى التجارة من هذا التغيير فى السلطة فوائد جمة : فمصر التى لها علاقات تجارية مع شبه الجزيرة العربية لن يمكنها اليوم سوى العمل على تدعيم وزيادة تلك العلاقات . وبالفعل انهال البن اليمنى على القاهرة ، مما أدى إلى تناقص سعر البن كثيراً ، بحيث إن كل ٣٣ أوقية أو ما يعادلها بالجرامات ٤٠,٧٦٦ جم و ٥٥ ملجم تباع اليوم بـ ٢٥ قرشاً كبيراً .

ولم تزل تجارة الحبوب مع مالطة وإسبانيا مستمرة . ولم ينقطع مجىء السفن الإنجليزية و الإسبانية إلى موانئ الإسكندرية ، وظلت تشحن بالحبوب برغم ارتفاع أسعارها إلى ٩٥ فرنكًا للأردب المعادل ٢١ صاعاً فرنسيا تزن ٢٠,٨٧٧٤ جم و ١٥ ملجم .

ووصل منذ بضعة شهور مضت بعض مروضى الخيول الإنجليز ، قادمين من مالطة لأجل شراء الخيول من مصر . وقد حصلوا من الباشا على تصريح بهذه

المشتروات . وقد اشتروا بسعر غالٍ إلى اليوم ٣٠٠ فرس ، برغم أنها ليست من النوع الجيد تماماً .

وظهرت حوادث الإصابة بالطاعون فى هذه المدينة فى شهر يناير الماضى . ومنذ ذلك الحين أخذت هذه الكارثة فى الانتشار ، وحصدت حتى الآن حوالى ٥٤٠٠ نفس ، وهذا العدد يعادل تقريبا حوالى ثلث سكان الإسكندرية . إن حركة الاتصالات القائمة بين إستانبول وأزمير مع الإسكندرية هى التى سبَّبت انتشار هذا المرض . وكان بإمكان الباشا تغيير اتجاه هذه الكارثة لو أنه أنصت إلى النصائح التى أسديناها إليه نحو شهر مايو من العام الماضى بعمل الحجر الصحى : فالباشا لم يقرر ذلك إلاَّ فى شهر ديسمبر الماضى ، حين أصدر أمره إلى حاكم مدينة الإسكندرية بإنشاء محجراً صحيا ، وتنظيم الحجر الصحى (الكرنتيلة) على كل السفن الوافدة من مختلف أسكال الشرق .

فجاءت الأوامر بطيئة جدا ؛ لأن الذئب(*) كان قد تسلل بالفعل إلى مرعى الغنم . على أن هذه المؤسسة الصحية قد تم إنشاؤها ، وإذا كانوا لم يحققوا منها بالنسبة للإسكندرية نتائج صحية ملائمة ، فقد ظهر تأثيرها بالنسبة لداخلية البلاد ؛ حيث إن الكارثة الوبائية لم تصل بعد إلى هناك ؛ ذلك أنهم أنشأوا محجراً صحيا فى رشيد ، كما أن أى شخص لا يمكنه التوجه برا إلى داخل البلاد من دون المرور بالكرنتيلة بحاجزها المنيع . وبالرغم من كل ذلك بلغنا أن الأمراض الفتَّاكة قد فاجأت القاهرة بالفعل ، وكل شىء يحمل على الاعتقاد بأن هذا كان مقدمة تمهيدية لانتشار العدوى . واضطر الباشا إلى مغادرة القاهرة إلى صعيد مصر . وربما سيتوجه من هناك إلى القصير ، كيما يزور بعد ذلك فتوحاته فى بلاد العرب ، ولعل طموحه فى بلاد العرب سيزداد توسعاً .

(*) المقصود هنا : الطاعون. (المترجم)

ودائمًا ما يتواصل العمل فى بناء الأسوار الخارجية للمدينة ، وكذلك حفر الخنادق والمنحدرات الخارجية المتصلة بالخنادق . وهذه التحصينات الأخيرة تمضى ببطء واضح ؛ ولكن عمل الأسوار يتقدم بشكل ملحوظ حتى لقد بلغت الحصن الذى يُقال له " كافاريللى " . وهم لا يتوانون عن إنجاز بناء الثكنات العسكرية .

إن الجزء الكبير من حامية مدينة الإسكندرية، الذين يبلغون ما بين الـ ٨٠٠ إلى ٩٠٠ رجل ، قد أرسلوا للخدمة بقلعة أبى قير ، سواء لعمل معزل صحى هناك أو لوقايتهم من انتشار العدوى التى تفعل فعلها فى الناس . ومنذ وقت قريب اجتاحت العدوى هذه المدينة ؛ وذلك بعد أن أجهزت على ثلثى جيشه بها .

إن الظروف الحرجة للغاية هى وحدها التى سوف تحيط سيادتكم علمًا بقدر الصعوبة التى تواجهنى بالفعل فى التزود بالمعلومات الضرورية ؛ لأجل كتابة قوائم حركة التجارة التى لم أرسلها إليكم منذ الفصلية الرابعة من العام الماضى . ولما كان الأشخاص الذين يزودوننى بالمعلومات والبيانات قد انعزلوا فى بيوتهم بسبب الطاعون، فقد تعيَّن علىَّ بالضرورة الانتظار حتى تنقشع هذه الكارثة ، وأمتلك الوسائل لبلورة كتابة واضحة (عن حركة التجارة) .

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

١٢٠- تقرير شهر مارس ١٨١٣

موجز – انتشار الطاعون – محمد على بالصعيد.

منذ ظهر الطاعون فى هذا الميناء (الإسكندرية) وقد أجهز على حوالى ٥٠٠٠ فرد ، وهذا الرقم يعادل ثلث عدد سكان المدينة . ومهما يكن الأمر ، فقد تأكد تسرب العدوى داخل بعض قرى إقليم البحيرة ، واستمروا فى مراعاة الإجراءات الاحتياطية لمنع المرض عن التفشى والانتشار . وثمة حالة رعب من العدوى بالقاهرة. ووجد محمد على من الفطنة والحذر أن يبتعد عن القاهرة : فرحل يوم ١٧ من هذا الشهر لعمل جولة بصعيد مصر . ويفترض بأن يمر على جدة من خلال القصير ، وذلك إذا ما الطاعون تتابع انتشاره هناك : ففى هذه الحالة لن يعود إلا فى شهر يوليو ، حيث تتوقف عادة عدوى هذه الكارثة الرهيبة كلية فى هذا الشهر .

وأعلن عن استيلاء قوات طوسون باشا على الطائف .

ورحل الضباط الإنجليز عن القاهرة ، هؤلاء الضباط الذين جاءوا إلى مصر من أجل شراء الخيول ؛ وقد اصطحبوا معهم قرابة ٣٠٠ فرس ، نزلوا بها فى أبى قير على سفن نقل كانت تنتظرهم هناك بشكل دائم .

الإسكندرية ، فى ٣ إبريل ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١٢١- تقرير شهر إبريل ١٨١٣

موجز – إرسالية عثمانية لتهنئة محمد على – الإنجليز يحتفلون كذلك بانتصارات محمد على – الطاعون يفتك بالجيش .

تلقى محمد على إخطاراً بقرب وصول قابجى[١] بك من قبل السلطان العثمانى إلى مصر ، وحال وصوله توجه إلى القاهرة يوم ١٣ من هذا الشهر ؛ وأرسل محمد على فى الحال طاهر باشا إلى دمياط لاستقباله ، والقابجى واحد من الضباط البارزين[٢] فى البلاط السلطانى . ويُقال بأنه جاء للإعراب عن رضا السلطان على ما أنجزه من انتصارات على الوهابيين .

وقُرِئَ فى جريدة مطبوعة فى زانطة Zante[٣] مقالاً بتاريخ ٢٣ من يونيو ، "من مالطة" ما يلى : " أن الكولونيل ميست موجود لدى سمو الباشا فى مصر ، وكتب إلى هذه الحكومة من مالطة بأنه قد تم التأكد من خبر الاستيلاء على المدينة بكامل حصونها ، وبداهة لابد من أن يُحدث هذا الخبر سروراً للجميع ، وقد أُعلِنَ عنه فى هذا الصباح من خلال قصف متواصل بالمدافع كما أن الإنجليز قاموا بالمثل بتملق محمد على ، ومن المؤكد أنه يكنّ لهم احتراماً كبيراً ، بيد أن محمد على لم يمتدح قط ولو مرة واحدة المقيم البريطانى Le Résident Britannique على الانتصارات المزعومة التى

---

(١) القابجى : أحد الضباط البارزين فى البلاط العثمانى ، يُعهد إليه عادة بمهمة توصيل رسائل على درجة كبيرة من الأهمية ، وحين يصل إلى مصر يهتم الوالى بترتيب من يستقبله وعمل موكب احتفالى يصحبه ضرب النوبة التركية حين دخوله القاهرة حتى وصوله للقلعة ، ويعقد فى الحال ديوان القلعة الذى يحضره الوالى بنفسه وكبار أعيان الولاية وكبار العلماء والشيوخ ، ويُقرأ ما جاء فى الرسالة على جميع الحاضرين بالديوان . (لمزيد عن التفاصيل انظر الجبرتى : المصدر السابق، ج ٤ ، ص ٢٣٩) . (المترجم)

(٢) ويشير الجبرتى إلى أنه كان برتبة أغا ويدعى " قهوجى باشا السلطان " (نفسه ، ص٣٨١). (المترجم)

(٣) زانطة : Zante وتعرف فى اللغة اليونانية القديمة Zakynthos وهى جزيرة يونانية ، تقع فى أقصى الجزر الجنوبية الأيونية ، وقامت بها مدينة عرفت بهذا الاسم " زانطة " (انظر Dict . Hachette , Encyclopédique , p. 2021) . (المترجم)

احتفلوا بها فى مصر حيث كان مُخْتَالاً بها على أصدقائه وعارفًا بشكل أفضل كيف يتعامل بالمؤامرة السياسية .

وتجدر الملاحظة إلى أنه فى القاهرة وبانينا فقط يوصف القناصل الإنجليز بأنهم " المقيمون " Des Résidents، وذلك على مستوى كل الإمبراطورية العثمانية، لكن هل مثل هذا التوصيف المميز نفسه لا يكفى لتحديد طبيعة العلاقات التى تحتفظ بها الحكومة البريطانية مع الباشا وضد الاعتبارات التى يتعين على الباشا مراعتها مع سيادة الباب العالى ؟

ودخل إلى هذا الميناء ، خلال هذا الشهر ، العديد من السفن التى كانت حاملة على متنها قوات عسكرية وافدة من مقدونيا ؛ وبالكاد يمكن لهذا العدد من العسكر أن يسد النقص الذى أصاب حامية الإسكندرية التى كانت (قبل الطاعون) ٥٠٠ جندى ، فلم يُبق هذا المرض منهم سوى ٦٨ جنديا .

وقرر محمد على أن يدخل نظامًا جديداً على جيشه ووفقًا لأوامر صادرة عن ابنه إبراهيم باشا حاكم صعيد مصر فصل كل القادة الذين رفضوا إعطاء إذن بعمل إحصاء لجنودهم .

الإسكندرية ، فى الأول من شهر مايو ١٨١٢

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١٢٢- دروفتى إلى الوزير

موجز – محمد على يريد استيراد رخام المرمر الإيطالى ليستخدمه فى بناء قصره : طلب الترخيص (لهذه الشحنة) .

إسكندرية ، فى ٢٥ من شهر مايو ١٨١٢

(تم تلقى الرسالة فى ٨ من شهر أكتوبر ١٨١٢)

السيد المحترم ،

يرغب محمد على فى إرسال سفينة من سفنه إلى إحدى موانئ إيطاليا ، على أن يُحملها بمنتجات مصر التى يريد أن يستبدل بها فى المقابل منتجات مصنوعاتنا هناك ، وبصفة خاصة رغبته فى استيراد " رخام المرمر " الذى يحتاجه لتبليط وزخرفة قصره . وقد كتب إلىَّ بواسطة سكرتيره الأول المترجم ، راجيًا من سيادتكم بأن تتفضلوا بمساعدته على الحصول على تصريح من جلالة إمبراطورنا أوغسطس (نابليون) ، بحيث يضمن به عدم تعرض إرساليته لأى نوع من أنواع الأخطار والعراقيل ، والتى تظهر بغتة ؛ من جراء الإجراءات التى تقيد حرية الملاحة للسفن المحايدة ، والتى تعرقل إدخال المؤن الغذائية الأجنبية . ويرغب محمد على من سيادتكم عند إرسال هذا الترخيص أن تتفضلوا بتضمينه بإشارة إلى منتجات مصر التى يريد تصديرها ، دون الخوف من مكابدة أى اعتراضات عند إنزالها . ويفترض بأنه لا يوجد بين تلك المنتجات " بن مُخا " . والسفينة التى يعتزم إرسالها هى من نوع البرجانتين الصغير ، وتدعى لو بوستيللون مصر Le Postillon d'Égypte، ولكن إلى أن يتمكن محمد على من جعل السفينة فى وضع الإبحار للخارج ، مع انتظار وصول الترخيص (من فرنسا) ، ربما من المناسب أن نترك تحديد مكان جهة (السفينة) بياضًا .

ويشرفنى أن أكون ... إلخ.

دروفتى

١٢٣- تقرير شهر مايو ١٨١٣

موجز – تفشى مرض الطاعون – هدايا السلطان العثمانى – إرسال مفاتيح مدينة مكة إلى إستانبول .

إن جميع الإجراءات التى اتخذت للحيلولة دون انتشار كارثة الوباء إلى داخل مصر صارت عديمة الجدوى . فمنذ الأيام الأولى من هذا الشهر ظهر الطاعون فى رشيد ودمياط ، ثم تابع انتشاره مباشرة فى الأرياف والقاهرة ؛ ومع ذلك فإن أرقام الضحايا من الموتى لا تتجاوز فى القاهرة ٢٤ فرداً يوميا . وبالمقارنة النسبية يتضح أن عدد الوفيات فى رشيد وداخل القرى لا يزال هو الأكثر فداحة . إن هذا المرض وانفتاح البحر الأسود وبدء تصدير الحبوب التى وصلت بالفعل إلى مالطة ، قد تسبب فى توجيه ضربة قوية لتجارة مصر .

ووصل يوم ٢٩ من هذا الشهر قابجى باشا المرسل من قبل السلطان محمود إلى دمياط ، على سفينة فرقاطة ، وتوجه القابجى قبل أمس إلى رشيد . وينعزل محمد على بالجيزة؛ كى يمنع أى اتصالات خطيرة خلال فترة انتشار العدوى ، إلاَّ أنه سيضطر إلى العودة لدخول القاهرة لاستقبال هذا الضابط . وكان السلطان قد عهد إلى هذا الضابط بتوصيل هدايا ثمينة إلى محمد على . وحمل إسماعيل باشا بن محمد على مفاتيح مكة متوجهاً بها إلى إستانبول التى تم استقباله بها بحفاوة كبيرة . وقيل إن هذا الشاب ابن الخامسة عشرة أو السادسة عشرة سنة قد عُيِّن على باشوية طرابلس فى سوريا . أما عن موضوع أخبار بلاد العرب فليس ثمة جديد يتعلق بالحديث عن الوهابيين .

الإسكندرية ، فى ٢ من شهر يونيو ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

١٢٤- دروفتى إلى الوزير

موجز – تسجيل أسماء المساهمين فى تزويد سلاح الفرسان بالجيش الكبير بالخيول .

الإسكندرية ، في ٤ من شهر يونيو ١٨١٢

السيد المحترم ،

إن نفس الحاجة التى حملت سكان الإمبراطورية على أن يقدموا براهين جديدة على الإخلاص والتضحية بالنفس ؛ من أجل إمبراطورنا أوغسطس (نابوليون بونابرت) هى نفس الحاجة التى شعر بها رعاياه المقيمون بالقاهرة : فهم يرجون سيادتكم ألا يرفض قط رجاءهم فى أن يضعوا تحت أقدام العرش الإمبراطورى تبرعاتهم التى تعبر بالضرورة عما يجيش بصدورهم من مشاعر حقيقية قبل مليكهم وقبل وطنهم . ويشرفنى أن أرسل ، طى هذه الرسالة ، إلى سيادتكم قائمة بأسماء المتبرعين ، وأيضاً أمر بتفويضى فى باريس بالصلاحيات التى تؤدى إلى تحويل هذه المبالغ إلى الخزينة (الإمبراطورية) ، ويطيب أن نحدد لسيادتكم قيمة التبرعات بألفى فرنك .

ويشرفنى أن أكون ... إلخ.

دروفتى

[ملحق مرفق ببرقية صادرة بتاريخ ٤ يونيو ١٨١٣]

القنصلية العامة بمصر

الإمبراطورية الفرنسية

هذه قائمة بأسماء رعايا جلالة الإمبراطور والملك المقيمين بالقاهرة ، الذين تقدموا برضاهم التام للمساهمة بهذه المبالغ ، من أجل تزويد سلاح الفرسان بالجيش الكبير بالخيول ، مع الإشارة إلى قيمة المبلغ المتبرع به كل منهم .

البيان

١- السيد جين بينى Jean Pini 200 ٢٠٠ فرنك

٢- السيد بيير جرانة Pierre Grana 125 ١٢٥ فرنكًا

٣- السيد جين بريتديسى Jean Brindisi 125 ١٢٥ فرنكًا

٤- السيد دينس فرنانديز Denis Fernandez 125 ١٢٥ فرنكًا

٥- السيد بول جرافاتزا Paul Gravazza 50 ٥٠ فرنكًا

٦- السيدان لوريا وتيليشى Loria et Tilchi 300 ٣٠٠ فرنك

٧- السيد أصلان ، المترجم وموثق العقود بالقنصلية العامة Asselin ٢٥٠ فرنكًا

٨- دروفتى Drovetti، مدير القنصلية العامة ٦٢٥ فرنكًا

الإجمالى ٢٠٠٠ فرنك

مع الإخلاص الصادق والمؤكد

الإسكندرية ، فى ٤ من يونيو ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

الإسكندرية ، في ٤ من شهر يونيو ١٨١٢

السيد المحترم،

فلتتفضلوا بتحويل هذا المبلغ إلى الخزينة ، ويطيب لى أن أحدد لكم يا معالى وزير الخارجية قيمة المبلغ بألفى فرنك بحيث يتم إدراجها فى حساباتى.

ويشرفنى أن ألقى إلى معاليكم التحية ... إلخ .

دروفتى

السيد دو شايول De Chayolle

شارع فوسيه Fossé مونتمارتر رقم ١٦ بباريس.

١٢٥- تقرير شهر يونيو ١٨١٣

موجز – تهنئة من السلطان – عدوى الطاعون وانتشارها حتى مالطة – شراء الإنجليز للمؤن الغذائية لأجل جيوشهم بالبرتغال.

حمل قابجى باشاء المرسل من قبل السلطان العثمانى، خلافًا للهدايا المعتادة، خطابًا بتوقيع السلطان، ذلك الخطاب الذى أضاف فيه حضرة السلطان إلى محمد على لقب " لاله"[(١)] Lâla، وهو لقب يفيض بالود والمحبة ويناظر اللقب الممنوح للحاكم المعين من بين الأمراء العثمانيين.

ونال الابن الأكبر لمحمد على المدعو " إبراهيم باشا " الذى يدير مالية البلاد ويحكم صعيد مصر، لقب الباشوية، وتم ترقية أخيه طوسون باشا (الذى قاد حملة المدينة ومكة) إلى رتبة باشا بثلاثة أطواخ.

وأطلق السلطان محمود على نفسه، عقب احتلاله للأراضى المقدسة الإسلامية، لقب " غازى" الذى يعنى الفاتح Le Conquérant .

ويرغم أننا لم نعد فى فصل الطاعون الذى أصاب فى الفترة السابقة معظم الناس تقريبًا، فإنه مازال يواصل تدميره فى الأرياف، كما أنه أصاب بالمثل رشيد ودمياط، وذلك خلافًا لحالة إصابة واحدة أو حالتين تسقطان يوميا فى ميناء الإسكندرية من جراء هذا المرض، وفى القاهرة أصبح الشعور به فى نطاق محدود جدا حتى أن الأوروبيين قد استعادوا اتصالاتهم بالسكان.

وانتقلت هذه العدوى المرعبة إلى جزيرة مالطة وأصابت معظم الناس هناك. ويعزى أهالى مالطة هذا القدر السيئ إلى غفلة الإدارة الإنجليزية.

---

(١) لاله : Lâla لقب يمنحه السلطان لأحد وزرائه الباشوات، كما أنه اللقب الذى يُطلق على الوزير الوصى على حكم السلطان صغير السن. (راجع مادة Lâla فى Dict. "New Red House" , Istanbul, 9 edition 1987, p. 703.). (المترجم)

والطبيب المشهور مندريسى Mendrici والمستشار لمحمد على هو أحد الرجال أصحاب النفوذ المدعومة من القنصلية البريطانية، وكان هذا الرجل قد فقد ، منذ بضعة أشهر ، حظوته لدى محمد على ؛ بيد أن الإنجليز تمكنوا من استعادة مهام وظائفه وتأثيره لدى الباشا، ولسوء حظهم تعرض هذا الطبيب للإصابة بمرضٍ أدى إلى موته.

وأبحرت ثمانى سفن فى حراسة بريك حربى إنجليزى، وهى السفن التى جِئَ بها بقصد شحنها بالمؤن الغذائية المشتراه فى ذلك الحين لأجل سد الاحتياجات الغذائية لجيشهم فى البرتغال؛ وكانت هذه الحبوب، المُخَزَّنة بالصوامع ، منذ بضعة أشهر، قد تعرضت للتسوس؛ ولما تأكد القناصل الإنجليز من الأمر التمسوا من محمد على تصريحاً لهم ببيعها داخل البلاد، واستبدال كمياتها بأخرى من المحصول الجديد، بيد أن الباشا رفض طلبهم.

الإسكندرية، فى ٤ من شهر يوليو ١٨١٣ .

وكيل القنصل، القائم بإدارة القنصلية العامة

دروفتى

١٢٦- احتفالات لتكريم إسماعيل باشا ابن حاكم مصر[1]

موجز - مناسبة الاحتفال بتسليم مفاتيح مكة والمدينة - احتفال تشريفي في بيوك ديريه في ٢١ من شهر يونيو - استقبال إسماعيل باشا - مشهد الجماهير الغفيرة وموقفهم - عمل وليمة عشاء فاخرة تكريماً للباشا - استعدادات لعمل احتفالات أخرى.

احتفى السلطان بإسماعيل باشا (ابن محمد على باشا حاكم مصر) الذى جاء ليقدم له مفاتيح مكه، وقد أمر السلطان القائمقام وآخرين من كبار الوزراء بالباب العالى بأن يعدوا احتفالات تقام تحت الخيام فى أماكن التنزه الأكثر جمالاً على قناة البحر الأسود. وأطلق القائمقام عليها " ماء السماء" ، وهى عبارة عن مرعى جميل يقع على ساحل آسيا ، وثمة مقصورة رائعة للسلطان فى هذا المرعى، وكثيراً ما يقوم بجولات التنزه هناك، وتم اختيار خالد أفندى كخيا بيك لعمل ترتيبات هذا الاحتفال على مراعى بيوك - ديريه[1] Büyüq - déré، وقد استهدف ذلك دون شك إثارة نظر جميع الأجانب الذين يقطنون هذه القرية وضواحيها. وكان هذا فى يوم ٢١ من شهر يونيو الذى تحدد فيه إقامة هذا الاحتفال. وعشية ذلك توجه خالد أفندى إلى هذه الأماكن المخصصة للاحتفالات؛ كيما يشرف على الاستعدادات التى أمر بعملها. وشكلوا نطاقًا مسوراً من قماش الكتان تجرى داخله كل أعمال الطهى لإعداد الولائم، وهنا تنافس الطباخون الأتراك والعرب والأرمن واليونانيون على إظهار مواهبهم فى تقديم الوجبات الشهية والأكثر لذة وطلباً، فيما كُلِّف صانعو الحلوى من الإفرنج بالمشاركة فى هذه الخدمة.

---

(1) Correspondance Politique, Turquie, Vol. 228, Fo 116 .

(٢) بيوك ديريه أو بيوك مندريه : Büyük Menderes نهر فى آسيا الصغرى (يبلغ طوله ٤٥٠كم) ويصب فى بحر إيجه جنوب جزيرة ساموس Samos. راجع (Dict . Hachette , Encyclopédique , p .1199). (المترجم)

وأقاموا على هذا المرعى ثلاثين خيمة ثمينة وفاخرة ومجهزة بالأثاث، وخصصوها للمدعوين من الشخصيات المعتبرة. وعلى العديد من الخطوط الخلفية جرى اصطفاف خمسين خيمة أخرى؛ لتخدم الضباط والناس بالتتابع، فضلاً عن جمهور المتفرجين ممَّنْ أمكنهم الحصول على مكان هناك. وتنبَّه خالد أفندى إلى ضرورة تخصيص خيمة فاخرة جدا فى الصفوف الأولى؛ لاستقبال مَنْ يدفعه الفضول إلى الحضور من الوزراء الأجانب.

واحتشد هناك الموسيقيون، والراقصون على الحبال، والمصارعون، وزمرة عديدة من المهرجين الكوميديين، والشباب اليونانيون الراقصون الذين جاءوا للمشاركة فى مباهج هذا الحفل.

وانتهز خالد أفندى وجوده فى متابعة كل ترتيبات هذا الحفل ليقضى وقتًا رائعًا يوم ٢٠ يونيو (اليوم السابق مباشرة على الحفل) مع أصدقائه ومع الشخصيات الأخرى التى لن تسمح مراسيم الحفل بأن يأتوا معه فى اليوم التالى. وقضى هذه الليلة تحت الخيام؛ كما رتب مقرا على ربوة صغيرة تطل على المرعى لأجل أن يقيم به حريمه.

ومع بزوغ فجر يوم ٢١ يونيو، جاءت أعداد كبيرة من السفن، الغاصة بالفضوليين من الناس، الذين مضوا فى القنال حتى وصلوا إلى "بيوك - ديريه" . وجاء من كل القرى المحيطة حشود من الناس الذين سارعوا إلى مشاهدة هذا الاحتفال، وهم فى مؤازرتهم المؤثرة تلك كانوا – رجالاً ونساءً – فى حالة من البهجة والزينة، وفى صورة لا تقل عن غيرهم من الحاضرين .

وركب إسماعيل باشا، فى الساعة العاشرة من صباح ذلك اليوم، على مركب أبيض اللون، ذى خمسة أزواج من المجاديف، وتبعه فى أثره موكب كبير من القوارب المليئة بضباطه وأتباعه، حيث وصلوا إلى مرفأ به هذا المرعى. وهناك امتطى إسماعيل باشا جوادًا تقدم به نحو الخيام. وتقدم الكخيا بيك أمامه ببضع خطوات، مصطحبًا إياه إلى داخل الخيمة التى خُصِّصت له. وهى الخيمة التى كانت مزينة بالأقمشة

المذهبة والفضية، وبها أريكة مزودة بوسائد ثمينة. وبعد آداب احتساء القهوة وتناول الغليون، عاد الكخيا بيك إلى خيمته؛ لينتظر بها حضور كبار الشخصيات الأخرى المدعوة لحضور هذا الحفل. وقد وصلوا تباعًا إلى خيمته، وبعد أن قدم لهم واجب الاستقبال عادوا إلى الخيام التى خُصِّصت لهم، وأخذ كل منهم يزور الآخر فى خيمته، واستمتعوا بقضاء وقتهم أمام المشاهد التى عُرِضَتْ عليهم فى ذلك المكان.

ووضعوا أمام خيمتى الباشا (إسماعيل باشا بن محمد على) والكخيا بيك أريكة طويلة، مزودة بالوسائد، جلس عليها كل من الباشا الشاب، والكخيا بيك، والبوستانجى باشا، وأغا الخصيان(*) والدفتردار أفندى ، والريس أفندى، وأمين الضربخانة، ووكيل سك النقود؛ وأمين الترسخانة ووكيله ، وشخصيات أخرى من المدعويين إلى حضور هذا الحفل. واستعرضوا أمامهم بالألعاب الكوميدية التركية أو بالأحرى قدموا لهم عروضًا هزلية أدخلت على تلك الشخصيات الوقورة السعادة والسرور؛ إذ انشرحت صدورهم لهذه العروض، وخاصة الباشا الشاب الذى لم يكن قد حضر مثل هذا المشهد الإحتفالى من قبل.

وكان الأهالى الذين انتشروا على امتداد هذا المرعى الفسيح قد تجمعوا فى مجموعات تحت الأشجار، وظلوا يستمتعون بمتابعة مشاهد العروض المختلفة، واقترب عدد منهم جدا من الممثلين القائمين بالعروض، الأمر الذى استلزم معه التلويح بضرب هؤلاء الفضولين بأسواط العسكر. ومع ذلك لم يحدث أى خلل أو فوضى من أى نوع

(*) ترجمة وظيفة أغا الخصيان فى النص الفرنسى : " "Le Kyaya de la Sultane mére وهى ترجمة غير دقيقة؛ لأنه لم يرد فى المصادر أية إشارة إلى أن والدة السلطان كان لها كتخدا أو كخيا مثل السلطان. والمقصود بذلك فى الأغلب "أغا الخصيان" أو ما عُرِف كذلك بـ " أغا الطواشية" الذى كان برأس ٤٠ حارسًا من الخصيان لحريم السلطان وأهل بيته من النساء، وكان أغا الخصيان هو مَنْ يتلقى رغبات أو أوامر زوجة السلطان أو والدته وينقلها إلى السلطان أو إلى الصدر الأعظم. (لمزيد من التفاصيل ارجع إلى : عبد العزيز الشناوى: الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، طبعة ١٩٨٤، ج١، ص٥٦٩). (المترجم)

في هذا الحفل المهيب الذى ساده الاحترام والأمان. وكانت أعداد كبيرة من النسوة التركيات واليونانيات إلى جانب النسوة الإفرنج قد حضرن تلك العروض واستمتعن مثل الرجال بحرية تامة فى هذا الاحتفال.

وبعد انقضاء كل المشاهد الاحتفالية، عاد جميع المدعوين إلى خيامهم لتناول العشاء. والمعروف أن الأتراك يقدمون خدمة الطعام على أطباق مدورة، ويجلس حول المائدة عدد يقرب من خمسة إلى ستة أفراد. وتناول الباشا عشاءه داخل خيمته مع ثلاث أو أربع شخصيات معتبرة ممن كانوا يرافقونه. وتلقى وزراء الباب العالى شرف الاستقبال داخل خيامهم التى كان بها موائد فاخرة قُدِّمت عليها كل أنواع الخدمة بطريقة لائقة وذوق عال.

وما إن فرغ الباشا من تناول العشاء واحتساء القهوة وشرب الغليون، حتى همَّ للعودة إلى كخيا بيك؛ ليقدم إليه صندوقًا من الذهب المرصع بالماس وفاءً وعرفانًا بالشرف الذى ناله بقبوله لهذا الحفل. وتلك هى عادة الأتراك، يمارسونها على نحو دائم، بحيث يقوم الأصغر سنا بتقديم هدية للأكبر مقامًا وشرفًا.

ويُقدر ما أنفقه الكخيا بيك فى هذا الحفل بأربعين ألف قرش، ولسوف يلى هذا الاحتفال قيام احتفالات أخرى:

أغا الخصيان

الدفتردار أفندى (وزير المالية)

الريس أفندى (وزير الخارجية)

أمين الترسانة (أمين دار صناعة السفن الحاضر عوضًا عن غياب القبودان باشا)

١٢٧- نشرة شهر يوليو ١٨١٣

موجز- إرسالية للسلطان تحمل هدايا ثمينة - ذكاء الباشا يقود تطلعاته الطموحة إلى مد سيطرته إلى اليمن - وفاة بطروتشي.

يرحل قابجي السلطان محمود[1] عن القاهرة، حاملاً معه من مصر هدايا ثمينة ومعتبرة،[2] تلك الهدايا التي تم شحنها على خمس سفن. ويتعين أن تشق طريقها في البحر خلال بضعة أيام قليلة متوجهة إلى إستانبول ، وتصحبها فرقاطة (حربية) تحمل على متنها هذا الضابط (القابجي باشا).

ويعزم محمد على أن يقوم ، خلال شهر سبتمبر القادم، بجولة في ممتلكاته الجديدة ببلاد العرب. وقد وصل إلى القاهرة، يوم ١٣ من هذا الشهر، خازنداره الذي كان يقود هناك فرقة من القوات العسكرية، وأعلن هذا الخازندار عن أن الهدوء التام أصبح يسود المدينة (المنورة) ومكة وجدة والضواحي المحيطة بهذه المدن؛ وأن العديد من قبائل العرب المتحالفة مع الوهابيين أقبلت تعلن خضوعها لطوسون باشا. واتخذ الأخير ترتيباته اللازمة لإرسال فرقة من جيشه إلى أقاليم اليمن؛ فقد عرف طوسون باشا الكيفية التي يُهيئ بها الأجواء المناسبة لتنفيذ مشروعات الغزو الخاصة بأبيه. وكل سكان بلاد العرب على وجه التقريب قد عانت ولاتزال تعاني من نقصٍ كبيرٍ في

---

(١) حدد الجبرتي تاريخ رحيله عن القاهرة في أواخر رجب ١٢٢٨هـ/٢٩يوليه١٨١٢م، ويشير الجبرتي إلى أن هذا القابجي كان يدعى " قهوجي باشا" (راجع الجبرتي: المصدر السابق، ج٤ ، ص ص ٢٨٠- ٢٨١، ٢٨٣).

(٢) بحسب الجبرتي كانت الهدايا عينية ونقدية وعديدة ومن ذلك: هدية عظيمة، بلغت كلفتها من الذهب العين ٤٠,٠٠٠ دينار، ومن الهدايا العينية: ٥٠٠ فرق بن؛ ١٠٠ قنطار سكر من النوع المكرر مرتين؛ و٢٠٠ قنطار سكر أخرى من النوع المكرر مرة واحدة ؛ ٢٠٠ قدر صيني معدن مملوءة بالمربيات ؛ وأنواع الشربات المسك المطيب المختلف الأنواع؛ ٥٠ جوداً مرختة بالجوهر المزركش واللؤلؤ والمرجان، و٥٠ حصاناً من غير رخوت؛ وأقمشة هندية كشميري ومقصبات وشاهي وبخور عود وعنبر ... إلخ. (راجع نفس المصدر والجزء، ص ٢٨٣) - المترجم

الحبوب، وهو ما جعل محمد على يسارع إلى إمداد ابنه بالحبوب. ومن دون شكٍ عرف محمد على كيف يستغل هذا الظرف الصعب لإشعار قبائل العرب بأن سلطته على بلاد العرب ربما هى الأكثر إفادة لهم؛ حيث يمدهم بكميات أساسية من المؤن الغذائية.

وأصبحت حالات الإصابة بالطاعون نادرة جدا هنا بالإسكندرية، تماماً مثلما هو الحال فى كل من القاهرة ورشيد ودمياط وداخل الأرياف. ومع ذلك يُخشى هنا من تكرار الكارثة فى فصل الربيع القادم ؛ وذلك نظراً لأن كل الأقاليم التركية تقريباً التى تحتفظ بعلاقات (تجارية) وثيقة مع مصر قد أصابتها عدوى هذا المرض ، فى الوقت الذى لا يمكن اتخاذ أى إجراء مناسب هنا لاتقاء شر هذه العدوى.

ومات السيد بطروتشى، القنصل العام للسويد، بالإسكندرية، يوم ١٢ من هذا الشهر، وذلك بعد فترة طويلة ومؤلمة من مرضه.

وكيل القنصل القائم بإدارة القنصلية العامة.

دروفتى

١٢٨- سان مارسيل إلى دوق دو باسانو

موجز- نبأ انتصارات الفرنسيين فى ألمانيا - تجارة (حبوب) البحر الأسود تدمر تجارة حبوب مصر - أعمال (التحصينات) بالإسكندرية- أحوال بلاد العرب - سان مارسيل يطلب إحالته إلى التعاقد.

الإسكندرية ، فى ٢٠ من أغسطس سنة ١٨١٣

السيد المحترم،

تلقيت الخطابات التى شرفنى معاليكم بكتابتها إلىَّ، والمحررة بتاريخ ٢٠ و٢١ من شهر مايو، وقد حملت إلينا هذه الخطابات أنباء الانتصارات التى أحرزها جلالته[١] بسرعة مذهلة على الروس والبروسيين. وباتت هذه الأنباء معروفة تمامًا لدى الأتراك والعرب في هذه البلاد، وذلك سواء من خلال ما تلقاه بعض الأشخاص من أخبار (وخاصة محمد على باشا) من قبل إستانبول أو من خلال الأتراك أنفسهم الذين كانوا يعملون فى معسكر الروس، وتم أسرهم على يد الفرنسيين؛ حيث قدموا شهاداتهم على الانتصارات الرائعة للفرنسيين، وبعد ذلك وجدنا أحد هؤلاء الأتراك، وقد وصل إلى مصر، ينشر بحماس شديد أخباراً عن وقائع جيوشنا ، قائلاً: بأنه لا يوجد أمة، ولا أمة الأتراك نفسها، بإمكانها مواجهة الجيوش الفرنسية.

ومع أن أعداءنا الإنجليز يجهدون أنفسهم فى التأكيد دائمًا على أن العمل معهم فيه كل المزايا والمصالح، إلاَّ أنهم فى الوقت نفسه لا نجدهم يتقدمون بل يتراجعون.[٢]

---

(١) المقصود : الإمبراطور نابليون. (المترجم)

(٢) المقصود هنا بالتقدم والتراجع " المعنى العسكرى " حيث شهدت هذه الفترة انتصارات للإمبراطور نابليون على ممالك عديدة فى أوربا بينما لم تستطع إنجلترا ، حتى ذلك الحين، خلال حروبها ضد فرنسا، تحقيق نتائج ذات بال، فى حين سيتغير الحال تمامًا بين عامى ١٨١٤ و ١٨١٥ لصالح إنجلترا التى تسقط نابليون نفسه، وتنفيه إلى جزيرة سانت هيلانه. (المترجم)

وهـم فضلاً عن ذلك، لا يعتمدون قط على ما يلقى إليـهم من أقـوال، ومع أن لهم صلة قويـة بالحزب المسيـطر[1] un parti prépondérant على السلطـة فى مصر، إلاً أنهم لا يؤثرون سوى مصالحهم الميركنتالية (التجارية) مع باشا القاهرة.

واليوم نلحظ أن تجارة حبوب مصر مع مالطة وإسبانيا والبرتغال قد تراجعت تماماً؛ ويُعزى ذلك فى الحقيقة إلى أنهم (أى الإنجليز) قد أمكنهم استيراد القمح من منطقة البحر الأسود، وهو من النوعية المتميزة فضلاً عن أنه أرخص كثيراً من سعر نظيره المصرى. وهذا التراجع فى صادرات الحبوب، والتوقف المفاجئ لهذه التجارة، إنما يُوجه ضربة قوية لثروة بعض التجار والتجارة العامة لمصر. أيضًا تسبب الطاعون الذى أحدث خرابًا فى هذه المدينة (الإسكندرية) منذ شهر يناير الماضى وحتى شهرى يونيو ويوليو – تسبب فى إعاقة كل شئون التجارة هنا . وتتعرض مالطة فى الوقت الحاضر لعدوى الإصابة بالطاعون؛ وهذا ما يُفسر لماذا لا نرى إلاً فى القليل النادر جدا سفنًا تصل من مالطة إلى الإسكندرية، باستثناء سفن باشا القاهرة التى لاتزال تجلب قليلاً من البضائع المشتراه نقداً.

وقد تم على وجه التقريب إنجاز بناء كل الأسوار التى تحيط بمدينة الإسكندرية، ويجرون حاليًا حفر خنادق تحيط بتلك الأسوار، وكذا حول المنحدرات الخارجية ، بيد أن تلك الأعمال الإنشائية تمضى بحركة بطيئة. ومن ناحية أخرى ينقصهم المدافع التى تلزمهم لتأمين تلك التحصينات ، وأجهل عدد القوات اللازمة للدفاع عنها.

ويرممون حاليًا ممرا على الطريق المسقوف الموصل إلى القلعة. وقد كانت جميع الممرات، على وجه التقريب مهدمة، والأسوار خربة وبالية، فتم العمل على إعادة بناء وتجديد كل منها، وخلال فترة قصيرة سوف يتم إصلاحها جميعًا .

---

(١) المقصود هنا: قوة محمد على باشا. (المترجم)

وصـار باشـا القـاهرة سـيـداً بصـورة دائمـة على كل من مكة والمدينة، على أن الطقس هناك غير ملائم لقوات جيشه ؛ ومن الصعوبة بمكان أن يحتفظ فى هذه البلاد بجيوش كافية، وكانت الوسيلة الوحيدة لباشا مصر أن يحتفظ بولاء قبائل [١] إلى جانبه ضد الوهابيين ، بيد أن قبائل العرب سوف يكون بإمكانها أن تعاود انحيازها للوهابيين؛ وذلك ما لم يُقدم لها مبالغ نقدية معينة ، ينظرون إليها على أنها جزية مفروضة un Tribut imposé وما يُخشى منه ألاّ يكون فتح هذه البلاد قد توطد بعد، والمؤكد أن محمد على باشا سيتوجه إلى مكة فى ١٠ من شهر رمضان الموافق ليوم ١٢ من الشهر القادم.[٢]

وتوجه السيد دروفتى اليوم إلى القاهرة، وذلك بعد أن قضى بعض الوقت هنا فى مدينة الإسكندرية، وهو ينتظر الإجازة التى يأمل فى الحصول عليها من قِبْل معاليكم. وفيما يتعلق بى، سيدى المحترم، فإن اعتلال صحتى، وسنى الذى تجاوز الستين، وخدمتى فى العمل القنصلى ، التى استغرقت حوالى ٣٥ سنة بين الأتراك [٣] – كل هذا يجعلنى أُجدد ، قبل معاليكم ، طلب التقاعد الذى تدعمه وتبرره كل ما لى من مستندات مؤكدة ومقنعة جدا. وأسمح لنفسى أن أقول بأن معاليكم الذى سيلحظ بفطنته مسيرة خدماتى ومدى أقدميتى ، سيتلقى طلبى بترحاب ولطف وعرفان من حكومة تكرم وتغدق العطاء على الوكلاء الذين تم تعيينهم من قبلها فى الخارج.

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

---

(١) سوف ينجح محمد على باشا بالفعل فى عقد تحالفات مع عربان هذيل وثقيف وبنى سعد وعتبة القاطنين بين مكة والطائف، كما أنه ذهب بنفسه إلى الطائف لتوكيد الروابط مع أهلها .(راجع عبد الرحيم عبد الرحمن : المرجع السابق، ص ٣٠٤) . (المترجم)

(٢) وصل محمد على إلى جدة فى ١ رمضان ١٢٢٨ هـ – ٢٨ أغسطس ١٨١٣ . (المترجم)

(٣) المقصود هنا " المسلمين " المنضوين تحت جناح الإمبراطورية العثمانية . (المترجم)

١٢٩- نشرة شهر أغسطس ١٨١٣

موجز – استعدادات لسفر محمد على إلى الحجاز – النظام يسود الجيش – إنشاء مصنع للأسلحة – صناعة البارود – بناء ثكنات عسكرية – الطاعون.

عاد إسماعيل باشا [١] بن محمد على من مهمته، التى كُلِّفَ خلالها بحمل مفاتيح مكة إلى إستانبول : والضجة التى أُثيرت حول تعيينه على باشوية طرابلس الشام كانت بغير أساس. وبدا على العكس من ذلك أن السلطان محمود ليس لديه استعداد لأن يسمح لمحمد على بأن يتدخل فى شئون الشام.

وبات من المقرر بشكل محدد سفر هذا الوزير إلى الحجاز؛ وقد جرى الإعلان عن الاستعدادات اللازمة لسفره الذى يتعين أن يستغرق شهرين أو ثلاثة.

وَجدَّ محمد على بالفعل فى إرسال العديد من الأغراض والتقادم إلى السويس التى خصصها كهدايا لقادة الفرق العسكرية ولشيوخ قبائل العرب، ولأعيان المدن (الحجازية) : ومن بين تلك الأغراض خيول مرختة بما هو ثمين وغالى ، وشيلان كشميرى، وأسلحة، وبنش أو قفاطين التى اعتاد الأتراك طرحها على الأشخاص الذين يريدون تمييزهم:[٢] وتقدر تلك التقادم بـ ١,٥٠٠,٠٠٠ قرنك. ولسوف يتوجه محمد على إلى الحجاز بفرقة عسكرية من ألفى جندى من سلاح الفرسان وألف جندى من المشاه، ومن خلال تفقده للأماكن وتحديده لطبيعة العلاقات التى يمكن إقامتها مع قبائل العرب بالحجاز، سوف يمكنه تحديد مشروعاته (التوسعية) التالية بالنسبة لليمن؛ ومن المنتظر – فيما يبدو – أن يقرر الإفادة من كل الظروف التى يمكن

(١) يحدد الجبرتى تاريخ عودته فى ٥ رمضان ١٢٢٨ الموافق ٣١ أغسطس ١٨١٣ (الجبرتى : المصدر السابق ، ج٤ ، ص٢٨٤) . (المترجم)

(٢) كانت أهم دلالة على تقلد الشخص وظيفة معينة من قبل الباشا أن يطرح عليه قفطانًا أو فروة سمور بحسب مقامه وأهمية الوظيفة المسندة إليه (انظر على سبيل المثال الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص٢٠٠ ، ٢٥٦، ٢٥٧) . (المترجم)

أن تسهم فى جعله سيداً على الجزر الرئيسة، وما يقابلها بالمثل على الساحل الشرقى للبحر الأحمر.

ولا تمضى محاولات الباشا فى إدخال النظام على جيشه دون أن يتمخض عنها نجاحات مهمة؛ فقد أمكنه الآن إحصاء جنوده الذين يتشكل منهم جيشه؛ فكل شخص معروف، واسمه مُسجل (فى الدفاتر) : وهذا العمل الجديد و الفريد، والذى كان من قبل صعب للغاية، أثمر بالفعل نتائج طيبة بالنسبة للشرطة، كما أنه وفر الكثير والكثير على الخزينة.

وبرغم الخسائر التى تكبدتها الفرق العسكرية التى يقودها طوسون باشا، والوفيات التى أصابت مختلف الحاميات العسكرية بمصر من جراء انتشار الطاعون، فإن جيش محمد على لا يزال متماسكًا؛ وذلك جراء تجنيد المتطوعين الذين بلغ بهم الجيش إلى ٢٠ ألف جندياً. واتخذ محمد على إجراءً يُمكنه من تزويد جيشه بألفى جندى من سلاح الفرسان، دون أن يتحمل أقل المصروفات اللازمة للمحافظة عليهم: فالعديد من بين ضباط حاشيته يتمتعون بدخول كبيرة، ناتجة عما منحه لهم الباشا من مرتبات وأراضٍ؛ فكل منهم يُنفق أو يقتصد فى الإنفاق بحسب ما يرأه مناسبًا، ويتعين عليهم فى الوقت الحالى أن يحافظوا على توفير عدد معين من هؤلاء الفرسان، وذلك بقدر ما يتناسب مع كفاءة كل منهم. ويحرص محمد على بنفسه على تثبيت هذا العدد من الضباط الفرسان، والذين بقدر ما يمثلون بطانته العسكرية، يشكلون ، فى الوقت نفسه، جزءًا من قوة الجيش.

ولم تقتصر وجهه نظر محمد على على تحسين هيئة الجيش فحسب، وإنما عمل كذلك على تزويده بترسانة لصناعة الأسلحة النارية؛ وكان معظم العمال الذين استعان بهم فى الترسانة من الألبان، وكان يوجد من بينهم صناع مهرة جدا وعلى درجة فائقة وملحوظة حتى إن ما تنتجه أيديهم يفوق للغاية نظيره من المنتجات التى اعتادت التجارة الأوروبية تصديره إلى مصر.

وزودته عملية تصفية ملح البارود (الأبيض) بكثير من احتياجاته الضرورية اللازمة لصناعة البارود.[1] وقد مُلِئَتْ مخازن الباشا بالبارود بكميات وفيرة جدا: وتعد نوعية البارود المصنعة الآن أفضل كثيراً مما كان يُصنع فى السابق منذ بضع سنوات.

إن الثكنات العسكرية الواسعة والعظيمة التى فى الإمكان أن تأوى بسهولة ويسر ١٢٠٠ جندى - شُيدت من الأنقاض فى الموضع الذى كان يشغل فى السابق التزام إبراهيم بيك: وعلى جانب هذه الثكنات يوجد اصطبلات للخيول. وثمة ثلاث ثكنات أخرى يتعين إنشاؤها، بنفس حجم الاستيعاب، فى ضواحى مدينة القاهرة. ويعملون أيضًا علي ترميم الأسوار التى تحيط بالقلعة، وأنشأوا داخل تلك الأسوار بيوتًا جديدة لسكنى الباشا ولأبنائه ولكبار ضباط الجيش. وبات من الضرورى على رؤساء الإدارات كذلك أن تكون دواوينهم قائمة هناك، لتكون على مقربة من الباشا، ويسهل الاتصال فيما بينهم ، بيد أن أحد الأشياء الغريبة التى تشهد دائمًا على عدم الاتساق والتنافر فى التصميمات الجيدة والأعمال التى يمكن للأتراك أن ينجزوها بصورة جيدة، قيامهم بإنشاء قصور على غرار ما بإستانبول أو فلنقل على مستوى كل التخطيط الهيكلى لها تقريباً.

وقد تم إنجازهم لبناء الثكنة العسكرية التى كانوا يشيدونها بالإسكندرية، وثمة سور أيضًا على ساحل الميناء القديم؛ ولم يعد ثمة أرضٍ مكشوفة هناك سوى فسحة محدودة يوجد بها مسلة كليوباترا[2] فى ميدان السلاح القريب من الحى الإفرنجى: ولو

---

(١) خَصَّص محمد على مصنعًا للبارود فى جزيرة الروضة فى سنة ١٨١٥، وكان ملح البارود يفوق نظيره الإنجليزى (راجع : عفاف لطفى السيد: مصر فى عهد محمد على، ترجمة عبد السميع عمر زين الدين ومراجعة السيد أمين شلبى ، المشروع القومى للترجمة، العدد رقم ٥٥٤ ، القاهرة ٢٠٠٤، ص٢٥٠) . (المترجم)

(٢) قدم جرتيان لوبير، أحد علماء الحملة الفرنسية، وصفًا مهما لمسلتى كليوباترا بالإسكندرية، انظر: وصف مصر (دراسة عن مدينة الإسكندرية، مج٢ ، طبعة ١٩٧٧، ص٢٠١) . (المترجم)

أن هذا العمل تعطلت فيه عملية رفع الأنقاض من الخندق، إلى جانب توقف بناء المنحدرات المتصلة بالخندق؛ وذلك بسبب انشغالهم بإصلاح وترميم الممر المرتفع هناك والطريق غير المكشوف الذى يؤدى بنا من المدينة إلى حصن الفنار. وتعد كل هذه التحصينات بشكل عام سيئة التخطيط والتنفيذ، ويلاحظ كذلك بأن التحصينات الجديدة القائمة فوق سور العرب القديم تعانى من الانهيار والتدهور، مما يبرهن على أنها ليست محكمة البناء تماماً.

ولم نسمع، منذ ٢٥ يوماً، عن إصابات بمرض الطاعون، بيد أنه يوجد بشكل دائم مرضى مصابون ببعض أعراضه، الأمر الذى يُظهر بأن جرثومة هذه الكارثة الوبائية الرهيبة موجودة فى هذا البلد.

ووصلتنا من مالطة أنباء تفيد بأن عدوى الطاعون لا تزال تحدث تدميراً هناك. واليوم تكاد تكون صلة مصر بهذه الجزيرة متوقفة؛ ومع أن أسعار المؤن الغذائية زادت فى مالطة ، إلاً أن الباشا يأمل أن تُستأنف الاتصالات مع هذه الجزيرة قريباً، وعلى نحو يفيد ماليته. ويبدو فى الواقع أنه يوجد بالفعل عدد من الطلبات المقدمة لشراء الحبوب، بيد أن المضاربين طلبوا إيجاد شروط أقل كلفة: وقام محمد على بتخفيض سعر القمح من ٩٠ إلى ٨٠ فرنك للأردب (من وزن ٢ هيكتولتر) . ويتضح من تصريح تصدير الفول ، المطلوب لإسبانيا ، أن سعره مازال ثابتًا عند مستوى ٤٠ فرنكًا.

القاهرة ، فى ٨ سبتمبر ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة.

دروفتى

١٣٠- نشرة شهر سبتمبر ١٨١٣

موجز – إدارة منظمة لمصر – إقامة نظام مالى كامل ومنظم.

سمح امتلاك محمد على لحكم مصر بصورة هادئة بأن يُنشِئ فيها إدارة منظمة، تفوق بدرجة كبيرة ما كانت عليه هذه الولاية تحت حكم أسلافه (المماليك) . وعادت التجديدات التى أنجزها بنجاح على خزينة الدولة بمصادر مهمة للدخل، وهى مصادر مالية كانت مهملة ومغفولة أو غير معروفة، مما كان يئول لحساب المديرين والخَاصَّة. ومع ذلك فإن محمد على غير راضٍ على هذه النتائج، الأمر الذى يفسر استمراره فى جمع المعلومات التى من شأنها أن تمكنه من استكمال نظامه المال؛ وفى هذا لن تذهب جهوده سدى. وشهد شهر سبتمبر بلورة الخطة الجديدة والتى بمقتضاها سوف تصل إيرادات الحكومة إلى ٧٠ مليون قرش تركى، وهو ما يعادل ٧٠ مليون فرنك. ولايبدو أن شيئًا ما يمكن أن يعوق هذه الخطة عند الشروع فى تنفيذها. وتقوم هذه الخطة على زراعة كل الحقول الزراعية التى أهملها ملاكها لحساب الباشا؛ وخفف الباشا عن الفلاحين كل الرسوم الباهظة التى أرهقهم بها ملاك القرى،[١] على أنه استعاد جزءًا من حصيلة تلك الرسوم بضمها لضرائبه المالية. وقام بإلغاء كل الامتيازات (المادية) التى حظيت بها الأراضى التابعة للمساجد وللمؤسسات الدينية الأخرى. ومُنِحت هذه الامتيازات للأشخاص المتحالفين مع الباشا، وإزاء كل اعتبار آخر مماثل لذلك كان يعفيهم من دفع الضرائب إما بشكل كلى أو جزئى. وثبت الباشا ضريبته العقارية على

---

(٢٨٨) المقصود بمصطلحى "Les Possesseurs" أو "les propriétaires des villages" جماعة الملتزمين الذين لم يكونوا سوى منتفعين بحيازة الأراضى ؛ حيث كانت الدولة – من الناحية النظرية والقانونية – هى المالكة لرقبة الأرض. وحول نظرة الفرنسيين لنظام الالتزام أواخر القرن الـ ١٨ م ومطلع القرن ١٩م فى مصر انظر دراستنا : نظام الالتزام فى فكر الحملة الفرنسية ، منشوراً فى: التاريخ المقارن للشرق الأوسط، حلقة بحثية، تحرير بيتر جران، رءوف عباس، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥، [ص ص ٤٥ – ٦٩]. (المترجم)

أساس مساحة وإنتاجية كل حصة من الأراضى ، ووفقًا كذلك لنوعية زراعتها. أيضًا اتجه إلى تخفيض الضريبة بمعدل ثابت ومتساوٍ على الأراضى التى تنتج محصولاً يساوى القيمة الضريبية نفسها. وبفضل هذه التغيرات تمكن فى النهاية من تبسيط طريقة جباية الضريبة العقارية، وضخً للخزينة العامة إيرادات معتبرة، كانت تئول للكُتاب الأقباط وشيوخ القرى فى زمن الإدارة (المملوكية) السابقة، التى كان عدم انتظامها وتعقدها يهيئان المجال لكثير من الاختلاسات .

وتم استدعاء مأمورى الأقاليم إلى القاهرة؛ لكى يتلقوا أوامر وتعليمات الباشا، بشأن ما يجب عليهم القيام به خلال فترة غيابه. وقد تحدد سفر هذا الوزير إلى الحجاز بشكل قاطع فى اليوم التاسع من هذا الشهر. وترك الباشا زمام الحكومة بين يدى كتخداه؛ وذلك نظرًا لوفائه وإخلاصه وخبرته التى تجعله يثق فى الاعتماد عليه فى تدبير الأمور. ومازال ابنه الأكبر إبراهيم باشا يحكم صعيد مصر.

القاهرة ، فى ١٥ من شهر أكتوبر ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة.

دروفتى

١٣١- نشرة شهر أكتوبر ١٨١٣

موجز - سفر محمد على إلى الحجاز.

سافر محمد على باشا صبيحة يوم ٩ [من هذا الشهر] إلى السويس التى وصل إليها يوم ١٢ ثم أبحر منها إلى ينبع .

وكان قد تلقى قبل رحيله خبراً مهما وسارا، يفيد بأن عثمان المضايفى[١] الشهير والأكثر شجاعة وإقداماً بين القادة الوهابيين، والمثير للرعب فى الحجاز واليمن ، قد جُرِحَ وتم أسره، واقتادوه إلى جدة. ويُعتقد بصفة عامة أن ضربة الحظ هذه سوف تسهم ، أكثر من كل نجاح آخر ، فى مد وتوطيد فتوحات محمد على فى اليمن.

إن الكولونيل ميست المقيم البريطانى الذى كان مقيماً منذ عودته إلى مصر، بصورة دائمة بالإسكندرية، قد نقل مقر إقامته إلى هذه العاصمة (القاهرة). وتسوء حالته الصحية طوال الأيام، وعلى وجه التقريب جميع أعضاء جسده قد شُلَّت ، ويبدو أن الباعث الوحيد الذى حدد تغييره لمقر سكنه، هو أمله ورجاؤه فى أن يجد بالقاهرة مناخاً أكثر اعتدالاً، يخفف عنه آلامه.

وأمر محمد على باشا قبل سفره بأن كل السفن القادمة من بلاد مصابة بالطاعون أو مشتبه فى إصابتها به، يتم إخضاعها للحجر الصحى؛ وبدأ العمل بتنفيذ هذا الإجراء الصحى منذ خمسة عشر يوماً سواء فى دمياط أو بالإسكندرية.

القاهرة ، فى ٥ نوفمبر ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) يبين الجبرتى بأن المضايفى " كان زوج أخت الشريف غالب، وأنه خرج عليه ، وانضم إلى الوهابيين، فكان أعظم أعوانهم" (راجع الجبرتى: المصدرا لسابق ، ج٤، ص٢٨٥). (المترجم)

١٣٢- نشرة شهر نوفمبر ١٨١٣

موجز – خطط جديدة لمحمد على ضد الوهابيين.

تم نقل عثمان المضايفى من جدة إلى القاهرة، وبعد وصوله بثلاثة أيام توجهوا به إلى إستانبول فى صحبة قبى كتخدا محمد على باشا[١] ؛ حيث أراد سيده (محمد على باشا) استغلال هذا الحدث كدليل جديد[٢] على النصر والغلبة.

وليس ثمة أخبار مفيدة عن بلاد العرب ، ويفترض بأن محمد على لن يقوم ببعض التحركات ضد الوهابيين إلا بعد عيد الأضحى القادم الذى سيتم الاحتفال به فى الأيام الأولى من شهر ديسمبر، وإذا ما قاوم الوهابيون مشروع فتوحاته فإنه سيتوجه لمهاجمتهم فى بلادهم.

والتجارة بصورة عامة راكدة؛ ولم تعد تجارة الحبوب تحتفظ بمكانتها فى العمليات التجارية التالية. وصارت الغلال المصرية تُباع فى مالطة بسعر منخفض، يكاد يعادل ثلثى معدل السعر السابق الذى كان الباشا يتشبث به.

القاهرة، فى ٢ ديسمبر ١٨١٣

وكيل القنصل والقائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتى

---

(١) هو نجيب أفندى ، ويحدد الجبرتى وظيفته بأنه " قبى كتخدا الباشا ووكيله بباب الدولة" (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤ ، ص٢٨٦). (المترجم)

(٢) كان البرهان الأول لانتصار محمد على على الوهابيين متمثلاً فى تمكنه من الحصول على "مفاتيح مكة والمدينة" التى قام بنقلها إلى دار السلطنة على يد ابنه إسماعيل باشا. (المترجم)

١٣٣- رسالة الكولونيل بوتان أحد الأصدقاء[١]

موجز – مسألة لطيف بيك، إعدامه – القبض على شريف مكة وعائلته؛ خزينته تصبح بين يدى محمد على.

١٤ ديسمبر ١٨١٣

عزيزى دوكوكس De Caux

وقع بالقاهرة حدث سياسي صغير، ومن دون شك سوف يجرى الحديث عنه فى أوروبا؛ ولما كانت الأشياء فى هذه الآونة تتبدل تمامًا، فإننى أودُّ أن أمدَّك بالتفاصيل الدقيقة.

كان لطيف بيك[٢] شاب مسلم، يتراوح عمره ما بين ٢٢ إلى ٢٥ سنة، تعلق به الباشا كثيراً، وعهد إليه بمهمة السفر بمفاتيح مكه والمدينة إلى دار السلطنة، وخلال فترة إقامته بإستانبول تداخل فى علاقات وثيقة مع الشخصيات الكبيرة وبصفة خاصة مع الصدر الأعظم والقبودان باشا، وهما الشخصيتان اللتان من جراء ما كانا يضمرانه من شعور بالعداوة لم يُبديا حسن النية والمقصد قِبل حاكم مصر محمد على باشا. وفى النهاية كُرِّم لطيف بيك فى إستانبول حال عودته إلى مصر بحصوله على لقب باشا بطوخين، ومنذ تلك اللحظة بدأوا يلحظون ما داخله من غرور وعظمة، ولاحظوا أيضًا تعجله الشديد فى العمل على زيادة قوة فرقته الصغيرة (على الأكثر

---

(1) Ministère de la Guerre, Archives administratives, dossier du colonel Boutin

(٢) لطيف بيك: هو مملوك عارف أفندى بن خليل باشا الذى كان متوليًا قضاء مصر فى السنوات الأولى من القرن التاسع عشر، وقام عارف أفندى بإهداء مملوكه (لطيف) إلى محمد على باشا، وقربه محمد على باشا إليه واختص به وأحبه ورقاه فى المناصب حتى جعله "أنختار أغاسى" أى صاحب المفتاح الذى يشرف على جميع العاملين فى الخاص أوده لدى محمد على باشا، وصارت للطيف بيك مكانة كبيرة وشهرة فى معية الباشا (راجع الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤ ، ص ٢٨٧) . (المترجم)

كان تحت يديه مائتا مملوك، ينفق عليهم من مرتبه وعلائفه: بما فيهم مماليك الباشا ، وليس بوسعه أن يجمع منهم أكثر من رقم معين يتراوح بين ٤٠٠ إلى ٦٠٠ مملوك). ومع غلبة الجهل الشديد على جميع المماليك، كان لطيف بيك معتقداً بصورة يقينية فى التنجيم وكشف الحظ على ضوء التكهنات المستقبلية، وكان يرافقه فى كثير من الأحيان رجلان من المنجمين.

الأول مسلم[(١)] والآخر يهودى،[(٢)] وكان الاثنان يتكهنان له بحسن طالعه؛ وحال عودته من إستانبول لم يفوتهما أن يتذرعا بترقيته التى أخبراه بها من قبل سفره ، ليؤكدا له على حقيقة تخميناتهما ؛ وفى النهاية، ومع مطلع هذا الشهر[ديسمبر] أعلنا له بأن الباشا سوف يموت بالحجاز، وأن القدر سيحله محله بالقاهرة؛ وقرأوا له كل هذه التكهنات على ضوء مطالعة النجوم. واشتعلت هذه التنبؤات فى رأس الباشا الشاب، فجمع حوله أهل بيته وأتباعه المخلصين، وقيل، على ما يزعم ، إنه تلقى من الباب العالى فرماناً سريا يعده بباشوية مصر إن هو أمكنه الاستحواذ على زمام الحكم فيها؛ بيد أن هذا الزعم الأخير مشكوك فيه تماماً، وعلى الأقل، فإن الفرمان لم يُعثر عليه [بعد موته ونهب بيته] !

وعلم الكخيا بيك (الذى يقوم مقام محمد على باشا خلال غيبته) بكل ذلك، فاستدعى لطيف [باشا] . بيد أن الأخير رفض الاستجابة لدعوتين متتاليتين بالحضور وحالئذٍ اتجه الكخيا بيك إلى دعوة الديوان، وتقرر فى المجلس استدراج لطيف [باشا] نفسه بعيداً عن زمرته العسكرية إذا ما اقتضى الأمر ذلك. لكن لطيف رفض وقاوم،

---

(١) كشف الجبرتى عن هوية هذا الرجل موضحاً بأنه كان يدعى حسن أفندى اللبلبى، وأنه كان من الدراويش "يدخل إلى بيوت الأعيان والأكابر من الناس الأتراك وغيرهم ... يلاطفهم ويضاحكهم ويمزح معهم، ويعرف باللغة التركية ويجالس الفريقين ، فمن أعطاه شيئًا أخذه، ومن لم يعطه لم يطلب منه شيئًا ...." (الجبرتى: المصدر السابق ، ج٤، ص٢٨٩). (المترجم)

(٢) لم يذكر بشأنه الجبرتى أى معلومات توضح هويته ودوره فى حادثة لطيف باشا . (المترجم)

مما تسبب في إشهار الكخيا بيك السلاح على الناس في ناحيته. وعندئذٍ بدأت الحرب، وذلك في ليلة ١١ أو ١٢ ، ثم أُغلقَت ، في صباح اليوم الأخير، أبواب مختلف الحارات على مدار ١٥ إلى ١٨ ساعة. وكانت حصيلة القتلى والجرحى من ٦٠ إلى ٨٠ رجلاً. ولاذ لطيف باشا بالهروب ، متنكراً في زى امرأة، إلى دار خازنداره الذى كانت داره لا يفصلها عنه سوى دار أو دارين. واختفى لطيف باشا في مخبئه[1] الذى كان من الصعوبة بمكان إخراجه منه؛ ولم يعرفوا كيف السبيل إلى القبض عليه، وتفاوضوا في ذلك قرابة اليومين! وفي نهاية الأمر، في يوم ١٤ [ديسمبر] تم الإمساك به، واقتادوه إلى القلعة، وقطعوا رأسه دون أن يحاكموه لدى القضاة، وذلك وفقًا لعادة هذه البلاد. وعانى كل من خازنداره والبمباشى قائد فرقته العسكرية من المصير نفسه؛ وألقوا بالمنجم التركى في النيل. ولم يتعرض الهدوء العام السائد بالمدينة لأى اضطراب سوى في إحداث نهب عشرين بيتًا مجاورة لدار لطيف باشا.[2] ويزعمون بأنهم وجدوا في مخبئه ١٥٠ شالاً وأشياء أخرى خاصة على سبيل تقديمها هدايا.

وأرسل الكتخدا برسالتين إلى اليمن، وينتظر عما قريب وصول سيده محمد على باشا .

تلقى الكخيا بيك خبراً رسميا يفيد بالقبض على شريف مكة هو وجميع أفراد عائلته؛ وقد أرسل إلى القاهرة في حراسة عسكرية (خاصة)، ليُرحل من القاهرة إلى إستانبول. والظاهر أن نهايته ستكون مأساوية. واستحوذ محمد على باشا على كل ثروات الشريف التى تصل إلى ٥٠,٠٠٠,٠٠٠ (خمسين مليونًا)، وكان هذا بمثابة دفعة نقدية معتبرة تمده بجزء من نفقات حملة اليمن.

---

(١) بحسب الجبرتى كان مخبأه أسفل داره، وكان قد صحبه فيه ستة أشخاص من الجوارى ومملوك واحد (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص٢٨٩). (المترجم)

(٢) وفقًا للجبرتى كانت دار لطيف باشا بسويقة العزى، وأن عسكر محمد على نهبوا أكثر من عشرين داراً من دور أتباعه، يضاف إليها بعض حوانيت الباعة (الجبرتى: المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٨٩) . (المترجم)

وينظر إلى الشريف [غالب] المقبوض عليه على أنه رجل ممقوت فى جميع البلاد، ويعدونه ظالمًا مستبدا وقاسيًا ؛ إذ إنه لا ينفر من اقتراف أى جريمة من شأنها أن تدر عليه أموالاً.

ولكم التحية والمحبة من القلب .

بوتان

[ملحوظة جانبية]

انتشر الطاعون أيضًا فى المواقع المهمة الرئيسة ببلاد الشام، وبصفة خاصة فى دمشق. ووصل فى هذاالتوقيت (٩ يناير) إلى القاهرة شريف مكة مع ثلاثة من أبنائه،(١) وكان تحت الحراسة، وعما قريب سوف يتم ترحيلهم إلى إستانبول.

(١) يشير الجبرتى إلى أن الشريف أحضر معه - بخلاف أولاده الثلاثة - عبيدة (الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص٣١٢). (المترجم)

١٣٤- سان مارسيل إلى معالى وزير العلاقات الخارجية بالإمبراطورية الفرنسية

موجز – مؤامرة لطيف باشا – عقاب شديد.

الإسكندرية، فى ٢٠ من ديسمبر ١٨١٣

(سُجِّلت فى ١٤ من شهر أكتوبر ١٨١٤)

السيد المحترم،

يبدو أن مصر واحدة من البلدان الأكثر عرضة للهزات الثورية . ففى هذه الأيام الأخيرة هُدِّدَت البلاد بواحدة من الحوادث التى كان من الممكن أن يتمخض عنها نتائج خطيرة للغاية .وكان من ورائها شخص يدعى لطيف باشا، أحد أبرز المماليك والذى كان أثيراً لدى محمد على باشا، وهو الذى كُلِّف بحمل مفاتيح المدينة (المنورة) إلى إستانبول، وقام الباب العالى بمنحه لقب باشا بطوخين، تعددت إغداقات محمد على باشا على لطيف باشا، بيد أن الأخير قابل هذا العرفان بالخروج عليه وإعلان نفسه خصماً لسيده: فكوَّن حزبًا (عسكريا) أراد به اغتصاب سلطة والى مصر؛ وكان مشروع المتآمرين أن يغتالوا أولاً الكتخدا بيك ثم يعلنوا عن موت محمد على باشا، وبعدها يجعلوا خليفته لطيف باشا الذى يُقلد نفسه الطوخ الثالث للباشوية ، وعهد إلى المحتالين من المنجمين بأن يتولوا أمر الإعلان عن كل هذه التطورات.

وكان الكتخدا بيك قد أحاط علمًا بهذه المؤامرة، وتدارك كل التداعيات بأن توجَّه فى الحال مع قواته إلى بيت لطيف باشا حيث كان جميع المتآمرين مجتمعين. وكسر باب داره بعد ساعتين من رَشْقِه بالرصاص. وقبضوا على لطيف باشا ، وقطعوا رأسه ، وعلقوها أمام العامة ، وذلك بوصفه خائنًا ومتمرداً. وأغرقوا المنجم [فى النيل]، وواجه العديد من الضباط التابعين للطيف باشا المصير نفسه الذى انتهى إليه سيدهم؛ وعاد كل شيء إلى الهدوء والنظام بفضل همَّة أتباع الكتخدا وحسن تنفيذ أوامره.

ولابد أن محمد على باشا فى طريقه إلى مصر؛ حيث بلغته فى الأيام السابقة أنباء كل هذه الأحداث.

وتقطن اليوم القوات العسكرية التى بمدينة الإسكندرية فى الثكنات الجديدة. ومازالوا منشغلين ببناء سور المدينة ، سواء لإتمامه أو لإنجاز حفر الخنادق المحيطة به.

وشُحِنت بعض السفن الإنجليزية أو التركية التى تعمل لحساب الباشا، بالحبوب المرسلة إلى مالطة أو إسبانيا؛ ولكن هذه الإرسالية ليست سوى تَتمةٌ للتجارة القديمة التى تسببت فى خسائر كبيرة؛ من جراء بيع الحبوب فى مالطة فى هذه الآونة بسعر منخفض جداً.

وقد أدى التوقف النسبى لعدوى الطاعون فى مالطة إلى إطلاق حركة التجارة؛ إذ وصلت بالفعل سفينتان من هذه الجزيرة، جلبت سلعًا مهمة إلى مصر، سواء من قبل إنجلترا وفرنسا والبندقية أو من ألمانيا.

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

١٣٥- نشرة شهر ديسمبر ١٨١٣

موجز – مؤامرة لطيف باشا واغتياله – أسباب هذه المؤامرة – القبض على شريف مكه؛ ووصوله إلى القاهرة.

كان لطيف باشا فى السابق مملوكًا، وشغل وظيفة الحاجب الخاص لمحمد على باشا الذى أرسله فى شهر ديسمبر من العام الماضى إلى إستانبول، لينقل إلى السلطان مفاتيح المدينة [المنورة] ، ومنحه الأخير رتبة ولقب الباشوية بطوخين. وفى يوم ١٥ من هذا الشهر [ديسمبر ١٨١٣] قطعوا رأسه بالقاهرة؛ وأعلنت الحكومة أنه متورط فى تدبير مؤامرة تستهدف تغيير النظام القائم؛ وقيل إن مشروعه كان يهدف إلى إغتيال الكتخدا بيك، وأن يقوم أتباعه بتنصيبه وزيراً على مصر، وبين القادة العسكريين كان لطيف باشا بالفعل مَنْ سعى إلى تأمين نفسه بحزب عسكرى، واعداً البعض من زمرته بمنحهم مرتبات كبيرة تفوق كثيراً ما يتحصلونه من محمد على، وانتشرت شائعات مختلفة حول هذه المؤامرة المزعومة: فالبعض خمَّن بأن لطيف باشا غُرِّر به عند إقدامه على هذه المؤامرة الخطيرة، وذلك بتحريض وغواية منجم تنبأ له بالفعل قبل سفره إلى إستانبول بترقيته إلى رتبة باشا، وأن يمنحه السلطان فى النهاية باشوية القاهرة. وثمة آخرين يريدون أن يعتقدوا بأنه زُوِّدَ بفرمان من قبل السلطان يسمح له بعمل هذا الانقلاب: وأولئك الذين يبحثون عن معرفة النتائج من خلال الأسباب يميلون إلى تبنى اعتقاد آخر، وإليك اعتقادهم: فهم يقولون إن محمد على لـ ينظر بعين الرضى إلى عودة عبده (أى لطيف بيك) من إستانبول حاملاً نفس المنصب الذى مُنِحَ لأولاده؛ وكان لطيف باشا خلال إقامته بالعاصمة العثمانية قد التقى مرارً بشخصيات كبيرة مهمة، تلك الشخصيات المعروفة بأنها لن تكون يوماً ما على صلة و، وصداقة مع باشا مصر محمد على، وبات هذا الأخير فى حالة شديدة من الشك، وحير طلب لطيف باشا ابنة محمد على للزواج رفض الأخير ، فأثار ذلك فى نفس لطيف بيا الغيظ والعداوة ، أن يُنظر إليه بقليل من الاحترام، ومنذ ذلك الحين باتت الأجواء باعث على عدم الثقة التى جعلت محمد على يقرر قبل سفره للحجاز قتل محبوبه القدي

(لطيف)، ويضيفون بأن الكتخدا بيك أمكنه أخذ التعليمات فى إعداد ما يشى بمظاهر الجرم التى يمكن أن تُنسب إلى لطيف باشا، ولهذا لم تحدث هذه الكارثة سوى فى هذه الفترة؛ إذ إن إعلانه بالحجاز (عن هذه المؤامرة) سيعطيه حجة منطقية لترك مشروعاته الأقل حظا ضد الوهابيين، ويعود من الحجاز إلى مصر.

ولم يتسبب هذا الحدث فى إثارة الاضطراب فى مدينة القاهرة إلا قليلاً؛ ذلك أن الترتيبات العسكرية التى أخذت وقتها فى الإعداد أظهرت مدى ضخامة القوات العسكرية، وأبانت إلى أى حد كان الجميع خاضعًا للقادة المقربين والمخلصين الأوفياء لمحمد على باشا، فى حين لم يكن يخضع لملوكه (لطيف باشا) بالكاد سوى مائتى رجل، وبدت الظروف تدعم الاعتقاد بأن هؤلاء الذين يعتقدون بأن لطيف باشا كان ضحية الحقد والبغضاء، وضحية خطه ميكافيلية خارجية، حيكت فى تدبير هذه المؤامرة المزعومة. فخلال هذه الظروف ، التى تتابعت وتوالت قُبيل وقوع هذه الفتنة المحدودة، لُوحِظ أن الكتخدا بيك حاكم مصر قام بزيارة تشريفية خاصة للكولونيل ميست ، المقيم البريطانى، وهذا التكريم لم يتشرف به أى قنصل آخر حتى اليوم. وبينما كانت هذه الأحداث تجرى وقائعها فى مصر، كان محمد على يعاقب شريف جده على تصرفاته المريبة التى داوم على ممارستها منذ نزول القوات العثمانية[1] الجزيرة العربية؛ فقبض عليه وأرسله مع كل عائلته إلى القاهرة؛ وأحل محله شخصاً آخر من العائلة[2] نفسها ليحكم باسم باشا مصر ومصالحه. وقد أُعلِن عن قرب عودة هذا الوزير إلى عاصمته.

الإسكندرية فى ١٠ يناير ١٨١٤.

* * *

(١) المقصود هنا : قوات جيش محمد على باشا . (المترجم)

(٢) عين عوضًا عنه " الشريف راجح" الذى بعد قليل ، وكنتيجة لمخاوفه من أن يلقى مصير سلفه (الشريف غالب)، غافل محمد على وانضم إلى الوهابيين على أن جيش محمد على سوف يقبض عليه ويأتيه به إلى مصر (فى ٢٢ أغسطس ١٨١٥) ويتم التحفظ عليه فى دار أحمد أغا أخى كتخدا بيك (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤ ، ص٢٥٧ ؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق، ص٣٠٢). (المترجم)

فى ١٣ يناير

وصل شريف مكه إلى القاهرة فى يوم ٩ من هذا الشهر؛ وتم استقباله بصورة طيبة جدا، لكنه أقام بالقلعة، ويعتقد أنه سيُرحَّل من هناك إلى إستانبول. والمؤكد أن محمد على باشا وجد فى خزانة الشريف ثروات يمكن أن تغطى جزءًا مهما من النفقات التى يتعين أن يبذلها خلال حملته على الحجاز.

وكيل القنصل والقائم بإدارة أعمال القنصلية .

دروفتى

١٨١٤

١٣٦- نشرة شهر مارس ١٨١٤

موجز - محمد على بالحجاز - مسح أراضى مصر (كشكل من أشكال تسجيل قياس المساحة) - استحواذ الحكومة على إدارة جميع الملكيات - فرض ضرائب باهظة على المواد الأولية - دعوة الصُنَّاع والحرفيين من أوروبا للإقامة فى مصر.

مازال محمد على بالحجاز؛ ويبدو أن أموره هناك لا تمضى على ما يرام؛ فقد طلب إمدادات عسكرية جديدة سوف يقودها إليه سلحداره وحسن باشا قائد القوات الألبانية: ويعانى جيشه من المرض الوبائى الذى يتسبب فى موت الكثيرين، إن العثمانيين يتحملون بصعوبة بالغة تأثيرات الطقس الحار الذى يسود الجزيرة العربية. وكل شىء يُنبئ عن أن الباشا سوف يغيب بالحجاز لعدة شهور، وخاصة إذا ما تحقق وقوع حوادث إصابة بمرض الطاعون بالقاهرة. وبفضل عمل الحجر الصحى فإن ميناء الإسكندرية ومدينة رشيد وضواحيها قد أُمِّنَت ، حتى اليوم ، من شر الإصابة بهذه الكارثة المُريعة؛ ولكن لما كانت إجراءات الحجر الصحى غير مرعية الجانب فى تطبيقها سوى فيما يخص السفن الوافدة من بلدان مصابة بالعدوى، فى الوقت الذى لا تخضع فيه حركة الاتصال بداخلية البلاد فى مصر لإجراءات الحجر الصحى، فإننا لن نعرف أو نطمئن للمدى الذى يمكن معه أن يستمر المناخ ملائمًا لانتشار عدوى هذا الوباء.

وإذا كان محمد على منشغلاً تمامًا بما يواجهه فى الحجاز، إلاَّ أنه مع ذلك لا ينسى أن يُلمّ بتفاصيل ما يجرى فى مصر من قبل حكومته؛ فوفقًا لأوامره تقرر اتخاذ إجراء يقضى بقياس الأراضى القابلة للزراعة بمصر السفلى، ولأجل أن تمضى عملية المسح بشكل منظم قاموا أولاً بإلغاء ما هو سائد من تباينات فى وحدات قياس

الفدان؛ وإنقاص مساحة الفدان إلى ٣٠٠ قصبة[1] والذى كان تبعًا للبلاد ونوعية الأراضي والزراعة على ٣٥٠ قصبة، وفى بعض الأماكن على ٤٠٠ قصبة، وفى أماكن أخرى بلغ ٤٥٠ قصبة. وكانت هذه العملية ترمى فى الظاهر إلى جعل الضريبة العقارية تقوم على أسس ثابتة محددة. وكان هذا التجديد الذى تم ، تحت زعم تحسين الزراعة بتخليصها من مظالم الملاك[2] أعطى الحكومة الفرصة لفحص الملكيات القائمة تحت إدارة نواحيهم، وعلى أساس الإنتاج حددوا التعويض الذى يصرفه هؤلاء الملاك من الخزينة العامة والذى يتناسب مع الفائض القديم من ملكياتهم. إن هذا القياس الاستثنائى للأراضى الذى أدى إلى جعل إدارة كل الملكيات بين يدى الحكومة، اللهم فيما عدا الأملاك الخاصة بالشيوخ والمساجد ، قد تسبَّب فى حنق واستياء هؤلاء الملاك القاطنين جميعهم على وجه التقريب بالقاهرة.

وهذا الاستياء كان من الممكن أن يخشى من نتائجه الخطيرة أى باشا آخر إلاَّ محمد على : فقد عرف جيداً كيف يراعى، قبل كل شىء، مصالح الفلاحين المزارعين، ومن ثم لم يكن ثمة اعتراضات لعملية المسح سوى ما صدر عن بعض الملاك (الملتزمين) الذين تكالبوا فى تجمعات صغيرة، وكان لهم جلبة وأحدثوا ضجة فى الجامع الكبير. [3] بيد أن مظاهرتهم لم يسفر عنها من نتيجة سوى حصولهم على وعود بتلطيف الأمر وتخفيفه ، وهو ما لم تحرص الحكومة على الالتزام به.

واستمرت التجارة تعانى من الضرائب الباهظة التى فُرضت على المواد الخام المصدرة من مصر، وبالمثل فرضوا ضرائب على البضائع الأخرى المخزونة فى هذه

---

(١) وفقًا لما جاء فى وثيقة بمحفظة ديوان خديو (بتاريخ ٢٥ محرم ١٢٢٩/ ١٨١٤)، على لسان "المعلم غالى" كان فدان الدلتا يبلغ ٣٣٣,٣ قصبة (ما يعادل ١٠٠٠ متر) (راجع عفاف لطفى السيد: المرجع السابق ، ص٢١٥). (المترجم)

(٢) المقصود هنا : " جماعة الملتزمين ". (المترجم)

(٣) المقصود هنا : الجامع الأزهر، ولمزيد من التفاصيل حول ما أحدثوه فى الأزهر ومع العلماء والفقهاء (انظر الجبرتى : المصدر السابق، ج٤ ، ص٣٢٠). (المترجم)

البلاد؛ ولم يكن الأوروبيون بعيدين عن التعرض لمثل هذه الإهانات، فقد بات من العبث أن يلتمسوا تطبيق نصوص الامتيازات (الأجنبية)، ومع كل ذلك فإن مالية الباشا قد بدأت تعانى من صعوبات شديدة والتى تتناقض مع مصالحه الحقيقية. وقل تداول العملات الأجنبية الذهبية والفضية وأصبحت جد نادرة؛ تلك العملات التى كانت تنشط التداول النقدى الداخلى. بيد أن تجارة مصر مع اليمن أمدت البلاد بمصدر غنى بالنقود التى زودت الضربخانة بالقاهرة بمبالغ كبيرة، تشتد حاجته إليها للإنفاق على مشاريعه المربحة. وبلغت ندرة السيولة المتداولة من المسكوكات حدا جعل الحكومة التى انتابتها المخاوف من نضوب مصادر إمداد الضربخانة فجأة بحاجاتها من العملة (وقد تجاوزت أرباح العام الماضى سبعة ملايين قرش تركى) جعل الحكومة تلجأ إلى إتخاذ إجراء شاذ بأن وضعت يدها بقوة، فى ديوان الجمرك، على كل النقود التى يتلقاها التجار من الخارج.[1]

وأيا كان الباشا فى حاجة إلى تعويض خسائره البشرية فى صفوف جيشه التى كان يفقدها يوميا فى حروبة بالحجاز، ومهما كان الباب العالى يعلق أهمية كبيرة على تمكن الباشا من تحقيق السيطرة على هذه البلاد، فإن الباب العالى حقيقة يضع العراقيل أمام وصول القوات العسكرية التى عمل محمد على على تجنيدها من الروميللى وألبانيا : فالعديد من السفن التى تحمل جنوداً إلى مصر قد أجبرتها سفن حربية تركية على النزول فى أماكن أخرى.

ويرمى محمد على باشا إلى إنشاء ورش وصناعات فى بلاده، تعفيه من الاعتماد على المصادر الخارجية، وذلك بهدف الحصول على المنتجات التى لا يمكنه التزود بها فى الداخل، فقام بنشر إعلان فى مالطة يفيد بأنه سيسمح بتقديم كل المساعدات

---

(١) يوضح الجبرتى بتفاصيل مهمة أزمة ندرة المسكوكات المتداولة وارتفاع أسعارها فى التداول وخاصة مع استمرار طلب محمد على وهو بالحجاز لمزيد من الأموال للإنفاق على حروبه ضد الوهابيين (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٣٢١، ٣٢٢، ٣٢٤- ٣٢٥). (المترجم)

الضرورية للصنّاع والحرفيين ولغيرهم ممن يريدون المجيء للاستقرار والتوطن في مصر لكي يمارسوا بها مهاراتهم الحرفية والتصنيعية.

ورأينا خلال شهر مارس ضابطين إنجليزيين قدما من جزيرة مالطة، وهما من سلاحي الهندسة والمدفعية ؛ وقد قيل في البداية بأنهما جاءا لأجل الدخول في خدمة الباشا، ثم قيل بعد ذلك بأن أحدهما تعين عليه البقاء بالقاهرة لبعض الوقت؛ ليتعلم اللغة العربية، وأن يقوم بعد ذلك برحلة إلى داخل إفريقيا؛ ولم يعلم بدقة عن هدف مهمتهم في هذه البلاد، لكن من المؤكد أن أحدهما، وخاصة الذي كان مقيمًا بالإسكندرية، قد وضع للحكومة رسمًا هندسيا لعمل تحصينات جديدة، بيد أن الأخيرة رفضت مطلبه بزيارة الحصون والقلاع الموجودة.

الإسكندرية في ٤ إبريل ١٨١٤

وكيل القنصل القائم بإدارة القنصلية العامة .

دروفتي

١٣٧- سان مارسيل إلى الوزير

موجز – مشاعر الفرحة التى أثرت فى سان مارسيل إزاء خبر ارتقاء العرش جلالة الملك لويس الثامن عشر – الاحتفال برفع العلم الأبيض.

الإسكندرية فى ٢٠ من يونيو ١٨١٤

السيد المحترم،

وصلتنا نشرة من قبل معالى الكونت أندريوسى Andreosi، سفير فرنسا لدى الباب العالى، تحيطنا علمًا بعودة الأسرة المالكة القديمة رسميا إلى الحكم ، وارتقاء جلالة الملك لويس الثامن عشر العرش؛ وأثار هذا الخبر فينا جميعًا مشاعر الفرحة والبشرى بعودة فرنسا إلى سادتها القدامى، واستعادة الهدوء عبر إقرار السلام العام، وتجدد الآمال فى أن يتحقق لفرنسا الرخاء فى المستقبل بعد أن استبد بها طويلاً حاكم مغتصب. (١)

وقد رُفِع العلم الأبيض هنا بالإسكندرية فى يوم ١٦ من هذا الشهر، وذلك وسط هتاف علنى وإطلاق المدافع ، من القلعة، ومن السفن، ومن قبل الحلفاء، ومن جانب جماعتنا كذلك احتفاءً بهذا الحدث.

وفى اليوم نفسه أخذنا فى ترتيل نشيد "تو دوم" Te deum بشكل مهيب، وعُقِدَت الصلاة لأجل جلالة لويس الثامن عشر؛ شكرًا وحمدًا على وقوع مثل هذه الحوادث الكبرى فى التاريخ.

مع خالص الاحترام .

سان مارسيل

---

(١) المقصود بالحاكم المغتصب هنا : نابليون بونابرت. (المترجم)

١٣٨- سان مارسيل إلى الوزير

موجز - ركود تجارة مصر وتوضيح السبب فى ذلك - بيت فينا لوريا تليتشى البيت التجارى الوحيد المهم فى تجارة مصر؛ وتطلع هذا البيت إلى الاستمرار تحت حماية فرنسا - محمد على يرسل قبل رحيله جيشاً من حوالى ١٥ ألف رجل إلى جدة - المماليك فى سنار - الطاعون فى مصر[١]

الإسكندرية فى ٢٢ من يونيو ١٨١٤

(سُجِّلَ بتاريخ ٢٢ من سبتمبر)

السيد المحترم،

منذ توقفت حركة تصدير الحبوب من هذه البلاد إلى مالطة وإسبانيا وتجارة مصر لم تعد مزدهرة كما كانت من قبل، وتشتد الحاجة هنا إلى النقود التى نقصت فى التداول؛ فالعملات الأجنبية، وبصفة خاصة القروش الكبيرة باتت نادرة جدا فى التداول، وحكومة الباشا لا تجنى أرباحًا مهمة من لجوئها إلى صهر سبائك العملات التى تستخدمها فى صناعة قروش مصر. إن شح النقود وارتفاع أسعار السلع الأوروبية والمنتجات الكولونيالية (سلع المستعمرات) تشكل الأسباب الرئيسة وراء ركود هذه التجارة.

وليس لدينا فى مصر أى مؤسسة فرنسية تجارية، والبيت التجارى الوحيد الواقع هنا تحت حماية فرنسا هو بيت فينا لوريا وتليتشى Fina loria et Tilche، ويملك هذا البيت التجارى أصولاً (مالية) مهمة، وقد أجرى، منذ عامين تقريبًا، مع غرفة التجارة (بمارسيليا) عمل تأمين على تجارته، وهو اليوم يرغب فى استمرار تجارته مع فرنسا،

---

(١) كُتِبَ الموجز بيد سان مارسيل نفسه . (المترجم)

وذلك من خلال البقاء تحت حماية فرنسا التى يفتخرون بأن قوة هذه الحماية سوف تتزايد فى ظل حكم جلالة الملك لويس الثامن عشر.

إن محمد على باشا القاهرة مازال متغيبًا عن حكومته، وذلك منذ عام تقريبًا؛ إذ يعمل على مطاردة الوهابيين؛ ليُعيد إلى الباب العالى مكة والمدينة اللتين كانتا تحت السيادة العثمانية. ويلجأ محمد على إلى استخدام الأموال والحيل أكثر من استخدامه لجيوشه فى حربه التى تستهدف إقصاء الوهابيين؛ حتى يسمح للأتراك[1] بتأدية الحج المقدس سنويا لدى النبى (محمد). ومع أن الوهابيين قد عمهم مساندة قبائل عربية أخرى، والتى كان محمد على لا يعرف سبيلاً إلى جذبها لصفه، إلاَّ أن هذه القبائل نفسها قد بدأت تتمرد على الوهابيين: فقد تمكن محمد على من الاتصال بها وتوزيع الهدايا على شيوخها حتى جعلها تكف عن كامل تحركاتها ضده. ويقال بأن محمد على باشا يستعد فى هذه الأيام للعودة إلى مصر عن طريق القصير. على أنه ثمة زعم بأن هذه المدينة الأخيرة قد وقعت فى هذه الأيام فى يد المماليك، وإذا كان هذا صحيحًا، فإن الباشا قد يتعرض لمخاطر كبيرة عند وصوله.

لقد اختفى أثر المماليك تمامًا فى مصر، وذلك منذ حلَّت بهم الكارثة المريعة فى سنة ١٨١١ ووصلوا فى تقهقرهم جنوبًا حتى مملكة سنار التى قبضوا على ملكها الذى كان يحكمها، وأصبحوا نوعًا ما سادة على هذه المملكة، بيد أنهم أرادوا العودة، سواء أكان السبب فى ذلك راجعًا لعدم ملاءمة الطقس لهم هناك أو كان الأمر متعلقًا بتطلعهم إلى العودة إلى السلطة فى مصر: فقد شرعوا فى العودة، وغادروا سنار، متجاوزين حدود مصر ، بقوة تصل إلى حوالى ٦٠٠ رجل من قدامى المماليك ، إلى جانب بضعة آلاف من العبيد السود الذين دربوهم على أسلحتهم ونظامهم.

وكانت مدينة الإسكندرية قد ابتُلِيَت فى العام الماضى بمرض الطاعون؛ لكنها بُرِأت هذا العام من تلك الآفة، وذلك بفضل الحجر الصحى الذى أقامته الحكومة

---

(١) المقصود فى السياق : المسلمون المنضوون تحت مظلة الإمبراطورية العثمانية. (المترجم)

بالمدينة، استناداً إلى نصائح جميع القناصل الأوروبيين؛ ويقولون بأن هذا الإجراء الجديد كان الأتراك (أى المسلمين) يعدونه ضد مبادئ الدين الإسلامى، ولكن يتوقع مع إدراكهم نتائجه الطيبة، أن يتطلعوا بصورة دائمة إلى إقامة هذه المؤسسات الصحية على أسس أكثر قوة وصلابة.

ومع كل ذلك عانت الدلتا والقاهرة ورشيد ، هذا العام، من شر هذه البلية التى ولجت إلى مصر من سوريا، عبر الطريق البرى وكذا من دمياط. على أنه فى هذه الأيام توقفت العدوى تماماً تقريباً عن الانتشار فى مصر، وفى أغلب الظن سوف تكون نهاية هذا المرض فى عكا.[١]

مع خالص الاحترام ... إلخ.

سان مارسيل

---

(١) فى النص Saint Jean والمقصود بها " عكا ". (المترجم)

١٣٩- سان مارسيل إلى الوزير

موجز – إرسال قائمة بالنفقات المعتادة والاستثنائية عن فترة الشهور الستة الماضية من عام ١٨١٤– من سلفة مقدمة إلى السيد لوشوفاليه دو لينى – ملاحظات واقتراحات بشأن موضوع وكيل قنصل برشيد.

الإسكندرية ، فى ٢٤ من يونيو ١٨١٤

(سُجِّلَتْ فى ٢٢ من سبتمبر)

السيد المحترم،

نقلت إلى السيد شايول **Chayole**، وكيلى المفوض **Fondé de pouvoirs**، قوائم المصروفات الخاصة بالخدمة (القنصلية) المعتادة والاستثنائية عن الشهور الستة الماضية من هذا العام. وكانت الاعتراضات التى تواجه عملية نقل الرسائل قد حالت دون إرسالى إلى معاليكم قائمة النفقات الخاصة بالفصلية الأولى؛[١] فضلاً عن قائمة النفقات الاستثنائية التى لم تتح لى الفرصة كذلك لإرسالها سوى فى الفصلية الثانية. [٢] ويعزى ذلك فى الحقيقة إلى أهمية الحدث الجلل الذى سيظل فى الذاكرة والخاص بعودة التاج الفرنسى لأسرة البربون الملكية القديمة. ولم أستطع منع نفسى فى هذه المناسبة المهمة من أن أبذل بعض النفقات فى تقديم بعض الهدايا للسلطات الرسمية؛ ومراعاةً للحالة المالية الراهنة (للقنصلية) التى يتعين علىَّ ملاحظتها فى المستقبل فيما يخص مجال الخدمة القنصلية فى إسكالة الإسكندرية، أدرجت فى قوائم الفصلية الثالثة جملة المكافآت النقدية التى تم توزيعها على سلاح المدفعية وقادته

---

(١) المقصود بالفصلية الأولى : Le premier trimestre الشهور الثلاثة الأولى (يناير – فبراير – مارس). (المترجم)

(٢) وتتضمن شهور (إبريل – مايو – يونيو) . (المترجم)

الذين أصدروا أمرهم بإطلاق ٢١ طلقة مدفع فى لحظة رفع العلم الأبيض، ومثل هذه المصروفات لم يتم إدراجها فى القوائم الأخيرة الخاصة بإسكالة الإسكندرية.

وقد فهمت من آخر رسائل وكيلي المفوض[١] أن مصاريف الخدمات القنصلية الأخيرة من عام ١٨١٢ وكذا ما تعلق بعام ١٨١٣، لم تُسدَّد حتى هذه اللحظة. والحال أننى اقترضت سلفًا ضرورية لأوفر المبالغ اللازمة لأداء الخدمة بشكل جيد، ومن العدل تمامًا تسديد هذه المبالغ. وأسمح لنفسى القول بأنه إذا لم يوف ذلك فى هذه الآونة، فإن الأمر متروك بين يدى معاليكم بالتفضل والتكرم بإصدار أمر بصرفها.

ووصل إلى الإسكندرية فى نهاية شهر يناير الماضى السيد لوشوفالييه دو لينى رونكور، M. Le chevalier de Ligny Roncourt قادمًا من إستانبول؛ وقدمت له الضيافة الواجبة منذ مجيئه إلى رحيله المنتظر خلال بضعة أيام إلى مارسيليا . وحين جاء هذا الضابط – وهو من الضباط القدامى – لم يكن مزوداً بالأموال اللازمة لسفره؛ ولذا يتعين علىَّ مدُّه بما يحتاجه من النفقات الضرورية لسفره إلى مارسيليا، ثم إنه ليطيب لى أن أتقدم إلى معاليكم راجيًا أن تعجلوا بتسديد ذلك لوكيلى المفوض الذى يتوفر بين يديه إيصال بالمبلغ الذى دفعته من حسابى الخاص للسيد لوشوفالييه دو لينى رونكور؛ كى يتيسر عليه تغطية نفقات سفره إلى مارسيليا.

وكنت قد أبلغت الحكومة فى السابق بترشيحى للسيد تورنو M. Tourneau للعمل بوظيفة وكيل القنصل برشيد، وذلك لتفانيه فى العمل وحماسته فى الخدمة، فضلاً عن قيامه فى الوقت نفسه بدور الترجمان فى هذه الإسكالة، لقاء راتب سنوى ١٦٠٠ فرنك،

---

(١) الوكيل المفوض : Fondé de pouroirs إحدى الوظائف القنصلية التى كانت تعهد إلى شخص يُفوض فى التحدث باسم القنصلية أمام الحكومة فى كل ما يتعلق بأحوال الخدمة القنصلية وميزانيتها المالية، وهو الذى يتولى تسليم الأوراق والسندات المالية لوزارة الخارجية حتى تعتمد الأخيرة صرف المستحقات الخاصة بموظفى القنصلية . (المترجم)

وألتمس من السيد شايول أن يسحب هذا المبلغ فى باريس على حساب الفصلية الثالثة[١] من هذا العام.

وإذا ما سمح لى معاليكم أن أعرض عليه بأن وكيل قنصلية رشيد له أهمية ضعيفة جدا فى مجال الخدمة القنصلية، فهل فى الإمكان توفيراً للنفقات تحويله إلى مكتب وكالة بسيط، وتسند مسئوليته إلى أحد الضباط لقاء راتب ٢٤٠٠ فرنك عن عمله كوكيل وكترجمان؟ وفى حال اعتماد معاليكم لهذا الاقتراح الاقتصادى، فإننى ألتمس إسناد العمل إلى السيد تورنو Tourneau الذى له خبرة بالواقع المحلى هنا، ويتميز بحسن سلوكه بما يجعله يستحق الثناء على أخلاقياته الرفيعة.

ويعمل السيد جاسبارى M. Gaspary، منذ حوالى عشر سنوات، ترجماناً لوكيل القنصل بالإسكندرية؛ وسلوكه القويم وحماسته فى أداء الخدمة تجعلانى ألتمس من معاليكم ترقيته بتعيينه فى وظيفة ترجمان أول بإسكالة الإسكندرية، وذلك فى حال ما إذا عُيِّنَ السيد فونتون M. Fonton فى وظيفة أخرى ، والذى يحمل فى هذا الوقت هذا اللقب (أى ترجمان أول).

مع خالص الاحترام ... إلخ .

سان مارسيل

---

(١) وتتضمن شهور (يوليو – أغسطس – سبتمبر). (المترجم)

١٤٠ – دروفتى إلى الوزير

موجز – عمليات عسكرية جديدة ضد الوهابيين – تمرد قبائل عربية وبعض المماليك – و صول أجناد المتطوعين من مقدونيا وألبانيا – التجارة – تناقص عدوى الطاعون والإجراءات الصحية .

الإسكندرية، فى ٧ يوليو ١٨١٤

(سُجِّلَت فى ١٤ أكتوبر)

السيد المحترم،

منذ كتابتى للنشرة الأخيرة التى تشرفت بإرسالها إلى معاليكم، بتاريخ ٤ من إبريل، لم يحدث شيء ذو بال ، اللهم فيما يتعلق بسريان شائعة غامضة جدا ، راجت بين الناس ، والتى إلى اليوم لم نعرف بعد خبراً مؤكداً بشأنها، وتدور حول ظهور قوات غفيرة للوهابيين فى نواحى قنفده،(١) وراجت الشائعة كذلك حول الإخفاقات (العسكرية) التى عانتها قوات محمد على المكلفة من قبله بالدفاع عن ذلك الموقع المهم. ويَسمح هذا بالاعتقاد ، ولو جزئيا على الأقل، بأن هذه الأحداث لها صلة بنشر خبر الأمر الذى وجهه محمد على باشا إلى حسن باشا، قائد فرقة الألبان، بالتوجه إليه بجيش يشكله من كل ما تبقى بين يديه من جنود مجهزين للحرب. وقد رحل حسن باشا بالفعل إلى السويس فى يوم ١٥ من الشهر الماضى، يتبعه ألف من المشاة: ويعتقد بأنه سيتولى قيادة هذه الحملة، وأن بلوغه جدة سوف يؤذن برحيل محمد على وعودته إلى القاهرة. والواقع أن هذه الولاية(٢) فى حاجة إلى وجود هذا الرجل (أى

---

(١) كتبها دروفتى فى تقريره Tinfeh وذلك بحسب نقطه للاسم، وصحتها "قنفدة" وهى قرية من قرى غامد الزناد الواقعة فى تهامة. وكانت مركز المقاومة الوهابية فى الجنوب، ولاقت قوات محمد على فيها إخفاقاً كبيراً، (راجع الجبرتى: المصدر السابق، ج٤، ص ص ٢٣٢ – ٢٣٣؛ عبد الرحيم عبد الرحمن: المرجع السابق ، ص ص ٣٠٣– ٣٠٤) . (المترجم)

(٢) جاءت فى النص Royaume بمعنى " مملكة " ، والصحيح " ولاية " . (المترجم)

محمد على): فابنه إبراهيم باشا حاكم الصعيد حين اتخذ إجراءات شديدة القسوة أثار عليه حنق قبائل البدو الذين سرعان ما قاموا بإحتلال أطراف الأقاليم العليا (بالصعيد)، ثم أعلنوا تمردهم عليه حتى لقد اضطروه إلى مغادرة مقره بأسيوط، حيث وجد نفسه غير آمن هناك. وفى أعقاب هذه الحركة تحركت فرقة مملوكية مقتربة من الشلال الأول؛ الأمر الذى دفعه إلى توجيه قوات لمحاربة هؤلاء العصاة، بيد أنه اعتمد كثيراً على أسلوب الدخول معهم فى مفاوضات، شرع فيها بالفعل، وفضلاً عن ذلك فإن فيضان النيل القادم سيضع نهاية لتحركات الفريقين ، وسيكون من السهولة بمكان على قوات الباشا أن تواصل دعمها من خلال الزوارق المُسلَّحة ، وأن تستحوذ على كل النقاط المهمة على ضفاف النيل، ثم على ما بداخل القرى بعد ذلك .

وأرسل محمد على إلى مختلف أقاليم الإمبراطورية العثمانية بطلب متطوعين من الأجناد لقاء دفع مبالغ كبيرة، ومنذ أربعين يومًا وكل السفن الوافدة من مقدونيا وألبانيا تحمل على متنها جنوداً. وريثما يتحقق هذا الأمر كاملاً، فإنهم يواصلون استكمال تحصينات هذه المدينة (الإسكندرية)، ويكاد بناء السور يشرف على الانتهاء، وهم يتابعون إزالة الأنقاض المتخلفة عن عملية حفر الخندق، وبالقدر نفسه يولون اهتمامًا بتدعيم المنحدرات حول السور. وقد كلفته هذه التحصينات بالفعل الكثير، ولسوف تكبده المزيد من النفقات، ومع كل ذلك فإن مدينة الإسكندرية لا تشتمل سوى على هذه التحصينات غير المتناسقة فى بنائها، وليست قوية بدرجة كافية لاستخدامها فى الدفاع عن المدينة. وعلى الرغم من أن موانئ إيطاليا ، منذ بضعة أشهر، وهى مفتوحة أمام تجارة بلاد الشرق وتجارة مصر التى لم تعانِ بعد من أى تقلب مواتٍ؛ فإن تجارتها مع اليمن باتت محدودة، ومرد ذلك إلى نقص السفن التى بعد أن كانت تستخدم فى التجارة صارت مسخرة لنقل الجنود والمؤن وعتاد الحروب. وعلى نحو دائم تعانى تجارة التصدير من فرض الضرائب الباهظة التى أثقلت القائمين عليها. ومع ذلك يأملون (أى حكومة محمد على) أن تؤدى الثورات التى طرأت بشكل مفاجئ على الشئون السياسية فى أوروبا – إلى تحقق الازدهار لفرع من إدارات مالية هذا البلد،

وإن تحقق ذلك فإن محمد على سوف يُعاود استخدام المبادئ التى تساير مصالحه الحقيقة، وبالمثل فى الوقت الذى يحتفظ فيه بعلاقات جيدة مع الباب العالى نجده يحتفظ بعلاقات أخرى مع الدول المختلفة.

وإذا كان الطاعون لايزال محل شكوى الناس فى كل من رشيد ودمياط، إلا أنه يلاحظ توقف انتشاره تقريبًا فى القاهرة، فيما انقطعت عدواه من الإسكندرية، وذلك بفضل تطبيق الحجر الصحى الذى كان بعض القناصل بحق وراء الدفع بحكومة محمد على إلى إتخاذ قرار التصدى لكل المعوقات التى تعرض الحجر الصحى . بيد أن القناصل المولعين بالمصالح المركانتيلية (التجارية) وتوظيفها فى صالح بلادهم، يخشون فى حال عودة الباشا إلى القاهرة، أن يتم إغراؤه بالمتحصلات الضخمة والهائلة من الأموال التى جمعوها له (خلال فترة غيابه بالحجاز) فلا ينفر ساعتئذٍ من قبولها، كما أنه قد لا يكف عن تحصيلها.

ويشرفنى أن أكون ... إلخ.

دروفتى

١٤١- الوزير إلى السيد روسل القنصل العام بالإسكندرية

موجز – تعيين السيد روسّل (القنصل العام فى بطراس) قنصلاً عاما بالإسكندرية.

باريس، فى ٢٥ من سبتمبر ١٨١٤

يسرنى ، سيد روسّل، أن أعرفكم بأن جلالة الملك تنازل وتفضل بأمر تعيينكم قنصلاً عاما على الإسكندرية. وكم سيجعلكم هذا التكليف تشعرون بكل تأكيد بأهمية شهادة ثقة جلالته فيكم، وإنا على يقين بأن جميع جهودكم السابقة المشرِّفة قد جعلتكم جديرين بذلك.

إن السيد بوكفيل M. Pouqueville، الأكبر سنا، سوف يخلفكم فى الوظيفة التى أُسندَت إليكم القيام بها حتى هذا اليوم. ومنذ اللحظة التى سيصل فيها السيد بوكفيل إلى بطراس(١) يتعين عليكم التفضل بأن تضعوا بين يديه بيانًا حصريا لسجلات المراسلات والأوراق الخاصة بفترة قنصليتكم؛ وأن تزودوه بكل التعليمات التى قد يكون فى حاجة إليها فيما بعد، ويمكنكم بعد ذلك إخباره، دون تفاصيل، بمكانكم الوظيفى الجديد.

وتجدون طى هذه الرسالة، مع اقتراحاتكم، التعليمات الجديدة التى سيتعين أن تنتظم استنادًا إليها إدارتكم للقنصلية [بالإسكندرية] .

ولتتفضلوا ، أيها السيد، بقبول ... إلخ.

[وزير الخارجية]

---

(١) بطراس : Patras مدينة يونانية تطل على ساحل البحر الأيونى، وكان لها دور نشط جدا فى تجارة التصدير فى عالم البحر المتوسط (راجع: Dict. Hachette, Encyclopédique, p. 1402) . (المترجم)

١٤٢ - الوزير إلى دروفتى

موجز - استدعاء دروفتى

باريس، فى ٢٤ سبتمبر ١٨١٤

يشرفنى أن أعلمكم، سيد دروفتى، بأن جلالته قضى بأمر تعيين السيد روسّل قنصلاً عاما بالإسكندرية، وهو الذى كان يعمل فى السابق قنصلاً فى بطراس Patras . ولسوف تستمرون فى إدارة القنصلية العامة لمصر حتى وصول خليفتكم هذا والذى يتعين عليكم ، وفقًا للترتيبات المتبعة فى قوانين القنصلية ، أن تضعوا بين يديه كل سجلات المراسلات والأوراق الخاصة بفترة قنصليتكم. ومن جانب آخر يتعين أن تزودوه بكل التعليمات التى خبرتكم بشئون مصر قد مكنتكم من اكتسابها ، وبعد ذلك يمكنكم التوجه إلى باريس ، حيث سأبادر سريعًا بأن أضع تحت نظر جلالته الألقاب التى يمكن أن تنالوها من قبل إحسانات جلالته وذلك وفقًا لما أسديتموه من خدمات .

ولتتفضلوا ، أيها السيد، بقبول ... إلخ .

[وزير الخارجية]

١٤٣ - دروفتى إلى وزير الخارجية

موجز - شكوك حول الأخبار المتعلقة بما يجرى بالجزيرة العربية.

الإسكندرية، فى ١٠ ديسمبر ١٨١٥

السيد المحترم،

تلقيت النشرة التى شرفنى معاليكم بكتابتها إلىَّ بتاريخ ١٥ أكتوبر والتى تُلزِمنى باتباع ما تضمنها من تعليمات.

لم يحدث فى مصر شئ يستحق الاهتمام بتسجيله وكذلك أيضًا وإن كان بصورة أقل فيما يتعلق بمجريات الأحداث فى الحجاز والتى بدت أنها جديرة بعرضها على معاليكم.

يجرى بالقاهرة عمل الترتيبات اللازمة لاستقبال محمد على باشا الذى ظلوا ينتظرون مجيئه على الدوام. وثمة تصورات مختلفة حول حقيقة أوضاعه فى الجزيرة العربية. فالبعض يزعم بأن محمد على تصالح مع الوهابيين والقبائل الحجازية التابعة لهم، والبعض الآخر يؤكد بأنه عاد من هناك دون أن يحقق نتيجة ذات بال، وأنه ترك قواته المعسكرة فى مكه والطائف والمدينة وهى فى حالة حرجة للغاية. والواقع أننا منذ بضعة شهور لم يصلنا خبر إيجابى بشأنها، وكل ما يمكن قوله إن هذه الحملة السياسية العسكرية قد أُعِدَّت بطريقة مزرية .

ويشرفنى أن أكون ... إلخ .

دروفتى

١٨١٥

١٤٤- دروفتي إلى أمير دو بنفان

موجز – شعور بالارتياح والرضى لاستعادة أسرة البوربون عرش فرنسا – رجاء في نيل عطف وإحسان أمير دو بنفان.

الإسكندرية، في ١٤ من يناير ١٨١٥

(سُجِّلت في ٢٢ من إبريل)

السيد المحترم،

لم أتشرف بتلقي منشوركم الصادر تاريخ ١٥ من شهر مايو سوى في مجرى شهر ديسمبر الماضي فحسب. ذلك المنشور الذي تفضلتم عليَّ بإخباري من خلاله بأن جلالة الملك قد عيَّنكم في منصب وزير جلالته وسكرتير الدولة للشئون الخارجية. وقد جاء هذا الترشيح مرتبطًا بالأحداث الكبرى التي تمخض عنها استعادة أسرة البوربون الأوغسطية عرش فرنسا، ويتعين أن يؤدي هذا الحدث (الجلل) إلى استعادة النظام والسلام في أوروبا. وقد أثارت فينا هذه التطورات شعوراً بالرضى والارتياح العام. وكم هي سعادتي غامرة بترشيحكم لهذا المنصب الوزاري، وأعرب لكم عن خالص وفائي وإخلاصي لكم، ولن أنسى أبدًا روح التسامح الذي كنتم تتفضلون بمعاملتي بها خلال إدارتكم السابقة، على أنه يؤسفني كثيراً أن تغلق أمامي أبواب الخدمة التي كانت مفتوحة لي تحت رعايته. ومع ذلك أسمح لنفسي بأن أتجاسر بالتطلع إلى تفضله عليَّ بنظرة عطف ورفق من قبل معاليه والذي يشرفني أن أكنَّ له كل تقدير واحترام.

دروفتي

١٤٥- دروفتى إلى أمير دو بنفان

موجز – حول موضوع حماية فرنسا القاصرة على رعاياها الفرنسيين – طلب استثناء وحيد خاص بحماية بيت فوا .

الإسكندرية، فى ١٤ من يناير ١٨١٥

(سُجِّلَت فى ٢٢ من إبريل)

السيد المحترم،

إن النشرة التى شرفنى معاليكم بإرسالها إلىَّ بتاريخ ١٧ من يونيو ١٨١٤ قد تأخر طويلاً وصولها إلىَّ. ولم اتخذ إجراءات تنفيذ أوامر معاليكم سوى من بضعة أيام قليلة، تلك الأوامر التى تقضى بقصر حماية فرنسا على رعاياها الفرنسيين. إن كل الأجانب الذين كانوا يتمتعون حتى هذه الفترة برعايتنا يرجون ويلحون فى طلب التماس حفظ امتيازات الحماية الفرنسية لهم، وذلك على الأقل حتى فترة مؤتمر فيينا Le Congrès de Vienna الذى حدد بشكل واضح المصير السياسى لبلادهم؛ وقد أبلغتهم أنه ليس من صلاحياتى أن أمدهم بتفاصيل ما حول هذه المسألة. ومع ذلك بدا لى أنه من بين هؤلاء المتوسلين فى طلب حماية فرنسا ، والمقيمين فى هذه الإسكالة (أى الإسكندرية) بيت تجارة تابع لكل من فوا Fua ولوريا Loria وتيلكا Tilka، أولئك الذين من أصول توسكانية وبندقية. ويبدو أن هذا البيت التجارى جدير باستثنائه بصورة مؤقتة من المادة المنصوص عليها فى الفقرة الأخيرة من منشور معاليكم: فقد قدَّم لى هؤلاء التجار (الثلاثة) فى هذا الوقت خطاباً صادرا عن غرفة التجارة بمارسيليا، بتاريخ ٢٣ من أغسطس ١٨١١، حيث ثبت فى هذا التاريخ أنهم تزودوا برخصة تأمين على تجارتهم، والمحددة بقرار صادر فى ٤ ميسيدور لسنة١١،[1] وأعلنوا رسميا بأنهم

(١) المقصود بشهر ميسيدور Messidor : الشهر العاشر من التقويم الثورى الجمهورى والمعادل (١٩/٢٠ يونيو إلى ١٩/٢٠ يوليو) لسنة ١١ (المعادلة لسنة ١٨٠٢. (المترجم)

يرغبون فى الإفادة من المزايا التى تحفظها لهم المادة رقم ١٧ من معاهدة السلام المبرمة فى باريس فى ٣٠ من مايو لسنة ١٨١٤، وأنهم على استعداد لتقديم كل الإجراءات الرسمية وفقًا لما تنص عليه القوانين التى تلزم الأجانب الذين يريدون الاستمرار فى التمتع بنفس الحقوق والامتيازات التى للرعايا الفرنسيين. وفى إطار هذا التبرير المقنع سيكون من المفيد للأمة الفرنسية ولتجارتها أن تطبع علاقتها مع هؤلاء التجار الذين يملكون رءوس أموال كبيرة ويتمتعون بسمعة طيبة، وعليه فقد سمحت لنفسى أن أرفع إلى معاليكم التماسات ورجاء السادة فوا ولوريا وتيلكا بشأن مصير أوضاعهم راجيًا من سيادتكم التفضل بإبداء الرأى والحكم فى أمرهم .

ويشرفنى أن أكون... إلخ.

دروفتى

١٤٦- دروفتى إلى الوزير

موجز – انتصار جديد لمحمد على على الوهابيين

الإسكندرية، فى ٢٨ من فبراير ١٨١٥

(سُجِّلت فى ١٦ من أغسطس)

السيد المحترم،

على مدار الشهور الماضية لم يصلنا سوى شائعات غامضة حول ما يجرى من أحداث فى الحجاز، وأخيراً تلقينا نشرة رسمية تفيد بانتصار العثمانيين على الوهابيين. ونقل إلىَّ محمد على باشا بنفسه تفاصيل هذا الانتصار، ويسرنى أن أنقل إلى معاليكم نسخة من الخطاب الذى كتبه إلىَّ فى هذا الموضوع بتاريخ ١٩ من يناير.

ويشرفنى أن أكون ... إلخ.

دروفتى

١٤٧ - ترجمة تقرير تركى ، كتبه محمد على نفسه [إلى دروفتى] حول انتصار العثمانيين على الوهابيين

موجز - محمد على يحكى بنفسه إلى دروفتى أخبار الانتصار الكبير الذى أحرزه على الوهابيين فى تربه - محمد على يعلن عن عودته الوشيكة.

حضرة الشهير صاحب الفطنة والصديق المخلص بمقتضى إرادتنا عقدنا العزم على المضى، فى هذا العام السعيد، على ناحية "طربة"[١] المكان الذى شهد قطع دابر العصاة ، وكنا ننتظر وصول الجزء الأكبر من سلاح فرساننا إلى مكة، وبعد أن قمنا بحشد كميات كبيرة من المؤن بمعسكرنا فى "الكلاخ"[٢] انطلقنا مع كل الخيَّالة، وما إن وصلنا إلى المكان المذكور، حتى علمنا أن فيصل بن سعود وابن شعبان Ibn seqbân وابن رحمان Ibn Rehmân وابن قطان Ibn Khattân يعملون على حشد كل العصاة فى ناحية " تربه " حتى بلغت قوتهم جميعًا (قادةً كباراً وصغاراً وآخرين من القادة المتميزين العصاة) قرابة ٤٠ ألف رجل. ومعهم مدفع واحد فقط، وكانوا معسكرين فى مكان يقع على مسافة ١٢ ميلاً من "الكلاخ". وتقدمنا إليهم فى صبيحة اليوم التالى على مسافة ثلاثة فراسخ. وكنا قد أرسلنا كبير المرشدين العاملين معنا إلى جانب بعض الخيالة البدو لكى يحددوا لنا معسكر الأعداء، وليؤكدوا لنا أنهم لم يغادروا ذلك المكان بعد. وهاجمت فرقة من سلاح الفرسان أولئك الأعداء المتحصنين خلف الصخور العالية الواقعة على سهل مجاور للجبال، وهناك تمكنا من قطع رأس عشرين رجلاً منهم، وبعد الظهيرة قامت قوة الخيالة نفسها بهجومين، حصدت فيهما ما يقرب من ١٦٠ رأساً مقطوعة.

---

(١) طربة : قرية من قرى العلا بمنطقة إمارة المدينة . (المترجم)

(٢) الكلاخ وتكتب أحياناً " الكلاه " : ناحية بين الطائف وتربه. (المترجم)

وأثناء الليل استعد سلاح المشاة المزود بثلاثة مدافع، وعند انبثاق فجر هذا اليوم، قام سلاح المشاه بشن هجوم شامل على هؤلاء الخوارج من جانب الجبل، كما قام سلاحا الخيَّالة والمدفعية بهجوم آخر على منطقة السهل (أسفل الجبال)، ولم يبد الأعداء أى مقاومة لهذا الهجوم الباسل. لقد كانت جيوشنا أشبه بالسيول المنهمرة، إذ أمكنها بلوغ معسكر الأعداء سريعاً، وأوقعت فيهم مذبحة كبيرة. ولم يتمكن المنهزمون من إنقاذ شيء من أمتعتهم، وطلبوا الفرار كالجراد نحو جبال الحجاز التى تبعثروا فيها . وسارعت خيالتنا إلى مطاردتهم على مدار ساعة ونصف الساعة، بيد أنها لم تلحق بهم كما كان مأمولنا ، وذلك بسبب وعورة الجبال، فعادت دونهم. وغنمنا منهم ٥٠٠ خيمة و ٥٠٠٠ جمل وحصان، وكل أمتعتهم التى سقطت جميعها بين يدى قوة جيشنا المسلم. ولما عدنا من ساحة المعركة، وفرغنا من إعداد كل شيء ضرورى لمواصلة السير خلف هؤلاء الخوارج، أرسلنا أولاً إلى سلاح الفرسان والجمَّالة، ثم إلى سعادة حسن باشا ليخرج فى مطاردتهم بكل الجيش، فى يوم ٥ من الشهر الحالى، شهر صفر الخير، فى اليوم الموافق ليوم الثلاثاء. وأرسلنا قوة فرقة حسن باشا إلى "طربة" التى لم يقتل فيها معظم أولئك الذين كانوا قد فروا من قبل إلى الجبال فحسب، وإنما كذلك أرسل إلينا القبيلة كاملة. وما إن رتبنا الأوضاع فى هذه البلاد حتى مضينا إلى بيشة[1] Piché وبلدان أخرى تقع على مسيرة خمسة أيام من هنا على الحدود المتاخمة للعصاة الخوارج.

وقد كتبنا هذه الرسالة لإحاطتك علماً بهذه الأخبار، وحين تصلك الرسالة، نرجو أن لا تنسنا فى الدعاء فى صلواتك.

فى ٥ من شهر صفر من سنة ١٢٣٠ من الهجرة[2]

---

(١) بيشة : مدينة فى منطقة العسير تعد مفتاح غزو اليمن من جهة الشمال الشرقى . (راجع عبد الرحيم عبد الرحمن: المصدر السابق، ج ٢٠٧). (المترجم)

(٢) الموافق ٢٧ يناير ١٨١٥م. (المترجم)

" صديقنا الرفيق، نريد أن نعلمك بأننا عقدنا العزم على العودة إلى مصر، وذلك بعد التحقق بإحلال السلام فى ربوع هذه البقاع .

وقام الموقع أدناه، السكرتير المترجم للغات الشرقية بوزارة الشئون الخارجية، بترجمة هذا النص التركى .

باريس فى ٢٣ من أغسطس ١٨١٥.

كيفر Kieffer

المؤلف فى سطور

إدوارد دريو:

مؤرخ فرنسى بارز، تخصص فى التأريخ لعصر نابليون، نشرت له العديد من الدراسات عن سياسات نابليون وعلاقاته بالقوى الأوروبية؛ وتولى رئاسة تحرير مجلة علمية متخصصة فى الدراسات النابليونية.

المترجم فى سطور

د . ناصر أحمد إبراهيم

أستاذ مساعد التاريخ الحديث والمعاصر بكلية الآداب – جامعة القاهرة ، وعضو مجلس الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

له العديد من المؤلفات منها : " الأزمات الإجتماعية فى مصر فى القرن السابع عشر الميلادى " ، عن دار الآفاق العربية (١٩٩٨) و"الفرنسيون فى صعيد مصر فى عهد الحملة الفرنسية ١٧٩٨ – ١٨٠١"، (المواجهة المالية) ، عن دار الكتب والوثائق، سلسلة مصر النهضة ٢٠٠٥ .

وحرر الدكتور ناصر إبراهيم العديد من الكتب الخاصة بالحقبة العثمانية ، وذلك من خلال نشاطه بالسميتار العثمانى بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ونذكر منها : "العدالة بين الشريعة والواقع فى مصر العثمانية" و"الطوائف المهنية والاجتماعية فى مصر فى العصر العثمانى" و"الرفض والاحتجاج فى المجتمع المصرى فى العصر العثمانى " ، و"الفرد والمجتمع فى مصر العثمانية " وآخر ما حرره كتاب " مائتا عام على الحملة الفرنسية " رؤية مصرية" الصادر عن الدار العربية للكتاب فى شهر يناير ٢٠٠٨، وإلى جانب ذلك له ترجمة كتاب : " أندريه ريمون " التجار والحرفيون فى القاهرة فى القرن الثامن عشر " الصادر ضمن الكتب المترجمة الصادرة عن المشروع القومى للترجمة، وللدكتور ناصر إسهامات عديدة فى مجال تحقيق المصادر التاريخية فى عصر محمد على باشا ، وله مساهمات أخرى فى المؤتمرات الدولية بفرنسا وألمانيا .

المراجع فى سطور :

رؤوف عباس حامد :

- أستاذ التاريخ الحديث بكلية الآداب جامعة القاهرة.

- له مؤلفات عديدة فى تاريخ مصر الحديث والمعاصر .

التصحيح اللغوى : رجب الصـاوى .

الإشراف الفنى : حسـن كـامـل .



يعد هذا الكتاب من بين المصادر المهمة لتاريخ مصر الحديث فى السنوات العشر الأولى من حكم محمد على باشا (1805- 1848)، طال غيابه عن المكتبة العربية، رغم أنه طبع فى القاهرة عام 1925م، وصدر عن الجمعية المصرية الجغرافية فى إطار جهود الملك فؤاد لإلقاء الضوء على تاريخ الأسرة العلوية، وتقديمها إلى الرأى العام الغربى والأوساط العلمية الغربية فى ثوب قشيب.

يضم هذا الكتاب مجموعة منتقاة من تقارير قناصل فرنسا فى القاهرة والإسكندرية فى الفترة(1807-1814)، وهو عصر صعود نابليون وتربعه على عرش الإمبراطورية، الذى كان حافلاً بالحروب والصراعات على الساحة الأوروبية، والمنافسات الفرنسية البريطانية فى حوض البحر المتوسط. من هنا جاء العنوان الذى اختاره صاحب الكتاب موحيًا بالربط بين صعود نابليون وصعود محمد على، بل اعتبر فى الدراسة التى صدر بها الكتاب أن محمد على إنما استهدى بمشروع نابليون بونابرت فى مصر، واتخذه دليلاً له للعمل. فإذا تصفح القارئ مجموعة التقارير المنشورة فى الكتاب، لا يستعصى عليه إدراك أن البون كان شاسعًا بين الرجلين من حيث المصالح والسياسات وأن صاحب الكتاب بمحاولة جمعه بين محمد على ونابليون بالعنوان، إنما أراد إضفاء قدر من الجلال إلى دور محمد على إرضاء لصاحب مشروع تسجيل تاريخه، أى إرضاء (وربما تملقًا) للملك الذى كان يغدق على أولئك المؤرخين الأجانب الكبار الذين حشد لخدمة مشروع التأريخ للأسرة، وتولى رعاية المشروع كله.

تصميم الغلاف: نسرين كشك